نعوم تشومسكي

مَنْ يمتلك العالم

ترجمة وإعداد: أسعد الحسين



دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

مَنْ يَمتَلِكُ العالمَ ؟

اسم الكتـــاب: **مَنْ يمتلكُ العالمَ ؟**
اسم الكـــاتب: **نعوم تشومسكي**
إعداد وترجمــة: **أسعد الحسين**
عدد الصفحات: **440**
القيـــــــاس: **14.5 ❖ 21.5**
1000 / 2014 م -1435 هـ

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سوريـــة ـ دمشق ـ ص.ب **4650**
تلفـاكس: **+963 11 2314511**
هاتـــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والإخراج والطباعة
القسم الفني ـ دار نينوى

نعوم تشومسكي

مَنْ يَمتَلكُ العالمَ ؟

إعداد وترجمة: أسعد الحسين

نينوى - ٢٠١٤

الفهرس

القسم الأول
مُحاضرات ومُقابلات

الولايات المتحدة تُراهن على ديكتاتوريات مستقرَّة وليس على ديمقراطيات حقيقية

مقابلة يجريها بريس تيفي مع نعوم تشومسكي. ٢٤ فبراير/شباط ٢٠١١
المصدر زدت نت - الثلاثاء ١ آذار ٢٠١١

بريس تيفي: بروفسورِ تشومسكي، أود أن أسألك عن رد فعلك حول التصريحات الحالية لإدارة أوباما والأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون أيضاً التي رأت أن الخسائر في الأرواح في ليبيا مرتفعة جداً. هل تعتقد أنهما قاما بما يُلبي حاجات الشعب الليبي؟

نعوم تشومسكي: أعتقد أنه كان بالإمكان القيام بأكثر من ذلك، ما يحدث مُرعِبٌ جداً ويمكن أن يؤدي إلى حمّامِ دمٍ كبيرٍ حقاً. إن المعلومات متناثرة في المنطقة الشرقية لكن على الأقل تبدو فعلياً تحت سيطرة الثورة الشعبية، أما وضع طرابلس فيبدو خطراً. يمكن تقديم المساعدة والحماية في اعتقادي للأقسام السكانية التي نجحت في تحرير أجزاء من ليبيا. لا أحد يريد التدخل الغربي الذي قد لا يكون خطأً فقط، بل كارثيٌ أيضاً، لكن يمكن العمل من خلال الأمم المتحدة.

بريس تيفي: حين حدثت الثورة المصرية، أنت وآخرون من الأكاديميين الأمريكيين كتبتم رسالةً مفتوحةً للرئيس أوباما تحثونه فيها على الاهتمام بإرادة الشعب. هل هناك حركة مُماثلة في الولايات المتحدة بخصوص ليبيا الآن؟

نعوم تشومسكي: كانت هناك تصريحات قوية صادرة عن المصادر ذاتها، مثل حملة السلام والديمقراطية في نيويورك التي أعتقد أنها كانت الأولى التي بادرت بالبيان المتعلق بمصر، وخرجتْ ببيانٍ قويٍ أيضاً حول

هذا . تختلف مصر بشكل ما عن ليبيا فأنت تذكر أن الولايات المتحدة واصلت دعمها لديكتاتورية مبارك، لذلك كانت الدعوة لإسقاط ذلك الموقف، وتقديم دعم كلامي على الأقل للثورة الشعبية. أما ليبيا فهي قصة مختلفة.

بريس تيفي: إن ليبيا دولةٌ مهمةٌ وخصوصاً حين يتعلق الأمر بعامل البترول المهم جداً للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي أيضاً الذي يحصل على كمية كبيرة من نفطه من ليبيا . كيف سيكون الدور الذي سيلعبه البترول في هذا، وهو الذي تتزايد أسعاره باستمرار مع المخاوف الكثيرة في استمرار هذا الاضطراب، ماذا سيحدث في تلك الحلبة؟

نعوم تشومسكي: هناك سبب للقلق من الثورة الديمقراطية في العالم العربي أكبر وأشد من الصحراء الإفريقية، فهنا تكمن موارد الطاقة العالمية، وهذا سبب وجيه يدفع الولايات المتحدة وحلفاءها لوضع العوائق لمنع أي ديمقراطية فاعلة من التطور في العالم العربي. لنرى السبب، يكفي أن ننظر إلى الدراسات التي أُجريت على الرأي العام العربي، المعروفة كلها، فقد جاءت عن مصادر ذات سمعة عالمية، لم تنشر هذه الدراسات، لكنها معروفة لصناع القرار بالتأكيد . لهذا مثلاً، الولايات المتحدة تُنادي بالديمقراطية في إيران مثلما طالبت بالديمقراطية في دول أوروبا الشرقية التي تعدُ عدوةً، لكنهم يعرفون أن الشعب العربي لا يقبل بذلك؛ إن الخطر الرئيس للأغلبية الساحقة من الشعب العربي هما الولايات المتحدة وإسرائيل، أما إيران فلا تمثل خطراً إلا لأقلية صغيرة، والأرقامُ في مصر في الحقيقة أكثر حدّة من البلدان الأخرى.

بريس تيفي: حين تشير إلى الديمقراطية في المنطقة وقضايا الولايات المتحدة معها، يُفترض بالتأكيد أن أحداً ما في الإدارة أو أحد المسؤولين في الاتحاد الأوروبي أيضاً يَفهمُ بأن الشعب في العالم العربي يُدرِك ما يجري، ألا تكون لهذا نتائج عكسية في وقت ما؟

نعوم تشومسكي: لقد اتفق قادة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي مع رجال الدين الحاكمين في إيران على أن الديمقراطية خطرة ولا تُطاق. هم يعرفون ما يفكّر به الشعب، وكانوا يعرفون دائماً، لهذا يمكنك العودة إلى خمسين سنة فائتة إلى إدارة دوايت دي إيزنهاور. كان إيزنهاور قلقاً حول ما سماه «حملة كره» ضدنا في العالم العربي، ليست بين الحكومات وإنما عند الشعوب، وكان هناك تحليل بالوقت نفسه لإدارة مجلس الأمن القومي، أعلى هيئة تخطيطية، التي قالت: إن هناك حملة من الكره سببها وجود إدراك ملموس بأن الولايات المتحدة تدعم الديكتاتوريات، وتقف عائقاً أمام الديمقراطية والتنمية. لكن النقطة الأساسية التي تتعلق بهذه الثورة المميَّزة والمذهلة، النقطة الأساسية التي عبَّر عنها مسؤول أردني كبير يرأس بحوث الشرق الأوسط لوقف كارنيجي الذي قال: إن المبدأ: مادام الناسُ هادئين فإن كلَّ شيء رائعٌ، وإنْ أصبح التوقف تاماً، يجب القيام بشيء ما لإعادة فرض السيطرة. ذلك هو المبدأ الأساس في الحكم.

بريس تيفي: هناك حديث كثير عن السبب الذي أشعل شرارة حركة الثورات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. كثيرٌ من الناس يسألون لماذا الآن بالضبط، هل السببُ ما عانته وتعانيه كل هذه الجماهير في ظل هذه الديكتاتوريات منذ سنين طويلة؟

نعوم تشومسكي: أولاً وقبل كل شيء إنها ليست وليدة اللحظة فقط. خُذْ مصرَ مثلاً. كان هناك صراعٌ عماليٌ مهمٌ يحتدم منذ سنوات. وكانت الشرارات المباشرة لحركة ٢٥ يناير جماعة ٦ أبريل المؤلَّفة من ناشطين شباب يُتقنون الميديا، اختاروا اسمهم من إضراب رئيس حدث عام ٢٠٠٨ افتُرض به أن يحدث في ٦ أبريل، لكن الحكومة سحقته وهو واحدٌ من سلسلة من الصراعات العمالية الدائرة منذ سنين، وفي الواقع تقوت حركة ٢٥ يناير كثيراً بعد أن انضمَّت حركة العمل المصرية إلى

الثورة بعد بضعة أيام، لهذا كانت هناك أرضية. هذا ليس في مصر فقط، وإنما الوضعُ مماثلٌ في أماكن أخرى؛ كانت الأشياء تغلي منذ زمن طويل، وأخذت الشرارة التي أشعلت الحريق الذي دفعها للأمام.

بريس تيفي: لقد قال آخرون كهنري كيسنجر مثلاً: إن الولايات المتحدة ستضطر إلى الاختيار بين الديمقراطية والاستقرار في المنطقة. حين بدأت الثورة المصرية، أبدت إسرائيل استياءها من أن تكون هناك ديمقراطية عند عَتَبة بابها في دول الخليج العربي وشمال أفريقيا أيضاً. لماذا تجد الولايات المتحدة صعوبة في قبول إمكانية أن تكون هناك ديمقراطية واستقرار في المنطقة معاً وبالوقت ذاته؟

نعوم تشومسكي: يجب أن نتذكر بأن الاستقرار كلمة مشفَّرة باردة. الاستقرار لا يعني الاستقرار، وإنما الانصياعُ لهيمنة الولايات المتحدة. لهذا دعنا نَعُدْ إلى كيسنجر ثانية الذي كان العامل الرئيس (إضافة إلى غيره) في تقويض نظام الحكم الديمقراطي في تشيلي، وعلَّق أخيراً «يجب على الولايات المتحدة أن تُقَلقِلَ استقرار تشيلي لكي توطِّد الاستقرار». إن أدركت المصطلح فهذا ليس تناقضاً، وإنما يعني أن على الولايات المتحدة أن تقوِّض من خلال مبادرة كيسنجر الحكومة البرلمانية لكي تؤسِّس ديكتاتورية مُنصاعة، وهذا ما يقصده بالاستقرار. هو لايقصد أن تكون الأشياء هادئةً وصريحةً، وإنما أن تكون تحت السيطرة. لذلك الاستقرارُ لا ينسجم مع الديمقراطية للأسباب التي ذكرتُها آنفاً. انظر إلى دراسات الرأي العام فقط.

بريس تيفي: اتفق كثير من المسؤولين الأمريكيين مرات كثيرة وخصوصاً أثناء الثورة المصرية، أن ما يحدث في تلك البلاد هو شأن شعبها. نحن نعرف طبعاً، وكان ذلك واضحاً جداً، أن المسؤولين في الإدارة الأمريكية متورطون جداً فيما كان يجري خلف الستارة في تلك البلاد. أما في ليبيا فالصلة أقل وضوحاً بين الإدارة والقذافي. هل تعتقد

بوجود قنوات خلفية تُستعمل أم إن الولايات المتحدة لن تتورَّط حقيقة فيما يحدث في ليبيا الآن؟

نعوم تشومسكي: أنا متأكِّد أن الولايات المتحدة متورِّطة إلى الدرجة التي تستطيعها، لكن تَذَكَّرْ بأنها لا تدعم نظام القذافي. في عام ١٩٨٠ مثلاً اعتبرت إدارة رونالد ريغان ليبيا كيسَ ملاكمة؛ كل أعمال القصف والاستفزاز كانت بلا ذريعة. هم لا يحبون نظام القذافي. إنه ليس ما يسمى «المستقر» و«المطيع». لهذا مهما كان ما تفعله قليلاً، فإنه لدعم الثورة كما أعتقد. كما لا أعتقد أن لها مصالح كبيرة في ليبيا، لكن يجب أن أقول بأن التقارير القادمة من الأرض في ليبيا التي نحصل عليها تفيد بأن الشعب يتعرَّض لهجوم مروحيات الأباتشي والشينوك والطائرات المقاتلة النفاثة التي استُوردت من الولايات المتحدة.

بريس تيفي: بالعودة إلى مصر باعتبارها واحدةً من أكبر الثورات التي حدثت في العصور الحديثة. لا يزال كثير من الناس في مصر يحتفلون في تنحي مبارك حتى الآن، لكنْ ظلَّ الكثير الذي يجب إنجازه باعتبار أن عمر سليمان لا يزال حاكماً جزئياً، وهو الرجل المعروف بدكتور تعذيب في العَالَم العربي: لقد أيَّد برامج الترجمة؛ وهناك أشخاص في معتقل غوانتانامو قالوا بأنه عذَّبهم بنفسه شخصياً. إقحام الولايات المتحدة لمثل هؤلاء الأشخاص إلى الواجهة، على الرغم من أنهم لم يتكلموا ضده بعد، ألا ترى، بما أن أوباما قال بأنه يريد تحسين صورة الولايات المتحدة، فهذا لن يفيد لذلك الغرض؟

نعوم تشومسكي: في البداية أيَّدت الولايات المتحدة عمر سليمان لكنْ بهدوء كما قلتُ. في الحقيقة، مكانته ليست واضحة: يبدو أنه اختفى. لكن أوباما تكلَّم عن تأييد مبارك في رحلته الشهيرة إلى القاهرة. في ٢٠٠٩ في مؤتمر صحفي وهو في طريقه، سُئل إن كان سيقول أيَّ شيء عن الطابع الاستبدادي لنظام مبارك، قال: كلا مبارك

رجل صالح، ويقوم بأعمال خيّرة، هو يصون الاستقرار وأنا لن أنتقده. وخرج توني بلير بتصريح قوي إثر الثورة الراهنة أيَّد فيها مبارك، وكم كان رائعاً. طبعاً هم يدركون كما أدرك إيزنهاور قبل خمسين سنة بأن هناك حملة من الكره، وأنهم لن يكسبوا الشعب بتأييد حكامه الديكتاتوريين لكن كما أوضح كيسنجر أن الهدف المسيطر هو ما يسمونه الاستقرار والحفاظ على السيطرة.

بريس تيفي: كانت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي يُصدران التقارير عن حقوق الإنسان منذ سنوات كثيرة، وكانت ليبيا ومصر طبعاً جزءاً من تلك التقارير، وهما يعرفان جيداً القضايا التي تحيط بهذين النظامين الديكتاتوريتين. لكن لم يفعل الأمريكيون والأوروبيون أو يقولوا شيئاً وما يحدث الآن، من الواضح أنهم توقعوا حدوثه في وقت ما. لماذا كان ردُهم مشوَّشاً بمعنى أن إدارة الولايات المتحدة كانت تقول شيئاً اليوم وشيئاً آخرَ في اليوم التالي؟

نعوم تشومسكي: أنا لا أعتبره مشوَّشاً، تَذكَّر أن هذا شيء يحدث كثيراً جداً وكثيراً جداً، حين يصبح من المستحيل تأييد ديكتاتورك المحبَّب. هناك سلسلة كاملة من مثل هذه الحالات في العالم: الفيليبين وهاييتي وكوريا الجنوبية وإندونيسيا .... وهناك مقياس للعبة: (ادعمهم مادام ذلك ممكناً). حين يصبح ذلك غير ممكن، ربما يحين دور الجيش للانقلاب ضدهم أو طردهم إلى منتَجع، ونسيان أمرهم، أصدر بياناً رناناً بيِّن فيه كيف أننا كنا دائماً إلى جانب الشعوب ونحبُّ الديمقراطية، ثم حاول أن تستردَّ أكثر ما يمكنك من النظام القديم، لكنَّ هذه السياسات واضحةٌ تماماً، ليس من جانب أمريكا فقط، وإنما الاتحاد الأوروبي أيضاً، خُذْ تونس مثلاً وأفريقيا الغربية معاً؛ فهما نفوذ فرنسا الرئيس. في الواقع هناك سلسلة من الثورات كما ذَكرتُ، وكان الكثير منها مستمراً منذ سنين كثيرة، وجرى قمعها، لكنَّ السلسلة

الحالية بدأت فعلياً في الصحراء الغربية في تشرين الثاني في تلك المنطقة التي احتلها المغرب منذ ثلاثين سنة، وسحقتها بقسوة شديدة. نظرياً، هي تحت ظل الأمم المتحدة التي التزمت بنقلها إلى الخلاص من الاستعمار؛ كانت مستعمَرةً إسبانيةً وفي نوفمبر كان هناك احتجاج مهم دخلت القوات المغربية وأخمدَتْهُ، والمعيب أن الأمم المتحدة قررت أخيراً أن تجري تحقيقاً، لكنّ فرنسا سحقته، فهي تريد أن تحمي حليفتها المغرب، ولا تريد تحقيقاً في جرائمها. صدف أن تكون الولايات المتحدة من بين تلك الدول الجبّارة لكن هذه هي الطريقة التي تتصرّف بها الدول. في الحقيقة الشيء نفسه في إيران؛ تلك هي الطريقة التي تتصرّف بها الدولة.

بريس تيفي: صحيح، إذاً ما رأيك بروفسور عن حقيقة ما انتقده مدير المخابرات القومية جيمس كلابر بأن مخابرات الولايات المتحدة لم ترَ علامات تُنذر بالهياج في مصر؟ هل ذلك مجرد خداع للشعب برأيك، وأن الولايات المتحدة كانت تعرف بما يحدث وراء الستارة، أم إنه حقيقي؟

نعوم تشومسكي: أظن أنه حقيقي، لديهم إحساس بما كان يحدث بالتأكيد لكنهم لم يتوقعوا أي ثورة من هذا الشكل، وهم عرفوا بالتأكيد بمظاهرات العمال والاضطهاد إلخ. في حالة تونس، النموذجية في المنطقة. بعض المقالات التي أظهرت نوعاً من الإرباك عند قراءتها الآن. لكنهم عرفوا حقيقةً واحدةً من وثائق ويكليكس كانت سلسلة من البرقيات التي أرسلها السفير الأمريكي في تونس قال بشكل مباشر وصريح: انظروا هذا فساد رجال الأمن، ليست هناك حرية تعبير أو تجمع، الشعبُ غاضبٌ جداً من العائلة الحاكمة. لهذا هم عرفوا لكنْ..... المبدأ يسود.

بريس تيفي: دعني أعد إلى مصر للحظة. باعتبار أن الثورة لم تنجح بعد في إنجاز كل مطالب الشعب الذي قام بها، هل تعتقد أن الثورة ستنجح إن كان الشعب هو من تخيّلها، وما تأثيرها في شمال أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط برأيك؟

نعوم تشومسكي: حسناً، مصر دولة مهمّة. أقصد لها تاريخٌ طويلٌ مشوِّقٌ، لكنْ إن كان لدينا الوقت للتحدث عنها ففي بداية القرن التاسع عشر، استعدّت مصر لثورة صناعية - لو تمت - لكان وضعها لا يختلف كثيراً عن الولايات المتحدة في الزمن نفسه، لكنَّ الولايات المتحدة تحرَّرت لتفعل ما تريده بينما ظلّت مصر تحت سيطرة إنكلترا التي لم تسمح بذلك، واستمرت القصة حتى الوقت الحاضر.

أعتقد أن الولايات المتحدة وحلفاءها الأوروبيين سيفعلون كل ما بوسعهم لمنع الازدهار الكامل للديمقراطية في مصر للسبب الذي ذكرت بالضبط. فالولايات المتحدة تعدُّ العدو الرئيس في مصر من دون غيرها من العالم العربي ولايتفق المصريون مع السياسية الأمريكية تجاه إيران؛ ويعارضونها بقوة في أغلب القضايا في الواقع. إضافة إلى ذلك، هناك عرفٌ وحيدٌ أثناء فترة القومية العلمانية في مصر عارضتْهُ الولايات المتحدة وبريطانيا كثيراً كما تَعرفُ، وهو الخطر بأن تقوم مصر بمحاولة استخدام موارد الطاقة في المنطقة لمصلحة شعوب المنطقة، وليس من أجل المستثمرين الغربيين والقوى الغربية ونخبتنا الحاكمة. وذلك تهديدٌ حقيقيٌ. هذا هو السبب - كما أعتقد - الذي يجعل الولايات المتحدة وبريطانيا تدعمان الأصولية الإسلامية، وبالدرجة الأولى السعودية، ضد القومية العلمانية. فهذا يوفِّر لهما الاستقرار.

بريس تيفي: قال عمر سليمان أثناء الاضطراب والانتفاضة والثورة في مصر: إن العالم العربي أساساً وشعوبه ليسوا جاهزين بعد

للديمقراطية. هل تتفق مع هذا الرأي، أم هو أساساً كما قلت يعكس مخاوف الولايات المتحدة في المنطقة؟

نعوم تشومسكي: حسناً، أعتقد أن التعبير الأكثر دقة هو أن عناصر النُخبة في الغرب وفي مصر (النظام القديم) وإيران وفي كل مكان آخر ليست مستعدَّة للديمقراطية. هذه هي المشكلة التي تواجهها النُخبة.

بريس تيفي: برفسور، أود أن أسألك سؤالاً تجيب عنه بنعم أو لا. هل تعتقد بوجود فرصة نجاح ضمن الثورات الراهنة في الشرق الأوسط وشمال افريقية؟

تشومسكي: كما تعرف إن النجاح ليست قضية نعم أم لا. يمكن أن يكون هناك نجاحٌ جزئيٌ وفشلٌ جزئيٌ لكنَّ الفشلَ الجزئيَّ يمكن أن يُخَلِّفَ إرثاً يكون أساساً لنجاحٍ قادمٍ. سيكون هناك أثرٌ رئيس في اعتقادي. هذه ثورات مذهلة حقيقةً لكن لانستطيع القول إلى أي مدى ستهزُّ عالمَ الهيمنة التقليدي.

مناقشة الدولة ومستقبل الديمقراطية

نعوم تشومسكي يقابله فيكاس شاه

٢٩ نيسان ٢٠١١

المصدر: ثوت ايكونيمكس

فيكاس شاه: بالنظر إلى المملكة المتحدة والولايات المتحدة وأوروبا، إلى أيٍّ درجة مجتمعاتُنا حرةٌ وديمقراطيةٌ؟

نعوم تشومسكي: هذه المجتمعات حرة تماماً بالمقاييس التاريخية. هي ديمقراطية بمعنى أن فيها انتخابات صوريةً مسروقةً الخ. لكنها غير ديمقراطية إلى درجة وجود قوى غير الإرادة الشعبية، تملك تأثيراً ساحقاً فيمن يقدر على المشاركة في النتائج الانتخابية. الولايات المتحدة هي الأكثر تطرّفاً من هذه الناحية، وحتى الآن تشترى فيها الانتخابات أساساً. إذ لا تستطيع خوض معركة انتخابية إن لم تكن تملك مقداراً ضخماً من المال الذي يأتي من الشركات الداعمة، ففي انتخابات عام ٢٠٠٨ الذي أوصل أوباما إلى خط النهاية هو المبلغ الهائل الذي قدَّمَته المؤسسات المالية التي هي جوهر الاقتصاد الآن. أما الانتخابات القادمة فيُفترض بها أن تكون انتخابات المليارى دولار، وليس هناك سوى مكان واحد لذلك النوع من النقود.

في العادة هناك منظومة من رؤساء اللجان في الكونغرس بفضل الأقدمية إلخ. قبل الآن، كان يُفترض بالتمويل أن يذهب إلى لجنة الحزب - أي إن القسم الأكبر منهم يُشترى أيضاً، وهذا يعني أن الرأي الشعبي مهمَّشٌ جداً ويتجلّى ذلك بوضوح في قضية تلو أخرى. لهذه القضية الضخمة الآن، محلياً، عجزُ الميزانية. والناس لديهم أفكار حول التخلص من العجز. مثلاً، أغلب العجز ناتج عن اختلال وظيفي حاد في نظام الرعاية الصحية الذي يكلِّف الضعف بالنسبة للشخص الواحد مقارنة

بالبلدان الأخرى وبنتائج أفضل بالتأكيد. لقد فضَّل السكان منذ زمن طويل الانتقال إلى نوعٍ من النظام القومي للرعاية الصحية - يكون أقلَّ تكلفة (وبالحكم من خلال النتائج) وليس أسوأ بل ربما أفضل. وبذلك سيستأصل العجز في الواقع! لكنه لم يؤخذ بالحسبان!

فيكاس شاه: ما الذي يحرك سياستَنا الخارجيةَ وكيف يؤثر ذلك فينا كمواطنين؟

نعوم تشومسكي: تميل السياسة الخارجية في المملكة المتحدة وأوروبا إلى اتباع الولايات المتحدة، بشكل غير تام - لكن تبقى الولايات المتحدة المحرِّك الأولي في السياسة الخارجية. ليس سراً ما يُحرِّك السياسة الخارجية. مثلاً، كان بيل كلينتون صريحاً وواضحاً في ذلك. موقفه الذي عَبَّر عنه صراحةً في الكونغرس هو أن للولايات المتحدة الحقَّ في تنفيذ أعمال عسكرية أحادية الجانب، مدعومة أحياناً بما سمي تحالف الراغبين - أصحاب الإرادة لصون الثروات والأسواق، ويجب أن تنشر قواتها العسكرية مُسبقاً - ما يعني القواعد الأجنبية في أوروبا وغيرها من الأماكن - لتوجِّه الأحداث لمصلحتنا. مصالحنا لا تعني الشعبَ الأمريكيَّ، بل مصالح هؤلاء الذين يصمِّمون السياسة - وبمقدمتهم القطاع المتَّحد - المشترك.

السياسةَ الخارجية يمكن أن تُنفَذ بطرق يُتوقَّع منها أن تضرَّ بالأمن. في الحقيقة، ذلك لا يكون غير مألوف أبداً. لو تابعتَ استجواب شيلكوت - رئيسة شهود إم فيفتين - التي لم تُبرِز ما كان معروفاً فقط بل أثبتت بأن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا تعرفان بأن صدام حسين لم يكن تهديداً، وأن الغزو قد يزيد من تهديد الإرهاب بل سبَّب ذلك في الحقيقة وتضاعف إلى سبعة أمثاله في السنة الأولى وفقاً لإحصائيات شبه حكومية. لهذا تم الشروع في غزوٍ يضرُّ بمواطني البلدان الغازية كما حصل حقيقة. أولاً طبعاً، قُدِّم السبب مع طبق الاختبار المعتاد، وهو

عرض توضيحي يرافق كلَّ استخدامٍ للقوة يستشهدُ بالديمقراطية وكل أنواع الأشياء الرائعة. حين بات واضحاً بأن غايات الحرب لن تُنجزَ بسهولة، في نهاية الغزو تقريباً، تم إعلان سياساتٍ محدَّدَة بوضوح. في تشرين الثاني ٢٠٠٧ نشرت إدارة بوش إعلان مبادئ أوضحت فيه أن على أيِّ حكومة عراقية أن تضمن القدرة غير المحدودة للقوات الأمريكية للعمل هناك - وأساساً قواعد عسكرية دائمة، ويكفُلُ الاتفاق أيضاً الامتيازات لمستثمري أنظمة الطاقة الأمريكيين، وكرَّر بوش وقواه هذا في عام ٢٠٠٨ مرة أخرى في رسالة إلى الكونغرس، حيث قال بأنه سيتجاهل كل تشريع يحدُّ من قدرة الولايات المتحدة في استعمال القوة في العراق، أو يتدخَّل في السيطرة الأمريكية على النفط العراقي. لقد تم الإفصاح عن ذلك بجلاء وصراحة. في الواقع أُجبرت الولايات المتحدة على التنازل عن هذا الهدف بفضل المقاومة العراقية؛ لكنَّ الأهدافَ بحدِّ ذاتها واضحةٌ ولا علاقةَ لها بأمن الأمريكيين. والمثل صحيح في أي مكان آخر، لذلك انتقد أحد الاختصاصيين البارزين في باكستان سياسات الولايات المتحدة في أفغانستان وباكستان، وكشف مرة أخرى عن أن هذه السياسات تزيد في الحقيقة بشكل مهم التهديدَ بالإرهاب وبالإرهاب النووي، واستنتج في ختام دراسته بأن الجنود الأمريكيين والبريطانيين يموتون في أفغانستان ليجعلوا العالم أقلَّ أماناً للأمريكيين والبريطانيين. هذا الأمرُ مألوفٌ. الأمن لم يكن من أولويات الولايات المتحدة عادة. هناك اهتمامات أخرى.

فيكاس شاه: إلى أي مدى تأثرت الميديا بأهداف الاتحاد - الشركة والحكومة؟

نعوم تشومسكي: هناك حالات حصل فيها تدخل مباشر من الحكومة والاتحاد/الشركة، لكني لا أعتقد أن تلك هي القضية الرئيسة المتعلقة بتأثير الشركة والحكومة في الميديا. استخدام الولايات المتحدة للميديا مثلاً، الميديا شركات رئيسة - لهذا ليست مسألة تأثير الاتحاد/

الشركة، إنها شركات مرتبطة جداً بالحكومة. هناك تدفق مستمر وثابت من الناس من قطاع الشركة/ الاتحاد إلى الحكومة، التداخل كبير جداً. بنية الانتقاء لما ينقل من أحداث وكيف سينقل الخ ترسمها وتوجهها المصالح المشتركة لقطاعات النخبة في عالم البزنس والحكومة وهلمَّ جراً. في الحقيقة الوضع مختلف جداً في الجامعات ويمكنك رؤيته يوماً بعد يوم. خذ منطقة الحظر الجوي في ليبيا. في ليبيا، التدخل - إن وافق المرء عليه أم لا نفَّذته القوى الإمبريالية التقليدية الثلاث، الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. هناك مشاركة هامشية لعدد من بلدان الناتو الأخرى لكنَّ البلدان الرئيسة ترفض التورط وكثيراً منها عارضه. فمثلاً عارضه دول البريكس (البرازيل والهند وتركيا ..) ولم ترغب تركيا بالتورط أيضاً وهلمَّ جراً. حسناً، ناقشت دعاية الثالوث الإمبريالي طلب الجامعة العربية بفرض حظر جوي بتمهل. البيان الذي كان فاتراً ومشروطاً لكنه نداء من أجل حظر جوي. وطالبت الجامعة العربية بالوقت نفسه بحظر جوي فوق غزة، لكنَّ هذا الخبر لم ينقل في الولايات المتحدة ماعدا مناقشته من بعض الصحف الصغيرة التي لم يكن من بينها صحف كبيرة مثل نيويورك تايمز أو واشنطن بوست وفي الواقع لم يظهر الخبر في كل الصحافة الانغلو - أمريكية إلا في فايننشال تايمز. ومن ثمّ منطقة حظر جوي فوق غزة.... لا تناسب أهداف الولايات المتحدة لذلك لم يكن خبراً. وبالوقت نفسه، منطقة الحظر الجوي فوق ليبيا ناسبت أهداف الثالوث الأمبريالي فكان خبراً رئيساً. هذا هو المقياس الذي يحدث في كل الأوقات.

أحد الأمثلة البارزة التي تخبرك شيئاً عن الثقافة الفكرية العامة التي وجب عليها التعامل مع ويكيليكس. الإفشاء الذي نال جل الانتباه في لغة العناوين والتعليق، وتأييد العرب للسياسة الأمريكية العدائية تجاه إيران. نُشِرَ ذلك في كل الصحف وكان مشوّقاً، لأنه كان يشير إلى

الديكتاتوريين العرب. ماذا عن الرأي الشعبي العربي؟ حسناً .... لقد دُرِسَ من أهم مؤسسات التصويت الأمريكية ونشرته مؤسسات ذات هيبة مثل بروكينغز. هذه الدراسات لم تُنقل في الولايات المتحدة، ولم يُنقل - إلا تقرير واحد في إنكلترا. هذه التقارير صنَّفت مصر بالدولة الأهم في المنطقة، وداخل مصر أكثر من تسعين بالمئة من السكان يعتبرون الولايات المتحدة أهم تهديد رئيس. بينما يعتقد ثمانون بالمئة أن المنطقة ستكون أكثر أماناً إن امتلكت إيران أسلحة نووية. على حين اعتبر عدد صغير، ربما عشرة في المئة، إيران تهديداً. تتشابه هذه الأرقام في كل المنطقة تقريباً. لكن، بالنسبة لصنَّاع السياسة ذلك لا يهم - مادام يؤيدنا الحكام المستبدون لا يهم أي شيء آخر. هذا يعيدنا إلى سؤالنا الأول المتعلق بالموقف من الديمقراطية. الموقف هو أن السكان لا يهمون، ماداموا تحت السيطرة؛ ويمكنك مشاهدة ذلك. بالمصادفة، إن السياسة الأمريكية تتجاهل الرأي العام العربي منذ زمن طويل. رجوعاً إلى خمسينيات القرن العشرين قلق الرئيس إيزنهاور مما سمي «حملة الكره» في العالم العربي؛ ليس من الحكام بل من الشعب. هذه قضية قديمة جداً. لو كان هناك نقل جدي لهذه القضايا، فلن ينقل الرأي العربي فقط. في السنة ذاتها نشر مجلس الأمن الدولي دراسة استنتجت وجود إدراك بين شعوب العالم العربي بأن الولايات المتحدة تؤيد الدكتاتوريات الوحشية والظالمة وتعوق الديمقراطية والتطور، ونحن نفعل هذا للمحافظة على سيطرتنا على موارد الطاقة وتابع الاستنتاج أن إدراك (أهداف السياسة الخارجية) صحيح ودقيق تقريباً، ومادام الحكام المستبدون يؤيدوننا فمن يهتم بحملة الكره؟ مادمنا نسيطر على السكان.... وبقي هذا الأمر سياسة ثابتة بشكل مثير جداً لهذا اليوم، وكما ترى من رد الفعل لهذه الإفشاءات والبيانات التي لم تنقل وتروَ - وأصبح ذلك موقفاً مقبولاً عموماً من القطاعات المثقَّفة.

فيكــاس شــاه: مــا الطبيعــة الحقيقيــة للمعلومــات الهدامــة بــرأي الحكومات ومؤسسات الاتحاد/ الشركة؟

نعــوم تشومــسكي: يجـب أن أقـول إنـه قبـل الآن كانـت هنـاك آلاف الصفحات من المعلومات الموثّقة عن هذا الموضـوع. مـن دون الخـروج عـن الموضوع كثيراً، دعنا ننظر إلى المواضيع التي ذكرناها للتو. هـل مـن المهـم لنا أن نعرف بأن غزو العراق اتخذ على الرغم من التوقع بأنه سيزيد الإرهاب؟ هل اتخذ بقصد ضمان أن يكون للشركات الأمريكية منفذ متميز إلى النفط العراقي؟ وهل سيكون العراق قاعدة عسكرية أمريكية دائمة؟ أعتقد أنه من المهم للشعب أن يعرف ذلك. أعتقد أنه من المهم للشعب أن يعرف الآن أن الرأي العام العربي معاد جداً للسلطة الغربية (وخصوصاً الولايات المتحدة) - وإنه يُعدُّ الولايات المتحدة تهديداً أولياً، ويعتقد أن المنطقة ستكون أفضل إن صَنعت إيران أسلحة نووية. أليس من المهم للشعب في الولايات المتحدة وبريطانيا أن يعرف ذلك؟ أعتقد هذا! يمكننا الاستمرار في قضية بعد أخرى. من المهم للأمريكيين مثلاً أن يعرفوا أننا لو حصلنا على نظام للرعاية الصحية مماثل للمجتمعات الصناعية الأخرى سوف يُزَالُ العجز، ولن نُجبَر على الركض وراء المعاش التقاعدي ومدفوعات الرعاية الطبية (ميديكير) للمسنين وهلمَّ جراً. نعم، أعتقد أن معرفة ذلك مهمة. وفي الواقع يجب أن تكون ذلك عناوين مدوية! كل هذه المعلومات يمكن اكتشافها إن قمت بمشروع بحث - لكنها لا تدخل عين الشعب.

فيكاس شاه: ما التأثير الذي تمارسه الشركات الكبيرة في المجتمع؟

نعوم تشومسكي: تلعب الشركات دوراً مهيمناً في المجتمع. لا أعتقد أن الواقع مثير للنزاع. سُجّلتْ ملاحظات مماثلة منذ (آدم سميث) الذي أشار إلى أن مهندسي السياسة الرئيسين في بريطانيا هم التجار وأصحاب المصانع، الأشخاص الذين يملكون المجتمع - ويضمنون أن

مصالحهم تُخْدَمُ مهما كان التأثير مرهقاً على شعب إنكلترا. هذا أكثر من صحيح اليوم، مع تركيز أشد للسلطة - نحن لسنا مصنِّعين فقط، لدينا المؤسسات المالية والشركات المتعددة القومية. لديها تأثير هائل، والتأثير لا يمكن أن يكون مؤلماً فقط بل في حالات كثيرة مميت أيضاً.

لنأخذ الولايات المتحدة كمثال - قطاع الشركة/ الاتحاد ينفِّذ حملات دعائية لإقناع السكان بعدم وجود تهديد من التسخن الكوكبي. هذا أدى بأغلبية الناس الآن بالتسليم بأنه ليس قضية حقيقية. تمويل رجال الأعمال هو الأداة الأولية في جلب مجموعات جديدة من الكوادر إلى الكونغرس - شخصيات هي في الحقيقة تنكر التغيير المناخي. هؤلاء الأفراد على وشك سن تشريعات لتقليص التمويل من أجل المنظمة العالمية (آي بي سي سي) ومقدرة وكالة الحماية البيئية التي ربما تعجز عن مراقبة تأثير الغازات الدفيئة أو القيام بأي أعمال أخرى قد تقلل من تأثير التسخن الكوكبي الذي يمثل تهديداً خطراً! هذا ما قام به المديرون التنفيذيون للشركة/الاتحاد الذين نفذوا هذه الحملات الدعائية وموَّلوا الشخصيات السياسية التي قلصت مثل هذه المساعي. هم يدركون مثل الآخرين أن التسخن الكوكبي تهديد خطر جداً، لكنَّ هناك دوراً مؤسساتياً يدخل هنا. إن كنت رئيس مجلس إدارة شركة، فمهمتك أن تزيد الأرباح القصيرة الأجل إلى الحد الأقصى. ويصح هذا الآن أكثر من أي وقت مضى. نحن في مرحلة جديدة من رأسمالية الدولة التي لا تنظر إلى المستقبل كقضية مهمة. ما يهم بشكل متزايد هو الأرباح القصيرة الأجل، وإن لم يسعَ رئيس مجلس إدارة ما إلى تحقيق ذلك يُستبدل بشخص يقوم بذلك. هذا أثر مؤسساتي وليس فردياً وله تعقيدات غير عادية على المجتمع. قد يدمِّر وجودنا ذاته.

فيكاس شاه: إلى أي مدى هناك نظام طبقي في المجتمعات الغربية؟

نعوم تشومسكي: تخوض طبقات رجال الأعمال التجارية الصناعية حرباً طبقية قاسية باستمرار وهي تدرك ذلك. فلو قرأت صحافة رجال الأعمال تراهم يتباكون حول المواجهة الخطرة بين الصناعيين والسلطة السياسية المناهضة للجماهير - والحاجة إلى خوض المعركة الأزلية من أجل عقول البشر وهلمَّ جراً... ويعملون على ذلك! وينفذون باستمرار حملات رئيسة ليضمنوا ازدياد تركز السلطة في أيدي قطاع الشركة/ الاتحاد. في الثلاثين سنة الأخيرة تقريباً، كان هناك تغييرات في طبيعة الاقتصاد - الانتقال من الرأسمالي إلى رأسمالية الدولة. كثير من نشاط (دينامية) الاقتصاد تأتي من الدولة؛ الحواسيب والانترنت وثورة تقنية المعلومات وهلمَّ جراً. التطبيقات تأتي من القطاع الخاص، وليس البحوث الأساسية والتطوير. ذلك يبقى صحيحاً بالمجمل. كما كانت هناك تغييرات مهمة - انتقال نحو رسملة الاقتصاد في غضون السنوات الثلاثين الأخيرة. حيث تملك المؤسسات المالية الآن من أرباح الاقتصاد حصة أكبر مما كانت قبل أربعين سنة. وكان هناك انتقال آخر نحو نقل الإنتاج إلى الخارج الذي وضع بدوره الشعب العامل في العالم كله في حالة من التنافس - مع نتائج واضحة. هذه التغييرات حرَّكت دورة شريرة تركزت فيها الثروة أكثر فأكثر ضمن فئة صغيرة جداً من السكان. العامل الأولي في عدم المساواة في الولايات المتحدة، هو التركز المفرط للثروة عند جزء من واحد بالمئة من السكان يشمل رؤساء مجالس الإدارة، مديري الصناديق المالية وهلمَّ جراً. تركز الثروة يحمل معه تركّز السلطة السياسية لأن للثروة تأثيراً هائلاً في النظام السياسي - والنظام السياسي بدوره يؤدي إلى التشريع، الذي يجعل تركز الثروة. سياسات مالية، إبطال القوانين، قوانين لسيطرة الشركة/ الاتحاد وهلمَّ جراً. هذه الدورة تجتاح العالم كله، لكنها لافتة في الولايات المتحدة. وضمن التشريع الأخير، لشيء واحد، شهدنا أزمات مالية متكرِّرة لم تكن

تحدث في الخمسينيات والستينيات حين كانت قوانين الصفقة - الجديدة نافذة والنظام المالي أكثر تقييداً. ولاشك أنّ ازدياد الأزمات المالية ليست مشكلة بالنسبة للبنوك الكبيرة وشركات الاستثمار لأنها تستطيع الاعتماد على الدولة الجدة لتكفلهم. لو كان لدينا نظام رأسمالي لكانت الأزمات المالية خطرة، لكنها تُقهر بإفلاس المهمين، ومن ثم لو كانت هناك شركات أمثال غولدمان ساكس ومورغان تشيز وسيتيغروب - لكانت آفلست منذ زمن بعيد! لكنْ بما أننا لا نملك نظاماً رأسمالياً، فقد تم إنقاذها بوساطة دافعي الضرائب مرات متكررة. في الحقيقة، لقد جرى منحها ما يرقى إلى سياسة ضمان حكومية سميت (أكبر من أن تفشل) وأخذت وكالات تصنيف الائتمان الكبرى ذلك في حسبانها. وعندما حددت مستوى الائتمان لغولدمان ساكس، أخذت في اعتبارها أنها لو شاركت في صفقات خطرة كثيرة ومن ثم حققت أرباحاً كثيرة وانهار النظام، فسيكون هناك إنقاذ مالي - ذلك يزيد تصنيف ائتمان الشركات، ويعني أنها تستطيع الحصول على قروض أرخص. في الوقت الفاصل، بالنسبة لعموم السكان من الجيل السابق - للأغلبية الساحقة، ركدت الدُخُولُ كثيراً بينما ازدادت ساعات العمل. وهبطت الأرباح مخلِّفة سكاناً غاضبين جداً ومحبطين ومشوشين، وذلك منفصل جداً عن القرارات السياسية. وبقيت القرارات في أيدي سلطة مركزية ضيقة بشكل مفرط - والميديا ترافقها، لأنها جزء من النظام. وهناك بعض الازدراء حول محيط الدائرة، هذا مجتمع حر قبل كل شيء - لكن الهجوم الساحق يميل إلى تأييد النظام. وهي ميول معادية جداً للديمقراطية وخطرة أيضاً.

فيكاس شاه: ما رأيك بالحرب على الإرهاب؟

نعوم تشومسكي: المشكلة الأولى أن الحرب على الإرهاب غير موجودة. أنت لا تخوض حرباً ضد الإرهاب بتنفيذ أعمال تتوقع منها أن

تزيد الإرهاب. نذكر غزو العراق، مرة أخرى، لقد اتخذ القرار على الرغم من التوقع بأنه سيزيد الإرهاب - وفي الحقيقة جرى ذلك. تلك ليست حرباً ضد الإرهاب. يجب ألا تكون هناك حرب على الإرهاب، بل محاولة لإضعاف الإرهاب. والطرق للقيام بهذا الأمر مفهومة جيداً. بريطانيا مثال نموذجي. خُذْ مثلاً، إرهاب منظمة المقاومة الايرلندية التي كانت خطرة جداً! طالما ردت بريطانيا باستخدام العنف، زادت بذلك وصعَّدت دورة الإرهاب. حتى استجابت أخيراً لوساطة الولايات المتحدة تحت تأثير الضغط الداخلي بالمظالم الشرعية الموجودة في خلفية الأفعال الإرهابية ما أدى إلى انحدار في الإرهاب. قبل الآن، ايرلندا الشمالية - ليست يوتوبيا - بالتأكيد لكنها ليست ما كانت عليه قبل خمس عشرة سنة. تلك هي الطريقة للتعامل مع الإرهاب! النظر إلى جذوره ومصادره وفعل شيء لها .

فيكاس شاه: ما رأيك في العولمة وانتقال القدرة الاقتصادية إلى الصين والهند؟

نعوم تشومسكي: أولاً وقبل كل شيء، يجب أن نحذر قليلاً عند مناقشة «انتقال القدرة الاقتصادية». من الصحيح من دون أدنى شك أن الصين والهند لديهما معدلات نمو اقتصادي مهمة جداً لكنهما بلدان فقيران جداً. انظر إلى حصة الفرد الواحد من مجمل الدخل الوطني مثلاً. حسبما جاء في أرقام البنك الدولي (التي بَخَست كثيراً) يبلغ في الصين خمسة بالمئة من دخل الفرد في الولايات المتحدة واثنان بالمئة في الهند . هذه الأرقام يجب أن تتضاعف مرتين أو ثلاثاً، لكن حتى مع هذا تظل كسراً عشرياً صغيراً من القدرة الغربية. نمت الصين بشكل دراماتيكي وكان لذلك تأثير مهم في تقليل الفقر. لكنْ على الرغم من ذلك تبقى الصين، كما هي الآن، مصنع تجميع. لو نظرت إلى العجز التجاري للولايات المتحدة مع الصين (الذي نُوقش كثيراً) وحَسَبتَه بدقة،

في مصطلح القيمة الفائضة، لاكتشفت بأن العجز التجاري مع الصين مُبالَغٌ به بنسبة خمسة وعشرين بالمئة إلى ثلاثين بالمئة كما قلل العجز التجاري لليابان وتايوان وكوريا الجنوبية بالأرقام نفسها. والسبب، أنه ضمن نظام الإنتاج الشرق آسيوي النشط - تأتي أجزاء التكنولوجيا العالية ومكوناتها من المحيط - من اليابان وكوريا الجنوبية، والصين تقوم بتجميعها. ومع مرور الوقت، سيتبدل هذا الأمر حين تصعد الصين السُلَّم التكنولوجي. والحالة مماثلة في الهند - التي فيها ملايين الأشخاص المستثنَين تماماً من النظام. ونجد أن حالات انتحار الفلاحين تتزايد بنفس معدل تزايد البلويونيريين. فمئتا مليون كسبوا وأكثر منهم بكثير لم يكسبوا - ووضعهم يزداد سوءاً. هناك أيضاً مشكلات أيكولوجية هائلة لم تُحسب كخسائر بعد، على الرغم من وجوب ذلك. ما يحدث هناك مجرد مشهد درامي.

هناك حديث كثير عن تحكم الصين في دَيْن الولايات المتحدة، ما دلالة هذا؟ تتحكم اليابان بدَيْن الولايات المتحدة بالقدر ذاته تقريباً، لكنه لا يعطي اليابان القدرة على الولايات المتحدة. هناك تعليق مضلل كثير حول هذه المواضيع.

فيكاس شاه: كيف تتصوَّر العالم بعد خمس وعشرين سنة من الآن؟

نعوم تشومسكي: حسناً، هناك عدد من الأشياء التي وقعت. الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية كانت مهيمنة بشكل ساحق، وبدأت قدرتها في الانحدار مثل الآن تماماً. ولهذا الانحدار علاقة جزئية بالنمو المتزايد في الإنتاج الآسيوي - يجب ألا نبالغ لكنْ من المؤكد أنه جزء منه. وهناك عامل آخر هو الهجوم الداخلي على صحة المجتمع الأمريكي - هجوم الشركة/ الاتحاد الذي وقع على مدى الجيل المنصرم ما أضعف كثيراً المجتمع الأمريكي. هناك هجوم على النظام التعليمي الذي ستكون له عواقب طويلة الأجل على الاقتصاد - هناك هجمة

عامة على القوة العاملة - ودورة الشر التي وصفتُها مفيدةٌ لقطاع صغير من السكان، لكنها مضرة للأغلبية الساحقة. والبنية التحتية بائسة جداً. وكل من يسافر من أوروبا أو حتى آسيا إلى الولايات المتحدة يعتقد أنه قادم إلى دولة من بلدان العالم الثالث! وهذا الأمر في ازدياد. إنها ليست مشكلة بالنسبة لقطاع الثروة والسلطة الصغير الذي أقصى الإنتاج وانهمك في مضاربات مالية لأنه لا يهتم بانحدار البلاد. إنها تنحدر وتهاجم من الداخل. الولايات المتحدة تعاني أزمة مالية (عجز في الميزانية ومشكلة الديون) وذلك يعود إلى شيئين: الأول، الميزانية العسكرية المنتفخة بشكل هائل التي تُعادل تقريباً ما ينفقه العالم كله. ثانياً، نظام الرعاية الصحية المخصخص غير المنظَّم والمختل وظيفياً. ويؤدي هذان العنصران ومعهما دورة الشر التي ذكرتها إلى مشكلات داخلية قاسية تديم عملية الانحدار. إضافة إلى ذلك المشكلة البيئية خطرة جداً. إن لم تتصدر الولايات المتحدة القيادة فإن بقية العالم لن تفعل الكثير. وإن قوَّضت الولايات المتحدة جهود معالجة المشكلات البيئية - كما يحدث الآن - فسيكون ذلك أخطر بكثير، وذلك ما سنراه أمامنا لأسباب مؤسساتية ذكرتها. وبعد ثلاثين سنة ستكون أكثر من مهمة.

هناك أيضاً لسوء الحظ خطر حرب نووية متزايد ورعب نووي أيضاً. لهذا السبب ذكرتُ سابقاً سياسة الولايات المتحدة في أفغانستان وباكستان - قسم من تلك السياسة يزيد من خطر وقوع تلك المواد الانشطارية في أيدي إسلاميين متطرفين. يجب القول بأن **الإسلام المتطرِّف دعمته الولايات المتحدة وبريطانيا بقوة ولفترة طويلة كعائق بوجه القومية العلمانية**. كما ساعدت الولايات المتحدة البرامج النووية في باكستان والهند وإسرائيل - الدول الثلاث التي لم توقع معاهدة انتشار الأسلحة النووية. وكل ذلك خليط سريع الاشتعال جداً.

كما ستكون هناك صراعات متزايدة حول الثروات. وسيكون هناك تنافس شرس بسبب الضغط على الثروات إلى الحد الأقصى مع النمو المتزايد - وسيؤدي ذلك إلى صراع ثروات شديد وربما حروب من نوع ما . قد لا تكون حروباً عسكرية لكنها نوع من الصراع. فلو نظرنا إلى الثروات الرئيسة في الشرق الأوسط مثلاً، أكثرها يذهب إلى الشرق بدلاً من الغرب؛ الولايات المتحدة تتسامح مع هذا حتى الآن - تريد أن يذهب النفط السعودي إلى الصين لتقليص مبادرات الصين في إيران - ذلك جزء من الإستراتيجية الجيوسياسية للولايات المتحدة لكنَّ ذلك سيسبِّب صراعاً، وهذا ينسحب على الثروات الأخرى - الحديد والنحاس والليثيوم. هذه مشكلة خطرة ومتفاقمة - وتعطينا صورة كئيبة للمستقبل إلا إذا تغير شيء مهم.

هذه هي الثورة الاستثنائية الأعظم التي أستطيعُ تذكُّرَها

في الأسابيع الأخيرة، ثورات شعبية في العالم العربي أدت إلى طرد الديكتاتور التونسي زين العابدين بن علي، والنهاية الوشيكة لنظام الرئيس المصري حسني مبارك، وحكومة أردنية جديدة، وتعهّد من الديكتاتور اليمني بترك المنصب في نهاية فترته. تكلمنا مع الأستاذ الجامعي في (ام آي تي) نعوم تشومسكي يوم الأربعاء في برنامج على الهواء عن الوضع في مصر، ثم استمرت المقابلة لخمسين دقيقة أخرى بعد العرض لمناقشة ما تعنيه هذه الثورات الشعبية لمستقبل الشرق الأوسط وسياسة الولايات المتحدة الخارجية في المنطقة، كيف أن خوف الولايات المتحدة من الإخوان المسلمين هو في الحقيقة خوف من الديمقراطية في العالم العربي، وما تعنيه الاحتجاجات المصرية للناس في الولايات المتحدة.

في المقابلة، يربط البروفسور تشومسكي المَركَب العسكري الصناعي في الولايات المتحدة بسياسة الولايات المتحدة الخارجية في الشرق الأوسط ودعمها لحكومة مبارك. ثم يناقش «حملة الكره» التي بدأت منذ عقود في الشرق الأوسط ضد الولايات المتحدة لوقوفها عقبة أمام الديمقراطية والتطورات التقدمية، بالترافق مع تأثير الافشاءات من ويكيليكس حول الثورة في مصر، وعواقب دعم الولايات المتحدة للإسلاموية المتطرِّفة. ثم أوضح تشومسكي أن خوف الولايات المتحدة من الإخوان المسلمين هو في الحقيقة خوف من الديمقراطية في الشرق الأوسط، ودرس دور شركات الولايات المتحدة في مصر «مستقرة» في الشرق الأوسط. وتُختتم المقابلة في تحليلٍ لما تعنيه الاحتجاجات المصرية للناس في الولايات المتحدة.

امي غودمان: نعوم تشومسكي، كنتَ تتحدَّث للتو عن مغزى ما يحدث في الشرق الأوسط وأرجعته إلى زمن الرئيس دوايت ايزنهاور.

نعوم تشومسكي: في عام ١٩٥٨، وفي نقاش داخلي بعد أن أُلغي الحظر عن سريته - عَبَّرَ أيزنهاور عن قلقه لما سماه «حملة الكره ضدنا» في العالم العربي، ليس من الحكومات، وإنما من الشعب. تذكَّروا ١٩٥٨، كان لحظة مدهشة إلى حد ما. قبل سنتين فقط، تدخل أيزنهاور بالقوة لإجبار إسرائيل وبريطانيا وفرنسا على الانسحاب من غزوهم للأراضي المصرية. وأنتم تتوقعون حماساً هائلاً للولايات المتحدة في تلك اللحظة التي كانت هناك لفترة وجيزة، لكنها لم تدم لأن السياسات عادت إلى القاعدة المعيارية. لهذا حين كان يخطب بعد سنتين كان هناك، كما قال، «حملة من الكره ضدنا» وكان قَلقاً بشكل طبيعي من السبب. خرج مجلس الأمن القومي، أعلى هيئةَ للتخطيط، في الحقيقة بتقرير عن هذه القضية بالضبط، واستنتج بأن هناك حملة من الكره في الواقع. قالوا هناك إدراك في العالم العربي بأن الولايات المتحدة تدعم دكتاتوريين متوحِّشين وقساة، وتسد الديمقراطية والتطور، وتفعل هذا لأننا راغبون بذلك ومعنيون بالسيطرة والتحكم بمواردهم من الطاقة.

امي غودمان: نعوم أريد أن أذهبَ لدقيقة إلى ذلك الخطاب الشهير للجنرال الجمهوري رئيس الولايات المتحدة دوايت أيزنهاور:

الرئيس دوايت أيزنهاور: زملائي الأمريكيين، هذا المساء، أتيت إليكم برسالة استئذان ووداع، ولكي أشارككم بالقليل من الأفكار النهائية، يا أبناء بلدي. لقد أُجبرنا أن نُنشئ صناعة تسلح دائمة بنسب ضخمة. ثلاثة ملايين ونصف المليون من الرجال والنساء يعملون مباشرة في المؤسسة العسكرية. العدد الإجمالي - الاقتصادي والسياسي وحتى الروحي - محسوس في كل مدينة وفي كل مجلس ولاية، كل وزارة من الحكومة الفيدرالية. نحن نقرُ بالحاجة الملحّة لهذا التطور لكن يجب

علينا ألا نعجز عن إدراك مضامينه الخطرة. في مجالس الحكومة، يجب علينا أن ندافع ضد اكتساب التأثير غير المُجاز الملموس وغير الملموس، من المركب العسكري - الصناعي. إن إمكانية الصعود الكارثي للسلطة التي في غير موضعها موجودة وسوف تستمرُ وتلحُ.

امي غودمان: شكر الرئيس أيزنهاور في خطابه الوداعي في عام ١٩٦١. ليوجسن جاريكي في فيلمه (لماذا نقاتل)، الذي جلبه للقرن الواحد والعشرين. نعوم تشومسكي معنا على الهاتف من بيته قرب بوسطن، نعوم، يواصل في مغزى ما قاله ايزنهاور وما الأوقات التي كانت هناك، وماذا يجب أن تعلمنا اليوم حول الشرق الأوسط؟

نعوم تشومسكي: نعم، خطاب المركب العسكري - الصناعي، الشهير، هو ما كنت أتحدث حوله. كان ذلك حين غادر المنصب ولا حاجة للقول، كان خطاباً مهماً طبعاً. والوضع الذي وصفه لم يستمر فقط وإنما تضخَّمَ.

يجب أن يذكر وجود عنصر آخر في قضية المركب العسكري - الصناعي، لم يثره في خطابه. في ذلك الوقت، في خمسينيات القرن العشرين، كما عرف بالتأكيد، كان البنتاغون يموِّل ما أصبح - كثير من تمويل البنتاغون كان يذهب في خلق ما أصبح الطور التالي من اقتصاد التقنية العالية في ذلك الوقت: الحواسيب والمايكرو والكترونيات وبعد وقت قصير الانترنت. تطور الكثير من هذا من خلال إعانات مالية من سمسرة البنتاغون وبآليات أخرى. لهذا كان نوعاً من غطاء للانتقال إلى موضوع أساس من التطور الاقتصادي المعاصر. أي الشعب يدفع التكاليف والمجازفات والفائدة النهائية شخصية، في حالة الحواسيب والانترنت بعد عقود. لذلك هذا مظهر آخر للمركب العسكري - الصناعي جدير بأن نبقيه في أذهاننا.

أيزنهاور كان يتكلم بشكل خاص عن المظهر العسكري، ما يسمى «الدفاع»، لكنه أغلبه في الواقع هجوم وتدخل وتدمير، ولا يدافع عن

البلاد بل يضر بها في معظم الأوقات، لكن ذلك لا علاقة له، بمشكلة الشرق الأوسط. هناك، ما كان يصفه ايزنهاور ومجلس الأمن القومي نموذج مستمر. وذلك في عام ١٩٥٠ . وسأعيد الخاتمة الأساسية: الولايات المتحدة تدعم ديكتاتوريات وحشية وقاسية تسد الديمقراطية والتطور؛ والهدف إبقاء السيطرة على موارد لا مثيل لها من الطاقة في المنطقة وأحد الأشياء التي كان يقوم بها أيزنهاور في ذلك الوقت بالضبط كان متابعة برنامج لإنهاك الموارد الاحتياطية للطاقة في الولايات المتحدة بدلاً من استخدام طاقة الشرق الوسط الأرخص بكثير لفائدة منتجي نفط تكساس. ذلك برنامج استمر من آخر الخمسينات لمدة خمسة عشر عاماً تقريباً. وحتى هذا الوقت، لم تكن القضية هي استيراد النفط من العربية السعودية وإنما ضمان استمرار السيطرة على موارد الطاقة الرئيسة في العالم، وذلك كما استنتج مجلس الأمن القومي على نحو صحيح، كان يقود إلى حملة كره ضدنا إضافة إلى دعم الديكتاتوريين من أجل القمع والعنف وسد الديمقراطية والتطور.

كان ذلك في خمسينيات القرن العشرين. وهذه الكلمات يمكن أن تُكتب اليوم. ألقِ نظرة على ما يحدث في الشرق الأوسط اليوم. هناك حملة من الكره ضد الولايات المتحدة وضد فرنسا وضد بريطانيا في تونس لدعمهم ديكتاتوريين متوحشين قساة قمعيين أشرار يفرضون الفقر والعذاب في وسط الثروة العظيمة، ويمنعون الديمقراطية والتطور، ويقومون بهذا من أجل الهدف الأساس الذي يبقي السيطرة على موارد الطاقة في المنطقة. ما كتبه مجلس الأمن القومي يمكن كتابته ثانية وبالكلمات ذاتها اليوم.

بعد ١١ أيلول، أجرت وول ستريت جيرنال، بناءً على مصداقيتها استفتاءً للآراء في العالم الإسلامي، ليس لعموم السكان وإنما لنوع من الناس اهتمت بهم الصحيفة، أعتقد ما تسميهم (المسلمين الأثرياء) أو عبارة مثلها - مهنيين، مديري شركات متعددة الجنسية وصيرفيين،

وأشخاص منغمسين كلياً في الولايات المتحدة - يتحكمون بمشروع نيوليبرالي هناك - لهذا ليسوا ممن يسمون المعادين للأمريكيين. وكان استطلاع الآراء مثيراً. في الواقع، كانت النتائج مشابهة جداً لتلك التي صدرت في عام ١٩٥٨. لم تكن هناك حملة كره هائلة ضد الولايات المتحدة وسط هؤلاء الناس، بل كانت هناك خصومة هائلة ضد سياسات الولايات المتحدة. وكانت الأسباب نفسها إلى حد كبير: الولايات المتحدة تسد الديمقراطية والتطور؛ تدعم الديكتاتوريين. في ذلك الوقت، كانت هناك قضايا بارزة بعضها لم تكن في عام ١٩٥٨. مثلاً، كانت هناك معارضة هائلة (بين هذه المجموعات) للعقوبات القاتلة في العراق التي لم تثر اهتماماً كبيراً هنا، لكنها فعلت في المنطقة. مئات الآلاف من الناس تم قتلهم وجرى تدمير المجتمع المدني. كان الديكتاتور يتقوّى. وأحدث ذلك السبب غضباً هائلاً. وكان هناك غضب عظيم حول دعم الولايات المتحدة للجرائم الإسرائيلية والأعمال الوحشية والاستيلاء غير الشرعي على الأراضي وبرامج الاستيطان. كما كانت هناك قضايا أخرى، لكنها ليست مثل قضايا ٢٠٠١.

في الواقع الآن، لدينا دليل صريح ومباشر على مواقف الشعب العربي. أعتقد أنني ذكرت هذا في نشرة سابقة، ومن اللافت أنها لم تبث، لكنها مهمة إلى أقصى حد. الآن، في آب/أغسطس الماضي، أجرى وكلاء معهد بروكينغز استفتاء رئيساً للرأي العربي، وكالات استطلاع معتبرة ومحترمة، (أحدها). وهم يفعلون ذلك دورياً. كانت النتائج مهمة إلى أقصى حد. وتكشّف مرة أخرى أنه لا تزال هناك حملة كره ضد الولايات المتحدة. حين سُئلوا عن التهديدات على المنطقة (التهديدات التي اختيرت بالإجماع تقريباً) حيث اعتُبرت إسرائيل والولايات المتحدة تهديدين للمنطقة بنسبة ٨٨٪ إسرائيل ونحو ٧٧٪ الولايات المتحدة، طبعاً سئلوا عن إيران فكان ١٠٪ من السكان يعتقدون أن إيران تهديد.

أما في قائمة الشخصيات البارزة المحترمة فكان أردوغان الأول. أعتقد كان هناك ١٠٪ تقريباً. لم يُذكر أوباما أو أي شخصية غربية أخرى. بينما يحظى صدام حسين باحترام كبير.

الآن، هذا مذهل تماماً، وخصوصاً في ضوء إفشاءات ويكيليكس. الأغلبية - تلك التي فازت بالعناوين والتي سببت حماساً كبيراً وغبطة كان إفشاء، إن كان صحيحاً أم لا - نحن لا نعرف - لكن الإدعاء، على الأقل، من دبلوماسيين أن الحكام الديكتاتوريين العرب كانوا يدعمون الولايات المتحدة في مواجهتها مع إيران. وأنت تعرفين، عناوين حماسية عن دعم دول عربية - العرب يدعمون الولايات المتحدة. ذلك مكشوف. ما كان يقوله الدبلوماسيون والمعلّقون هو أن الديكتاتوريين العرب يدعموننا، حتى لو عارضت الأغلبية الساحقة من السكان ذلك، كل شيء رائع وكل شيء تحت السيطرة، الوضع هادئ، هم سلبيون والديكتاتوريون يدعموننا، لهذا أي مشكلة يمكن أن تكون هناك؟ في الحقيقة، الرأي العربي كان مخاصماً للولايات المتحدة في هذا - كما تكشّف في الاستفتاء، أغلبية الشعب العربي، ٥٧٪، من المستفتين يعتقدون فعلياً أن المنطقة تكون أفضل إن امتلكت إيران أسلحة نووية. ومع ذلك الاستنتاج هنا وفي إنكلترا وفي القارة كان كل ذلك رائعاً. الديكتاتوريون يؤيدوننا. يمكننا إهمال السكان لأنهم هادئون. ماداموا هادئين، من يهتم؟ الشعب لا يهم. في الواقع هناك تماثل لما هو الحال داخل الولايات المتحدة. وهي طبعاً السياسة نفسها في كل مكان آخر من العالم. وكل ذلك يكشف ازدراء للديمقراطية وللرأي العام، وهو أمر معقّد فعلاً. ويجب على المرء أن يصغي لأوباما بفك ساقط في المقطع الذي شغلتموه، وهو يتحدث كيف تعتمد الحكومات على الشعب طبعاً. سياستنا هي النقيض تماماً.

امي غودمان: نعوم تشومسكي، أردت أن أقرأ ما كتبه (روبرت فيسك) من شوارع القاهرة اليوم. (روبرت فيسك) المراسل المشهور في

الاندبندنت اللندنية. قال، «واحدة من آفات التاريخ ستورِّط الآن رئيس الولايات المتحدة الذي مد يده إلى العالم الإسلامي، لكنه أطبق قبضته حين قاتل هذا العالم الديكتاتورية وطالب بالديمقراطية»، ما ردك؟

نعوم تشومسكي: حسناً، فيسك يكتب تقريراً كالعادة، ألهمه الحدث وكان ظاهراتياً. هو محق تماماً. وهو النموذج القديم. كما قلت، ذلك يعود إلى خمسين سنة هناك تماماً في مصر والمنطقة، وهو الشيء ذاته في مكان آخر. مادام السكان سلبيين ومطيعين، فذلك لا يهم إن كانت هناك حملة كره ضدنا. لا يهم إن اعتقدوا أن عدونا الرسمي ربما يستطيع إنقاذهم من هجماتنا. في الحقيقة، لا شيء مهم، مادام الديكتاتوريون يؤيدوننا. هذا هو المشهد هنا.

يجب أن نتذكر بوجود شبيه هنا. أقصد، إنه ليس عينه طبعاً لكنَّ السكان في الولايات المتحدة غاضبون ومحبطون ويملؤهم الخوف والكره غير المنطقي. والناس غير بعيدين عنكم في وول ستريت ويقومون بعمل رائع الآن. إنهم هم الذين خلقوا الأزمة الراهنة. إنهم هم الذين طلبوا أن يتعاملوا معها. هم يبدون أقوى وأثرى من أي وقت مضى. لكنَّ كل شيء رائع، مادام السكان سلبيين. إن كان عُشر السكان يكسبون كمية راجحة من الثروة المنتجة، بينما يبقى للآخرين ثلاثون سنة من الركود، ذلك رائع، مادام كلِ واحد هادئاً. ذلك هو السيناريو الذي تَكَشَّفَ في الشرق الأوسط، ومثلما فعلت في أمريكا الوسطى ومناطق أخرى أيضاً.

امي غودمان: أردت أن أسأل إن كنت تعتقد أن إفشاءات ويكليكس - صحيحة؟ والبرقيات الدبلوماسية الأمريكية قبل ذلك، وسجلات العراق وأفغانستان، هذا الكنز الدفين الهائل من الوثائق التي حُرِّرت، يتحدث (جوليان اسانج) عن قضية الشفافية الحرجة وقد لعبت دوراً رئيساً هنا. أي، في وضع تونس، حيث وجدنا خريجاً جامعياً شاباً انتهى به المطاف ببيع الخضار لعدم وجود وظائف، يضحي بنفسه وينتحر إثر مضايقات متكرِّرة من الشرطة، تونس تؤكد معرفة الولايات المتحدة التي

تدعم النظام التونسي بالفترة ذاتها، انه فاسد، وماذا يعني هذا من بلاد إلى أخرى مثل اليمن. هل تعتقد بوجود علاقة مباشرة هناك؟

نعوم تشومسكي: حسناً، في الواقع، حقيقة المسألة أن ويكليكس لا تكشف في الواقع عن أي شيء جديد بشكل مثير. إنها توفر إثباتاً، غالباً، من حدود معقولة. تونس كانت حالة ممتعة جداً. أحد التسريبات أتت من السفير في تموز/ يوليو ٢٠٠٩ يصف فيها تونس. يقول إنها دولة أمنية مع قليل من حرية التعبير، فيها مشكلات خطرة في حقوق الإنسان ويحكمها ديكتاتور عائلته مُحتقَرة بسبب فسادها وسرقتها للسكان. هذا هو تقدير السفير وتقييمه. بعد وقت ليس ببعيد من ذلك، خصَّت الولاياتُ المتحدة تونسَ بشحنة إضافية من المعونات العسكرية. لتونس فقط، وديكتاتوريتين عربيتين أخريين - (مصر والأردن) - وطبعاً إسرائيل - بشكل روتيني - وأخرى لدولة أخرى تسمى (كولومبيا)، الدولة التي لها أسوأ سجل في حقوق الإنسان في نصف الكرة الغربي منذ سنوات، والمتلقية الأولى للمساعدات العسكرية الأمريكية لسنوات، عنصران متلازمان بشدة كما هو واضح.

حسناً، هذا يخبرنا ما الفهم حول تونس - أقصد الدولة الأمنية، والديكتاتور المكروه بشكل عنيف. لكننا أرسلنا له أسلحة بعد كل ذلك، لأن السكان هادئون، لهذا كل شيء رائع. في الحقيقة، كان هناك وصف بليغ جداً من قبل لكل هذا من مسؤول أردني رفيع سابق يعمل الآن مديراً لوقف كارنيجي للبحوث في الشرق الأوسط، (مروان معشر). قال: هذا هو المبدأ. «ليس هناك أي شيء خطأ. كل شيء تحت السيطرة». يقصد مادام السكان هادئين، ميّالين للإذعان - ربما يدخنون من الغيظ، لكنهم لا يفعلون شيئاً حول ذلك - كل شيء رائع، ليس هناك خطأ، كل شيء تحت السيطرة. ذلك هو المبدأ النافذ.

امي غودمان: هل هو دبلوماسي أردني سابق؟

نعوم تشومسكي: موظَّف أردني سابق، موظَّف رفيع.

امـي غودمـان: مـاذا يحـدث في الأردن الآن، مـاذا سـيحدث في اعتقادك، وإلى أي مدى يدفع هذا الأمور في العربية السعودية، وماذا يشعر أوباما أن عليه أن يفعل وماذا يفعل الآن في اعتقادك؟

نعوم تشومسكي: حسناً، الأردن، رئيس الوزراء استُبدل للتو. استُبدل بجنرال سابق يبدو أنه ذو شعبية معتدلة، على الأقل غير مكروه من السكان. لكن جوهرياً لم يتبدَّل أي شيء. هناك تغييرات وزارية أردنية متكرِّرة، والنظام الأساسي يظل باقياً. إن كان السكان سيقبلون بذلك، إن كان مبدأ (معشر) سيعمل بشكل جيد - لا خلل هناك، كل شيء تحت السيطرة - هذا ما نجهله.

العربية السعودية حالة مشوِّقة. فهي مع إسرائيل منذ زمن طويل، أقوى مؤيد صريح لمبارك. وحالتها يجب أن تذكّرنا بشيء حول التعليق المعتاد على هذه القضية. الخط القياسي والتعليق هو طبعاً التالي، نحن نحب الديمقراطية لكن لأسباب براغماتية يجب أن نعارضها على مضض أحياناً، أي في هذه الحالة بسبب تهديد الإسلاميين المتطرفين، الإخوان المسلمين. ومن ثم يجب أن يكون هناك بعض التغيير - كيفما فكر المرء بذلك. ألقِ نظرة على العربية السعودية. هي مركز ريادي للإيديولوجية الإسلامية وهي مصدرها منذ سنوات.

ربما الأهم - يعود إلى ويكيليكس، ربما الإفشاء الأهم يتعلق بباكستان. في باكستان، برقيات ويكيليكس أظهرت أن السفيرة باترسون، على رأس ما كان يجري. هناك - عبارة «حملة كره ضد الولايات المتحدة» هائلة. السكان ضد الأمريكان بشكل متحمّس، وفي تزايد واتّساع، كما أشارت نتيجة لأعمال الولايات المتحدة في أفغانستان وباكستان، الضغط على الجيش الباكستاني لغزو المناطق القبلية، هجمات الطائرات بلا طيار. واستمرت قائلة إن هذا قد يؤدي إلى ما هو في الحقيقة الكابوس الأقوى، أي المنشآت النووية الباكستانية

الضخمة، التي تزداد بسرعة أكثر من أي مكان آخر في العالم عَرَضياً، قد يكون هناك تسربٌ للمواد المنشطرة إلى أيدي إسلاميين متطرفين الذين تكبر قوتهم، وينالون تأييداً شعبياً أكبر نتيجة للأعمال التي تكلمنا عنها جزئياً.

هذا لم يحدث بين ليلة وضحاها. العامل الرئيس خلف هذا حكم الديكتاتور ضياء الحق في ثمانينيات القرن العشرين. كان الشخص الذي حمل لواء الأسلمة المتطرِّفة في باكستان، بتمويل سعودي. شيَّد هذه المدارس المتطرِّفة. المحامون الشباب الذين كانوا يصرخون بتأييدهم مؤخراً لاغتيال شخصية سياسية عارضت القوانين التكفيرية، كانوا مُنتَجاً لتلك المدارس. من يدعمه؟ رونالد ريغان. كان الديكتاتور المفضَّل عند ريغان. تعرفين، للأحداث عقابيل. أنت دعمت الأسلمة المتطرِّفة، وكانت هناك عقابيل. لقد عاد جزئياً الحديث عن القلق بشأن الإخوان المسلمين في مصر مهما كانت حقيقته. قليل لكنه تهكمي، حين ترين أن الولايات المتحدة وعلي أن أقول بريطانيا أيضاً، كانتا تدعمان الإسلام المتطرِّف أحياناً كحائل بوجه القومية العلمانية.

القلق الحقيقي ليس الإسلام أو الراديكالية – التطرفية؛ الخطر هو الاستقلال. إن كان الإسلاميون المتطرفون مستقلين، فهم أعداء. إن كان القوميون العلمانيون مستقلين فهم أعداء. في أمريكا اللاتينية، لعقود من الزمن، حين استطاع بعض العناصر من الكنيسة الكاثوليكية الاستقلال ونظموا حركة التحرر اللاهوتية، كانوا أعداء. نحن نفذنا حرباً رئيسة ضد الكنيسة. الاستقلال هو الذي لا يحتمل، وإلى حد ما للأسباب التي وصفها مجلس الأمن القومي في حالة العالم العربي منذ خمسين سنة.

امي غودمان: نعوم تشومسكي، أردت أن أقرأ لك ما كتبه اثنان من الكتّاب. الأول (ايثان برونر) في نيويورك تايمز، يقول، «على الرغم من

علاقات السيد مبارك القوية مع إسرائيل، إلا أن الكثير من الإسرائيليين من اليسار واليمين على السواء متعاطفون مع الرغبة المصرية في التخلص من حكمه الأوتوقراطي الفردي وبناء الديمقراطية، لكنهم يخشون ما سيتبع إن تحركت الأشياء بسرعة كبيرة». ويقتبس من مسؤول إسرائيلي كبير القول: «نحن نعرف أن هذا يتعلّق بالرغبة في الحرية والرخاء والفرصة، ونحن نؤيد الناس الذين لا يريدون العيش تحت حكومة استبدادية، ولكنْ من سيغتنم الفرصة ويستفيد مما يحدث؟» يتابع المسؤول قوله: «الشعور السائد هنا هو أنك تحتاج إلى استقرار معين يتلوه إصلاح. انتخابات مفاجئة من المحتمل أن تجلب نتيجة مختلفة جداً».

والآخر هو (ريتشارد كوهين) الذي يكتب في واشنطن بوست، . حيث كتب - دعني أرى إن كنت سأجد هذه القصاصة - «الأشياء على وشك أن تذهب من السيئ إلى الأسوأ في الشرق الأوسط. اتفاق السلام الفلسطيني - الإسرائيلي ليس منظوراً في أي مكان». نعوم تشومسكي ما ردك؟

نعوم تشومسكي: تعليق المسؤول الإسرائيلي صيغة شكلية قياسية، كان يمكن لستالين قولها. طبعاً الشعب يريد السلام والحرية والديمقراطية؛ كلّنا نؤيد ذلك. لكن ليس الآن، لأننا لا نحب ما ستكون عليه النتيجة. في الواقع، إنها تستحق التحمل - في الحالة - الأمر نفسه مع أوباما. التعليق نفسه تقريباً. من جانب آخر، الموظفون الإسرائيليون كانوا صاخبين وصريحين في تأييدهم لمبارك وشجبهم للحركة الشعبية والمظاهرات. ربما العربية السعودية فقط كانت صريحة جداً في هذا الصدد. والسبب نفسه. هم يخشون كثيراً مما ستجلبه الديمقراطية في مصر.

أخيراً، هم رأوها تماماً في فلسطين. كانت هناك انتخابات حرة واحدة في العالم العربي، بالضبط انتخابات حرة بشكل حقيقي واحدة، عادلة وصريحة. وبعد الانتخابات مباشرة، خلال أيام، أعلنت الولايات

المتحدة وإسرائيل بشكل رسمي وعلني ونفذتا سياسات ذات طابع هجومي مزعج ضد الشعب الفلسطيني لمعاقبته لقيامه بانتخابات حرة. لماذا؟ لقد فاز الأشخاص الخطأ. (الانتخابات رائعة فقط إن ظهرت بالطريقة التي نريدها لها).

لهذا، إن قلت، بولندا تحت الحكم الروسي، هناك حركات شعبية كانت تنادي بالحرية، نحن نهلل. من الجانب الآخر، إذا حاولت حركة شعبية في أمريكا الوسطى التخلص من ديكتاتوريات وحشية. نرسل بل نسلح الجيش وننفّذ حروباً إرهابية شاملة ضد العدو. كلنا هلّلنا لوقوف (فاكلاف هافيل) في (تشيكوسلوفاكيا) ضد العدو، وفي اللحظة نفسها، نسفت قوات النخبة، التي دُرِّبت مجدداً في (فورت راغ)، في كارولينا الشمالية تحت إمرة الجيش، أدمغة ستة من المثقّفين الأمريكيين اللاتينيين، القساوسة اليسوعيين في السلفادور، ومرَّ ذلك بصمت.

وحتى في الدراسات المحافظة، الدراسات الأهم من - دراسات علمية لما سمي «**ترقية الديمقراطية**» من علماء جيدين يقظين، مثل (ثوماس كاروثرز) من الريغانيين الجدد الذي عمل على برامج عن ترقية الديمقراطية في وزارة الخارجية في عهد ريغان الأمر معترف به وكان يُعتقد أنها شيء رائع، لكنه استنتج من دراساته بشكل يرثى له أن الولايات المتحدة لا تؤيد الديمقراطية إلا إن توافقت فقط مع أهدافها الإستراتيجية والاقتصادية، والآن يعدّ هذه مفارقة إن صدقت الخطاب البلاغي للقادة. حتى إنه يقول إن القادة الأمريكيين كلهم مصابون بانفصام الشخصية بطريقة أو بأخرى، لكنَّ هناك تحليلاً أبسط: أشخاص معهم السلطة ويريدون الاحتفاظ بسلطتهم ومضاعفتها لهذا الديمقراطية رائعة إن توافقت مع ذلك، وهي غير مقبولة إن لم تفعل.

امي غودمان: نعوم، هناك إشارة أو راية كبيرة يحملها الناس في ساحة التحرير تقول «نعم نحن نستطيع أيضاً».

نعوم تشومسكي: دعنا ماذا؟ آسف لم أسمع.

امي غودمان: اللافتة تقول، «نعم نحن نستطيع أيضاً».

نعوم تشومسكي: آوه، «نعم نحن نستطيع أيضاً». أنت تعرفين من أين حصلوا على ذلك، حسناً، إلا إذا قصدوها. إن كانوا يستطيعون أم لا، لا أحد يعرف. أقصد، الوضع – يجب أن نعترف، له مظاهر مشؤومة. إرسال السفاحين المؤيدين لمبارك إلى ساحة التحرير شيء خطر ومخيف. مبارك، بالدعم الأمريكي المُسَلَّم به، يشعر بوضوح أنه يستطيع استعادة السيطرة. لقد فتحوا الإنترنت مرة أخرى. الجيش يقف جانباً. نحن لا نعرف ماذا سيفعل.

عامل آخر، إلى متى يستطيع المتظاهرون الصمود والاستمرار؟!! ليس ضد الإرهاب والعنف، وإنما أيضاً ضد الأزمة الاقتصادية. ضمن فترة قصيرة، ربما بدأت مسبقاً، لن يبقى هناك خبز وماء. الاقتصاد ينهار. لقد أظهروا بالتأكيد شجاعة لا تصدق وتصميماً، لكنك تعرفين هناك حد لما يتحمله الجسم البشري. لهذا، هذا مدهش كله، ليس هناك ضمان بالنجاح.

إن كان هناك صوت حقيقي ودعم صريح من السكان في الولايات المتحدة وأوروبا – فذلك يمكن أن يشكِّل فرقاً. الآن، تذكري مبدأ (معشر): مادام الجميع هادئين وكل شيء تحت السيطرة فهذا رائع. لكن حين يكسرون هذه القيود الأمر ليس رائعاً. عليك أن تفعلي شيئاً.

امي غودمان: لو كنت اليوم رئيس الولايات المتحدة ما الذي ستفعله الآن تماماً؟

نعوم تشومسكي: حسناً لو نجحت في الرئاسة، أقصد بنوع من جمهور الناخبين والدعم المطلوب لأكون رئيساً للولايات المتحدة، ربما فعلت ما يفعله الرئيس أوباما. لكن ما ينبغي فعله هو ما يفعله أردوغان. تركيا أصبحت الدولة الأهم في المنطقة وهذا مسلَّم به. أردوغان

الشخصية الأكثر شعبية بشكل لا يضاهى، وقد أخذ الأتراك دوراً بناءً إلى حد ما في قضايا كثيرة. وفي هذه الحالة، هو الشخصية الشعبية الوحيدة، القائد، الذي كان صريحاً وواضحاً ومباشراً، وقال بأن مبارك يجب أن يرحل الآن. الآن حين يجب علينا أن نتغير. هذا موقف صحيح. لا شيء مثل ذلك في أوروبا ولا شيء مثل ذلك هنا.

امي غودمان: ما دور شركات الولايات المتحدة باعتقادك؟ نحن تحدثنا إلى (بيل هارتنغ)، الذي كتب هذا الكتاب، (**أنبياء السلطة**)، عن بوكهيد مارتن. كمية النقود الغامرة، البلايين، التي ذهبت إلى مصر، لم تذهب لمصر في الحقيقة؛ ذهبت إلى مُصنِّعي الأسلحة في الولايات المتحدة مثل جنرال دينامكس ومثل لوكهيد مارتن ومثل بوينغ الخ. في الواقع، بوينغ تمتلك ناروس، التي هي التكنولوجيا الرقمية التي انشغلت في مراقبة الهواتف الخلوية، ونظام الانترنت هناك، حيث يستطيعون أن يجدوا أصوات المنشقين من أجل النظام المصري الحاكم. ومن يعرف ماذا سيفعلون بهذه الأصوات، من بين غيرهم؟ لكنَّ هذه الشركات التي صنعت ربحاً كبيراً مفاجئاً من القمع، أين تقف الآن بالضبط في ضوء سياسة الولايات المتحدة؟

نعوم تشومسكي: حسناً، هم لم يصدروا أي مواد صحفية، لهذا علينا أن نخمِّن. لكن من الواضح أنها تملك حصة رئيسة في الديكتاتوريات بشكل مناسب ليس مصر فقط. لهذا مثلاً منذ شهرين، أعلن أوباما أكبر صفقة بيع عسكرية في التاريخ إلى السعودية، ٦٠ بليون دولار قيمة طائرات نفاثة ومروحيات وعربات مدرَّعة. الذريعة أنه علينا أن نحمي العربية السعودية من إيران. تذكري أن بين السكان، إن كان هناك من يهتم، عشرة بالمئة يعتبرون إيران تهديداً، والأغلبية يعتقدون أن المنطقة ستكون أفضل لو امتلكت إيران أسلحة نووية. لكن علينا أن

نحميهم من إيران بإرسال معدات عسكرية لهم، والتي لن تفيدهم أبداً في أي مواجهة مع إيران. لكنها أفادت كثيراً المركب العسكري الصناعي الأمريكي الذي كان يشير إليه أيزنهاور في المقطع الصغير الذي شغّلتيه قبل قليل. لهذا وليام هارتنغ كان محقاً حول هذا.

في الواقع، جزء من السبب لماذا هناك مثل هذا التأييد القوي لإسرائيل في اللوبي العسكري - الصناعي في الولايات المتحدة، هو تلك التحويلات من الأسلحة الضخمة لإسرائيل، التي مهما كانت تسميتها فهي تنتهي كهبات أساساً، هي تذهب من الولايات المتحدة - من جيب دافع الضرائب الأمريكي إلى جيب الصناعة العسكرية. لكنّ هناك أيضاً تأثيراً ثانوياً، مفهوم جيداً. وهو نوع من المضايقة. حين ترسل الولايات المتحدة، كما تعرفين، أحدث طائرات اف ٣٥ إلى إسرائيل، تقول السعودية حينها: «حسناً، نحن نريد مئة ضعف أكثر من المعدات التي من الدرجة الثانية» التي هي جائزة عظمى هائلة للصناعة العسكرية، وأيضاً تعيد تدوير البترودولارات، وهذا مهم وضروري للاقتصاد الأمريكي. لهذا الأشياء مترابطة معاً.

وهي ليست الصناعة العسكرية فقط. هناك مشاريع إنشائية وتطوير واتصالات عن بعد - في حالة إسرائيل، صناعة التكنولوجيا الحديثة. لهذا، شركة انتل، الرئيسة - منتج الرقائق العالمي الرئيس أعلن عن جيل جديد من الرقائق التي يأملون أن تكون الجيل الثاني من الرقائق، وهم يعيدون بناء مصنعهم الرئيس في إسرائيل. فقد أعلن عن توسيع له. العلاقات وثيقة جداً وحميمة من الأول حتى الأخير - مرة أخرى، في العالم العربي، بالتأكيد ليس بين السكان، لكن نحن نملك مبدأ معشر. ماداموا هادئين من يكترث؟ نحن نهملهم.

امي غودمان: وأهمية مبارك في المحور الفلسطيني - الإسرائيلي - المصري؟ أقصد، بالعودة إلى ١٩٧٩ إن كنت تستطيع أن تذكر الناس

بإيجاز لماذا هو بهذه الأهمية فقد ظلت وسائل الإعلام تقول إنه يعني لإسرائيل السلام والاستقرار، ويعطي الولايات المتحدة منفذاً لقاعدتها الجوية، ويضمن منفذاً لها إلى قناة السويس. تحدَّثْ عن ذلك وماذا سيعني التغيير؟

نعوم تشومسكي: يجب أن نعود بالفعل إلى نقطة أبعد من ذلك قليلاً للوراء. في عام ١٩٧١ عرض الرئيس المصري أنور السادات، على إسرائيل معاهدة سلام كاملة مقابل الانسحاب من الأراضي المحتلة. هو اهتم بسيناء، لكنَّ إسرائيل درستها ورفضتها وأيد الرفض (هنري كيسنجر)، مستشار الأمن القومي. أما وزارة الخارجية آنذاك فأيدت (السادات – وإسرائيل) - كان قراراً فاجعاً. تلك هي النقطة التي عندها اختارت إسرائيل صراحة التوسع وفضَّلته على الأمن. كانوا يتوسعون في سيناء آنذاك ويخططون لبناء مدينة تتسع لمليون شخص، سيناء المصرية، مستوطنات تطرد الفلاحين إلى الصحراء. حسناً، هذه هي الخلفية قبل ١٩٧٣ التي أوضحت أن مصر لا يمكن نبذها ببساطة. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى المفاوضات التي قادت، في ١٩٧٩ الولايات المتحدة وإسرائيل إلى القبول بعرض السادات لعام ١٩٧١ : انسحاب من سيناء مقابل معاهدة السلام. دُعيَ ذلك بنصر دبلوماسي عظيم. في الواقع، كان فاجعة دبلوماسية. الفشل في قبوله في عام ١٩٧١ أدى إلى حرب خطرة جداً، عذاب ووحشية. وأخيراً، قبلت به الولايات المتحدة وإسرائيل جوهرياً.

الآن، مادامت تلك التسوية تمت، ١٩٧٩، أدرك المحللون الإستراتيجيون الإسرائيليون - المحلل الرئيس كان (افنر يانيف) - مباشرة أن مصر الآن استثنيت من المواجهة، إسرائيل حرة في استخدام القوة في مناطق أخرى. وبالفعل، بعد ذلك مباشرة تقريباً هاجمت لبنان ولم تقلق من ردع مصري. والآن بعد غياب ذلك، نستطيع أن نهاجم

لبنـان. وكـان هـجومـاً وحـشياً وشـريراً، قتـل فيـه بـين ١٥ ألفـاً، و٢٠ ألـف شـخص، وأدى أخـيراً إلى مجـزرة صـبرا وشـاتيلا ودُمِّـر الكـثير أو أغلـب جنـوب لبنـان. ومـن دون أسـاس منطقـي دفـاعي. في الواقـع، ولا حتـى أساس زائـف. لم تكـن محاولـة مـن أجـل الـضفة الغربيـة كمـا قيـل. كانـت محاولة لسد المفاوضات الفلسطينية المربكة، عـروض دبلوماسـية وتقـدم للأمام في دمج الأراضي المحتلة. كانوا أحراراً في فعـل ذلـك بمجـرد زوال الردع المـصري. ويـستمر ذلـك. مـصر هـي الدولـة العربيـة الرئيـسة، أكـبر قـوة عـسكرية بالتأكيـد، وتحييـد مـصر حـرَّر إسـرائيل - وحـين أقـول إسـرائيل، أقـصد الولايات المتحـدة وإسـرائيل لأنهما تعمـلان بـالترادف - حرَّرتهمـا لتنفيـذ جـرائم الاحـتلال وهجمـات علـى لبنـان - كـان هنـاك خمسة غزوات مسبقاً، وقد يكون هناك غزو آخر - ومصر لا تتدخل.

علاوة على ذلك، مصر تتعاون في سحق غزة. تلك الانتخابات الحـرة الرهيبة في كانون الثاني / ينـاير ٢٠٠٦ لم تُخفْ فقط الولايات المتحدة وإسـرائيل - ولم تحبا النتيجة، لهذا انقلبتا فوراً إلى معاقبة الفلسطينيين - بل أخافت مصر أيضاً. كان المنتصر في الانتخابات حمـاس، وهـي فـرع من الإخوان المسلمين. ذلـك بالمثل أخـاف الديكتاتوريـة المـصرية لأنهـم إن سمحوا قط بأي شيء مثل انتخابـات حـرة، فـسينجح الإخـوان المسلمون من دون أي شك أيضاً، ربمـا ليـسوا أغلبيـة لكـن سيكونون قـوة سياسـية أساسـية. وهـم لا يريـدون ذلـك، لهـذا بنـاءً عليـه هـم يتعـاونون. مـصر في ظـل حكـم مبـارك، تتعـاون مـع إسـرائيل في سـحق [غـزة]، بنـت سـياجاً ضـخماً علـى الحـدود المـصرية بمـساعدة هندسـية أمريكيـة، وبمجموعـة من أجهزة مراقبة تدفُّق البضائع مـن غـزة وإليهـا علـى الجانـب المـصري، وهـي أكملت جوهرياً الحصار الذي فرضته الولايات المتحـدة وإسـرائيل. كل ذلك يمكن أن يتآكل لو كانت هنـاك حركة ديمقراطيـة تنـال سـطوة في مصر، كما فعلت في فلسطين.

يجب أن أذكر بوجود انتخابات شبه ديمقراطية أخرى في العالم العربي الآن على نحو قياسي. وذلك في لبنان. فلبنان قصة معقّدة. إنها ديمقراطية كهنوتية، لذلك السكان الشيعة، وهي الطائفة الأكبر، تحاول أن تربح في التمثيل كثيراً تحت النظام الكهنوتي. لكن مع ذلك الانتخابات ليست انتخابات دولة تحت ظل ديكتاتوريات. وحازوا النتائج أيضاً، التي قُمعت هنا. لهذا مثلاً، في الانتخابات الأخيرة، الأغلبية الشعبية كان التحالف الذي قاده حزب الله. كانوا الأغلبية الشعبية في الانتخابات الأخيرة. أعتقد نحو ٥٣ بالمئة. حسناً، تلك ليست الطريقة التي وصفت فيها هنا. إن قرأت، مثلاً، (توماس فريدمان)، كتب قصيدة غنائية حول الانتخابات - كان عملياً يذرف دموع البهجة في الانتخابات الحرة، التي فاز بها أوباما على أحمدي نجاد. حسناً، أنت تعرفين، ما قصده أنه في التمثيل تحت نظام كهنوتي، التحالف المدعوم من الولايات المتحدة فاز بأغلب المقاعد. ذلك يعكس مرة أخرى الازدراء القياسي للديمقراطية. كل ما يهمنا - نحن لا نهتم بأن الأغلبية السكانية ذهبت إلى الناحية الأخرى، مادامت هادئة وسلبية. والمشوّق، قَبِلَ حزب الله بالنتيجة بهدوء، لم يحتج حولها في حينها لكن منذ ذلك الحين، قوته ازدادت، والآن هناك تهديد خطر في لبنان، يجب علينا ألا نغفله.

امي غودمان: نعوم، وبينما نحن نختتم اللقاء، سألتك كثيراً عما يعنيه هذا بالنسبة للشرق الأوسط، هذه الثورة المتدحرجة، من تونس إلى مصر، ما الذي نراه في الأردن واليمن وأبعد. لكن ماذا تعنيه هذه الاحتجاجات الجماعية للناس في الولايات المتحدة؟

نعوم تشومسكي: أعتقد أنها تعني الكثير، وكنت أحاول أن أُلمِّحَ إلى ذلك. المبدأ أن كل شيء رائع مادام السكان هادئين، هذا يطبَّق في الشرق الأوسط ويطبَّق في أمريكا الوسطى ويطبَّق في الولايات المتحدة. في الثلاثين سنة الأخيرة، كان لدينا سياسات الدولة - الشركة التي صُمِّمت

خصيصاً وليس مصادفة لإثراء وتمكين قطاع صغير جداً من السكان من السلطة، واحد بالمئة - في الحقيقة عُشر الواحد بالمئة. ذلك مصدر اللامساواة الزائدة الأساس. سياسات الضريبية، قوانين حكم الشركات، كتلة كاملة من السياسات، صُمِّمت صراحة لإنجاز هذه النهاية - إلغاء قوانين المنظمة. حسناً، أغلبية السكان نجت بزيادة حادة في ساعات العمل أكثر من أوروبا بكثير، وبالدين وتضخم الأصول المالية مثل فقاعة الإسكان الحديثة. لكن تلك الأشياء لا تستطيع أن تدوم.

وحالما بات أوباما في المنصب، دخل في غمار أسوأ أزمة منذ الكساد. في الواقع، رئيس الاحتياطي الفيدرالي، بين (بيرنانكي)، قال: إنها كانت أسوأ حتى من الأزمة المصرفية في ١٩٢٩، لهذا هناك أزمة حقيقية، من اختار لترقيع الأزمة وإصلاحها؟ الناس الذين خلقوها، روبرت روبين غانغ ولاري سومرز وتيموثي جيثنر، وهم جوهرياً الناس المسؤولون عن السياسات التي أدت إلى الأزمة. وليس مفاجئاً. أن جمهور أوباما الانتخابي الأساسي كان المؤسسات المالية. وكانوا قلب التمويل لحملته. لذلك كانوا يتوقعون أن يُعوَّضوا. وقد عُوِّضوا بأن خرجوا أثرى وأقوى نفوذاً مما كانوا عليه قبل الأزمة التي خلقوها.

في الوقت الحالي أكثر السكان، في حالة كساد اقتصادي حرفياً. لو نظرت إلى أرقام البطالة، وسط النسبة المئوية القليلة التي في القمة، ربما عشرة أو عشرين بالمئة، البطالة ليست عالية بشكل بارز. في الحقيقة هي بالأحرى منخفضة. حين تنزلين إلى قاع سلم الدخل، أنت تعرفين، البطالة في مستويات الكساد. في صناعة السلع هي في مستويات الكساد.

وهي مختلفة عن الكساد. الذي يسمح لي عمري الكبير بتذكّره، كانت قاسية جداً. كانت عائلتي أغلبها من الطبقة العاملة العاطلة من العمل. لكن كان هناك إحساس مفعم بالأمل. بأننا نستطيع أن نفعل شيئاً.

هناك تنظيم سي آي أو. وهناك إضرابات احتلال المعامل التي فرضت إجراءات (نيو ديل) الاتفاق الجديد الذي كان مفيداً ونافعاً. وكان هناك إحساس أننا سنخرج من هنا بطريقة أو بأخرى، وأننا كلنا كنا فيها معاً، نستطيع أن نعمل معاً، ونستطيع أن نخرج منها. هذا ليس صحيحاً الآن. الآن هناك جو عام من فقدان الأمل واليأس والغضب واللاعقلانية العميقة. هذا خليط خطر. كره للأجانب، تعرفين، مواقف مختلطة طيارة وخطرة مختلفة تماماً عن المزاج في الكساد.

لكن مبدأ الحكم نفسه يطبَّق: مادام السكان - يقبلون ما يحدث، يوجهون غضبهم ضد المعلمين ورجال الإطفاء ورجال الشرطة والمعاشات التقاعدية، ماداموا يوجهون غضبهم هناك وليس ضد، الحكام، كل شيء تحت السيطرة، كل شيء رائع. حتى تنفجر الأزمة. حسناً، لم تنفجر هنا بعد، وإن انفجرت، قد لا تكون في وجهة بناءة، بسبب طبيعة ما يحدث في البلاد، تلك الدروس المصرية يجب أن نتعلَّمها عن ظهر قلب. نستطيع أن نرى بوضوح ما الذي يستطيع الناس أن يفعلوه تحت ظروف من القهر والكساد الخطرين أبعد من أي شيء واجهناه لكنهم يفعلونها. إن لم نفعلها، النتيجة ستكون شنيعة جداً.

من يمتلكُ العالمَ؟

محاضرة ألقيت في جامعة ماساشوسيتس
في أيلول / سبتمبر ٢٠١٢

حين فكرتُ بهذه الملاحظات كان في ذهني موضوعان، لم أستطع الحكم بينهما - واضحان إلى حد ما في الواقع. **الموضوع الأول**: ما أهم القضايا التي نواجهها؟ **الموضوع الثاني**: ما المواضيع التي لم تعالج بشكل جدي - أو على الإطلاق في السعار الذي يتكرر كل أربع سنوات والمسمى الانتخابات؟ لكنني تحققت بعدم وجود مشكلة في ذلك؛ إنه ليس خياراً صعباً: هما الموضوع نفسه. وهناك مبررات لذلك، وهي مبررات ذات دلالة بحد ذاتها. أود أن أعود إلى ذلك بعد لحظة. لكن أولاً بضع كلمات حول الخلفية، بدءاً بالعنوان المعلن، «من يمتلك العالم؟»

في الواقع، أُعطي جوابٌ جيدٌ منذ سنوات من (آدم سميث)، شخص يُفتَرض بنا أن نبجِّله وليس أن نقرأه. كان - مخرِّباً صغيراً حين تقرؤونه أحياناً. كان يشير إلى أقوى دولة في العالم في زمنه، وطبعاً البلاد التي كانت تهمه أعني إنكلترا. وأشار إلى أن المهندسين الرئيسين للسياسة في إنكلترا هم هؤلاء الذين يملكون البلاد: التجار وأصحاب المصانع في زمنه. وقال: إنهم كانوا يتأكَّدون من رسم سياسة تحظى مصالحهم الخاصة فيها بأقصى العناية الاستثنائية. كانت تلك السياسة تخدم مصالحهم لكن تأثيرها في الآخرين كان باهظاً بمن فيهم شعب إنكلترا.

لكنه كان محافظاً من الطراز القديم وذا مبادئ أخلاقية، لهذا أضاف ضحايا إنكلترا، ضحايا ما سمي «**الظلم الوحشي للأوروبيين**»، وخصوصاً الهند. وكان لديه وهم حول المالكين، لذلك سأقتبسه مرة أخرى، «كل شيء لأنفسنا ولا شيء للشعب الآخر، يبدو أنها الحكمة

الكريهة لسادة البشرية في كل عصر في العالم». كانت صحيحة آنذاك وهي صحيحة الآن.

حافظت إنكلترا على مركز القوة العالمية المسيطرة بشكل جيد في القرن العشرين على الرغم من انحدارها الثابت. بنهاية الحرب العالمية الثانية، انتقلت السيطرة بشكل قاطع إلى أيدٍ حديثة النعمة في الطرف الآخر من البحر، الولايات المتحدة، أقوى وأغنى مجتمع في تاريخ العَالَم بالتأكيد. لم تستطع بريطانيا أن تطمح بأكثر من مجرد شريك أدنى كما اعترفت وزارة الخارجية بحزن. في تلك النقطة، ١٩٤٥ كانت الولايات المتحدة تملك نصف الثروة العالمية وأمناً لا يُصدَّق، وتتحكَّم بنصف الكرة الأرضية الغربي وكلا المحيطين والجانبين المتقابلين من كلا المحيطين. لم يكن هناك أبداً شيء مثل ذلك في التاريخ.

وفَهِمَ المخطِّطون هذا. مخططو روزفلت كانوا يجتمعون أثناء الحرب العالمية الثانية، يرسمون عالم ما بعد الحرب. كانوا محنَّكين تماماً في ذلك ونُفِّذت خططهم إلى حدٍّ بعيد. أرادوا أن يتأكدوا أن الولايات المتحدة ستتحكم بما سموه «**المنطقة الكبرى**» التي تشمل، بشكل روتيني، كامل النصف الغربي من الكرة الأرضية وكامل الشرق الأقصى والإمبراطورية البريطانية السابقة التي ستنتزعها الولايات المتحدة وأكبر قدر من أوراسيا - وبشكل حاسم، مراكزها التجارية والصناعية في أوروبا الغربية. وضمن هذه المنطقة، قالوا، يجب على الولايات المتحدة أن تتمتع بسلطة غير مفنَّدة مع تفوق عسكري واقتصادي، وبالوقت نفسه ضمان تقييد أي ممارسة للسيادة من دول قد تتدخل في هذه المخططات الكونية.

وكانت تلك خططاً واقعية إلى حد ما بسبب التفاوت الهائل في القوة. كانت الولايات المتحدة أغنى بلاد في العالم بالتأكيد من قَبلِ الحرب العالمية الثانية حتى قبل أن تكون بعد الفاعل العالمي الرئيس. خلال

الحرب العالمية الثانية، ربحت الولايات المتحدة بشكل هائل. ازداد الإنتاج الصناعي إلى أربعة أضعاف وأخرجنا من الكساد. في هذه الأثناء دمَّر المنافسون الاقتصاديون أو ضعفوا بشكل خطر. لهذا كان ذلك نظام قوة لا يُصدَّق.

في الواقع، الخطط التي رُسمت آنذاك لا تزال فاعلة. تستطيعون قراءتها في بيانات الحكومة. لكن القدرة على تنفيذها انحطت بشكل مهم. في الواقع هناك موضوع رئيس الآن في نقاش السياسة الخارجية - أنتم تعرفون الصحف وهلمَّ جراً. الموضوع يدعى «**الانحدار الأمريكي**». لهذا مثلاً، في مجلة العلاقات الدولية الوطيدة الأهم، (فورين افيرز)، منذ، كان هناك إصدار على غلافه الأمامي بأحرف كبيرة، «هل انتهت أميركا؟» علامة استفهام. ذلك يعلن موضوع الإصدار. وهناك معيار لازم ونتيجة لهذا: القوة تنتقل إلى الغرب، إلى الصين والهند، القوى العالمية الصاعدة التي سوف تكون الدول المهيمنة في المستقبل.

في الواقع، الانحدار حقيقي تماماً، لكنْ هناك بعض المؤهلات الخطرة بالتتالي. بادئ ذي بدء اللازمة الطبيعية بعيدة الاحتمال جداً على الأقل في المستقبل المتنبَّأ به. الهند والصين بلدان فقيران جداً. ألقوا نظرة مثلاً على مؤشر التطور البشري للأمم المتحدة: الصين تحتل المرتبة التسعين تقريباً والهند المئة وعشرين، كما أعتقد في آخر مرة نظرت إليه، وتعاني كلاهما مشكلات داخلية ضخمة - مشكلات ديموغرافية وفقراً مدقعاً وتبايناً عضالاً ومشكلات بيئية. الصين مركز تصنيع عظيم لكنها في الواقع مصنع تجميع في المقام الأول. لهذا هي تجمع أجزاء ومكونات وتكنولوجيا عالية تأتي من مراكز صناعية محيطة - أكثر تقدماً - اليابان وتايوان وكوريا الجنوبية وسنغافورة والولايات المتحدة وأوروبا - وهي تَجمعُها بشكل أساس. لهذا إن اشتريت مثلاً واحداً من آيباد من الصين - الذي يسمّى مصدَّراً من الصين تجد

الأجـزاء والمكونـات والتكنولوجيـا أتـت مـن الخـارج. والقيمـة المـضافة في الـصين صـغيرة جـداً. وقـد تم حـسابها. كلـها تَـصعدُ الـسُلَّم التكنولـوجي لكنه تسلّق صعب، بل إن الهند أصعب. لهذا أعتقد أنه على المرء أن يكون مُشكّكاً باللازمة الطبيعية.

لكنْ هناك معيارٌ آخـر مؤهـلٌ أكثـر خطـورة. فالانحـدار حقيقـي لكنـه لـيس جديـداً. فهـو متواصـل منـذ عـام ١٩٤٥. في الحقيقـة لقـد حـدث بـسرعة. في أواخــر الأربعينيـات كـان هنـاك حـدث عُـرِفَ بـ«خـسارة الـصين». أصـبحت الـصين مـستقلّة. تلـك الخـسارة لقطعـة ضـخمة مـن الأرض مـن المنطقـة الكـبرى مـن آسـيا. وأصـبحت قـضية أساسـية في الـسياسة الأمريكيـة الداخليـة. مـن المـسؤول عـن خـسارة الـصين؟ ثمـة اتهامات كثيرة. في الواقع، وفي العبارة نوع مـن التـشويق. فأنـا لا أسـتطيع مـثلاً أن أضـيع حاسـوبك، صـحيح؟ لأنـني لا أملكـه. أسـتطيع أن أضـيّع حاسوبي. فعبارة «خسارة الصين» هـي نوع من الافتراضات المسبَقَة وهـي مبدأ متجذّر في وعي صنف من النخبة الأمريكية: نحن نملك العـالم وإن أصبحت قطعة منه مستقلَّةً فنحن نخسرها. وكانت تلك خسارة فظيعـة؛ كان علينا أن نفعل شيئاً بـصددها. لم يجـرِ أي اسـتجواب، وهـذا مـشوّق بحد ذاته.

حـسناً، بالوقـت نفـسه في عـام ١٩٥٠ تقريبـاً، تطـوّرت المخـاوف مـن فقدان جنوب شرق آسيا. وهذا ما قـاد أمريكا إلى حـرب الهنـد الـصينية أسوأ الأعمال الوحشية في فترة ما بعد الحـرب حيث خسر جزء منها ولم يتم خـسران الجـزء الآخـر. حـدث مهـم جداً في التـاريخ الحـديث كـان في عام ١٩٦٥ عندما كان القلق الرئيس إندونيسيا - تلـك الـبلاد في جنـوب شـرق آسـيا لـديها أكثـر ثـروة ومـوارد - كـان هنـاك انقـلاب عـسكري في إندونيـسيا، انقـلاب (سـوهارتو). أدى إلى مذبحـة غـير عاديـة، سمتـها نيويـورك تـايمز «مجـزرة جماعيـة صـاعقة». قُتِلَ فيهـا مئـات الآلاف مـن

الأشخاص أغلبهم من الفلاحين الذين ليست لديهم أرض، وقضى على الحزب السياسي الجماهيري الوحيد، وفتح البلاد للاستثمار الغربي. كانت الغبطة في الغرب هائلة جداً لدرجة لم تستطع أن تُحتوى. لهذا فإن نيويورك تايمز التي وُصفت المذبحة بـ«المجزرة الجماعية الصاعقة» سمته «ومضة ضوء في آسيا» كان ذلك العمود الذي كتبه (جيمس ريستون)، المفكِّر الليبرالي البارز في التايمز. الشيء نفسه حدث في أماكن أخرى من أوروبا واستراليا. لقد كان حدثاً خيالياً.

في استعادة للأحداث الماضية، بعد سنوات، مع (جورج بوندي)، الذي كان مستشاراً للأمن القومي للرئيسين كيندي وجونسون، أشار بوندي إلى أن إنهاء الحرب الفيتنامية في تلك النقطة ربما كانت فكرة جيدة محتملة، أي الانسحاب. على النقيض من أوهام كثيرة، لقد شُنَّت حرب فيتنام أساساً لضمان ألا تتطور فيتنام المستقلة بشكل ناجح، وتصبح نموذجاً للبلدان الأخرى في المنطقة. لنَستعرْ مصطلحات (هنري كيسنجر) وهو يتكلم عن تشيلي، يجب أن نمنع ما سموه أو ما سماه هو «فيروس» التطور المستقل من نشر العدوى إلى أماكن أخرى. ذلك جزء حرج من السياسة الأمريكية الخارجية منذ الحرب العالمية الثانية وكذلك للسياسة البريطانية والفرنسية وغيرهما إنما بدرجة أقل وانتهى ذلك الجزء قبل عام ١٩٦٥ حيث فيتنام الجنوبية دُمِّرَت عملياً. انتشر القيل والقال إلى بقية الهند الصينية إنها لن تكون نموذجاً لأي أحد، وتم احتواء المرض المعدي فقد أكد نموذج نظام سوهارتو أن الهند الصينية لن تُصاب بالعدوى. وبعد ذلك بقليل كان لدى الولايات المتحدة ديكتاتوريات في كل بلد في المنطقة - ماركوس في الفيليبين، وديكتاتورية في تايلاند، وشون في ساوث بارك في كوريا الجنوبية. ولم يعد المرض المعدي مشكلة. لذلك كان ذلك وقتاً جيداً لإنهاء الحرب الفيتنامية، في منطقة جنوب شرق آسيا.

لكن الانحدار استمر. في السنوات العشر الأخيرة، كان هناك حدث مهم جداً: خسارة أمريكا الجنوبية. لأول مرة منذ ٥٠٠ سنة، أي منذ الفاتحين، بلدان أميركا الجنوبية بدأت تتحرك نحو الاستقلال ودرجة من التكامل. كانت البنية النموذجية لكل بلدان أميركا الجنوبية واحدة؛ نخبة مُستغربة صغيرة جداً غالباً من البِيض، وكتلة هائلة من الفقر الرهيب، بلدان مفصولة عن بعضها البعض، كل واحدة منها مُوجَّهة - كما تعرفون - إما إلى أوروبيتها أو حديثاً إلى الولايات المتحدة. في السنوات العشر الأخيرة ما إن تم قهر ذلك بشكل مهم حيث بدأ يتكامل (الشرط اللازم للاستقلال)، حتى بدأت تواجه بعض من مشكلاتها الداخلية المريعة. تلك خسارة أمريكا الجنوبية الآن. نحن نحاول أن نستعيد القليل لكن الآن ليس هناك شيء.

ننتقل إلى السنة الماضية، الربيع العربي هناك تهديد كبير آخر. إنه يهدد بأخذ المنطقة الكبيرة من المنطقة العظمى. ذلك أهم بكثير من جنوب شرق آسيا أو أميركا الجنوبية. ارجعوا إلى أربعينيات القرن العشرين، اعترفت وزارة الخارجية أن موارد الطاقة للشرق الأوسط وهي ما سموها «واحدة من أهم الجوائز المادية في تاريخ العالم» مصدرٌ مذهلٌ ذو قوة إستراتيجية؛ إن استطعنا أن نسيطر على طاقة الشرق الأوسط استطعنا أن نسيطر على العالم.

ألقوا نظرة على الانقلاب الأمريكي البريطاني في إيران عام ١٩٥٣. إنه حدث مهم جداً. ألقى بظلاله على العَالَم كله حتى اليوم. كان ذريعة إنه جزء من الحرب الباردة؛ ليست له علاقة بالحرب الباردة. علاقته بالخوف المعتاد: قومية مستقلة. ولم يتعلق أيضاً بمنفذ إلى البترول أو الأرباح. لقد كان موضوعاً يسري في كل قرارات السياسية. لم يُناقش كثيراً لكنه من المهم جداً أن تمتلك التحكم، كما أشار مستشارو وزارة

الخارجية بالضبط في الأربعينيات. إن استطعتم السيطرة على النفط، استطعتم السيطرة على معظم العالم. ويستمر ذلك.

حتى الآن، تم احتواء خطر الربيع العربي بشكل حسن إلى حدٍّ ما. في الديكتاتوريات النفطية وهي الأهم بالنسبة للغرب، كل محاولة للانضمام إلى الربيع العربي سُحقت بالقوة. العربية السعودية كانت صارمة جداً، لذلك حين كانت هناك محاولة للخروج إلى الشوارع، كانت قوات الأمن هائلة جداً لدرجة خاف فيها الناس من الخروج من بيوتهم. وهناك نقاش قليل لما يجري في البحرين، أما الإمارات فقد سيطرت بشكل كامل. لهذا فالأمر على ما يرام. نحن نجحنا في ضمان أن خطر الديمقراطية سيتحطم في معظم الأماكن المهمة.

مصر حالة مُمتعة. إنها بلاد مهمة غير مُنتجة للبترول - إنها مُنتجة صغيرة لكن في مصر اتبعت الولايات المتحدة أسلوباً عملياتياً قياسياً. إن كان أي منكم سيدخل في الخدمة الدبلوماسية، يمكنه تعلّمه أيضاً. هناك إجراء قياسي حين يقع أحد طغاتك المفضَّلين في ورطة. أولاً، أنت تدعمه مادام ذلك ممكناً. لكن إن أصبح ذلك مستحيلاً حقيقة - قل: انقلبَ الجيشُ ضده وعندها أطردُه إلى المرعى، واجعل الطبقة المثقَّفة تُصدر بيانات رنَّانة عن حبك للديمقراطية، ثم حاول إحياء النظام القديم بأقصى ما يمكن. هناك الحالة تلو الأخرى - سوموزا في نيكاراغوا، دوفالير في هاييتي وماركوس في الفيليبين وشون في كوريا الجنوبية وموبوتو في الكونغو وغيرهم. وعندها، تتطلب نابغة كيلا يراها. وهذا ما تم في مصر بالضبط وما حاولت فرنسا فعله في تونس بنجاح أقل.

حسناً، المستقبل غامض ومشكوك فيه لكن خطر الديمقراطية تم احتواؤه حتى الآن. وهو خطرٌ حقيقيٌّ. سأعود إلى ذلك: من المهم أيضاً أن نعترف أن الانحدار خلال السنوات الخمسين الماضية كان إلى درجة مهمة بعدوى ذاتية، وخصوصاً منذ السبعينيات. سأعود إلى ذلك أيضاً.

لكنْ أولاً دعوني أقول شيئين حول القضايا الأكثر أهمية اليوم، والتي يجري تجاهلها أو لم يتم التعامل معها بجدية في الحملات الانتخابية لأسباب وجيهة. دعوني أبدأ بأهم القضايا. الآن هناك اثنان منها. هما بأهمية غامرة لأن مصير الجنس البشري يعتمد عليهما. الأول الكارثة البيئية والآخر الحرب النووية.

سوف آخذ وقتاً طويلاً في استعراض أخطار الكارثة البيئية. عملياً هي على الصفحات الأولى يومياً تقريباً. لهذا مثلاً، عدد الأسبوع الماضي لنيويورك تايمز نَشَر على صفحته الأولى خبراً بعنوان «**منهياً ذوبانه الصيفي، البحر المتجمِّد القطبي يبدأ مستوى جديداً سيؤدي إلى تحذيرات**». الذوبان هذا الصيف كان أسرع بكثير مما تنبأت به نماذج الحواسيب المعقدة، وأحدث تقرير للأمم المتحدة. لقد تم التكهن الآن بأن الجليد الصيفي قد يتلاشى قبل ٢٠٢٠. وأُفترض قبل ذلك في ٢٠٥٠. لقد اقتبست علماء قالوا هذا هو «نموذج أولي من المحافظية المغلقة من تنبؤاتنا المناخية». رهيبة [الإنذارات] حول العواقب البعيدة المدى للانبعاثات الحابسة للحرارة... الكثير [منا] يخشون أنهم لا يزالون يستخفون بسرعة وقسوة التبدلات الوشيكة. في الواقع، هناك برنامج لدراسة التبدل المناخي الكوني في (ام آي تي)، حيث أعمل. كانوا يحذرون من هذا منذ سنوات، وكانوا يثبتون مراراً وتكراراً أنهم على صواب.

يناقش تقرير التايمز، الهجوم العسير أو الأثر العسير لكل هذا على المناخ العالمي ويضيف: «لكنَّ الحكومات لم تستجب للتبدل بأي إلحاح مهم حول تقييد انبعاثات البيت الزجاجي. على النقيض من ذلك، استجابتها الرئيسة كانت للتخطيط من أجل استغلال المعادن السهلة المنال حديثاً في القارة القطبية الشمالية بما فيه التنقيب عن مزيد من النفط». أي لتسريع الكارثة. هذا مُمتع تماماً ويوضح إرادة استثنائية للتضحية بحيوات أطفالنا وأحفادنا من أجل ربح قصير المدى أو ربما

إرادة لافتة على حد سواء لإغماض أعيننا كيلا نرى الخطر الوشيك - هذه أشياء تجدونها أحياناً مع الأطفال الصغار: شيء يبدو خطراً. أغلق عينيَّ ولا أنظر إليه.

هناك إمكانية أخرى. ربما يحاول البشر أن ينجزوا نبوءة عالم الأحياء الأمريكي الكبير الذي مات مؤخراً (ايرنست ماير). فقد حاول أن يبرهن أن الذكاء تحول مُميت كما يبدو. ولديه دليل جيد نوعاً ما. هناك فكرة من نجاح بيولوجي، وهي العدد الكبير منكم الموجود هنا وهناك. تعرفون أن ذلك نجاح بيولوجي. وأبرز ماير أنه لو نظرتم إلى عشرات البلايين من الجنس البشري في التاريخ البشري، هؤلاء الناجحون جداً هم الذين يتحوَّلون بسرعة مثل البكتريا أو الذين يملكون موضعاً ايكولوجياً ثابتاً كالخنافس مثلاً. هم يبدون بشكل جميل. لكنْ حين تَرفَعُ مقياس ما نسميه الذكاء ينحدر الذكاء بشكل ثابت. وحين ترتفع للثدييات يكون منخفضاً جداً. هناك قلة قليلة منها هنا وهناك. أقصد هناك الكثير من الأبقار لأننا دجّنّاها فقط. حين ترتفع إلى البشر الأمر نفسه حتى وقت متأخر جداً ثمة زمن حديث أكثر مما ينبغي ليظهر في أي حساب تطوري، كان عدد البشر قليلاً جداً. كان هناك الكثير جداً من الهومينيد، لكنهم اختفوا، ربما لأن البشر أبادوهم، لكنّ لا أحد يعرف ذلك بالتأكيد. على أي حال، ربما نحاول أن نبيّن أن البشر توافقوا تماماً في النموذج العام. نحن نستطيع أن نفني أنفسنا أيضاً، وبقية العالم معنا ونحن عاكفون عليه الآن تماماً.

لنعد إلى الانتخابات. يدعي كل من الحزبين أننا جعلنا المشكلة أسوأ. في عام ٢٠٠٨ كَرَّس منبرا الحزبين بعض المتسع عن الكيفية التي يجب على الحكومة مواجهة التبدل المناخي فيها. أما اليوم، في منبر الحزب الجمهوري، فالقضية اختفت جوهرياً. لكن المنبر يطالب الكونغرس بالعمل السريع لمنع وكالة الحماية البيئية من تنظيم وضبط غازات

البيت الزجاجي. لهذا دعونا نثق بأنها ستسوء أكثر. وهي تطالب أيضاً بأن نفتح الملجأ القطبي في ألاسكا للثقب - أنا أقتبس الآن – «**لكي نستفيد من كل الثروات الأمريكية التي وهبها لنا الرب. لا تستطيعون أن تعصوا الرب أخيراً. في السياسة البيئية، يقول البرنامج، يجب أن نعيد الاستقامة العلمية إلى مؤسساتنا العامة البحثية، ونزيل البواعث السياسية من البحث العلمي المموَّل من الشعب؟. كل ذلك كلمة مشفَّرة لعلم المناخ: أوقفوا تمويل علم المناخ. رومني نفسه يقول ليس هناك إجماع علمي، لهذا يجب أن ندعم نقاشاً أكثر وتفحصاً ضمن المجمع العلمي، لكن بلا فعل ماعدا الفعل لجعل المشكلات أسوأ**».

حسناً، ماذا عن الديمقراطيين؟ هم يسلِّمون بوجود مشكلة ويؤيدون أننا يجب أن نعمل نحو اتفاق لوضع حدود للانبعاثات بالاتفاق مع قوى أخرى ناشئة. لكن بلا فعل. وفي الواقع كما أكد أوباما علينا أن نبذل جهدنا لنيل ما سماه مئة سنة من استقلال الطاقة باستغلال الموارد المحلية أو الكندية بوساطة فراكينغ أو بتقنيات أخرى. من دون أن يسأل كيف سيبدو شكل العالم في مئة سنة. لهذا هناك اختلافات. الاختلافات أساساً حول مدى الحماسة التي تزحف فيها قوارض اللاموس نحو الجرف.

لنعد إلى القضية الرئيسة الثانية: الحرب النووية. تلك أيضاً على الصفحات الأولى يومياً، لكن بطريقة تبدو فيها غريبة للمُلاحِظ المستقل يتفحص ما يجري على الأرض، وفي الحقيقة تبدو غريبة للأغلبيَة العظمى من البلدان في العالم. الآن، ليس للمرة الأولى، التهديد الراهن يكون في الشرق الأوسط، المركَّز على إيران. الصورة العامة في الغرب واضحة جداً: من الخطر جداً السماح لإيران بالوصول إلى «المقدرة النووية». أي، المقدرة التي تتمتع قوى كثيرة بالعشرات منها،

لإنتاج أسلحة نووية إن قررت فعل ذلك. ونحن لا نعرف إن كانت قد قررت أم لا. مخابرات الولايات المتحدة تقول: إنها لا تعرف. ووكالة الطاقة الذرية أصدرت تقريرها الأحدث منذ أسبوعين واستنتجت كما سأقتبس بأنها لا تستطيع إثبات «انعدام المواد النووية والنشاطات غير المعلنة في إيران». الآن، لا تستطيع إثبات شيء هناك حالة لا يمكن أن تكون مُرضية. ليست هناك طريقة ملائمة لإثبات انعدام العمل ولذلك إيران يجبَ أن تُحرَم من الحق في تخصيب اليورانيوم، وذلك مضمون لكل قوة وقعت معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية.

حسناً، تلك هي الصورة في الغرب. وهي ليست الصورة في بقية العَالَم. كما تعرفون أنا واثق، كان هناك اجتماع لحركة عدم الانحياز - وهي أغلبية عظمى من البلدان في العَالَم، وتمثّل معظم سكان العَالَم - في طهران. ومرة أخرى، وليس للمرة الأولى، أصدرت بياناً رناناً من التأييد لحق إيران في تخصيب اليورانيوم، حق لكل دولة وقعت عدم انتشار الأسلحة النووية. والوضع مشابه إلى حد كبير في العَالَم العربي. إنه ممتع. سوف أعود في لحظة.

المبرّر الرئيس للقلق، عَبَّرَ عنه بشكل بليغ وموجز (الجنرال لي بتلر)، الرئيس السابق للفرقة الإستراتيجية الأمريكية التي تتحكَّم بالأسلحة النووية وبالإستراتيجية النووية الذي كتب أن الخطر الشديد في قدر الأحقاد أننا نسمي الشرق الأوسط، «أمة واحدة يجب أن تسلّح نفسها بأسلحة نووية»، الذي قد يحث أمماً أخرى على القيام بمثل ذلك. لكنَّ الجنرال بتلر لم يكن يشير إلى إيران، وإنما كان يشير إلى إسرائيل البلاد التي تحتل مرتبة عالية جداً في الاستفتاءات الأوروبية كأخطر بلاد في العَالَم - فوق إيران مباشرة - وليس طارئاً في العَالَم العربي، حيث الشعب هناك يعتبر الولايات المتحدة كثاني أخطر بلاد بعد إسرائيل مباشرة، أما إيران فعلى الرغم من أنها غير محبوبة، فتأتي في مرتبة أدنى كخطر - في العَالَم العربي وسط السكان، وليس الديكتاتوريات.

وفيما يخص الأسلحة النووية الإيرانية لا أحد يريد أن يمتلكوها، لكنْ في استفتاءات للرأي كثيرة قالت أكثريات وأحياناً أكثريات ضخمة: إن المنطقة ستكون أكثر أماناً إن امتلكت إيران أسلحة نووية، لذلك يحدث توازن للأخطار الرئيسة تلك. الآن هناك الكثير من التعقيب في وسائل الإعلام الغربية وفي الصحف عن المواقف العربية تجاه إيران، وما تقرؤونه عموماً بأن العرب يريدون عملاً حاسماً ضد إيران ليس صحيحاً بالنسبة للسكان، وإنما للحكّام الطُغاة.. لكن من يكترث بالسكان، الذين يُسمَّون باستخفاف الشارع العربي؟ نحن لا نعيرهم أي اهتمام، وذلك انعكاس للاحتقار المُفرط للديمقراطية وسط النخب الغربية - أقصد، المواقف الشعبية في العالم العربي - وهناك دراسة شاملة جداً من وكالات استطلاع الرأي الغربية - تكشف بسرعة كبيرة سَبَب قلق الولايات المتحدة ونخبها الشديد من الديمقراطية، وكيف تبذل ما بوسعها لمنعها. - هم بالتأكيد لا يريدون مواقف مثل تلك التي أشرت إليها للتوِّ أن تصبح سياسة، وبالوقت ذاته ينشرون تصريحات مثيرة عن إخلاصنا وتفانينا العميق للديمقراطية. وتنتقل هذه التصريحات من محطة لأخرى بوساطة المراسلين والمعلِّقين.

حسناً، على العكس من إيران، ترفض إسرائيل السماح بالتفتيش رفضاً باتاً، وترفض الانضمام إلى اتفاقية عدم انتشار الأسلحة النووية، والتي لديها المئات من الأسلحة النووية، وحقَّقت تقدماً في أنظمة الإطلاق، ولها أيضاً سجل طويل من العنف والقمع، فقد ضمَّت واستعمرت الأراضي الخاضعة لها بصورة غير شرعية، في انتهاك لأوامر مجلس الأمن، وقامت بالكثير من الأعمال العدوانية - خمس مراتٍ ضد لبنان وحده من دون أي ذريعة معقولة. في نيويورك تايمز الأمس، تستطيعون أن تقرؤوا أن مرتفعات الجولان أرض متنازع عليها، مرتفعات الجولان السورية. هناك قرار لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ٤٩٧

بالإجماع، يؤكّد أن ضم إسرائيل لمرتفعات الجولان غير شرعي ويطالب بإلغائه. وفي الواقع، هي مُتنازع عليها فقط في إسرائيل وفي نيويورك تايمز التي في الحقيقة تعكس سياسة الولايات المتحدة الفعلية، وليس سياسة الولايات المتحدة الرسمية والشكلية.

إيران لديها سجلٌ من العدوان أيضاً. في مئات السنوات الأخيرة غزت واحتلت جزيرتين عربيتين. وكان ذلك في عهد حكم الشاه، الديكتاتور الذي فرضه دعم الولايات المتحدة. تلك فعلياً الحالة الوحيدة في عدة مئات من السنين.

في الوقت الحالي، تستمر التهديدات الكثيرة بالهجوم - سمعتموها في الأمم المتحدة - من الولايات المتحدة، وبشكل خاص من إسرائيل. الآن هناك رد فعل على هذا في أرفع المستويات في الولايات المتحدة. (ليون بانيتا)، وزير الدفاع، قال: إننا لا نريد أن نهاجم إيران نحن نأمل ألا تهاجم إسرائيل إيران، لكنْ على إسرائيل كبلاد ذات سيادة أن تتخذ قراراتها حول ما ستفعله. قد تتساءلون ماذا سيكون رد الفعل لو عكستم فرقة الشخصيات. والذين لديهم اهتمامات أثرية منكم قد يتذكَّرون وجود وثيقة تسمى شرعة الأمم المتحدة، وهي أساس القانون الدولي الحديث، التي تحرِّم التهديد أو استخدام القوة في الشؤون الدولية. الآن هناك دولتان مارقتان - الولايات المتحدة وإسرائيل تعتبران الشرعة والقانون الدولي تفاهة مُملَّة لهذا تفعلان ما تهويان، وذلك مقبول.

حسناً، هذه ليست مجرد كلمات فقط، هناك حرب دائرة، تشمل الإرهاب واغتيال العلماء النوويين، وتشمل حرباً اقتصادية. التهديدات الأمريكية - ليس التهديدات الدولية - تهديدات الولايات المتحدة وقصة إيران من النظام المالي العالمي. يصنِّف المحلِّلون العسكريون الغربيون ما يسمونه «أسلحة الموارد المالية» كأعمال حرب تبرِّر الرد العنيف - حين توجَّه ضدنا. إقصاء إيران من الأسواق المالية العالمية شيء مختلف.

الولايات المتحدة تشن حرباً الكترونية شاملة مكشوفة ضد إيران، ويَعتبِر البنتاغون الحرب الإلكترونية مكافئاً للهجوم المُسلَّح، ويُبرر الرد العسكري، لكنْ طبعاً حين تُوجَّه ضدنا.

الشخصية الليبرالية البارزة في وزارة الخارجية (هارولد كوه) - مستشار وزارة الخارجية الأرفع - قال: إن الحرب الالكترونية عمل حربي إن نتج عنها خراب مهم - مثل الهجمات ضد المفاعلات النووية الإيرانية، ومثل هذه الأعمال تبرِّر القوة دفاعاً عن النفس. لكنْ طبعاً يقصدُ فقط الهجمات ضد الولايات المتحدة أو عملائها.

حسناً، ترسانة إسرائيل المُهلِكة الهائلة تتضمن غواصات متقدِّمة قدمتها لها ألمانيا أخيراً، وهي قادرة على حمل صواريخ ذات رؤوس نووية إسرائيلية، وستُنشر بالتأكيد في الخليج العربي أو قربه إن استمرت إسرائيل في خططها لقصف إيران، والاحتمال الأكبر أن تحاول تهيئة ظروف تقوم فيها الولايات المتحدة بذلك كما أشك، ولدى الولايات المتحدة طبعاً مجموعة واسعة من الأسلحة النووية في كل أنحاء العالم، إضافة إلى تطويق المنطقة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي، والقوة النارية في الخليج العربي الكافية لتدمير معظم العَالَم.

قصة أخرى في الأخبار الآن هي القصف الإسرائيلي للمفاعل العراقي في اوزيراك، وهو المقتَرح كنموذج لقصف إسرائيلي لإيران، لكنْ لم يُذكر إلاَّ نادراً، إن قصف مفاعل اوزيراك لم ينهِ برنامج صدام حسين النووي، بل استهله، ولم يكن هناك برنامج قبله، ولم يكن برنامج مفاعل اوزيراك قادراً على إنتاج يورانيوم لأسلحة نووية، لكنْ بعد القصف التفت صدام فوراً إلى تطوير برنامج أسلحة نووية، وإن قُصفت إيران فهي ستستمر بالتأكيد كما فعل صدام بعد قصف اوزيراك.

بعد بضعة أسابيع سوف نحتفل بالذكرى الخمسين لـ«أخطر لحظة في التاريخ البشري». هذه هي كلمات المؤرِّخ ومستشار الرئيس كيندي، (آرثر

سشليزينغر) الذي كان يشير طبعاً إلى أزمة الصواريخ في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٢ «أخطر لحظة في التاريخ البشري» ووافقه آخرون. في ذلك الوقت، رفع كينيدي الإنذار النووي إلى ثاني أعلى مستوى، من دون إطلاق الأسلحة بقليل، وفوَّض طائرة ناتو مع طيارين أتراك أو غيرهم بالإقلاع والطيران إلى موسكو، وإسقاط القنابل بادئين حريقاً نووياً محتملاً.

في ذروة أزمة الصواريخ، قَدَّرَ كينيدي أرجحية حرب نووية بنسبة خمسين بالمئة. كانت حرباً ستُدمِّر نصف الكرة الأرضية الشمالي كما حذر الرئيس أيزنهاور. وفي مواجهة الخطر، رفض كينيدي الموافقة العلنية على عرض قدمه (خروتشوف) لإنهاء الأزمة بانسحاب متزامن للصواريخ الروسية من كوبا، وصواريخ الولايات المتحدة من تركيا، وهي صواريخ قديمة استُبدلت بغواصات بولاريس التي يتعذَّر اختراقها، لكنه لمس من الضروري توطيد المبدأ بقوة: إن روسيا ليس لها الحق في امتلاك أسلحة هجومية في أي مكان خارج حدود جمهوريات الاتحاد السوفييتي ولو للدفاع عن حليف ضد هجوم للولايات المتحدة، وقد أُدرك الآن أنه كان السبب الأصلي لنشر الصواريخ هناك، وهو سبب وجيه في الواقع، وفي الوقت الحالي يجب على الولايات المتحدة أن تحتفظ بالحق في نشرها في كل أرجاء العَالَم، مستهدفَة روسيا أو الصين أو بلاد أخرى. في الواقع في عام ١٩٦٣ نشرت الولايات المتحدة - كما عَلمنا - أخيراً صواريخ نووية في (اوكيناوا) مستهدفة الصين. كانت لحظةً من التوتر الإقليمي المرتفع، وظلّ ذلك منسجماً مع مفاهيم المنطقة العظمى، التي ذكرتُها، وطوَّرها مخططو (روزفلت).

لحسن الحظ، في عام ١٩٦٣ تراجع (خروتشوف)، لكنْ لا يمكن للعَالَم أن يثق في مثل هذه السلامة العقلية، والتهديد بشكل خاص برأيي هو رأي المثقَّفين والبحوث العلمية التي تُحَيي سلوك (كينيدي) كأجمل ساعاته، وبرأيي فإنها واحدة من أسوأ اللحظات في التاريخ. العجز في مواجهة

الحقيقة، لأن حول أنفسنا ميزةً مشتركةً جداً وشاملة في الثقافة الفكرية والحياة الشخصية أيضاً، وللعجز مضامين مشؤومة.

بعد عشر سنوات، في عام ١٩٧٣ أثناء الحرب العربية الإسرائيلية دعا كيسنجر إلى إنذار نووي عالي المستوى، وكان الغرض تحذير الروس ليكفوا أيديهم، بينما كان - كما علمنا أخيراً - يخبر إسرائيل سراً بأنها مخوَّلة بانتهاك وقف إطلاق النار الذي فُرض بشكل مشترك من الولايات المتحدة وروسيا، وحين جاء (ريغان) إلى المنصب بعد سنتين أطلقت الولايات المتحدة عمليات سبر للدفاعات الروسية، تطير في روسيا لسبر دفاعات، وتحاكي هجمات جوية وبحرية، وفي الوقت الحالي تضع صواريخ (بيرشينغ) في ألمانيا التي تصل إلى أهدافها الروسية في غضون خمس دقائق، وكانت توفر ما سمته السي آي إيه بقدرة «الهجمة الأولى المفاجئة بشكل مُفرط».

الروس، من دون أن يفاجئوا، كانوا قلقين جداً. في الواقع أدى ذلك إلى فزع من حرب رئيسة في عام ١٩٨٣. هناك مئات الحالات التي أجهض فيها التدخل الإنساني إطلاق الضربة الأولى قبل إطلاقها بدقائق فقط، والآن بعد أن أعطت الأنظمة المؤتمتة إنذارات مُزيَّفة، والسجلات الروسية ليست لدينا، لكنْ ليس هناك شك في أن أنظمتهم أكثر عرضة لحادث عرضي بكثير. في الحقيقة (**إن تجنب الحرب النووية إلى الآن هو معجزة تقريباً**).

في الوقت الحالي، اقتربت الهند وباكستان من حرب نووية في مرات كثيرة، ولاتزال الأزمات التي أدت إلى ذلك باقية وخصوصاً كشمير. رفضت الهند وباكستان توقيع معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، ومعهما إسرائيل، وتلقّت كلتاهما دعماً من الولايات المتحدة لتطوير برامج أسلحتهما النووية، وفعلياً إلى اليوم في حالة الهند التي باتت حليفة الولايات المتحدة الآن.

تهديدات الحرب في الشرق الأوسط، التي يمكن أن تصبح حقيقة عاجلاً جداً تصعّد الأخطار مرة أخرى. ولحسن الحظ، هناك مخرج من هذا، مخرج بسيط. هناك مخرج للتهدئة وربما إنهاء، أي تهديد تفرضه إيران كما يزعمون. بسيط جداً: تحركوا نحو توطيد منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط. الآن الفرصة قادمة في كانون الأول/ ديسمبر. هناك مؤتمر عالمي مُجَدول للتعامل مع هذا المقترح، ويحظى بتأييد عالمي غامر، ويشمل عَرضياً الأغلبية من السكان في إسرائيل، لكن لسوء الحظ تم منعه من الولايات المتحدة وإسرائيل، فمنذ يومين أعلنت إسرائيل أنها لن تشارك، ولن تفكر بالمسألة حتى يكون هناك سلام إقليمي عام. أخذ أوباما الموقف ذاته، وأصر أيضاً على أن أي اتفاق يجب أن يستثني إسرائيل، ويجب أن يستثني أيضاً نداءات الأمم الأخرى - يقصد الولايات المتحدة - في تقديم معلومات عن النشاطات النووية الإسرائيلية.

تستطيع الولايات المتحدة وإسرائيل أن تُؤخّرا السلام الإقليمي بالتأكيد، وتعملان ذلك منذ ٣٥ عاماً في إسرائيل/ فلسطين في عزلة عالمية فعلية. إنها قصة طويلة ومهمة ليس لدي الوقت لإدراجها هنا. ومن ثم، لذلك، لم يكن هناك أمل من أجل طريق سهل لإنهاء ما يعتبره الغرب أشد الأزمات الراهنة - لا طريق حتى يكون هناك ضغط شعبي كبير واسع النطاق. لكنْ لن يكون هناك ضغط شعبي كبير واسع النطاق حتى يعرف الناس عنها على الأقل، وقامت وسائل الإعلام بدور ممتاز في تفادي ذلك الخطر: لم يَرِد أي تقرير عن المؤتمر، أو عن أي خلفية، ولا نقاش بمعزل عن الصحف المختصة بضبط الأسلحة، حيث يمكنكم أن تقرؤوا عنها. لهذا ما إن يُسَدَّ الطريق لإنهاء أسوأ أزمة كائنة حتى يجد الناس طريقاً آخر لاختراقه بطريقة ما.

المثقَّف الراديكالي

نص المحاضرة التي ألقيت في مركز هافن،
ماديسون، ويسكونسين
٨ نيسان / أبريل ٢٠١٠.

لا ضرورة لأخبركم عن سروري البالغ وامتناني الكبير على هذا الشرف الذي وفَّر مناسبة لمراجعة السنوات السابقة، لكنّ ما يخطر في بالي ببروز خاص هو السنوات المبكِّرة، ربما لأنني أفكر بها كثيراً مؤخراً لأسباب أخرى. لقد كانت بالطبع سنوات تكوينية بالنسبة لي شخصياً، لكني أعتقدُ أن المغزى يرجع إلى أبعد من ذلك.

أنا مُعَمِّرٌ بشكل يكفي لتكون لديَّ ذكريات عن خطابات هتلر على الراديو قبل خمس وسبعين سنة من الآن. لم أفهم الكلمات لكنني لم أفشل في إدراك خطورة النغمة والغوغاء الهاتفة. أول مقالة كتبتها كانت في شباط / فبراير ١٩٣٩ بعد سقوط برشلونة مباشرة. أنا متأكّد أنها لم تكن شيئاً جديراً بالذكر، وأستطيع تذكُر قسم منها، ولكنَّ الأوضح بكثير من الأهمية كان مزاج الخوف والتوجس فيها . افتتحت المقالة بالكلمات التالية: «النمسا سقطت، وتشيكوسلوفاكيا سقطت، والآن برشلونة تسقط» - وإسبانيا معها بعد أشهر قليلة. ظلّتْ هذه الكلمات في ذهني دائماً ومعها الفزع، الشعور بغيمة سوداء من الفاشية تتجمع فوق ألمانيا ثم أوروبا وربما أبعد، قوة متزايدة من الرعب الذي لا يمكن تصوره. على الرغم من أنه لم يستطع أحد أن يتكهن بالمحرقة، (كريستاليناخت) وقعت قبل بضعة أسابيع بقليل، والفرار اليائس للاجئين كانت تتزايد منذ سنوات، كثير منهم عاجزون عن تصديق ما كان يحدث.

في تلك السنين كانت لي تجربتي الأولى مع المثقَّفين الراديكاليين - على الرغم من أنه كان يجب ألا يسموا المثقَّفين كما يُستخدم المصطلح

بشكل معياري، لأنّ تطبيقه على أشخاص لهم منزلة وامتياز، وفي موقع للوصول إلى العوام بأفكار حول القضايا الإنسانية والاهتمامات. وبما أن الامتياز يمنح مسؤولية، فالسؤال الذي يطرح دائماً هو: كيف يستخدمون تلك المسؤولية، مواضيع زاخرة جداً عملت في تلك السنوات بوساطة ايريك فروم وروسل واورويل ودوايت مكدونالد وآخرين وغيرهم الذين عرفتهم مبكراً. لكن المثقّفين الراديكاليين في طفولتي كانوا مختلفين. كانوا من أقربائي من الطبقة العاملة في نيويورك، أغلبهم عاطلون من العمل خلال فترة الكساد الاقتصادي، لكنَّ أحد أعمامي كان يعاني إعاقة، كان لديه كشك لبيع الصحف بفضل إجراءات نيوديل الاتفاق الجديد - كان قادراً أن يعزز العون للكثير من عائلته. وكذلك استطاع والداي بطريقة صغيرة. كأستاذ للغة العبرية في فيلادلفيا تمتعا بتلك الموهبة العملية النادرة لهذا كان عندنا تيار متدفِّق من العمات والخالات وأبنائهن وبناتهن الذين كانوا يقيمون معنا دورياً.

أقربائي النيويوركيون كان لديهم تعليم محدود. عمي، الذي كان يدير كشكاً لبيع الصحف، وكان ذا تأثير هائل في حياتي المبكرة، لم يتجاوز الصف الرابع أبداً. لكنها كانت واحدة من أكثر الدوائر الثقافية نشاطاً، والتي كنت جزءاً منها أو على الأقل على محيطها كطفل. كانت هناك نقاشات دائمة حول أحدث حفلات سترينغ كورتيت، الجدالات بين ستيكل وفرويد، السياسة الردايكالية ومذهب الفعالية، التي وصلت ذراها المثيرة. خطوة واحدة فقط تفصل العمال عن الاستيلاء على المصانع والتغيير الراديكالي للمجتمع - أفكار كانت يجب أن تكون حية جداً اليوم.

مع كونه عاملاً رئيساً في إجراءات نيوديل، انبثاق مذهب الفعالية العمالية أثار قلقاً كبيراً جداً في عالم البزنس: التجارة والأعمال. شخصياتها البارزة حَذَرتْ من «مجازفة مواجهة الصناعيين [مع] القوة

السياسية الناهضة للجماهير»، والحاجة إلى تكثيف «المعركة الدائمة من أجل عقول الرجال»، والبرامج المؤسَّسة للتغلب على هذا التهديد للنظام والانضباط، وُضعت جانباً أثناء الحرب، لكنْ بعد ذلك مع إخلاص ومستوى شديدين. الولايات المتحدة غير عادية بين المجتمعات الصناعية في جماعتها التجارية ذات الوعي الطبقي الرفيع، التي خاضت بضراوة حرباً طبقية في سنوات أبكر مع مستويات غير عادية من العنف، وفي وقت أحدث من خلال هجمات دعائية ضخمة.

بعض من أقربائي كانوا قريبين جداً من الحزب الشيوعي، آخرون من اليسار كانوا أعداء ألدّاء للشيوعيين، والبعض كأبي مثلاً، من أقصى اليسار كانوا معادين للبلاشفة. من بين هؤلاء القريبين جداً من الحزب، بينما كان هناك احترام شعائري لروسيا، كان لدي الشعور أنه في الأغلب كانت البؤرة صحيحة هنا: الحقوق المدنية والحركات العمالية، إصلاح رفاه وتغيير اجتماعي له حاجة ماسة. كان الحزب قوة لم تتوقع انتصارات سريعة، لكنه كان حاضراً دائماً ومستعداً ومواظباً، مكرِّساً للانتقال من هزيمة مؤقَّتة إلى الصراع التالي، شيء نفتقر إليه حقيقةً اليوم. كان مرتبطاً أيضاً مع حركات أوسع من تثقيف العمال والمنظمات، وعلى الأقل فرصة لعماتي العاطلات من العمل أن يمضين أسبوعاً في الريف في منتجع أي ال جي دبليو، وأخريات هربن مما يجب أن يكون عَالَماً كئيباً جداً، لكنْ أنا أتذكَّره من خلال تجربتي الشخصية - المحدودة طبعاً - كزمن مُفعم بالأمل - مختلف تماماً عن اليوم تحت ظروف أقل قسوة بكثير.

قبيل عام ١٩٤١ كنتُ أمضي بقدر ما أستطيع من الوقت في مركز مانهاتن، منجذباً إلى مجموعة أخرى من المثقَّفين الراديكاليين، في المكتبات الصغيرة في الجادة الرابعة يديرها لاجئون فوضويون من الثورة الإسبانية ١٩٣٦ أو مكتب الفوضوي (فريي اربيتير ستيمي) في ساحة

الاتحاد القريبة. هم لا ينطبق عليهم الوصفة القياسية للمثقَّفين. لكنْ إن كنَّا نقصدُ بالمصطلح الناسَ الذين يفكّرون جدياً بالحياة والمجتمع ومشكلاتهم والحلول الممكنة، على خلفية المعرفة والفهم، فهم مثقَّفون بالفعل مثيرون للإعجاب. كانوا سعداء جداً في قضاء وقت مع طفل صغير كان مفتوناً بثورة ١٩٣٦ الفوضوية، التي اعتقدتُ آنذاك وما أزال بأنها واحدة من المواضع الرفيعة في الحضارة الغربية، وفي بعض الطرق منارة لمستقبل أفضل. اخترتُ قدراً وافراً من مواد استخدمتها بعد ثلاثين سنة عند الكتابة حول الموضوع، أغلبها لم يُطبَع بعد.

الأبرز من هذه المواد مجموعة من وثائق أصلية حول الجماعية نُشرت عام ١٩٣٧ بوساطة (سي ان تي)، اتحاد الفوضويين النقابيين الذي يحتفل بمئويته هذا العام. إحدى القصص يرنُّ صداها في ذهني من وقت لآخر، من فلاحي قرية (ميمبريلا) أحبُّ أن أقتبس قسماً منها:

«في أكواخ ميمبريلا البائسة يعيش السكان الفقراء لمقاطعة فقيرة، ثمانية آلاف شخص، لكنَّ الشوارع لم تكن مرصوفة، ليس للبلدة صحيفة أو دارٌ للسينما ولا مقهى أو مكتبة..... الطعام والثياب كانت توزع بالتساوي إلى كل السكان. لقد أُلغيت النقود، وبات العمل جماعياً، والبضائع كلها حُوِّلت للمجتمع، للجماعة. وأضحى الاستهلاك جماعياً. لم يكن ذلك تحويلاً جماعياً للثروة، وإنما للفقر.... عاش السكان كلهم كأنهم عائلة كبيرة، موظفون ومندوبون، أمناء النقابات، وأعضاء المجلس البلدي، تصرَّف الجميع كأرباب عائلة. لكنهم كانوا منضبطين، لأنه لم يعد ممكناً التسامح مع الامتياز الخاص أو الفساد».

هذه الكلمات، من الفلاحين الفقراء جداً، تأسرُ في فصاحة نادرة إنجازات ووعد الثورة الفوضوية. طبعاً تلك الإنجازات لم تنشأ من لا شيء. كانت ثمرة عقود كثيرة من الصراع، والتجريب والقمع الوحشي والتعلُّم. مفهوم كيف يجب أن ينظَّم المجتمع العادل، كان في ذهن السكان

حين ظهرت الفرصة. تجريبُ إنشاء عَالَم من الحرية والعدل سُحِقَ بسرعة كبيرة من قوى موحَّدة من الفاشية والستالينية والديمقراطية الليبرالية. فهمتْ مراكزُ السلطة العالمية جيداً أنها يجب أن تتوحَّد كي تخرِّب هذا التهديد الخطر، وتعيده للخضوع والانضباط، قبل التحول إلى مهمة ثانوية في تقاسم الغنائم.

في سنوات لاحقة، تمكَّنتُ أحياناً أن أرى مباشرة وفعلياً القليلَ من حَيَوات الناس الفقراء، وهم يعانون القمع والعنف - في الأحياء الفقيرة البائسة في تاهيتي، في ذروة عهد الإرهاب في بداية التسعينيات، المدعوم من واشنطن، لكنَّ الحقائق لا تزال مكبوتة ووثيقة الصلة جداً بمآسي اليوم. أو في مخيمات اللاجئين في لاوس، حيث حُشدَ عشرات الآلاف من الناس الذين طردهم جيش مرتزقة (السي آي إيه) من بيوتهم بعد سنوات من محاولة النجاة في كهوف تحت قصف لا يَرحَم، لا علاقة له بالحرب في فيتنام، أحد أخطر الأعمال الوحشية في التاريخ الحديث، التي لا تزال غير معروفة ولا يزال قتل الكثيرين من الناس بسبب الأرض مُشبَعة بالقنابل التي لم تنفجر. أو في فلسطين والجنوب الشرقي من تركيا وأماكن أخرى. ومن بينها، على نحو خاص بالنسبة لي لدواعٍ شخصية في جنوب كولومبيا، حيث الكامبيسنوس، الشعب الأصلي، والكولومبيون الأفارقة يُطرَدون من أراضيهم المخرَّبة بوساطة الإرهاب والحرب الكيميائية، المسماة هنا «التبخير»، وكأنه لنا الحق بطريقة ما في تخريب البلدان بذرائع نُفبركها نحن - أناس أكفياء لشكل إعجازي من التعاطف والإنسانية، على الرغم من العذاب الرهيب الذي نلعب فيه دوراً رئساً، بينما ننظر إلى الطريق الآخر - لكنّ ليس في ماديسون، لأن الفضل يعود إلى عمل مجموعة دعم كولومبيا هنا.

أحد الأشياء التي تعلَّمتها في مكاتب مكتبات الفوضويين قبل ٧٠ سنة أنني كنتُ على خطأ في اعتبار سقوط برشلونة في ١٩٣٩ بأنه جرَّ الموت

للحرية في إسبانية. لقد قَرَعَ قبل سنتين من ذلك في أيار / مايو ١٩٣٧، حين سُحقتْ الطبقة العاملة الصناعية بوساطة القمع الذي قاده الشيوعيونَ والجيوش الشيوعية التي اكتسحت الريف مدمِّرة الوحدات التعاونية، بمساعدة الديمقراطيات الليبرالية وهتلر وموسيليني ينتظران في الأجنحة - مأساة هائلة لإسبانيا، على الرغم من أنه لم يكن النصر الفعلي الذي توقعه الضواري.

بعد سنوات قليلة غادرتُ بيتي من دراسات الخريجين في هارفارد، حيث كانت لي تجربتي الأولى مع عَالَم النُخبة المثقَّفة. عند وصولي، ذهبت إلى الحفلة المعتادة التي تقيمها الكلية للطلاب القادمين، واستمتعت بفيلسوف بارز جداً مع تعليل للكساد الاقتصادي - الذي لم يحدث كما أكَّد لي. كان فبركة ليبرالية. لم يكن هناك متسولون جاؤوا إلى أبوابنا في حالة يأس في أوائل الثلاثينيات، ولم تضرب نساء من قوات الأمن، وهن مُضربات عن العمل في معامل النسيج التي مررتُ بها، وأنا في عربة الترام مع أمي، حين كنتُ في الخامسة من عمري، ولا أحد من أقربائي العمال العاطلين من العمل. ربما عانت قلة من رجال الأعمال، لكنْ ليس هناك شيء أكثر من ذلك.

تعلَّمت عاجلاً أن هذا كان بعيداً عن الاستثناء، لكنني لا أريد أن أوحي بأن هذا كان نموذجاً لمثقَّفي هارفارد. أغلبهم كانوا ليبراليين ستيفنسونيين، أشخاص صفقوا حين قال ستيفنسون في الأمم المتحدة: إننا يجب أن نحمي فيتنام من «عدوان داخلي» من «اعتداء من الداخل» كما عَبَّر عنه ذلك الرئيس كينيدي. كلمات نسمعها مرة أخرى اليوم، مثلاً، السبت الماضي في نيويورك تايمز، حيث قرأتُ ذلك بعد غزو مارجا في مقاطعة هيملاند.

اصطدمنا بهوية طالبان المهيمنة جداً لدرجة بدت الحركة مماثلة لمنظمة سياسية وحيدة في بلدة من حزب واحد، مع نفوذ يطول كل

واحد. «يجب علينا أن نعيد تقييمنا لتعريف كلمة، عدو» قال البير غادير جنرال لاري نيكلسون، قائد لواء حملة المارينز في مقاطعة هيملاند: «أغلب الناس هنا يحددون أنفسهم طالبانيين... يجب علينا أن نعيد ضبط وتوليف تفكيرنا، لهذا نحن لا نحاول تعقّب الطالبانيين لطردهم من مارجا، نحن نحاول تعقّب العدو وطرده».

مشكلة كانت تُعذِّب الغزاة والفاتحين دائماً، مألوفة جداً بالنسبة للولايات المتحدة من فيتنام، حيث أكاديميو حكومة الولايات المتحدة البارزون في كتاب لاقى مديحاً واسعاً انتحب بأن العدو الداخلي الوحيد «كان الحزب السياسي الجماهيري في فيتنام الجنوبية» وأي محاولة لنا لمنافسته سياسياً سيكون مثل صراع بين سمكة ميناو وبين حوت، لذا علينا قهر قوتهم السياسية باستخدام أفضليتنا النسبية، العنف - كما فعلنا. آخرون واجهوا مشكلات مشابهة: مثلاً، الروس في أفغانستان في ثمانينات القرن العشرين، غزو آثار الغضب الذي نحشده بسبب جرائم الأعداء. يذكّرنا (ويليام بولك) المختص بالشرق الوسط بأن الروس «فازوا بانتصارات عسكرية كثيرة وبوساطة برامج نشاطهم المدني فازوا عملياً بأكثر القرى» وفي الحقيقة، كما نعرف من مصادر موثوقة وأنشؤوا حرية متينة في كابول، وخصوصاً للنساء. لكنّ، لنتابع مع بولك، «خلال عقد من تورّطهم، فاز الروس بكل معركة تقريباً، واحتلوا في وقت أو آخر، عملياً كل بوصة من البلاد لكنهم خسروا ...... الحرب. حين تَخَلّوا ورحلوا، استأنف الأفغان أسلوبهم التقليدي في الحياة».

لم تكن المآزق التي واجهها (أوباما) و(ماكريستال ليست) نفسها. العدو الذي حاول المارينز تعقبه وطرده من القرى لم يكن لديه عملياً دعم خارجي. الغزاة الروس، في تناقض حاد، واجهوا مقاومة تلقت دعماً حيوياً من الولايات المتحدة والعربية السعودية وباكستان الذين جمعوا أشد الأصوليين الإسلاميين الراديكاليين تطرفاً - من ضمنهم هؤلاء

الذين يروِّعون النساء في كابول - وسلَّحوهم بأحدث الأسلحة، بينما كانوا يحملون مُقَدّماً برنامج أسلمة راديكالية لباكستان، مع ذلك إحدى هدايا ريغان للعَالَم، إضافة إلى الأسلحة النووية الباكستانية. لم يكن هدف العمليات العسكرية للولايات المتحدة حماية أفغانستان. لقد شرحه صراحة رئيس مركز السي آي إيه في (إسلام أباد) الذي كان يدير العمليات. كان الهدف «قتل الجنود السوفييت» تباهى أنه «أحب» هذا «الهدف النبيل» موضحاً بكلماته أن «المهمة لم تكن تحرير أفغانستان»، التي لم يهتم بها. أنا متأكد أنكم تعرفون تبجحات (زبغنيو بريجنسكي) المشابهة.

في أوائل ستينيات القرن العشرين كنتُ منهمكاً جداً في نشاطات معادية للحرب. لن أخوض في التفاصيل، على الرغم من أنها تخبرنا الكثير عن المناخ الثقافي، وخصوصاً في بوسطن الليبرالية. قبيل عام ١٩٦٦ كان تورطي عميقاً لدرجة أن زوجتي عادت إلى الجامعة لتحصل على شهادة بعد سبعة عشر عاماً بسبب احتمال تعرضي لعقوبة طويلة في السجن - التي كانت وشيكة جداً. لقد أُعلنت المحاكمة مسبقاً، لكنها أُلغيتْ بعد هجوم تيت، الذي أقنع مجتمع البزنس أن الحرب ستكون مُكلفة جداً، وفي جميع الأحوال فإن أهداف الحرب قد أُنجزت - تاريخ طويل آخر لن أخوض فيه. بعد عدوان تيت والتغير في السياسة الرسمية بات فجأة كل واحد خصم للحرب منذ وقت طويل - في صمت عميق. كتاب مذكرات (كيندي) أعادوا كتابة وصفهم ليقدِّموا بطلهم كحمامة - غير محرجين من التنقيحات العنصرية، أو بالأدلة الوثائقية الشاملة، مُظهرين أن (جي اف كي) كان يفكر في الانسحاب من حرب عرف بأنها غير شَعبية محلياً بعد ضمان النصر فقط.

حتى قبل هجوم تيت كانت هناك شكوك متزايدة في هذه الدوائر، ليس حول الأفكار العاطفية في الصح والخطأ التي ندَّخرها لجرائم

الأعداء، وإنما حول احتمالية نجاح هزيمة «الهجوم من الداخل». ربما تأملات (آرثر شليزينغر) مثال ونموذج، حين بدأ يقلق بأن النصر قد لا يكون بمتناول اليد بهذه السهولة. كما صاغها، «نحن ندعو ونصلي كلنا» أن يكون الصقور على صواب، وأن يَجلبَ الاندفاع الحالي النصر. وإن حدث ذلك. سوف نمجِّد «حكمة وبراعة الحكم» لحكومة الولايات المتحدة في تحقيق نصر عسكري بينما نترك «البلاد المفجوعة التي مزَّقتها وخرَّبتها القنابل وحرقها النابالم، وتحوَّلت إلى أرض خراب بسبب الأسلحة الكيمياوية التي نَزَعت أوراق الشجر، أرض من الدمار والخراب»، مع سحق «نسيجها السياسي والمؤسساتي». لكنَّ التصعيد ربما لا ينجح، وسيثبت أنه مُكلف جداً لنا. لهذا ربما تجب إعادة التفكير بالإستراتيجية.

لم يتبدل سوى القليل اليوم حين رُحِّبَ (بأوباما) كخصم بارز لغزو العراق لأنها كانت «خطأ استراتيجي فاضح»، كلمات يمكن للمرء أن يقرأها أيضاً في صحيفة (البرافدا) في منتصف الثمانينيات. عندما كانت العقلية الإمبريالية متجذِّرة بعمق كبير.

من المُحزِن القول، لكنه ليس من الزائف: إنه ضمن الطيف المُهيمن الامبرياليون الليبراليون هم «الفتيان الأخيار». بديل مرجح كشفت عنه أحدث استفتاءات الرأي. نصف المستفتين يقولون: إن عضو (التي بارتي) العادي أقرب إلى رأيهم من الرئيس أوباما، الذي يفضِّله عدد أقل. هناك انهيار ممتع. ٨٧٪ من هؤلاء فيما يسمى «طبقة سياسية» يقولون: إن آراءهم أقرب إلى أوباما. على حين ٦٣٪ ممن يسمون «أمريكيو التيار السائد»، يقولون إن آراءهم أقرب إلى «التي بارتي». في كل القضايا عملياً، يثق المقترعون بالجمهوريين أكثر من الديمقراطيين، في قضايا كثيرة برقمين عشريين. دلائل أخرى توحي ان هذه الاستفتاءات تُسجل الريبة بدلاً من الثقة. مستوى الغضب والخوف في البلاد لا يشبه شيء

أستطيع تذكّره في حياتي كلها. وبما أن الديمقراطيين في السلطة، فإنه يلازمهم رد الفعل القوي نحو العَالَم الاجتماعي الاقتصادي السياسي.

لسوء الحظ، هذه المواقف غير مفهومة. لأكثر من ثلاثين عاماً، فالدُخول الحقيقية لأغلبية السكان ركَدت أو هبطت، مؤشرات اجتماعية تَفَسُدُ بشكل ثابت منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين إثر النمو في سنوات أسبق، ساعات العمل وعدم الأمان ازداد بالترافق مع الديون. الثروة تراكمت، لكنّ في جيوب قليلة جداً، مؤدّية ربما إلى الإشارة إلى عدم المساوة. هذه في جزء كبير منها عقابيل لرسملة الاقتصاد منذ السبعينيات، وإفراغه من الإنتاج المحلي. ما يراه الناس أمام أعينهم أن المصرفيين المسؤولين بشكل أساس عن الأزمة الراهنة والذين تم إنقاذهم من الإفلاس من الشعب يُعريدون الآن في أرباح قياسية وعلاوات ضخمة، بينما البطالة الرسمية تبقى نحو ١٠٪، وفي التصنيع في مستويات هابطة، واحد من ستة. مع الوظائف الجيدة من غير المحتمل آن تعود. الناس يريدون اجابات وهم على حق، ولا يحصلون عليها، ماعدا أصوات تروي لهم حكايات فيها بعض التماسك الداخلي، لكنّ لو أوقفتَ عدم التصديق، ودخلتَ إلى عَالَم اللاعقلانية والخداع الخاص بهم. تسخيف خدع «التي بارتي» (حفلة الشاي) خطأ فادح كما أعتقد. سيكون من الأنسب للفهم ما يكمن خلفهم، وأن نسأل أنفسنا من دون تحيّز: لماذا يمكن تعبئة الناس بوساطة اليمين المتطرف وليس بقوى مثل تلك التي فعلت هكذا في طفولتي، في أيام تشكيل السي آي او (مؤتمر الهيئات الصناعية) ومذهب الفعالية الأخرى.

لنأخذ صورة توضيحية واحدة لعملية ديمقراطية السوق الموجودة فعلياً، كانت المؤسسات المالية جمهور الناخبين الأساسيين لأوباما، التي كَسبت هذه السيطرة في الاقتصاد، والتي ارتفعت حصتهم من أرباح الشركات من قلة مئوية في السبعينيات إلى الثلث اليوم. هم فضّلوا

أوباما على ماكين، واشتروا أساساً الانتخابات من أجله. توقَّعوا أن يكافَؤوا وتم ذلك. لكنْ منذ بضعة شهور، استجابة لغضب الشعب المتصاعد، بدأ أوباما بانتقاد «المصرفيين الجشعين» الذين تم إنقاذهم بوساطة العوام، وحتى إنه اقترح بعض الإجراءات لكبحهم. كان العقاب على انحرافه سريعاً. أعلنت المصارف الرئيسة بشكل جلي أنها سوف تنقل التمويل للجمهوريين إن أصرّ أوباما في خطابه الهجومي.

سمع أوباما الرسالة. وخلال أيام أبلغ صحافة البزنس أن المصرفيين هم «فتيان» رائعون. واستفرد بثناء خاص رؤساء اثنين من المستفيدين البارزين من الهبات الشعبية (جي بي مورغان تشيز وغولدمان ساكس)، وطَمأنَ عالم البزنس بقوله: «أنا ككل الأغلبية من الأمريكيين، لا أحسد نجاح الناس أو ثروتهم». كالعلاوات والأرباح التي تثير غيظ الشعب. «ذلك جزء من نظام السوق الحر» استمر أوباما، ليس خطأً، كما فسر مفهوم «السوق الحر» عقيدة دولة رأسمالية.

يجب ألا يكون هذا مفاجئاً. ذلك الراديكالي الفاسد (آدم سميث)، يتكلم عن إنكلترا، لاحظ أن المهندسين الأساسيين للسلطة كانوا مالكين للمجتمع، التجار والمصنِّعون في زمنه تأكدوا أن تلك السياسة ستخدم بشكل تام مصالحهم مهما كان التأثير في شعب إنكلترا «ثقيلاً»؛ والأسوأ، على ضحايا «ظلم الأوروبيين الهمجي» في الخارج. كانت جرائم إنكلترا في الهند تُشكِّل قلقاً أولياً لمحافظ تقليدي مع قيم أخلاقية، صنْفٌ يمكن أن يفتش عنه دايوجين (فيلسوف إغريقي قديم) اليوم.

نسخة مطوَّرة لمبدأ سميث هو العَالم في الاقتصاد السياسي (توماس فيرغسون) هي نظريته في «توظيف نظرية السياسة»، التي تَعدُ الانتخابات مناسبات يلتحم فيها جماعات من المستثمرين للسيطرة على الدولة باختيار مهندسي السياسة الذين سيخدمون مصالحهم. تبين أنه متنبئ جيد في السياسة لفترات طويلة. هذا يجب ألا يكون مفاجئاً.

تمركُزُ القوة الاقتصادية سوف يسعى ليمدَّ بشكل طبيعي سيطرته على العملية السياسية. حدث أن كان مُفرطاً في الولايات المتحدة كما ذكرت.

هناك نقاشٌ محمومٌ هذه الأيام حول إن كانت الولايات المتحدة ستفقد مركزها المهيمن على الشؤون العالمية في الصين والهند، والقوى العالمية الصاعدة ومتى سيحدث ذلك. هناك عنصر من الحقيقة في هذا النُواح. لكنّ بمعزل عن الاعتقادات الخاطئة حول الدَين وعجز الميزانية والحالة الفعلية للصين والهند، النقاشات مؤسَّسة على أفكار خطرة خاطئة عن طبيعة السلطة واستعمالها. في الخطاب الأكاديمي والشعبي، من الشائع اعتبار الفاعلين في القضايا العالمية أن يكونوا دولاً تسعى إلى هدف غامض يسمى «المصلحة القومية»، منفصل عن التوزيع الداخلي للسلطة. آدم سميث الذي يتمتع ببصيرة حادة، وبدهيته راديكالية يقدِّم تصحيحاً مفيداً. لنتذكر، نستطيع أن نرى أن هناك في الحقيقة انتقالاً في القوة، لكنه ليس ذلك الذي يحتل المنصة المركزية: انتقال آخر من قوة العمل العالمية إلى الرأسمال العابر للقوميات، يتصاعد بحدة أثناء السنوات النيوليبرالية الجديدة. الكلفة ضخمة، تشمل الناس العاملين في الولايات المتحدة، والفلاحين المحرومين في الهند، وملايين العمال المحتجين في الصين، حيث حصة العمل في الدخل القومي تهبط بسرعة أكبر من أغلب بلدان العالم.

عالم الاقتصاد السياسي (مارتن هارت – لاندزبيرغ) لاحظ أن الصين تلعب دوراً قيادياً في الانتقال الحقيقي للقوة، بعد أن أصبحت على نحو ضخم مَصنَعَ تجميع لنظام الإنتاج الإقليمي. اليابان وتايوان واقتصادات متقدمة آسيوية أخرى تصدِّر أجزاء ومكونات إلى الصين، وتوفر أكثر التكنولوجيا المعقَّدة. يجمعها العمل الصيني ويصدِّرها. لتوضيح ذلك، مؤسسة سولان للدراسات قدَّرت أن آيباد بـ١٥٠ دولاراً أمريكياً مصدَّراً من الصين، نحو ٣٪ من قيمته أضافتها الصين، لكنه

يُعَدُّ صادرة صينية. لقد أثير قلق كبير حول عجز الولايات المتحدة التجاري المتزايد مع الصين، لكنّ الذي لم يحظَ إلا بقليل من الملاحظة حقيقة أن العجز التجاري مع اليابان وبقية آسيا قد هبط بحدّة عندما تشكّل نظام الإنتاج الإقليمي الجديد. استنتج تقرير لوول ستريت جورنال أنه لو حسبت القيمة المُضافَة بدقة، فسيهبط العجز التجاري الأمريكي - الصيني بمقدار ٣٠٪، بينما سيرتفع عجز الولايات المتحدة التجاري مع اليابان بمقدار ٢٥٪. المصنِّعون الأمريكيون ينهجون المسلك نفسه، يوفرون الأجزاء والمكوِّنات للصين لتُجمِّعها وتُصدِّرها، وأكثرها يعود إلى الولايات المتحدة. للمؤسسات المالية ومحال التجزئة العملاقة، إن ملكية وإدارة الصناعات وتصنيع السلع وقطاعات كبيرة منتسبة جداً إلى هذه الرابطة، كل هذا سماوي. ليس للعمال الأمريكيين، لكنْ كما أشار سميث، قدرهم ليس اهتمام «صنَّاع السياسة الرئيسين».

صحيح أنه ليس هناك شيء أساس جديد في عملية (دياندستراليزيشن). المالكون والمديرون يسعون بشكل طبيعي إلى أخفض كلفة للعمل؛ المساعي لفعل مختلف، أشهرها من (هنري فورد) التي كانت تقتلها المحاكم أضحت الآن تعهداً قانونياً. إحدى الوسائل لنقل الإنتاج. في الأيام السابقة كان الانتقال داخلياً، وخصوصاً إلى الولايات الجنوبية حيث يمكن قمع العمل بقسوة أكبر. شركات رئيسة، مثل شركة الصلب الأمريكية للمُحسِن المقدَّس (أندرو كارنيجي)، استطاعت أيضاً أن تستفيد من قوة عمل العبيد الجدد التي خلقها تجريم حياة السود بعد نهاية إعادة البناء في ١٨٧٧، مكوِّن أساس للثورة الصناعية الأمريكية، واستمر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. لقد أُعيد إنتاجها جزئياً خلال الفترة النيوليبرالية الحديثة، مع الحرب على المخدرات استُخدمت كذريعة لسَوْق السكان الفائضين أغلبهم من السود إلى السجون، ووفَّر ذلك أيضاً مَورداً جديداً من عمل السجون في

الولايات أو في سجون خاصة، أكثره منتهك لمواثيق العمل الدولية. للكثير من الأمريكيين الأفارقة، بما أنهم صُدِّروا إلى المستعمرات، فقلّما أفلتت الحياة من قيود العبودية وأحياناً أسوأ. حيث الأحدث هو الانتقال الذي تم أغلبه إلى الخارج.

عودة إلى التهم الموجَّهة ضد «المصرفيين الجشعين» للإنصاف يجب أن نذعن بأن لديهم دفاعاً مشروعاً. واجبهم أن يزيدوا الربح وحصة السوق للحد الأقصى، في الواقع ذلك هو التزامهم القانوني. إن لم يقوموا بذلك فسيُستبدلون بأناس يفعلون ذلك. هذه حقائق مؤسساتية كما هي عدم كفاءات السوق الموروثة التي تطلب منها تجاهل الخطر الجهازي العام: احتمالية أن الصفقات التي يدخلون فيها سوف تضر بالاقتصاد عموماً. هم يعرفون جيداً أن هذه السياسات يُحتمل أن تضع الاقتصاد في صهريج، لكنَّ هذه الأشياء الخارجية كما يسمونها ليست شأنهم ولا يمكن أن تكون، ليس لأنهم أشخاص سيئون، وإنما لأسباب مؤسساتية – تأسيسية. ليس من العدل اتهامهم بـ«الحماس غير العاقل» لنستَعِر تعريف (آلان غرينبان) المُوجِز للحقيقة أثناء ازدهار التكنولوجيا الصناعية في أواخر التسعينيات. حماسهم ومخاطراتهم كانت منطقية جداً، إنهم يستطيعون الفرار إلى حماية الدولة الجديدة، ممسكين بنسخهم من حايك وفريدمان وراند.

باختصار، تجاهل الخطر الجهازي، صفة تأسيسية موروثة، وحوافز فاسدة تطبيق لبدهية سميث. مرة أخرى، ليس بصورة كبيرة.

بعد حدوث أحدث كارثة، اتفق الاقتصاديون البارزون على أن «إجماعاً ظاهراً للعيان» قد كشف عن «الحاجة إلى مراقبة متعقِّلة عامة» للأسواق المالية، أي، «الانتباه إلى استقرار النظام المالي كله وليس أقسامه الفردية فقط» (باري ايكينغرين، أحد أبرز محلِّلي النظام المالي ومؤرخيه). أضاف عالمان اقتصاديان عالميان: إنه «هناك اعتراف متزايد

بأن نظامنا المالي يدور دورة يوم قيامته. حينما يفشل، نتكل على نقود رخوة وسياسات الخزينة في كفالته وضمانه. يعلِّم هذا التجاوب القطاع المالي: ادخُلوا في مقامرات كبيرة ليُدفع لكم بسخاء، ولا تقلقوا حول التكاليف - سوف يدفعها دافعو الضرائب» من خلال إنقاذ المؤسسات المالية ووسائل أخرى، وهكذا «يُبعث النظام المالي إلى الحياة ليقامر من جديد - ويسقط من جديد». النظام هو «حلقة الموت» في كلمات مدير بنك إنكلترا المسؤول عن الاستقرار المالي.

جوهرياً، المنطق ذاته يطبَّق في مكان آخر. قبل سنة، عَالَم التجارة والأعمال اعترفت أن شركات التأمين وفارما الكبيرة، في تحد كبير للمشيئة الشعبية، ونجحت في تخريب الإمكانية لإصلاح صحي جدي - وهي مسألة في غاية الأهمية، ليس للناس الذين يعانون نظاماً صحيّاً مختلاً وظيفياً فقط، وإنما حتى على أسس اقتصادية ضيقة. نحو نصف العجز الذي يجب أن نستنكره يمكن نسبه إلى نفقات عسكرية غير مسبوقة ارتفعت تحت حكم (أوباما)، وجلّ ما تبقى ينسب إلى التكاليف المتزايدة لنظام الرعاية الصحية المخصّص وغير المنضبط، الفريد في العَالَم الصناعي، والفريد في هباته لشركات الأدوية - الذي يعارضه ويقاومه ٨٥٪ من السكان. في شهر آب/أغسطس الماضي نشرت بيزنس ويك خبراً على غلافها تحتفل بانتصار صناعات الضمان الصحي. طبعاً لم تكتف بالنصر بل واصلت الصراع لتحقيق مكاسب أكبر ضد إرادة الأغلبية الواسعة من الشعب أيضاً. قصة مشوِّقة أخرى سأدعها جانباً. بملاحظة هذا النصر، أعلن المعهد الأمريكي للبترول وبدعم من غرفة التجارة ولوبيات شركات كبيرة أخرى بأنهم سيستخدمون هذا الطراز من حملات صناعة الصحة لتكثّف جهود دعاياتها لإقناع الشعب بصرف المخاوف حول التسخن الكوكبي الانثروبوجينك. وحقق ذلك نجاحاً كبيراً؛ المديرون التنفيذيون كُرِّسوا

لهـذه المهمـة، وهـم يعرفـون إضـافة للبقيـة منـا أن الخدعـة الليبراليـة حقيقيـة، والتوقعات كالحـة. لكنـهم ينفـذّون دورهـم المؤسـساتي. مـصير الجنس البشري شيء خارجي يجب عليهم تجاهله إلى المدى الذي تسود فيه أنظمة السوق.

أحـد أوضـح وأهـم التعـبيرات (المـزاج الـشعبي) الـتي رأيتُهـا كَتَبَهـا (جوزيف اندرو ستاك)، الذي حطم طائرته الصغيرة في مبنى مكاتب في اوستن - تكساس قبل أسابيع قليلة، وانتحر. ترك بياناً يصف فعلته. لقد سَخِرَ منها، لكنها تستحق أفضل من ذلك بكثير كما أعتقد.

يتعقب بيان (ستاك) تاريخ الحياة التي قادته إلى هذا الفعل اليائس. بـدأت القـصة حـين كـان طالبـاً مراهقـاً يعـيش علـى أجـر زهيـد في (هاريسبيرغ بي ايه) قُرب قلب ما كان مركزاً صناعياً عظيماً سابقاً. كانت جارته امرأة في ثمانينياتها، تعيش على طعام القطط، «زوج أرملة لعامل صلب وحديد متقاعد. زوجها عمل طوال حياته في معامل الصلب وسط (بنسلفانيا الوسطى) مع وعود من الشركة الكبيرة والنقابة أنه من أجل سنواته الثلاثين في الخدمة سينال معاشاً ورعاية طبية مرتقبة في تقاعده. بدلاً من ذلك كان واحداً من الآلاف الذين لم يحصلوا على أي شيء، لأن إدارة المعمل غير الكفوءة، وفساد النقابة (لا حاجة إلى ذكر الحكومة) أغار على صناديق التقاعد وسرق معاشاتهم التقاعدية. كل ما لديها كان ضماناً اجتماعياً تعيش به». (أقتبس)؛ وكان بمقدور (ستاك) أن يضيف: إنه كانت هناك جهود مدبَّرة ومستمرة من كبار الأغنياء وحلفائهم السياسيين أن يستولوا على ذلك لأسباب زائفة. قرر ستاك عندئذ بأنه لا يثق بالشركة الكبيرة وأنه سيترك العمل من تلقاء نفسه، فقط ليكتشف أنه لا يستطيع الثقة بالحكومة التي لا تهتم بالناس الذين مثله، وإنما بالأغنياء وبذوي الامتيازات فقط؛ أو نظام قانوني فيه، بكلماته: «هناك تفسيران لكل قانون، تفسير للأغنياء جداً وتفسير آخر

للبقيــة الباقيــة منــا». أو حكومــة تتركنــا مــع «المزحــة الــتي يــسميها الأمريكيون (**نظاماً طبياً**)، يشمل شـركات الـدواء والتـأمين [الـتي] تقتـل عـشرات الآلاف مـن النـاس كـل سـنة»، برعايـة حـددّتها الثـروة، غـير مطلوبـة. كـل نظـام اجتمـاعي فيـه «حفنـة مـن قـاطعي الطـرق والنـهّابين يـستطيعون ارتكـاب أعمـال وحـشية لا تُـصدق.... وحـين يـأتي الوقـت لتحطُم قطـارهم مـن الكسب غـير المشروع تحـت وطـأة نهمهـم وغبـاوتهم الكبيرة، تجد قوة الحكومة الفدراليـة كلها تـأتي لنجـدتهم خـلال أيـام، إن لم تكن سـاعات». وأكثر بكثير.

يخبرنا (ستاك) أن فعله اليائس الأخير كان محاولة لإظهار أن هنـاك أناساً راغبين في الموت من أجل حريتهم، بأمل إيقاظ آخرين من سباتهم. هذا لم يكن يفاجئني لو أنه فكَّر في موت عامل الصلب المبكِّر الـذي كـان يعـرف عـن العَـالَم الحقيقـي حـين كـان مراهقـاً. عامـل الـصلب لم ينتحـر بـالمعنى الحـرفي بعـد أن رُمِـي إلى كومـة القمامـة، لكنـها أبعـد مـن حالـة معزولـة، نـستطيع أن نـضيف حالتـه وحـالات كـثيرة مـشابهة لهـا إلى الضريبة الضخمة (الجرائم المؤسساتية لرأسماليـة الدولـة). بمعـزل عـن الحالـة، كانـت هنـاك دراسـات لاذعـة مـن سـخط وغـيظ الـذين طرحـوا جانبـاً حـين بـدأت بـرامج الدولـة - الـشركات كوربوريـت التمويـل وحـل الصناعة، أُغلقت المصانع وخُرِّبت العائلات والجاليات. باحوا بإحـساس الخـداع الخطـر مـن جانـب النـاس العـاملين الـذين اعتقـدوا أنهـم أتمـوا واجبـاتهم نحـو المجتمـع في ميثـاق أخلاقـي مـع التجـار والحكومـة لكنـهم اكتشفوا أنهـم ليـسوا سـوى أدوات مـن أجـل الـربح والـسلطة، حيـث كـانوا مصانين بحـرص منها بوساطة مؤسسات عقائدية.

عند قراءة بيان (جو ستاك)، والكثير المُشابه لـه، أجـد نفـسي أسـتعيد ذكريات طفولتي والكثير الذي لم أفهمـه آنـذاك. (جمهوريـة فيمـار) كانـت

ذروة الحضارة الغربية في العلوم والفنون، واعتبرت أيضاً نموذجاً للديمقراطية. خلال عشرينيات القرن العشرين دخلت الأحزاب التقليدية الليبرالية والمحافظة في منحَدر جامد، قبل أن تشتد العملية بسبب الكساد الكبير. التحالف الذي انتخب (الجنرال هندينبيرغ) في عام ١٩٢٥ لم يكن مختلفاً جداً عن القاعدة الجماهيرية التي دفعت هتلر بقوة إلى المنصب بعد ثماني سنوات، مُجبِرة الارستقراطي هندينبيرغ أن ينتقي «العريف الصغير» الذي يحتقره مستشاراً له (رئيس وزراء في ألمانيا - المترجم). حتى عام ١٩٢٨ كان للنازيين ٣٪ من أصوات الناخبين. بعد سنتين من ذلك، أكثر صحيفة محترمة في برلين كانت ترثي منظر الملايين الكثيرة في هذه «البلاد المتطوّرة جداً» التي «أعطت صوتها الانتخابي إلى قائمة الشعوذة والدجل الأشد وضاعة وتجوفاً وفجاجة». لقد سئم الشعب من التشاحن الدائم في سياسة (فيمار)، ومن خدمة الأحزاب التقليدية لمصالح الكبار وفشلها في الاهتمام بمظالم الشعب. انجذبت جماهير الشعب إلى القوى التي كرَّست نفسها في دعم وتأييد عظمة الأمة والدفاع عنها ضد التهديدات المختَرعة في دولة مجدِّدة مسلَّحة، تزحف إلى مستقبل مجيد، يقودها شخصية كاريزمية تنفذ «إرادة العناية الإلهية الأبدية، خالق الكون»، كما خطب في الجماهير المُنوَّمة مغناطيسياً. في أيار ١٩٣٣ لم يحطم النازيون الأحزاب التقليدية الحاكمة فقط، وإنما حتى أحزاب الطبقة العاملة الضخمة، الديمقراطيون الاشتراكيون والشيوعيون، ومعهما جمعياتهما القوية المرافقة. أعلن النازيون عيد الأول من أيار عام ١٩٣٣ أن يكون عطلة للعمال، شيء لم تستطع الأحزاب اليسارية تحقيقه أبداً. الكثير من العمال شاركوا في المظاهرات الوطنية الضخمة، بأكثر من مليون شخص في قلب برلين، كانت تضم فلاحين وحرفيين وأصحاب الحوانيت وقوات

شبه عسكرية ومنظمات مسيحية ونوادي رياضية ورماية وبقية التحالف الذي تَشكّل حين انهار الوسط. في مستهل الحرب ٩٠٪ من الألمان ربما كانوا يسيرون على النغمة العسكرية وفي قمصان بنية.

كما ذكرت، بشكل يكفي لأتذكر تلك الأيام المرعبة والمشؤومة من سقوط ألمانيا، من آداب السلوك إلى البربرية النازية، لأستعير كلمات الأكاديمي البارز الدارس للتاريخ الألماني (فريتز شتيرن). يخبرنا أنه كان يتذكَّر مستقبل الولايات المتحدة حين كان يراجع «مساراً تاريخياً فيه امتعاض ضد عَالَم دنيوي متحرِّر من الوهم، تحرُّرٌ في هروبٍ مُفرِحٍ من الجنون». العَالَم معقَّدٌ جداً ليكرره التاريخ، لكن على الرغم من ذلك هناك دروس يجب تذكرها. ليس هناك نقص في مهمات هؤلاء الذين اختاروا وظيفة المثقَّفين النقديين، أياً كان وضعهم في الحياة. يستطيعون السعي ليكنسوا غشاوة الوهم المخترع بحرص ويكشفون الحقيقة العارية.

الأكراد ضمن الربيع العربي وأزمة الشرق الأوسط

مقابلة مع نعوم تشومسكي

يجريها حيدر ناصح - تشومسكي انفو

٣٠ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٢

ناصح: أولاً، أريد أن أسألكَ كيف تقرأ الوضع الذي يحدث الآن في الشرق الأوسط، أقصد الربيع العربي كبداية متفائلة للديمقراطية وإسقاط النصب الديكتاتورية في المنطقة؟

تشومسكي: إنها عملية مستمرة وكان هناك بعض المكاسب خصوصاً في تونس ومصر. ففي كلا البلدين هناك أكثر من افتتاحات من حرية التعبير وتنظيم العمل وإنجازات أخرى. لكن هناك طريق طويل يجب قطعه وعوائق خطرة يجب قهرها. ديكتاتوريات النفط - ما يتهمهم به الغرب - تسيطر على مجرى الأحداث. البقية تتنوع كثيراً، أغلبها في طرق غير جذابة.

ناصح: هل تعتقد أن مآزق الشعب والأمة هي السبب الرئيس خلف ما يحدث هنا، أم إن هناك عوامل خارجية أيضاً، كالغرب مثلاً.

تشومسكي: للثورات جذور داخلية. الغرب يكرهها ومعارض بقوة لصعود الديمقراطية في المنطقة. لنرَ لماذا من الضروري النظر إلى نتائج استطلاعات الرأي العام التي أجرتها وكالات الاستفتاء البارزة في الولايات المتحدة. الشيء الأخير الذي تريد رؤيته الولايات المتحدة وحلفاؤها هو رؤية سياسات مُنفَّذة تعكس الإرادة الشعبية، إلى المدى الذي تقوم به الديمقراطية. لهذا السبب تدعم الديكتاتوريات مادام ذلك ممكناً وراضية. إن الديكتاتوريات النفطية الأمريكية يبدو بأنها أوقفت المد الديمقراطي على الأقل ودحرته في الوقت الحالي.

ناصح: لأي سبب في اعتقادك يجعل روسيا والصين تدعمان النظام السوري؟ هل يُعزى ذلك إلى الصراع بين هذين التصنيفين المختلفين، لنقلْ الشرق والغرب أو الليبراليين والآخرين؟

تشومسكي: لا يبدو بأن الصين تلعب دوراً فاعلاً. روسيا تدعم اتفاق جنيف من أجل نظام حكم انتقالي، توصلوا إليه الصيف الماضي، وكذلك ممثل الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي. الذين يعرفون جيداً البلاد بشكل حقيقي – (باتريك كوكبيرن) و(تشارلز غلاس) وغيرهما – أشاروا إلى أن الوضع أكثر تعقيداً مما تنقله وسائل الإعلام بكثير، مستندين بشكل واسع إلى دعاية الثوار. شاهد مثلاً، تقرير (كوكبيرن) اليوم في الاندبندت اللندنية، ٣٠ كانون الأول / ديسمبر.

من المشوق أن الأسئلة تُطرح حول دور روسيا، لكنها نادرة على الرغم من أن ما تتعرَّض له هي دولة صديقة، نذكر مثالاً واحداً. أمريكا الوسطى خلال سنوات ريغان، الولايات المتحدة لم تتفاعل كما تفعل روسيا الآن. وبدلاً من ذلك قَدَّمَت مُساعَدة عسكرية ضخمة لقوات الحكومة مع دعم عسكري وتدريب (في الولايات المتحدة أيضاً) ومنعت أي دعم للثوار، مع تهديدات صارمة جداً وموثوقة. وإن لم تُعجب الحكومات، فإنها أطلقت حروباً إرهابية ضدها، أو دعمت انقلابات عسكرية للإطاحة بها، مع احتجاج قليل جداً، إن وجد، من الحلفاء الغربيين. يستطيع المرء مقارنة السلوك الروسي في الدول التابعة له تحت الحكم الشيوعي مع معالجة الولايات المتحدة للجنوب الكوني، لكن ليس مع سلوكها في سوريا، ومع ذلك يمكن للمرء الاعتراض عليه.

ناصح: قال الكثير من الباحثين: إن الربيع العربي رسالة غير مباشرة للأنظمة الديكتاتورية الأخرى في المنطقة، لكي تفهم أنها يجب أن تقوم بإصلاحات كبيرة أو ستواجه مستقبل مصر وليبيا وتونس ذاته، ما رأيك بهذا الخصوص؟

تشومسكي: إن كانت الرسالة هي تلك فإنها لم تلق آذاناً مصغية في بعض الدول العربية. وبدلاً منها الرسالة التي سمعتها هذه البلدان أن الغرب سيدعم بقوة قمعها لأي ميول للديمقراطية. درس مصر وتونس هو أن الغرب سيتبع نموذجاً كلاسيكياً يدعمه مادام ذلك ممكناً، وإن تعذر الاستمرار بذلك، نموذجياً إن انقلب الجيش ضده عندها دَعْهُ في مكان ما وحاول، أعد تنصيب النظام السابق بأكثر ما يمكن. هناك قائمة طويلة لمثل هذه الحالات: (سوموزا ودوفالير وماركوس ومبوتو وسوهارتو).... ومن غير المفاجئ أن المسلك نفسه سيُتَّبَع في تونس (بوساطة فرنسا) ومصر (بوساطة الولايات المتحدة). ليبيا حالة خاصة. لقد حَظِيَ القذافي بكثير من الدعم من الغرب حتى اندلعت الثورة، لكنهم فضَّلوا حكومة مستقرة أكثر لدعم مصالحهم، ولهذا انضموا للثورة تحت ذريعة حماية المدنيين. هناك دروس قليلة لديكتاتورين آخرين.

ناصح: في بلدان الشرق الأوسط، بدأ بعض المثقَّفين بتسمية الثورات «الربيع الإسلامي» هذا جاء بعد نجاح الأحزاب الإسلامية في مصر، ويتوقعون نجاح الأحزاب الإسلامية في بلدان أخرى أيضاً، هذا بسبب فشل ما سمي العلمانية العربية في نصف القرن الماضي؟ هل يمكن التوسع في هذا؟

تشومسكي: كانت الأحزاب الإسلامية الوحيدة التي استطاعت تأدية دورها تحت الديكتاتورية؛ كان لديها على الأقل المساجد، في الواقع فرص أكثر بكثير. أنفق بعض السلفيين تمويلاً خارجياً من العربية السعودية على الأقل، وقد اندمجوا بشكل أفضل في المؤسسة الاقتصادية، وكانوا أكثرَ استعداداً للتأقلم مع البرامج النيوليبرالية التي فرضتها المؤسسات الغربية. إن فشلوا في تلبية مطالب القطاعات السكانية، كما هو متوقع، سيتولى الثورات فريق أكثر عسكريتارية وراديكالية يتجاوز المعارضة إلى الديكتاتورية.

ناصح: من الواضح بأن الشرق الأوسط سوف يناضل لتوطيد الديمقراطية، ويبدو آن لديه القدرة والنزعة لذلك، لكنْ ذَكرتَ في مقابلة سابقة أن «الغرب مروَّع من الديمقراطية العربية»، السؤال المهم هنا لماذا هو مرعوب، بينما يتظاهر دائماً بأنه رسول الديمقراطية في العالم؟

تشومسكي: لماذا هو مُروَّع؟ السبب هو ما ذكرته للتوّ، وليس هناك أي شيء جديد أو خاص بالنسبة للعَالَم العربي. وهذا متجذِّر في بحوث ودراسات التيار السائد الرئيس إن الولايات المتحدة لا تدعم الديمقراطية إلا بقدر تطابقها وانصياعها للأهداف الاجتماعية والاقتصادية، والقوى الغربية الأخرى لا تختلف عنها. لا يستطيع المرء أن يتوقع من السلطة المركزية أن تفضِّل الحكم الشعبي أو المحلي أيضاً. لماذا يتظاهرون بشكل مختلف؟ الكل يفعل ذلك. حتى ستالين صرَّح بحبه للديمقراطية. نحن لا نتعلَّم من طبيعة أنظمة السلطة بالاستماع إلى خطاباتهم البلاغية.

ناصح: في ذلك الوضع، أوروبا والولايات المتحدة ربما لهما مواقف مختلفة، في الوقت الذي تريد بلدان الشرق الأوسط حقيقة توطيد الديمقراطية، فأي موقف أفضل باعتقادك ستأخذه تلك البلدان المؤيِّدة للديمقراطية؟

تشومسكي: أنا لا أعرف أي بلدان «مؤيِّدة للديمقراطية»، لشيء واحد، البلدان ليستْ مؤيِّدة أو معادية للديمقراطية، وإنما قطاعات سكانية ضمنية هي كذلك.

ناصح: ما أقصده بالبلدان المؤيِّدة للديمقراطية هي البلدان التي حدث فيها الربيع العربي. هناك إمكانيات إنها سَتَتَّبع نوعاً من النظام الديمقراطي الإجتماعي، مثل بعض بلدان الاتحاد الاوروبي أو نظام نيوليبرالي مثل الموجودة في الولايات المتحدة أو نظام إسلامي.

تشومسكي: في الحقيقة لا يمكن التكلّم عن بلدان «تريد أن توطِّد الديمقراطية». سكانها عادة من يفعلون ذلك لكنَّ النخب ومراكز القوة بشكل نموذجي لا تفعل، على الأقل ديمقراطية نافذة. بقدر ما تكسب العناصر الشعبية حقوقاً وقوة يجب عليهم أن يأخذوا المواقع نفسها مثل نظرائهم وسط السكان في الغرب: العمل على تعزيز الحرية والعدل والحقوق والتطوّر الثابت، ومثلها من القيم الأخرى.

ناصح: زعمتْ الولايات المتحدة أنها تنقل برنامجاً لترقية الديمقراطية إلى الشرق الأوسط، هل تعتقد أن ذلك سيساعد على تشكيل تصميم هذه البلدان ثانية بشكل يجلب الرخاء الاقتصادي للأمم ولحل مشكلاتها الأساسية على الأقل.

تشومسكي: التعليق السابق نفسه. المخطِّطون في الولايات المتحدة يسعون إلى خدمة المصالح التي يمثلونها، وبشكل ساحق للقوة المركَّزة - تركيز القوة، وأغلبه اقتصادي، في مجتمعاتنا. وسيكون مفاجئاً تماماً إن كان العكس، بسبب طبيعة المجتمع. المثل مع القوى الإمبريالية الأخرى. والمبدأ الأساس والرئيس صرّح به وزير الخارجية في إدارة (ودرو ويلسون) أثناء ذروة ما سمي «مثالية ودرو». إشارة إلى سياسة الولايات المتحدة خلال فترة طويلة في أمريكا اللاتينية (الميدان الرئيس لسلطة الولايات المتحدة)، قال: إن ذلك مؤسَّس على «الأنانية وحدها». الولايات المتحدة «تجلُ مصالحها وسلامة الأمم الأمريكية الأخرى حدث عرضي وليس غاية». الرئيس ويلسون وافق، ونصح بأنه سيكون من «الحماقة» أن ندع العامة يفهمون أي شيء من هذا. الخطابة كانت دائماً رفيعة ومُلهمة. ومرة أخرى، هذا ليس خاصاً بالولايات المتحدة وليس مفاجئاً إطلاقاً لهؤلاء الذين بعيون مفتوحة.

ناصح: أحد أهم الأسئلة في التاريخ هو فكرة ثورات الأمم، أي ما تفعله البلدان العربية والأكراد يناضلون منذ وقت طويل، لكنَّ الأكراد لا

يملكون دولة، بينما العرب يملكون، وكلاهما لهما المشكلات والمآزق ذاتها، لذا هل تعتقد أن مشكلات الأكراد لها علاقة أكثر بحالة اللادولة؟ هل تأسيس دولة كردية يحل المشكلات؟

تشومسكي: في هذا العَالَم، حالة اللادولة تفرضُ مشكلات خاصة، كما يعرف الأكراد جيداً. امتلاك دولة يجب (في أفضل الأحوال) أن يحل البعض منها لكن المشكلات الكثيرة الأخرى ستبقى، كما يكشف التاريخ والمنطق.

ناصح: ما نوع المشكلات برأيك التي لا يمكن حلها من خلال دولة مستقلة للأكراد، وخصوصاً الأكراد العراقيين في هذه الحالة؟

تشومسكي: كما نعرف كلنا، المشكلات كثيرة حاسمة لم تحل بتحقيق ووصول حالة الدولة، وذلك سوف يصح على الأكراد أيضاً. بعض المشكلات خاصة بمجتمعات وحضارات، ومكانها ضمن أنظمة سلطة عامة، هناك المشكلات أخرى. بالنسبة للأكراد العراقيين مثلاً، إن كانوا سينالون استقلالاً حقيقياً فسيواجهون حقيقة بأنهم محاطون بقوى إما معادية أو تتحملهم بالكاد.

ناصح: لو انتقلنا إلى الوجه النظري للوضع، أنتَ ترى أن الشرق الأوسط حقيقة في ذروة صراعات إيديولوجية، إنه في نقطة زمنية مختلفة مقارنة بالغرب، بينما كان هناك زعم أن الإيديولوجيا انتهت في الغرب، ما رأيك بهذه الاختلافات؟

تشومسكي: «نهاية الايديولوجيا» زعمٌ تكرَّر مراراً، مثلاً في أواخر خمسينيات القرن العشرين مباشرة وعشية الثورات الشعبية في ستينيات القرن العشرين. «نهاية التاريخ» لها سجل شهير أيضاً. لا أعرف أي مبرر لأخذ آي من هذا على محمل الجد اليوم، كما لم يكن هناك سابقاً. للشرق الأوسط مشكلاته الخاصة به، بعضها في منتهى الخطورة. سأذكر واحدة فقط، ثروة المنطقة متركِّزة بشكل واسع في ثروة متناقصة: الهيدروكربونات.

ذلك يوفر فترة محدودة ضمنها يمكن تأسيس تطوّر ثابت ودائم. إن ضاعت الفرصة فتكون العواقب كارثية. وتلك المشكلة رقم واحد فقط.

ناصح: إذاً هل تعتقد أن الايديولوجيا انتهت في الغرب وهي في ذروة تقدمها في الشرق الأوسط؟

تشومسكي: لا شيءَ من ذلك إطلاقاً.

ناصح: كيف؟ هل يمكنك التوسّع قليلاً في هذا؟

تشومسكي: الغرب ممزَّق بصراعات خطرة، «ايديولوجية» إن أحببت، تتعلق بالمسار الذي تسلكه الحكومات والمجتمعات. وبعض العقائد تعتنقها النخب هي بمستوى يقارب التعصب الديني: مثلاً، الإيمان بالنزعة الخيرية الأصلية للقوى الغربية، التي تعوقها وتكبحها أحياناً السذاجة والغلط. هذه الصفات البارزة المميزة للثقافة الغربية وُثِّقت جيداً.

ناصح: أنت دائماً تأخذ الموقف بأن الأصولية الإسلامية والتيارات الإسلامية تطوَّرت في البلدان التي فشلت فيها العلمانية، هل تعتقد ما يجري في مصر إشارة جيدة على ذلك؟

تشومسكي: العلمانية في مصر لم «تفشل» تماماً. لقد سُحقت بمركَبٍ من قوى خارجية وفسادٍ داخليٍ وتبعية لقوى خارجية (في عصور مختلفةٍ) لكنَّ التيارات العلمانية نابضة بالحياة، ويمكن أن تسود.

ناصح: آخيراً، في هذه الصراعات بين الايديولوجيات والتدخلات الخارجية، أي نوع من الدولة والدستور يمكن أن يكون الأفضل مع الأخذ بالحسبان الوضع الاجتماعي والتاريخي للمنطقة؟

تشومسكي: نستطيع أن نسأل الأسئلة ذاتها عن الغرب. الأسئلة واسعة جداً، ومعقَّدة ومتنوِّعة لكي أحاول أن أتحدث عنها هنا.

ناصح: شكراً على وقتك. شكراً جزيلاً.

السِّلميّة الثَّوريّة: الخيارات والتنبؤات

نص المحاضرة التي أُلقيتْ على منح
جائزة سيدني للسلام
١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١١.

كما نعرف كلنا، إن الولايات المتحدة أُسست «لتنقذ الأجيال التالية من سوط الحرب». لا تثير الكلمات سوى أسف عميق حين نتأمل الطريقة التي تصرفنا فيها لتحقيق ذلك الطموح، لكنَّ هناك قلّة من النجاحات المهمة أبرزها في أوروبا.

لقرون، ظلَّت أوروبا المكان الأشد عنفاً على وجه الأرض مع صراعات مُميتة ومُدمِّرة وصياغة ثقافة الحرب التي مكَّنت أوروبا من فتح القسم الأكبر من العالم، رُوعت الضحايا التي قلّما كانت رافضة للعنف، لكنها «ارتعبت من الضراوة المدمِّرة للحرب الأوروبية»، في كلمات المؤرِّخ العسكري البريطاني (جيفري باركر).

إنَّ ما سماه آدم سميث «**الظلم الهمجي للأوروبيين**» مكن أوروبا في فرض فتوحاتها، كما لم يكفّ عن التأكيد بأن إنكلترا في الصدارة. الفتح الكوكبي أخذ شكلاً رهيباً فيما يسمى أحياناً عالم الأنغلو، «إنكلترا وفروعها»، مجتمعات استعمارية - استيطانية دُمرت فيها المجتمعات المحلية الأصلية وبُددت شعوبها أو أُبيدت.

لكن منذ عام ١٩٤٥ أصبحت أوروبا داخلياً المنطقة الأكثر أماناً وإنسانية على الأرض - والتي هي مصدر لبعضٍ من ألمها الراهن، موضوع مهم يجب أن أضعه جانباً.

في البحث الأكاديمي الدقيق، يُعزى هذا الانتقال الدراماتيكي غالباً إلى فرضية «السلام الديمقراطي»: الديمقراطيات لا تُحارب بعضها بعضاً. لكنْ يجب ألا نغفل أن الأوروبيين أدركوا أن المرة التالية التي

يُطلقون العنان لهوايتهم المفضَّلة في ذبح بعضهم ستكون نهاية اللعبة: لقد طوَّرت الحضارة وسيلة تدمير المرة الوحيدة التي لا تستخدم إلا ضد أضعف من ينتقمون بالنوع نفسه، إنه قسم كبير من التاريخ المرعب لسنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

الذي انتهى، ليس التهديد. من المحزن أن المواجهات الأمريكية السوفييتية اقتربت من حرب نووية مُميتة، وواقعياً إن طُرُقَ تأمّلها محطِّمٌ حين نتفحصها عن قرب، ويبقى تهديد الحرب النووية نشطاً بصورة مشؤومة، مسألة سأعود إليها باختصار.

هل نستطيع التقدم إلى وضع حد لسوط الحرب على الأقل؟ جواب واحد قدمه السلميون المُطلَقون، يشملون أناساً أحترمهم لكني لم أشعر أبداً بأنني قادر على الذهاب إلى أبعد من ذلك. موقفٌ أكثر إقناعاً إلى حدٍ ما كما أعتقد، هو موقف المفكّر السلمي والناشط الاجتماعي (ايه جي موستي)، أحد الشخصيات الكبيرة في أمريكا في القرن العشرين في رأيي: ما سماه «**السلمية الثورية**».

ازدرى (موستي) السعي إلى السلام من دون عدالة. ألحَّ على أن «المرء يجب أن يكون ثورياً قبل أن يستطيع أن يكون سلمياً» - لقد عنى بذلك أننا يجب أن نكف عن «الإذعان بسهولة كبيرة في الظروف الشريرة»، ويجب أن نتعامل «بصدق وبصورة ملائمة مع التسعين بالمئة من مشكلتنا» - «العنف المبني عليه النظام الحالي، وكل الشر - المادي والمعنوي - هذا يشمل جموع الرجال في كل العالم».

وجادل، إن لم نفعل هكذا، «هناك شيء مضحك وسخيف وربما ريائي حول قلقنا حول العشرة بالمئة من العنف المستخدم من الثوار ضد الظلم والاضطهاد» - بغضِّ النظر عن مدى شناعتهم. كان يواجه المشكلة الأصعب في يومنا بالنسبة للسِّلميين وهو السؤال إن كانوا سيشاركون في الحرب ضد الفاشية أم لا؟

للكتابة عن موقف موستي قبل ٤٥ عاماً، أقتبس تحذيره أن «المشكلة بعد الحرب تكون مع المنتصر الذي يعتقد أن الحرب والعنف مُجزيان». والرد الحقيقي هو «من سيلقنه درساً؟» كانت ملاحظته ملائمة جداً آنذاك، حين كانت حروب الصين الهندية محتدمة. وفي كل المناسبات الكثيرة جداً بعد ذلك الحين.

لم يخض الحلفاء «الحرب الأخيرة» كما سُمّيت على نحو مشترك، بسبب جرائم الفاشية المروعة. قبل هجماتهم على القوى الغربية، حظي الفاشيون بمعاملة متعاطفة وخصوصاً «ذلك الجنتلمان الإيطالي الباهر»، كما سمي (اف دي ار موسوليني).

حتى هتلر اعتبرته الولايات المتحدة «معتدل» يُبعد المتطرِّفين من اليمين واليسار. كان البريطانيون أكثر تعاطفاً وخصوصاً في عَالَم البزنس. نقل سومر ويلز الصديق المقرَّب من روزفلت للرئيس أن «تسوية ميونيخ التي مزَّقت تشيكوسلوفاكيا وفّرت الفرصة لأمم العَالَم في إقامة نظام عالمي جديد مؤسَّس على العدل والقانون»، سيلعب النازيون المعتدلون دوراً مهماً جداً فيه.

في وقت متأخر حتى نيسان / أبريل ١٩٤١ رجل الدولة القوي (جورج كينان)، كتب من منصبه كمستشار في برلين أن القادة الألمان ليست لديهم رغبة «في رؤية شعب آخر يعاني تحت الحكم الألماني»، وهم «متلهِّفون جداً بأن يكون رعاياهم سعداء في رعايتهم لهم»، «ويقومون بتسويات مهمة» لضمان هذه النتيجة الحميدة.

على الرغم من أن حقائق الهولوكوست المُريعة كانت معروفة جيداً آنذاك، إلا أنها لم تدخل إلا نادراً في محاكمات نورمبيرغ، التي ركزت على العدوان، «الجريمة الدولية الكبرى مختلفة عن الجرائم الأخرى بأنها تتضمن في نفسها الشر المتراكم للكل» في الهند الصينية والعراق وكل الأماكن الكثيرة جداً والأخرى حيث لدينا الكثير للتفكير ملياً فيه.

كما تم التغاضي عن الجرائم المرعبة التي ارتكبتها الفاشية اليابانية في تسوية ما بعد الحرب. بدأ العدوان الياباني قبل ٨٠ سنة بالضبط، بحادثة موكدي المدبرة لكن بالنسبة للغرب بدأ بعد عشر سنوات من ذلك، مع الهجوم على القواعد العسكرية في اثنين من الممتلكات الأمريكية.

رفضت الهند والدول الأسيوية الرئيسية الأخرى حتى حضور مؤتمر معاهدة سان فرانسيسكو للسلام عام ١٩٥١ بسبب استثناء جرائم اليابان في آسيا - وبسبب تأسيس واشنطن لقاعدة عسكرية في اوكيناوا المهزومة، التي لا تزال هناك رغم احتجاجات السكان النشطة.

من المفيد تأمل المظاهر الكثيرة لهجوم بيرل هاربور. الأول هو رد فعل المؤرخ ومستشار كندي ارثر شليزنغر على قصف بغداد في ٢٠٠٣. لقد استذكر كلمات (اف دي ار) حين قصفت اليابان (بيرل هاربور) في «موعد سيحيى في خزي». «اليوم نحن الأميركيون من يعيش في حالة من الخزي». كتب شليزنغر، لأن حكومتنا تتبنى سياسات اليابان الإمبريالية - أفكار عُبر عنها بالكاد في مكان آخر في التيار السائد وأُخمدت بسرعة: لم أستطع أن أجد أي ذكر لهذا الموقف المبدئي في مدح مآثر شليزنغر حتى بعد سنوات قليلة من ذلك.

يمكننا تعلم الكثير عن أنفسنا بحمل نواح (شليزنغر) لخطوات قليلة أبعد. بمقاييس الوقت الحاضر، كان هجوم اليابان مبرراً، وفي الواقع يستحق المكافأة. اليابان بعد كل شيء، كانت تمارس مبدأ الدفاع التوقعي عن النفس الممجد جداً حين قصفت القواعد العسكرية في هاواي والفيليبين، المستعمرتين الفعليتين للولايات المتحدة لمبررات مقنعة أكثر من كل تلك التي استحضرها كل من بوش وبلير حين تبنيا سياسات اليابان الإمبريالية في عام ٢٠٠٣.

أدرك القادة اليابانيون جيداً أن الحصون الطائرة بي سفنتين كانت تأتي من خطوط إنتاج بيونغ، واستطاعوا أن يقرؤوا في الصحافة

الأمريكية أن هذه الآلات القاتلة سوف تحرق طوكيو، «مدينة من ورق الأرز والبيوت الخشبية». في خطة تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٠ «لقصف طوكيو والمدن الكبيرة الأخرى» قوبلت بحماس من قبل وزير الخارجية (كورديل هول). وكان اف دي ار «مبتهجاً ببساطة» بالخطط «لحرق قلب الإمبراطورية الصناعي بهجمات للقنابل الحارقة على أكوام نمل الخيزران المحتشد في هونشو وكيوشو»، التي رسمها الجنرال في القوة الجوية شينولت.

في تموز / يوليو ١٩٤١، كانت الأركان الجوية تنقل البي سفنتين إلى الشرق الأقصى لهذا الغرض، مخصصين نصف القاذفات الكبيرة لهذه المنطقة، أخذوها من مضايق البحر الأطلسي. كانت ستستخدم عند الحاجة «لإضرام النار في مدن اليابان الورقية»، حسب ما جاء عن الجنرال جورج مارشال، مستشار روزفلت الرئيسي، في إيجاز صحفي قبل ثلاثة أسابيع من بيرل هاربور. بعد أربعة أيام، أفاد مراسل نيويورك تايمز الكبير (آرثر كروك) أن الخطط الأمريكية لقصف اليابان من القواعد السيبيرية والفيليبينية، التي كانت القوى الجوية ترسل إليها قنابل حارقة موجهة لأهداف مدنية. عرفت الولايات المتحدة من رسائل حلت شيفرتها أن اليابان كانت تعرف بهذه الخطط.

يوفر التاريخ أدلة وافرة تدعم استنتاج موستي بأن «المشكلة بعد الحرب تكون مع المنتصر، الذي يعتقد أنه أثبت بأن الحرب والعنف مجزيان». والجواب الحقيقي لسؤال موستي، «من سيلقنه درساً»؟ لا يمكن أن يكون سوى السكان المحليين إن استطاعوا تبني مبادئ أخلاقية أولية.

حتى الأكثر غير خلافي من هذه المبادئ يمكن أن يكون له تأثيراً على إنهاء الظلم والحرب. تأمل مبدأ الشمولية، ربما الأكثر بساطة من المبادىء الأخلاقية: نحن نطبق على أنفسنا المعايير التي نطبقها على الآخرين إن لم تكن أكثر صرامة. المبدأ شامل، أو هكذا تقريباً. في ثلاثة

مظاهر أخرى: إنه موجود في شكل ما في كل نظام أخلاقي؛ إنه مستحسن في جميع الأحوال والأمكنة لفظياً ومرفوض بشكل ثابت عملياً. الوقائع صريحة ويجب أن تكون مزعجة.

للمبدأ لازمة طبيعية بسيطة، عانت نفس المصير: يجب أن نوزع الطاقات المحدودة إلى المدى الذي نستطيع فيه أن نؤثر على النتائج، نموذجياً على الحالات التي نتقاسم فيها المسؤولية. نعتبر ذلك بديهياً فيما يتعلق بالأعداء. لا يهم أن انضم المثقفون الإيرانيون إلى رجال الدين الحاكمين في شجب جرائم إسرائيل أو الولايات المتحدة أم لا. الأحرى أن نسأل ماذا قالوا عن دولتهم هم. نحن احترمنا المنشقين السوفييت لنفس الأسس.

طبعاً، ذلك ليس رد الفعل ضمن مجتمعاتهم هم. هناك يدان المنشقون كـ«معادين للسوفييت» أو كـ«معادين للأمريكان» أو مؤيدين للعدو الرسمي الحالي. وطبعاً، عقاب هؤلاء الذين يخلصون للمبادئ الأخلاقية الأولية يمكن أن يكون قاسياً اعتماداً على طبيعة المجتمع.

في تشيكسلوفاكيا التي يديرها السوفييت مثلاً، حُبِسَ (فاكلاف هافل). بنفس الوقت، في السلفادور التي تديرها الولايات المتحدة نظراءه نسفت أدمغتهم من قبل كتيبة عسكرية من كتائب النخبة مدربة مجدداً في كلية جون كندي في الحرب الخاصة في كارولاينا الشمالية التي تعمل بأوامر صريحة من القيادة العليا، التي لها علاقات حميمة مع واشنطن. كلنا نعرف ونحترم هافل لمقوماته الشجاعة لكن من يستطيع أن يسمي المثقفين الأمريكيين اللاتينيين حتى، القساوسة اليسوعيون الذين أضيفوا إلى القافلة الدامية لفرقة (التاكالت) بعد وقت قصير من سقوط جدار برلين - مع مدبرة المنزل وابنة حيث كانت الأوامر عدم ترك شهود عيان.

قبل أن نسمع أن هذه استثناءات، يجب أن نذكر بحقيقة البحث دراسة الأمريكي اللاتيني، كررها المؤرخ (جون كوستورث) في **تاريخ الحرب**

الباردة الذي نشرته حديثاً جامعة كامبريدج عن دراسة: من ١٩٦٠ إلى «الانهيار السوفييتي في ١٩٩٠، عدد السجناء السياسيون، ضحايا التعذيب، اعدامات المنشقين غير العنيفين في أمريكا اللاتينية تجاوز بشكل واسع هؤلاء في الاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية التابعة». من بين الشهداء عدد كبير من الشهداء الدينيين وهناك مجازر جماعية أيضاً، دائماً مدعومة أو ملقنة من واشنطن. وتاريخ ١٩٦٠ مهم جداً للأسباب التي يجب أن نعرفها كلنا، لكنني لا أستطيع الخوض فيها هنا.

في الغرب كل هذا «مختفي» لنستعير المصطلح ضحايانا الأمريكيين اللاتينيين. المؤسف، هذه مزايا دائمة للثقافة الفكرية الأخلاقية التي نستطيع تتبعها حتى بدايات التاريخ المدون. أعتقد أنها تؤكد أوامر (موستي).

لو أملنا أن نرتقي إلى مثلنا السامية التي نصرح بها بشكل حماسي، وأن نُقَرِّب الحلم الأولي للأمم المتحدة من التحقق، علينا أن نفكر بحرص بالخيارات الحاسمة التي أخذت ونستمر في أخذها يومياً - دون أن ننسى «العنف المؤسس عليه النظام الحالي وكل الشر - المادي والروحي - وهذا يتوقف على جماهير البشر في كل أرجاء العالم». من بين هذه الجماهير ستة ملايين طفل يموتون كل سنة بسبب نقص إجراءات طبية بسيطة تستطيع البلدان الغنية توفيرها من خلال خطأ إحصائي في ميزانياتها. وبليون شخص على حافة الموت جوعاً أو أسوأ لكن ليس أبعد من المتناول بأي شكل.

يجب أن لا ننسى أبداً أيضاً أن ثروتنا تستمد في درجات ليست صغيرة من مأساة الآخرين. هذا واضح بشكل دراماتيكي في الانغلوسفير. أنا أعيش في ضاحية مريحة في بوسطن. هؤلاء الذين عاشوا سابقاً هناك كانوا ضحايا «الاستئصال التام لكل الهنود في أكثر الأجزاء ازدحاماً في الاتحاد» بواسطة «أكثر مهلكة للهنود الأصليين»، أكثر من سلوك فاتحي المكسيك والبيرو - حكم أول وزير حرب في المستعمرات المحررة حديثاً، الجنرال (هنري نوكس).

لقد عانوا مصير «تلك السلالة السيئة الحظ من الأمريكيين الأصليين، الذين نبيدهم بقسوة عديمة الرحمة وغادرة..... من بين خطايا هذه الأمة، التي أعتقد أن الرب سيحضرها للحساب يوماً ما» - الكلمات للباحث الاستراتيجي الكبير (جون كوينسي ادامز)، المؤلف المفكر القدر الجلي ومبدأ مونرو، بعد فترة طويلة من مساهماته الأساسية في هذه الخطايا الشنيعة. يجب أن لا يقلق الاستراليون بإضافة الإيضاحات.

أياً كان الحكم النهائي للرب، فإن حكم الإنسان بعيد عن توقعات (ادامز). لنذكر قلة من الحالات الحديثة. تأملوا ما افترض أنهما الصحيفتان اليساريتان الأكثر احتراماً في الانغلوسفير، ذا نيويورك ولندن (رفيوز اف بوكس).

في الأولى، أفاد معلق بارز مؤخراً ما علمه من عمل «المؤرخ الملحمي» (ادموند مورغان): بالضبط، حين وصل كولومبس والمستكشفين الأوائل «وجدوا متسع قاري مأهول بشكل متناثر بالزراعة وصيد البشر...... في العالم الذي لا حد له وغير المنهوب الممتد من الغابة المدارية إلى الشمال المتجمد، ربما كان هناك أكثر من مليون قاطن بالكاد».

العملية الحسابية مقللة بعشرات الملايين والـ«المكان متسع» تضمن حضارات متقدمة، حقائق معروفة جيداً للذين اختاروا أن يعرفوا منذ عقود. لم تظهر رسائل ترد لهذه الحالة الهائلة من نكران الإبادة الجماعية. في الوصيفة لندن جيرنال مؤرخ ذائع الصيت نوه مصادفة إلى «المعاملة السيئة للأمريكيين الأصليين» مرة أخرى لم يثر أي تعليق. نحن نادراً ما قبلنا بكلمة «المعاملة السيئة» للجرائم المشابهة أو حتى أقل بكثير من قبل الأعداء.

الاعتراف بالجرائم الشنيعة التي نستفيد منها بشكل هائل سيكون بداية جيدة بعد قرون من الإنكار، لكن يمكننا المواصلة من هنا. إحدى القبائل الرئيسية حيث أعيش كانت (وامبانواغ)، التي لايزال لها محمية

صغيرة ليست بعيدة جداً من هنا. لغتهم اختفت منذ زمن بعيد. لكن في عمل دراسي فذ وتكريساً إلى حقوق الإنسان الأولية، أُعيّدَ بناء اللغة من نصوص تبشيرية ودليل مقارن، والآن تملك متكلمها الأصلي الأول في مئة عام، ابنة جيني ليتل دوي التي أصبحت متكلمة طليقة للغة لوحدها.

هي خريجة سابقة من (ام آي تي)، عملت مع صديقي السابق وزميلي كينيث هالي واحد من أبرز اللغويين في الفترة الحديثة. أحد إنجازاته الكثيرة دوره الريادي في تأسيس دراسة اللغات الأصلية لأسترالية. كان أيضاً مؤثراً جداً في الدفاع عن حقوق الناس الأصليين، وناشط سلام وعدل أيضاً. كان قادراً على تحويل قسمنا في (ام آي تي) إلى مركز لدراسة اللغات البدائية وحماية فاعلة لحقوق السكان الأصليين في الأمريكتين وأبعد من ذلك حتى.

إحياء لغة وامبانواغ أحيت القبيلة. لغة أكثر من مجرد أصوات وكلمات. إنها مخزن الثقافة والتاريخ والتقاليد والنسيج الغني بكامله للحياة الإنسانية والمجتمع. خسارة اللغة صفعة خطيرة ليس للمجتمع نفسه فقط بل لكل هؤلاء الذين يأملون أن يفهموا شيئاً من طبيعة الكائنات البشرية، قدراتهم وإنجازاتهم وطبعاً خسارة ذات قسوة خاصة لهؤلاء المهتمين بتنوع وتماثل اللغات الإنسانية، مكون جوهري للقدرات العقلية الرفيعة. إنجازات مماثلة يمكن أن تحمل للأمام، جزئية جداً لكنها إيماءة هامة نحو توبة عن خطايا شنيعة رقدت عليها ثروتنا وقدرتنا.

بما أننا نحتفل بالأعياد السنوية، كالهجمات اليابانية منذ سبعين عاماً مثلاً، هناك أعياد هامة كثيرة تسقط الآن، مع دروس يمكن أن تخدم من أجل التنوير والفعل. سأذكر بضع منها فقط.

احتفل الغرب لتوه بالذكرى العاشرة لهجمات (ناين اليفن) الإرهابية وبما سُمّيَ في ذلك الوقت وتوقف الآن «الغزو المجيد» لأفغانستان الذي تلاها، ليتبع عاجلاً بغزو مجيد أكثر للعراق. تم الوصول إلى خاتمة جزئية

لنـاين الـيفن باغتيـال المـشتبه بـه الأولي أسـامة بـن لادن، بواسـطة المغـاوير الذين غزو باكستان، اعتقلوه ثم قتلوه، وتخلصوا من الجثة بدون تشريحها.

أنا قلت «المشتبه به الأولي»، مستدعياً المبدأ القديم لكن المهجور منذ زمـن طويـل مـن «افـتراض الـبراءة». الإصـدار الحـالي لـصحيفة العلاقـات الدولية التثقيفية الرئيسية في الولايات المتحدة نـشرت نقاشـات عديـدة من محاكمات نوريمبرغ لبعض أسوأ الجرائم في التاريخ.

نقرأ هناك أن «قـرار الولايـات المتحـدة في اللجـوء إلى التقاضـي، بـدلاً مـن الـسعي إلى انتقـام وحـشي كـان انتـصاراً لتقاليـد الحقـوق الأمريكيـة وخـصوصاً الـصنف الأمريكـي في التقيـد بالقـانون: العقـاب فقـط لهـؤلاء الـذين أثبتـت جـرائمهم بواسـطة محاكمـة عادلـة مـع غطـاء كامـل مـن الحمايـات الإجرائيـة». ظهـرت الـصحيفة محقـة في وقـت الاحتفـال في هجـر هـذا المبـدأ في طريقـة دراميـة، بينمـا تـستمر الحملـة العالميـة مـن اغتيالات المشتبه بهم، و«الضرر المصاحب» المحتوم في الانتشار والتوسـع إلى قبول كثير.

قبـول عـالمي غـير مؤكـد. نـشرت صـحيفة يوميـة رئيـسية باكـستانية مؤخراً دراسة لتـأثير هجمـات الطـائرات بـلا طيـار ورعـب أمريكـي آخـر. وجدت أن «حولي ٨٠٪ من سكان المناطق القبليـة في الأقسام المداريـة في جنوب وشمال وزيرستان قد تأثروا عقلياً بينما ٦٠٪ مـن سـكان بيـشاور يقتربون من أن يصبحوا مرضى نفسيين إن لم تواجه هذه المشاكل فوراً»، وحذرت أن، «بقاء جيلنا الناشئ» في خطر.

جزئياً لهذه الأسباب ارتفع كره أمريكا إلى ذرى استثنائية غير عاديـة، وبعد اغتيال أسامة بن لادن ازداد أكثر. إحدى العواقب إطـلاق النـار عـبر الحدود على قواعد يحتلها الجيش الأمريكي في أفغانستان الـذي أحـدث إدانـة حـادة لباكـستان لفـشلها في التعـاون في حـرب أمريكيـة، باكـستان تعارضـها بـشدة مفرطـة، والـتي أخـذت نفـس الموقـف حـين احتـل الـروس أفغانستان. موقف مجد آنذاك والآن أدين.

الأدب المتخصص وحتى السفارة الأمريكية في إسلام اباد تحذر بأن الضغوطات على باكستان لكي تشارك في الغزو الأمريكي، بالإضافة إلى الهجمات في باكستان، «تخلخل استقرار الباكستان وتزيد التطرف فيها، مما يهدد بفاجعة جيوبوليتيكية للولايات المتحدة - والعالم - سوف تقزم كل ما يمكن أن يحدث في أفغانستان» - مقتبس من الجيش البريطاني / محلل باكستان، اناتول ليفين.

اغتيال بن لادن رفع الخطر بشكل عظيم بطرق كثيرة تم تجاهلها في الحماس العام لاغتيال المشتبه بهم. كان المغاوير الأمريكيين تحت الأوامر كي يشقوا طريقهم للخروج بالقوة إن اضطروا إلى ذلك، بالتأكيد كان لهم غطاء جوي، ربما أكثر، بأي من الحالتين كان يمكن أن تكون هناك مواجهة مع الجيش الباكستاني، المؤسسة المستقرة الوحيدة في باكستان، والملتزمة جداً بالدفاع عن السيادة الباكستانية.

تمتلك باكستان ترسانة نووية هائلة، الأسرع توسعاً في العالم. والنظام برمته مزركش بإسلاميين متطرفين، نتاج الدعم القوي الأمريكي - السعودي لأسوأ ديكتاتور إسباني، ضياء الحق، وبرنامجه في الأسلمة المتطرفة. هذا البرنامج مع الأسلحة النووية الباكستانية من بين تركات رونالد ريغان. أوباما أضاف الآن خطر الانفجارات النووية في لندن ونيويورك، نادت المجابهة إلى تسرب مواد نووية إلى الجهاديين كما خشي ظاهرياً - أحد الأمثلة الكثيرة للتهديد الثابت للأسلحة النووية.

اغتيال بن لادن له اسم: «عملية جيروونيمو» التي سببت صخباً في المكسيك واحتج عليها ما تبقى من السكان الأصليين في الولايات المتحدة. لكن في الأماكن الأخرى قلة فهمت معنى تسمية بن لادن بزعيم هندي ملحمي من قبيلة اباتشي قاد المقاومة ضد الغزاة ساعياً إلى حماية شعبه من مصير، «تلك السلالة السيئة الحظ» التي وصفها جون كيونسي ادامز ببلاغة. العقلية الإمبريالية عميقة جداً تصعب من ملاحظة مثل هذه المسائل.

هناك انتقادات قليلة لعملية (جيرونيمو) - الاسم وطريقة التنفيذ والمضامين. انتزعت هذه الانتقادات الإدانات الغاضبة المعتادة، أغلبها لا يستحق التعليق، لكن بعضها كانت منورة. الأمتع كانت للمعلق الليبرالي اليساري المحترم (ماثيو ايغليسياس).

لقد شرح بتأني أن «إحدى الوظائف الأساسية للنظام المؤسساتي الدولي هو بالضبط أن يُشَرِّعن استخدام القوة العسكرية المميتة من قبل القوى الغربية». لهذا الاقتراح فإن الولايات المتحدة يجب أن تنصاع للقانون الدولي أو أي شروط نفرضها على الضعيف هو «سذاجة مذهلة». الكلمات ليست انتقاداً بل استحسان؛ لهذا لا يستطيع المرء إلا أن يرفع اعتراضات تكتيكية إن غزت الولايات المتحدة بلدان أخرى وقتلت ودمرت بحماسة واغتالت المشتبه بهم مما شاءت، وإلا فلن تنجز واجباتها في خدمة البشرية. إن رأى الضحايا التقليديون المسائل بشكل مختلف إلى حد ما، فذلك يكشف تخلفهم الأخلاقي والثقافي فحسب. والناقد الغربي العرضي الذي يفشل في إدراك هذه الحقائق الأساسية يمكن وصفه بـ«السخيف»، يشرح ايغليسياس - عرضياً، ويشير لي بالتحديد وأنا أعترف بإثمي بابتهاج.

بالعودة إلى عقد زمني إلى ٢٠٠١ من اللحظة الأولى كان واضحاً أن «الغزو المجيد» لم يكن أي شيء غير ذلك. أخذت على عاتقي الفهم أنه قد يدع ملايين كثيرة من الأفغان فوق حافة المجاعة ولهذا السبب شجبت وكالات الإغاثة القصف بمرارة والتي أجبرت على وقف العمليات التي كان خمسة ملايين أفغاني يعتمدون عليها من أجل البقاء.

لحسن الحظ لم يحدث الأسوأ. لكن فقط الأبلد أخلاقياً من لا يفشل في إدراك تقييم الأفعال من خلال نتائجها المحتملة وليس بنتائجها الفعلية سوى المتبلد الأخلاقي الأشد. لم يهدف غزو أفغانستان إلى الإطاحة بنظام طالبان الوحشي كما زُعمَ لاحقاً. ذلك كان إضافة،

استحضرت بعد ثلاثة أسابيع من ابتداء القصف. سببها الجلي أن طالبان معارض لتسليم بن لادن بدون دليل، والذي رفضت الولايات المتحدة أن تقدمه - كما علمنا لاحقاً، لأنها لا تملك أي دليل فعلياً، وفي الواقع لاتزال تملك القليل الذي يصمد في محكمة قانونية مستقلة، مع ذلك مسؤوليته (نظام طالبان) لم تكن موضع شك.

في الحقيقة أبدى طالبان بعض الإماءات باتجاه التسليم (المتهم الفار)، ونحن قديماً نعلم وجود خيارات أخرى كتلك، لكن تم إهمالها كلها لمصلحة العنف، الذي مزق البلاد مزقاً في السابق. لقد وصل أعلى مستوى في عقد هذا العام حسب الأمم المتحدة، دون منظور ناقص.

سؤال مهم جداً، نادراً ما تم طرحه في ذلك أو بعده إن كان هناك بديل عن العنف أم لا. يوجد دليل قوي بوجود بديل. هجوم (ناين اليفن) أدين بحدة ضمن الحركة الجهادية، وكانت هناك فرص جيدة لشقها وعزل القاعدة. بدلاً من ذلك، اختارت واشنطن ولندن التقيد بالمخطوط الذي قدمه بن لادن، لتساعدان توطيد ادعاءه بأن الغرب يهاجم الإسلام وبهذا يثير أمواجاً جديدة من الإرهاب.

محلل السي آي إي الأسبق المسؤول عن تعقب أسامة بن لادن من عام ١٩٩٦ (مايكل شوير)، حذر على الفور وكرر أن، «الولايات المتحدة الأمريكية تبقى الحليف الوحيد الذي لا غنى عنه لبن لادن».

هذه من بين العواقب الطبيعية لرفض إنذار موستي، والطعن الرئيسي لسلمية الثورية، التي يجب أن توجهنا إلى التحقق من المظالم التي تؤدي إلى العنف وحين تكون شرعية، كما هي غالباً، لمعالجتها. حين تكون هذه النصيحة، يمكنها أن تنجح بشكل جيد. تجربة بريطانية حديثة في شمال إيرلندا هي إثبات توضيحي جيد. لسنوات، ردت لندن على إرهاب (الآي ار إي) بعنف أعظم، مصعدة الدائرة، ليصل إلى الذروة. حين بدأت الحكومة التعامل مع المظالم بدلاً من ذلك، هبط العنف واختفى الإرهاب

بشكل حقيقي. أنا كنت في بلفاست عام ١٩٩٣ حين كانت منطقة حربية وعادت منذ سنة إلى مدينة بتوترات لكنها لم تتجاوز المعيار.

هناك مقدار أكثر لنقوله حول ما اسميناه عواقب (ناين اليفن) لكن لا أريد أن أنهي بدون ذكر عدد قليل آخر من الأعياد السنوية على الأقل. الآن تماماً يصادف الذكرى السنوية الخمسين لقرار الرئيس كندي في تصعيد الصراع في فيتنام الجنوبية من القمع الشرير الذي قتل مسبقاً عشرات الآلاف من الناس وأخيراً أحدث رد فعل لم يستطع النظام العميل في سايغون السيطرة عليه، إلى غزو أمريكي تام: قصف بالقوى الجوية الأمريكية، استخدام النابالم، حرب كيماوية قريبة شملت إتلاف المحاصيل لحرمان المقاومة من الطعام وبرامج لإرسال الملايين من فيتنام الجنوبية إلى معسكرات اعتقال فعلية حيث يمكن «حمايتهم» من محاربي العصابات الذين كانوا يؤيدونهم باعتراف الجميع.

ليس هناك الوقت لمراجعة النتيجة الكالحة، ويجب ألا تكون هناك حاجة لفعل ذلك. خلفت الحروب ثلاثة بلدان مدمرة مع قتلى وجرحى بالملايين، دون أن تشمل ضحايا هجوم الحرب الكيميائية التعيسة من ضمنهم أطفال حديثي الولادة.

هناك قلة على الهامش عارضوا - «رجال طائشون» كما وصفوا من قبل (مكجورج بوندي) مستشار الامن القومي للرئيسين كندي وجونسون وعميد هارفارد السابق. وفي ذلك الوقت وجود فيتنام الجنوبية نفسه كان موضع شك، فأصبح الاحتجاج الشعبي قوياً تماماً. في انتهاء الحرب عام ١٩٧٥ حوالي ٧٠٪ من السكان اعتبروا الحرب «خاطئة أساساً وغير أخلاقية» وليس «غلطاً» أرقام ظلت ثابتة طالما كان السؤال يطرح في استفتاءات الرأي. في تناقض كاشف، في تعليق المنشقين المتطرفين في الاتجاه السائد كانت الحرب «غلطاً» لأن أهدافنا النبيلة لم تتحقق في كلفة محتملة ومقبولة.

ذكرى سنوية أخرى يجب أن تكون في أذهاننا اليوم وهي من المذبحة في مقبرة (سانتا كروز) في ديلي قبل عشرين سنة تماماً، المعروفة أكثر من غيرها من أعمال وحشية صادمة كثيرة خلال الغزو الإندونيسي وضم تيمور الشرقية. انضمت استراليا إلى الولايات المتحدة في منح اعتراف رسمي بالاحتلال الإندونيسي، بعد غزوها الأبادي الفعلي. شرحت وزارة الخارجية الأمريكية للكونغرس في ١٩٨٢ أن واشنطن اعترفت بالاحتلال الإندونيسي ونظام «كامبوتشي الديمقراطي» المؤسس على الخمير الحمر. كان التبرير المقدم أن الخمير الحمر كانوا «من غير ريب» «أكثر تمثيلاً للشعب الكمبودي مما كان (فريتلين) للشعب التيموري» لأنه «كان هناك استمرارية [في كمبوديا] منذ البداية» في عام ١٩٧٥، حين تولوا السلطة.

وسائل الإعلام والمعلقون كانوا مهذبين جداً لكل هذا الوهن في صمت، مقدرة ليست تافهة.

قبل مذبحة سانتا كلوز ببضعة أشهر، أدلى وزير خارجية استراليا غاريث ايفانس بتصريحه الشهير رافضاً القلق حول الغزو الإجرامي والضم على أساس أن «العالم مكان جائر إلى حد ما»........

بعد سنوات، صرح ايفانس «أنا أرفض بشكل مطلق الفكرة بأنه لم نفعل شيئاً حول مسؤوليتنا الأخلاقية أو بالأحرى حول الطريقة التي تناولنا فيها العلاقة بين إندونيسيا وتيمور الشرقية» - موقف يمكن تبنيه، وحتى احترامه من قبل الذي خرجوا منتصرين. في الولايات المتحدة وبريطانيا لم يطرح السؤال حتى في مجتمع مهذب.

من العدل فقط أن نضيف أن التناقض الحاد، بأن الكثير من السكان الاستراليين والميديا، كانوا في الطليعة في فضح الجرائم والاحتجاج عليها، بعض الجرائم هي الأسوأ في نصف القرن المنصرم. وفي عام ١٩٩٩ حين تصاعدت الجرائم مرة أخرى، كان لهم دور هام في إقناع

رئيس الولايات المتحدة كلينتون بأن يبلغ الجنرالات الإندونيسيين في أيلول سبتمبر أن اللعبة انتهت، في تلك النقطة انسحبوا فوراً سامحين لقوة حفظ السلام التي تقودها استراليا في الدخول.

توجد دروس هنا أيضاً للجمهور. كان يمكن توجيه أوامر كلينتون في أي وقت في السنوات الخمس وعشرين السابقة، وإنهاء الجرائم. كلينتون نفسه كان يمكنه بسهولة توجيهها لهم قبل ذلك بأربع سنوات، في تشرين أول اكتوبر عام ١٩٩٥ حين استقبل الجنرال سوهارتو في واشنطن «الفتي الذي من صنفنا». نفس الأوامر كان يمكن أن تعطى قبل عشرين سنة حين أعطى هنري كيسنغر «الضوء الأخضر» للغزو الإندونيسي، وسفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة دانيل باتريك موينهام عَبَّرَ عن فخره في جعل الأمم المتحدة تصدر قرارات «عاجزة تماماً» بأي مقياس لردع الغزو الإندونيسي.

ليس هناك إيضاح أكثر إيلاماً من عواقب الفشل في معالجة درس موستي. يجب أن يضاف في إظهار مخزي للخضوع للقوة، «بعض المثقفين الغربيين المحترمين انحدروا لوصف هذا السجل المشين كإثبات من الطراز الأول للمعيار الإنساني في الحق في الحماية».

تناغماً مع «سلمية موستي الثورية»، مؤسسة سيدني للسلام أكدت دائماً على السلام مع العدالة. مطالب العدالة يمكن أن تبقى غير محققة إلى وقت طويل بعد أن أعلن عن السلام. مذبحة سانتا كروز قبل عشرين سنة يمكن أن تكون مثالاً وإثباتاً. بعد مرور عام من المذبحة تبنّت الأمم المتحدة بيان عن حماية كل الأشخاص من الاختفاء.

لذلك المذبحة جريمة مستمرة: مصير المختفين مجهول ولم يجلب المذنبون إلى العدالة، بمن فيهم الذين يستمرون في التكتم على جرائم الاشتراك والمشاركة في الجريمة. فقط إشارة واحدة إلى أي مدى يجب أن نذهب لنرتفع إلى مستوى محترم من السلوك المتحضر.

مقابلة مع لوك سافا

٤ أبريل ٢٠١١

تـي ـيْ: أعتقـد أننـا يمكـن أن نبـدأ بـالثورات الحديثـة في الـشرق الأوسط. هـل يمكن يا نعوم تشومسكي أن نناقش الأحداث الأخيرة في تونس ومصر وليبيا وغيرها؟ ما هو أصل هذه الثورات الإقليمية برأيك وما هي مضامينها الممكنة للمنطقة ولبقية العالم؟

نعوم تشومسكي: أولاً وقبل كل شيء يجب أن نضع في ذهننا أن هـذه الثـورات ليـست جديـدة في الحقيقـة. إنهـا موجـة معديـة، مـا إن تبـدأ إحـداها حتـى تنـدلع أخـرى لكـن لكـل واحـدة منـها أصـولها الـتي ترجـع للماضـي. لنأخذ مصر مثلاً، أكثر البلدان أهمية. التظاهرات في مصر - سـاحة التحريـر، حركـة ٢٥ينـاير - بَادَرَ بهـا مجموعـة مـن الفتيـة.. فتيـة بارعون في التقنية سموا أنفسهم بـ«حركة ٦ أبريل». لماذا حركة ٦ أبريل؟ السبب أن ٦ أبريل عام ٢٠٠٨ كان هناك عمل عمالي رئيسي خطط لـه في أكبر المجمعات الصناعية في مصر مع أعمال تضامنية وسحقت كلها بالقوة من قبل جهاز الأمن المتوحش.

حسناً، نحن لم نسمع الكثير عن ذلك هنا، لكنه يعني الكثير هنـاك، لهـذا أعطـي الإسـم لحركـة ٦ أبريـل. مـا يعكسه ذلـك أنـه هنـاك صـراع عمالي حقيقي وهام، نضال عمالي ضد الديكتاتورية - محـاولاً أن ينـال حقوقه الأساسية وبعض من عناصر الديمقراطيـة. إنـه نـوع ممـا تفجـر في ٢٥ ينـاير لكنـه كـان متواصـلاً منـذ وقـت طويـل. والـشيء عينـه في البلدان الأخرى: لو نظرت هناك تجد احتجاجات وقمع وعنف وتعذيب واحتجاجات أكبر. هذه الموجة، بدأت فعلياً في الصحراء الغربيـة لكنـها

سحقت بسرعة كبيرة في المغرب. ثم اجتاحت تونس. هناك نجحت في الإطاحة بالديكتاتورية، أطلقت الشرارة ثم امتدت إلى كل المنطقة.

وهي مهمة جداً. لأنها أولاً في طريق الثورة الديمقراطية الأكثر إثارة وأهمية في التاريخ الحديث وتحمل الكثير من الآمال لكن كثيراً من المشاكل أيضاً تعترضها. بعض من هذه المشاكل داخلي والآخر خارجي. يمكنك رؤيتها تتزامن في البلدان التي تهتم بها أمريكا والغرب بشكل حقيقي: أي البلدان التي لديها نفط والتي فيها ديكتاتوريين مخلصين. إن كان في البلاد نفط وديكتاتور مخلص الولاء، الغرب سوف يدعم الديكتاتور إلى الرمق الأخيركما حدث في مصر، الولايات المتحدة والغرب اتبعا خطة لعب مألوفة حين لا تستطيع التمسك بديكتاتورك المفضل فإن أفضل ما تفعله هو التشبث به أطول وقت ممكن لكن حين يصبح ذلك مستحيلاً، ينقلب الجيش عليه وهو ما حدث في مصر، عندها ضعه على الرف وحاول استرجاع ما يمكنك استرجاعه من النظام القديم، وذلك ما حدث في تونس ومصر.

ليبيا حالة مختلفة - كثير من النفط لكن الديكتاتور ليس موالياً لهذا التخلص منه يُسعدُ الغرب، رغم دعمهم له حتى النهاية. أقصد الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا تؤيدانه بقوة حتى الوقت الحاضر. ليس لدي الوقت للدخول في التفاصيل لكنها مثيرة. في أي حدث، إن كانت هناك فرصة للتخلص منه يسعدهم فعل ذلك، القوى الغربية تدخلت لدعم التمرد. طبعاً، وسمي بـ«تدخل إنساني»... لكن مثلاً، لم يطالبوا بوقف لإطلاق النار من الجانبين - طالبوا بوقف إطلاق نار من قوات الحكومة فقط.

تي في: الدافع الأساسي للتمرد في مصر - أنت ذكرت حركة العمال - لكن يبدو أيضاً وجود مركب علماني. ما هو الدافع الأساسي للحركة المناوئة للقذافي في ليبيا؟

نعوم تشومسكي: كره القذافي - هو ديكتاتور شرير ومتوحش. لقد صار له وقتاً طويلاً منذ عام ١٩٦٩. كان هناك كثير من الاحتجاج لكن أغلبه أخمد. لديه كثير من الدعم أيضاً، لا يمكنك الحكم على ذلك من خلال التقارير، لكن هناك معارضة شعبية قوية للديكتاتورية، كما هناك في المنطقة كلها... الحكام الديكتاتوريون لا يحبهم الشعب. أحياناً يكونون ذوي نفوذ وبأس كافي لدرجة يدعمهم الغرب ليتمكنوا من سحق المعارضة. وظل القذافي يفعل ذلك لوقت طويل، مع كثير من الدعم الغربي، عرضياً. لكن هذه المرة، تضخم الوضع وكان الغرب سعيداً في التخلص منه. لهذا تتدخل القوى الغربية الآن لدعم التمرد.

تي في: أود أن أعود الآن إلى موضوع حديثنا في (يو اف تي) في ابريل، بعنوان «مجمع الدولة / الشركة: تهديد للحرية والبقاء». هل تكرمت وحدثتنا عن «مجمع الدولة / الشركة»؟ كيف يتظاهر اليوم في الولايات المتحدة وغيرها ولماذا يعتبر تهديداً؟

نعوم تشومسكي: حسناً، لقد كان كذلك منذ الأبد. أقصد الدولة والتفاعل بين سلطة الدولة ومراكز السلطة الخاصة يعود إلى مئات السنين، في الواقع، تحدث آدم سميث عنه. لكنه يأخذ أشكالاً مختلفة في الأوقات المختلفة. في سبعينيات القرن العشرين كان هناك نوع من دورة شريرة استهلت آنذاك. ومنذ السبعينيات بدأت برسملة الاقتصاد وتصدير الإنتاج مما أدى إلى تركز قوي للفائدة في الرأسمال المالي وترجم ذلك نفسه في السلطة السياسية. ثم عززته السلطة السياسية بتقديم خط كامل من السياسات التي تدرجت من سياسات الضرائب

إلى تحرير التجارة والبزنس من القوانين مما قوى بدوره سلطة الشركات، السلطة المالية بنحو متزايد.

لكن الآن، بدون الدخول في التفاصيل، كانت النتيجة في الولايات المتحدة وكما يعرف الجميع، وجود لامساواة هائلة. لكن المعروف قليلاً هو أن هذه اللامساواة ناجمة أولاً عن تمركز طبقي للثروة في جزء من واحد في المئة من السكان. لو اعتبرت ذلك بأنه ظلم وليس ظلماً مجنوناً وتلك هي نتيجة هذه العملية.

في الوقت الحالي، بالنسبة للأغلبية السكانية، الدخول راكدة جداً، وزادت ساعات العمل والظروف نتنة. هناك أزمات مالية متكررة منذ أن بدأ تحرير التجارة من القيود وأنقذت الشركات الكبيرة بأموال دافعي الضريبة. بعد ذلك ازدادوا ثراءاً أكثر من قبل وأعدوا للأزمة التالية. ذلك خطر شديد حقيقة. لقد سحق الاقتصاد تقريباً والمرة التالية الوشيكة ستكون أسوأ. بمعزل عن حقيقة أنها تقوض تقريباً أي وظيفة ديمقراطية للدولة - وهذا متماثل في البلدان الأخرى - صدف إن كانت الولايات المتحدة في حدها الأقصى.

تي في: كثير من هذا يبدو أنه يجري الآن في ويكنسون حيث تي بارتي، حكومة الدولة، والنقابات في صراع مباشر حول المساومة الجماعية. هناك مقالة حديثة في نيويوركر زعمت أن حركة تي بارتي كانت تتلقى كثير من دعمها المالي من كوتش برذرز، الذين هم داعمون ماليون للحاكم سكوت وكر. تي بارتي تتميز دائماً كـ«حركة عمالية - شعبية». هل تتفق مع ذلك التقييم وكيف تصف الأحداث في ويسكنسون؟

نعوم تشومسكي: حسناً، صحيح هناك مواجهة بين التي بارتي والحركة الشعبية، لكن ذلك نوع من الخداع. أقصد، هناك دعم ساحق

للمحتجين. أولاً وقبل كل شيء إنه حدث رئيسي.... التي بارتي لم تحلم أبداً في وضع مئات الآلاف في الشوارع يوماً بعد يوم، محتلة عاصمة الولاية... إنها ثورة رئيسية. ولها دعم كبير. لو نظرت إلى الاستفتاءات، أكثرية واسعة من الناس في ويسكنسون تؤيد المتظاهرين وتعارض التشريع.

التي بارتي حركة صغيرة في الواقع وهي بمعنى ما شعبية - عمالية. خرجت من تقليد أصلي قديم أغلبها نسبياً، بيض ومعادين للأجانب ومعادين للهجرة، فيها عناصر عنصرية. إنها ضد «بيغ موفمينت»... ويزعمون أنهم ضد بيغ موفمينت. من جهة أخرى بطلهم رونالد ريغان كان مؤيداً كبيراً لبيغ موفمينت. لهذا هي مربكة فكرياً، لكنها تغري وخرجت من تقليد أصلي طويل.

من جهة أخرى، إنها صغيرة وغنية نسبياً، صحيح أنها تتلقى تمويلاً ضخماً من قطاع التجار، لكنها ثورة شعبية غامرة ضد محاولة تدمير آخر بقايا الحركة النقابية.

تي في: في عام ١٩٧٠ كانت لك محاضرة «حكومة في المستقبل» حول مستقبل الدولة الديمقراطية الليبرالية. بسبب عدم المساواة الهائل في الثروة والدخل الذي تحدثت عنه في الولايات المتحدة، والأحداث التي تجري الآن، ما هو مستقبل الدولة الديمقراطية الليبرالية برأيك؟ هل تعتقد أنها ستنجو في الـ٢٥—٣٠ سنة القادمة؟ ما هي البدائل برأيك؟

نعوم تشومسكي: أعتقد أن جواب هذا السؤال يجري الآن في شوارع ماديسون في ويسكنسون. إنه يعتمد على من سيربح من هذه القوى. هناك قوى مؤيدة للديمقراطية تحتج، هناك قوى مناوئة للديمقراطية المكرسة لمحاولة فرض نوع من حكومة استبدادية مشتركة ضيقة. وسنري كيف سيجري هذا.

مقابلة مع كنديل ماغازين

سوسوات باتانياك: بروفيسور تشومسكي أين تحدد خطوط الأزمة الراهنة في مصر وتونس والشرق الأوسط؟

نعوم تشومسكي: يعود منشأ الأزمة في العالم العربي إلى تاريخ بعيد ومماثل لما شاهدناه في العالم المستعمر (بالفتح) وما عبر عنه الرئيس إيزنهاور وأركانه في الحقيقة منذ بدايات خمسينيات القرن العشرين. فقد عُقد نقاش داخلي (رفع عنه الحظر فيما بعد) سأل فيه الرئيس أركانه لماذا يوجد هناك «حملة كره» ضدنا في العالم العربي؛ ليست بين الحكومات التي بشكل أو بآخر مطيعة وإنما من الشعب؛ فأصدر مجلس الأمن القومي، الهيئة الرئيسية التخطيطية مذكرة عن هذا الموضوع تحدثت عن إدراك في العالم العربي بأن الولايات المتحدة تدعم الديكتاتوريين الشريرين القساة، وتعيق الديمقراطية والتطور؛ ونحن نقوم بهذا لأننا نريد الحفاظ على التحكم بثرواتهم - الطاقة؛ وأن ذلك الإدراك صحيح بل أكثر من ذلك، هذا ما يجب أن نفعله.

المبدأ الأساسي لا يشمل العالم العربي فقط. لقد عبر عنه بإيجاز أثناء الثورة المذهلة الحديثة في مصر، مروان معشر - موظف أردني كبير يرأس الآن بحوث الشرق الأوسط لوقف كارنيجي الذي قال هناك مبدأ سائد: طالما أن الناس هادئون وسلبيون ومنضبطون ليس هناك مشكلة. نحن نفعل ما نشاء. ربما هم يكرهوننا، لكن ذلك لا يهم لأننا نستطيع أن نفعل ما نريد. هذا المبدأ يطبق في العالم العربي، في الهند وفي داخل الولايات المتحدة نفسها: إنه مبدأ قياسي للسيطرة. طبعاً، يكسر الشعب القيود لهذا تكون التعديلات إجبارية. ما يحدث في مصر الآن دراماتيكي لكنه ليس المثال غير النموذجي. هناك حالة إثر أخرى أجبرت فيها الولايات المتحدة والقوى الإمبريالية الأخرى على التخلي عن

الديكتاتور المفضل لأنه لم يعد قادراً على البقاء. لهذا هناك خطة قياسية تطبق على مصر. أنت تدعم الديكتاتور طالما ذلك ممكناً بتبني مبدأ معشر. كل شيء هادئ، لذلك لا توجد مشكلة. حين لا يظل بالإمكان بقاء الديكتاتور، تزيحه جانباً، قضية تصريحات ريغان عن حب الديمقراطية والحرية والمباشرة في محاولة إعادة توطيد أكثر ما تستطيعه من النظام السابق. وهذا ما نراه يحدث في مصر وكما قلت، يتكرر حدوث هذا مرة تلو أخرى.

سوسوات باتانياك: هل ترى ثورة مشابهة في الهند؟ أو ما هي آراءك حول كبح الهند؟

نعوم تشومسكي: لنأخذ الهند. أولاً وقبل كل شيء، هناك ثورة رئيسية. أجزاء واسعة من الهند تلتهب. المناطق القبلية هي في ثورة حقيقية. قسم كبير من الجيش الهندي منشغل في محاولة إخمادهم.

سوسوات باتانياك: هل ترى توازياً بين المتمردين؟

نعوم تشومسكي: أعتقد أن المشكلة الحقيقية في الهند ستكون... أقصد كانت، كما تعرفين، هذه الهند الشهيرة المشرقة وهذا صحيح بالنسبة لقطاع من السكان. الهند ضخمة جداً لهذا هي قطاع جوهري. من جانب آخر، ربما ثلاثة أرباع السكان تم إقصاءهم. عدد أصحاب المليارات يرتفع بسرعة عدد انتحار الفلاحين الكبير. وتشابه القضية في مصر ليس كثيراً مع ما يحدث في المناطق القبلية. أعتقد أنه بسبب مئات الملايين من الناس الذين يعانون بقسوة.

سوسوات باتانياك: بالتأكيد. هناك فجوة هائلة.

نعوم تشومسكي: هناك فجوة طبقية هائلة. الهند مثيرة ومفاجئة في الحقيقة. إذاً المعاناة في جنوب آسيا .....

سوسوات باتانياك: الفجوة تتزايد الآن......

نعوم تشومسكي: إنها تكبر وهي الأسوأ في العالم. وصار لها وقت طويل. لو نظرت إلى مؤشر النمو الإنساني الصادر عن الأمم المتحدة

ستجدين الهند الدولة ١٢٠ تقريباً في بداية ما سمي بالإصلاحات قبل ٢٠ سنة.

سوسوات باتانياك: لقد انحدرت نوعياً أكثر الآن

نعوم تشومسكي: حسناً، السؤال الآن إلى متى سيظل هؤلاء الناس سلبيين ولا مبالين وتظل مخاوفهم مهملة.

سوسوات باتانياك: بروفيسور تشومسكي، (اروينداتي روي) قُمعت بتهم التحريض على العصيان حين تكلمت عن أهل كراتشي في حق تقرير المصير. ما هي مآخذك عن تقرير المصير، خصوصاً في سياق كراتشي؟

نعوم تشومسكي: أولاً يجب أن أقول أن (اروينداتي روي) يجب أن تُكرم وتُجل كثيراً في الهند كرمز لما يمكن أن يكون عظيماً عن البلاد. حقيقة أنها اتهمت بالتحريض على العصيان هو إساءة محضة والغضب والكره الذي نظم ضدها عار حقيقي. لكن هكذا هي اروينداتي روي، شخصية مدهشة وعجيبة.

فيما يتعلق بكشمير، تعود المشكلة إلى التقسيم. وهناك مسؤولية على كل الأطراف. نقتصر على الهند، رفضت الهند السماح بالاستفتاء الشعبي (المذكرة الاستعلامية) التي كانت شرطاً للتقسيم. (لهذا الهند) استولت على الأرض وأدى الصراع لاحقاً إلى خط التحكم. كان هناك كثير من القمع والعنف. في أواخر ثمانينيات القرن العشرين كان هناك انتخاب لكنه كان مزيف تماماً. أدى إلى ثورة قُمعَتْ بعنف مفرط. قتل عشرات الآلاف من الأشخاص في المناطق التي تسيطر عليها الهند في كشمير. كانت أعمال التعذيب والوحشية رهيبة جداً. تشير (ارندوتي روي) في مقالتها الأخيرة بأن هذه المنطقة هي الأكثر في العالم التي تتواجد فيها قوات عسكرية. منذ ذلك الحين كانت هناك انتخابات أخرى تحت السيطرة حاولت أن تشرعن السيطرة الهندية وكل من ينظر إليها يرى بأن هناك ضغط قوي من أجل شكل من الاستقلال أو الحكم الذاتي. يمكنه أن يأخذ أشكالاً كثيرة. كيف يجب أن تعالج ليس كمشكلة

عادية. لكن التفكير بطرق نتيجتها منطقية ومعقولة يمكن أن تنجح في أجزاء كشمير المتنوعة، (حيث) مناطق كثيرة في كشمير لها مصالح وأهداف مختلفة.

سوسوات باتانياك: كيف ترى الحركة الماوية في الهند؟ هل تراها معركة من أجل حق شعب أهلي أصلي في تقرير مصيره أم هل ترى فيها صراعاً شيوعياً ثورياً للتحكم في الاقتصاد السياسي؟

نعوم تشومسكي: حسناً، أولاً يجب أن لا أتظاهر بمعرفة عميقة بهذا. فأنا لا أعرف. لكن بقدر ما أفهم أنها الشيئين معاً. هناك ثوريون ماويون. يسمون أنفسهم ماويين أيا كان معنى ذلك. لكن هناك أساس في السكان. هناك فعلياً مناطق قبلية وهم من بين الناس المكبوتين في الهند. يعيشون، لديهم مجتمعات، مجتمع عامل؛ في الغابات، في المناطق القبلية. هناك جهد من الحكومة، أساساً لغزو تلك المناطق لتخرب أساس حياتهم ومجتمعهم باستخراج الثروات وحفر المناجم وغيره. وهم يقاومون. سيحافظون على حياتهم. هذا ما يجري في كل أنحاء العالم.

الآن، هذا الصيف مثلاً، كنت في جنوب كولومبيا أزور القرى المهددة بالإنقراض والخاضعة لقمع شديد. في الواقع، كولومبيا لديها أكبر عدد من السكان الذين اقتلعوا من أرضهم في العالم بعد السود، أغلبهم بسبب اعتداءات على مناطق السكان الأصليين. القرويون يحاولون فعل الشيء ذاته. يحاولون إيجاد طرق إلى... قرية زرتها تحاول أن تحافظ على جبل مجاور وغابات عذراء من أعمال استخراج المعادن التي ستدمر مجتمعاتهم، تدمر حياتهم، وتأخذ مواردهم من المياه. انهم فقراء، لكن لهم حياة فاعلة. يريدون تلك الحياة ولديهم الأسباب لذلك. وهذا ما يحدث في كل العالم. يحدث في الولايات المتحدة. في ابلاشينا، إزالة قمة جبلية كانت وسيلة رخيصة لاستخراج الفحم، لكنها خربت الوديان والأنهار ودمرت الحياة البيئية، دمرت المجتمعات والناس الذين قاوموها. افترض، أن ما يحدث في المناطق القبلية (في الهند) جزء هام

ومثال لهذه الظاهرة العالمية من اندفاع محموم عن الموارد مهما كان التأثير على البيئة والناس.

سوسوات باتانياك: نعم. وأيضاً، إنها استمرار لما يعرف بالفهم التاريخي للشعوب الهندية الأصلية. منذ ستينيات القرن العشرين وبعدها كانت هناك حركات ثورية منظمة بين المضطهدين....

نعوم تشومسكي: نعم من حركات الناكسال. وذلك خطير جداً. في أماكن مثل البنجاب الغربي، كانت عاملاً رئيسياً أدى إلى إصلاحات مهمة في الأرض، إلى تثبيت المجتمعات الفلاحية وهلم جر. مرة أخرى عدم معرفتي حولها، لكنني زرت بعضها مع صديق اقتصادي زراعي وزير مالية مع الحكومة صدف أنني أعرفه حين كان طالباً هنا. ذهبنا في زيارة إلى بانشيات في غرب البنغال وهناك أشياء مثيرة تحدث. هذه هي نتائج ثورة الناكسال.... النتائج الأخرى كانت خبيثة ووحشية.

سوسوات باتانياك: يزداد تشابه الدول القومية بالشركات الكبيرة. هل تعتقد بأن العولمة ستواجه حركتها الارتجاعية الضرورية وانصهار تاريخي؟

نعوم تشومسكي: أعتقد أن هناك أشياء معقدة كثيرة تحدث في العالم كله. لا أعتقد أن ذلك صحيح في كل الدول القومية. مثلاً، في أمريكا اللاتينية، كان هناك في العشر سنوات الماضية، حركات هامة نحو التكامل، نحو الاستقلال، نحو جلب الجماهير إلى لب العملية السياسية، للتعامل مع المشاكل الداخلية الحادة، وليس كالهند، التي لديها فقر هائل وبؤس في جزيرة من الثروة. ذلك هو الاتجاه المعاكس. خذي بلداً مثل الولايات المتحدة المهمة وإنكلترا وكثير من أوروبا - ما وصفتيه... ما يحدث يمكن وصفه بتلك الطريقة لكن باختلاف قليل. أقصد أن ما يحدث فعلياً في العالم، عرضياً يشمل الصين والهند أيضاً - هو انتقال للسلطة في العالم - مبتعدة عن الناس والعمال إلى أيدي

الملاكين والمدراء والمستثمرين، عناصر النخبة والحرفيون الذين ينالون أجوراً عالية. هناك انشقاق طبقي حاد جداً. ترينه في كل مكان.

سوسوات باتانياك: بالتأكيد.

نعوم تشومسكي: في الولايات المتحدة، لا مساواة منذ عشرينيات القرن العشرين. ولو أمعنت النظر، إنه الأعلى الآن، لأن اللامساواة ناتجة أساساً عن الغنى المفرط والفاحش لقطاع صغير جداً من السكان. جزء من واحد بالمئة (يشمل) المدراء والملاكين ومدراء صناديق الوقاية المالية... وتركز السلطة الاقتصادية هذا في قطاع النظام المتحد، والقطاع المالي المتنامي، يحمل معه سلطة سياسية. للسلطة الاقتصادية المركزة تأثير ساحق على العملية العالمية. وفي الحقيقة، سياسات الدولة الاتحادية للـ٣٠ سنة الماضية، تركض من سياسات مالية مثل فرض الضرائب إلى قوانين حكومية على سلطة الاتحاد وهكذا، صُممت لكي تخلق نوع من نظام ظالم منقسم طبقياً بشكل حاد. وهذا هو السبب الحقيقي بوجود كثير من الغضب وعدم الرضا. إنها ليست كالعالم الثالث لكن الشعب في البلدان الغنية رأى اقتصاده يركد لمدة ٣٠ سنة بينما هناك ثروة هائلة. الحياة ليست بائسة لكنها صعبة. البطالة لدى قسم كبير من السكان لا تزال بمستوى الكساد دون وجود أي أمل في تغيير أي شيء. هذا الواقع في حدوده القصوى في الولايات المتحدة. لكن مثيله في إنكلترا إلى درجة ما، وأماكن أخرى. مثل الصين؛ دعيني أقول هناك تفاوت هائل في الثروة، واحدة من الأسوأ في العالم. الهند طبعاً صنف بحد ذاتها...

سوسوات باتانياك: هل أغلب الناس يعترفون بوجود مجتمع طبقي أم هناك إنكار؟

نعوم تشومسكي: طبقة البزنس في الولايات المتحدة ذات وعي كبير. في الحقيقة هم جوهرياً ماركسيون. لو قرأت أدب البزنس، يقرأ مثل كتاب أحمر صغير. هم يذكرون أخطار الجماهير المنظمة، الأخطار التي يفرضونها على الصناعيين. وهم يحاربون حرباً طبقية مرة أخرى. وفي

السنوات الأخيرة أصبحت مثيرة. وسط بقية السكان، قصة مختلطة. مرة ثانية تأخذ الولايات المتحدة كلمة «طبقة» تقريباً لا يصح ذكرها. الولايات المتحدة واحدة من الدول القليلة التي....

سوسوات باتانياك: تعتبر فيها كلمة طبقة (محرمة).

نعوم تشومسكي: إنها كلمة محرمة. الجميع في الطبقة الوسطى. لدي صديقة تعلم التاريخ في جامعة للدولة. في اليوم الأول من الفصل الدراسي، تسأل طلابها عادة كيف يحددون أنفسهم من الناحية الطبقة. الأجوبة هي: «إن كان والدي في السجن فأنا من الطبقة الدنيا وإن كان حاجباً فأنا من الطبقة الوسطى وإن كان سمساراً في البورصة فأنا من الطبقة العليا». لكن فكرة الطبقة بمعناها التقليدي طردت من رؤوس الناس. لكن إن كان لديهم المصطلح أم لا، فهم يعرفونه. الناس يعرفون إن كانوا يعطون الأوامر أم يتلقونها. يعرفون إن كان لهم دور في صنع القرار أم لا. وهذه هي الامتيازات الطبقية.

سوسوات باتانياك: رسالتك لقراء كدنيل ماغازين؟

نعوم تشومسكي: الرسالة.... رسالة واحدة أن لا يأخذوا الوصف بجدية كبيرة. في الحقيقة، ألقوا نظرة لما يحدث الآن في ميدان التحرير في مصر. واحدة من أهم التظاهرات - الإثباتات المذهلة للحيوية الشعبية في الشجاعة والتصميم الذي أستطيع تذكره. هم لا يتبعون القادة. في الحقيقة ما يذهل ويلفت الانتباه المثير هو درجة التنظيم الذاتي العالية فيه. الناس يشكلون تجمعات دفاعية ليحموا أنفسهم ضد بلطجية الحكومة، يشكلون جماعات لتطوير السياسات، للتواصل مع الآخرين. هذه هي الطريقة التي يجب أن تحدث فيها الأشياء. أحياناً كما تعرفين، الحركات الشعبية تتطور ويظهر القادة. هذا شيء سيء عادة. يجب أن لا يبحث أحد عن الآخر من أجل التوجيه والنصح. أساساً يمكنكم أن تجيبوا على كل الأسئلة. الأشخاص المهمون سيأتون من الشعب نفسه.

سياسة الولايات المتحدة الخارجية
في الشرق الأوسط

نعوم تشومسكي في قصر اليونيسكو
في بيروت ٢٥ أيار / مايو ٢٠١٠

نص المحاضرة

من المتفق عليه عموماً في دوائر السياسة الخارجية وجود قضيتين رئيسيتين في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية اليوم. الأولى التهديد الإيراني والثانية الصراع العربي / الإسرائيلي الذي لم يحل. أسئلة تطرح حول كل من هاتين القضيتين. فيما يتعلق بإيران السؤال الذي يظهر هو «ما هو التهديد الإيراني بالضبط؟» أما ما يتعلق بفلسطين / إسرائيل فإن السؤال الجلي هو «لما لم يحل بعد؟» في الواقع هناك مشاكل كثيرة في العالم يصعب حتى تخيل حل لها لكن هذه المشكلة صدف أن تكون سهلة بشكل خاص. هناك اتفاق عالمي تقريباً على الشكل الذي يجب أن يكون عليه الحل المدعوم من الجامعة العربية ومن منظمة الدول الإسلامية بما فيها إيران ومن أوروبا ومن الأمم المتحدة والقانون الدولي وفي الحقيقة من قبل كل شخص، لهذا كيف يحدث أنها لم تسوى؟ هذا هو السؤال الثاني.

حسناً، هناك بعض الإجابات المباشرة والصريحة لهذه الأسئلة لكنها لا تدخل في النقاش ضمن الإيديولوجية والعقيدة الغربية والإجابات التي بهذه البساطة أبعد ما تكون عن التقاليد العامة. لهذا دعوني أقول كلمات قليلة حولها.

فيما يخص التهديد الإيراني هناك إجابة رسمية جداً، قدمتها تقارير مخابراتية وعسكرية إلى الكونغرس في نيسان / ابريل ٢٠١٠.

تقول التقارير أن الخطر الإيراني ليس عسكرياً. ليس لدى إيران عملياً مقدرة عسكرية هجومية لأن نفقاتها العسكرية ضئيلة جداً، طبعاً هي ليست سوى جزء صغير جداً من النفقات العسكرية الأمريكية ومنخفضة نوعاً ما حتى بالنسبة بالمقاييس الإقليمية وأوضحت التقارير أن هدف الإستراتيجية العسكرية الإيرانية هو محاولة الدفاع عن حدود البلاد وفي حالة تعرضها لهجوم تحاول إعاقة القوات الغازية بشكل يكفي للسماح بتسوية تفاوضية.

وناقشت التقارير إن كانت إيران تطور أسلحة نووية وهو ما لا يعرفونه. فإن الهدف هو لمنع الهجوم على إيران. هذه هي القصة بجوهرها.

إذاً ما هو التهديد الإيراني؟ حسناً، لقد تم شرح التهديد أيضاً. التهديد الأساسي أن إيران متورطة في زعزعة استقرار جيرانها. هي تحاول زيادة نفوذها في البلدان المحاذية لها وخصوصاً في العراق وأفغانستان. الولايات المتحدة طبعاً متورطة في العراق وأفغانستان لكن ذلك ليس مزعزعاً للاستقرار. ذلك داعم للاستقرار. الولايات المتحدة موجودة هناك لتحسن الاستقرار وإذا حاولت إيران أن يكون لها نفوذ في الدول المجاورة لها فذلك مزعزع للاستقرار. لذلك بات هذا الآن مصطلح قياسي في أدبيات السياسة الخارجية ونقاشها. أقصد أنها وصلت إلى درجة أن رئيس التحرير السابق لفورين افيرز، الصحيفة الرئيسية للمؤسسة، استطاع أن يقول بوقاحة ودون رد فعل من أحد، أن الولايات المتحدة أُجْبِرَتْ على زعزعة الاستقرار في عهد الليندي.......... اضطرت إلى زعزعة استقرار حكومة تشيلي والإطاحة بها وتنصيب دكتاتورية لكي تحل الاستقرار. يبدو ذلك تناقضاً لكنه ليس كذلك حين تدرك أن لكلمة «الاستقرار» معنى. إنها تعني السيطرة. لهذا علينا أن نزعزع استقرار البلاد التي هي خارجة عن سيطرة

الولايات المتحدة لكي نحل فيها الاستقرار والمشكلة عينها مع إيران. هي لا تمتثل للأوامر لذلك هي تزعزع استقرار الوضع الإقليمي.

هناك مشكلة أخرى مع إيران وهي أنها تدعم الإرهاب. لذلك مثلاً، ربما تصدقون اليوم أنكم تحتفلون بعيد الاستقلال الوطني لكن في شروط العقيدة الغربية، ما تحتفلون به هو نجاح الإرهاب وفي الحقيقة نجاح العدوان الإسرائيلي على جنوب لبنان.... عدوان إيراني.... لهذا أنتم تحتفلون بالاعتداء الإيراني على إسرائيل في جنوب لبنان ونجاحه أنتم تمجدون الإرهابيين والإرهاب (اقتبس ما قاله مسؤول إسرائيلي كبير في حزب العمل - افرايم سنيح). إنه ليس عيد استقلال. عليكم أن تدركوا كيف تؤولون هذه المسائل بالشكل المضبوط إن أردتم الدخول في إطار الخطاب الامبريالي. هذا ليس الولايات المتحدة وإسرائيل بل أوروبا الغربية أيضاً مع بعض الاستثناءات. هذا هو التهديد الإيراني إذاً.

هذا الوصف ليس غير صحيح. إيران لا تنصاع للأوامر. هي تحاول الحفاظ على سيادتها. هذا مستقل تماماً عما يعتقد به أي واحد في حكومته. ربما تكون لديك أسوأ حكومة في العالم لكن القضية ليست هنا. الولايات المتحدة لا تهتم بطريقة أو بأخرى في الشكل الذي تكون عليه الحكومة. هي تريد منها أن تنصاع للأوامر لتحسين الاستقرار. ذلك هو التهديد الإيراني.

ماذا عن فلسطين وإسرائيل؟ حسناً، هناك رواية رسمية لذلك الصراع أيضاً. تراها يومياً في الصحف. الولايات المتحدة وسيط نزيه وحكم محايد تحاول جمع الطرفين غير العاقلين والعنيفين معاً. هما لا يتفقان والولايات المتحدة تحاول تسوية الصراع بينهما. هذا هو سبب وجود محادثات متقاربة تتوسط فيها الولايات المتحدة بين خصمين غير عاقلين، الفلسطينيين والإسرائيليين. هذه هي الرواية الرسمية. يمكنك

قراءتها كل يوم. هناك حقيقة أخرى. لن أدخل في كل القصة لكن الحقائق الرئيسية واضحة.

في عام ١٩٦٧، أخضعت إسرائيل الأراضي المحتلة وكان هناك قرار لمجلس الأمن طالب بتسوية الصراع، القرار ٢٤٢. طالب إسرائيل بالانسحاب إلى حدودها وبالمقابل يجب أن تكون هناك ضمانات للأمن من كل دولة في المنطقة واعتراف كل دولة في المنطقة ضمن الحدود المعترف بها. لا شيء فيه من أجل الفلسطينيين. لقد ذكروا فيه كلاجئين فقط. ذلك جوهر القرار ٢٤٢، الذي يقبل به كإطار عام لتسوية سياسية.

حسناً في عام ١٩٧١، بعد أربع سنوات. قدم الرئيس المصري أنور السادات معاهدة سلام شاملة بدون أي شيء من أجل الفلسطينيين. في المقابل، انسحاب كامل من الأراضي المحتلة وفي الحقيقة هو لم يهتم إلا بسيناء. قدم الأردن عرضاً مماثلاً بعد سنة. كان على إسرائيل أن تقرر. هل ستختار الأمن أم التوسع؟ معاهدة سلام مع مصر تعني الأمن. مصر كانت القوة العسكرية الرئيسية العربية طبعاً. لكن الإسرائيليون كانوا آنذاك يعملون جاهدين للتوسع في الأراضي المصرية.... في سيناء، شمال شرق سيناء لكي ينشئوا مدينة ومستوطنات وغيرها. لقد اتخذوا كما أعتقد أشأم قرار في تاريخ البلاد في اعتقادي. قرروا تفضيل التوسع لهذا رفضوا عرض السلام. الآن السؤال الحاسم دائما هو، «ما الذي سوف يفعله السيد؟» وبالتالي، «ما الذي ستقرره واشنطن؟» وكانت هناك معركة بيروقراطية في واشنطن حول هذا. فاز هنري كيسنجر بالمعركة الداخلية وكان معارضاً للمفاوضات. كان يميل إلى ما أسماه بـ«المأزق» وليس إلى المفاوضات. لهذا أيَّد القرار الإسرائيلي في اختيار التوسع وتفضيله على الأمن وأدى هذا بسرعة إلى حرب عام ١٩٧٣ حرب تشرين / أكتوبر. كانت شيئاً مقلقاً جداً بالنسبة لإسرائيل وأدركت إسرائيل والولايات المتحدة أنهما لا تستطيعان تجاهل مصر ببساطة.

بعد ذلك بدأت فترة طويلة من التفاعل السياسي انتهت بكامب ديفيد بعد سنتين حين قبلت الولايات المتحدة وإسرائيل جوهرياً باقتراح السادات الذي قدمه عام ١٩٧١ وكانت تكلفة الرفض حرباً خطيرة جداً اقتربت من شفا حرب نووية، الكثير من العذاب والبؤس. في الواقع ما اضطرت الولايات المتحدة إلى القبول به في كامب ديفيد جزئياً كان من وجهة نظرهما، أقسى من عرض السادات في ١٩٧١، في هذا الوقت، دخلت قضية الحقوق الوطنية للفلسطينيين الأجندة العالمية لهذا أجبرتا على قبول، على الأقل كلامياً، شكل ما من الحقوق الوطنية للفلسطينيين في الأراضي التي يفترض أن تنسحب منها إسرائيل.

في غضون ذلك، في الفترة الفاصلة، في عام ١٩٦٧ كان هناك حدث حاسم آخر. في عام ١٩٦٧ جاءت الدول العربية الرئيسية مصر وسوريا والأردن ودول أخرى إلى مجلس الأمن بقرار يطالب بتسوية الصراع حسب شروط قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ - كل النصوص الوثيقة الصلة بـ٢٤٢ مع ضماناته للحقوق وهلم جر لكن بإضافة: دولة فلسطينية في الأراضي المحتلة. رفضت إسرائيل حضور الجلسة. استخدمت الولايات المتحدة الفيتو لنقض القرار. كما نقضت قراراً مماثلاً في عام ١٩٨٠. الآن حين تنقض الولايات المتحدة قراراً فإنه نقض مزدوج. أولاً إنه لم يحدث وثانياً أنه نقض من التاريخ. لذلك إن نظرت حتى إلى السجل الأكاديمي فقلما تجد له ذكر فيه وبالتأكيد ليس هناك شيء عنه في وسائط الإعلام أو النقاش العام. الحدث الذي وصفته لم يحدث. هو ليس هناك. عليكم أن تبحثوا بجهد كبير لتجدوا إشارة له. تلك إحدى مزايا تفوق السلطة الإمبريالية. يمكنك التحكم بالتاريخ طالما لديكم طبقة مثقفة خاضعة كالتي يمتلكها الغرب. لن أدخل في بقية التاريخ لكنه يستمر مثل ذلك إلى حد كبير.

حتى الوقت الحاضر الولايات المتحدة خارج العالم. مع استثناءات نادرة، استمرتا (هي وإسرائيل) في منع التسوية السياسية التي نالت موافقة عالمية تقريباً مما يعني أنه لو كانت هناك محادثات تقارب جدية اليوم، تدار من المريخ، لربما كان الخصمان اللذان سيجتمعان الولايات المتحدة والعالم. يمكن إجراء محادثات تقارب بينهما وإذا أمكنهما التوصل إلى اتفاق، فستكون هناك تسوية للمشكلة. حسناً، هذا هو السجل الفعلي. طبعاً، الأحداث التاريخية دائماً أكثر تعقيداً من الوصف البسيط لكن هذه هي الحقائق الأساسية. هي ليست خلافية وليس هناك شك حولها لكنها ليست جزءاً من الخطاب العام لأنها تقود إلى الاستنتاجات الخاطئة ولذلك يتم استثناءها. لو تحدثت عنها في أغلب الأماكن في الغرب فستكون الكلمات غير مفهومة على الأغلب والأمر لا يقتصر على هذه القضية. إنها تكشف السلطة فوق العادية للايدولوجيا الإمبريالية فحتى أبسط الحقائق وأكثرها حسماً تكون غير مرئية إن لم تتوافق مع احتياجات السلطة.

أنا لست الشخص الأول الذي تحدث حول هذا بالتأكيد فقد كتب (جورج أورويل) عنه مثلاً وناقش كيف في إنكلترا (المجتمع المتحرر)، يمكن إخماد الأفكار غير الشعبية بدون استخدام القوة، طوعياً فقط، وقدم بعض من الأسباب. السبب الأهم كان التعليم الجيد. قال، لو نعمت بتعليم جيد، فإنك تغرس في داخلك القبول بوجود أشياء معينة من غير المفيد قولها - أو حتى التفكير فيها. هذا المقال له ليس مشهوراً لأنه لم ينشر وربما ذلك يثبت فرضيته. كان هذا مقدمة كتابه مزرعة الحيوان. الكل قرأ مزرعة الحيوان. هو عن دولة ذات نظام شمولي، العدو الاستبدادي وأساليبه الشريرة لكن لمنع الغرور الذاتي المفرط فقط، كتب اورويل مقدمة تنتقد إنكلترا الحرة لكنها لم تنشر ثم بعد سنين وجدت في أوراقه التي لم تنشر. إنه ليس أكبر مقالاته لكن غرضه

صحيح بشكل أساسي. الأفكار غير الشعبية يمكن إخمادها دون استعمال القوة والتعليم الجيد وسيلة فعالة للوصول إلى هذه النتيجة. حسناً، إذا لم نستطع أن نصبح قادرين على التفكير في الأفكار التي تحظرها الإيديولوجية الإمبريالية، سيكون إدراك ما يحدث في العالم أصعب منالاً.

سأعود إلى هاتين القضيتين الحاسمتين في السياسة الخارجية لكن دعوني أولاً أضيف خلفية صغيرة لما اعتبره سياقاً مناسباً. الولايات المتحدة طبعاً القوة المهيمنة في الشؤون العالمية وكانت هكذا ولا تزال منذ الحرب العالمية الثانية. من المهم جداً أن ندرك وجود عدد من المظاهر في التاريخ الأمريكي التي تؤثر على السياسة حتى الوقت الحاضر وأعتقد أنها لم تدرك بشكل كاف. الحقيقة الأولى أن الولايات المتحدة مجتمع استعماري استيطاني. الاستعمار الاستيطاني بالتأكيد أسوأ نوع من الإمبريالية لأنه يدمر السكان الأصليين أو يتخلص منهم. جزء من السبب باعتقادي يعود إلى تعاطف انعكاسي نسبي نحو إسرائيل في الولايات المتحدة هو الاعتراف بأن إسرائيل تحيي ثانية إلى حد كبير تاريخنا كمجتمع استعماري استيطاني. نحن تخلصنا من السكان المحليين الأصليين وإسرائيل تقوم بشيء مماثل.

هناك الكثير من السخرية، المفارقات المتضمنة في هذا. المستوطنون الأصليون يعتبرون أنفسهم أولاد إسرائيل الذين عادوا إلى أرض الميعاد. لقد توحدوا بمبدأ يتخلل التاريخ الأميركي كله حتى الوقت الحاضر يسمى (العناية الإلهية)، نحن ننفذ مشيئة الرب، أياً كان ما نفعل فإننا ننفذ مشيئة الرب فلو أبدنا السكان الأصليين فيجب أن يكون ذلك مشيئة الرب. نحن نحاول أن نفعل الخير طبعاً ونحاول أن نكون خيرين لكن نوايا الرب تكون غامضة أحياناً. تستطيعون أن تقرؤوا مناقشات لقضاة المحكمة العليا دهشوا وتفاجئوا من أن الهنود قد أبيدوا - كما

عبروا عنها، كانوا مثل أوراق ذابلة خريفية تبعثرت - ومشيئة الرب الغامضة أدت إلى هذه العاقبة التعيسة. نحن محبين للخير ونعمل على تحسين أوضاعهم ونكون مهذبين معهم. تلك هي العناية الإلهية.

ولاية ماساشوسيتس واحدة من أولى الأماكن التي استوطن فيها المستعمرون الإنكليز. نالت شرعيتها من ملك إنكلترا عام ١٦٢٩. أعطيت لها الشرعية بهدف خيري نحو السكان الأصليين، مساعدة السكان المحليين، إنقاذهم من الوثنية. ذلك كان هدف الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية). في الحقيقة، امتلكت المدينة خاتماً كبيراً تجد عليه صورة تصور الهدف منه. تظهر الصورة هندياً مع لفيفة من ورق البردي تخرج من فمه وكتب على اللفيفة «تعالوا إلى هنا وساعدونا». وهكذا، «نرجوكم أن تأتوا إلينا وتساعدونا»، وكان المستعمرون يحاولون مساعدتهم. يُدعى اليوم هذا بالتدخل الإنساني. هم يأتون لمساعدتهم لكن لغرض ما، هم تبعثروا مثل أوراق الخريف بفضل مشيئة الرب الغامضة التي هي أبعد من إدراكنا.

حسناً، حقيقة دامغة أخرى عن الولايات المتحدة أنها أُسست كإمبراطورية على نحو صريح. مؤسس البلاد، جورج واشنطن، عرف الولايات المتحدة كإمبراطورية يافعة، في كلماته وموافقة زملاءه. الأشد تأييد للحرية من بين الآباء المؤسسين (توماس جيفرسون)، تنبأ بأن المستعمرات المحررة حديثاً سوف تمتد فوق كامل نصف الكرة الأرضية. سوف ينشئون نصف كرة أرضية حرة لن يكون فيها حمر أو سود أو لاتينيين. الحمر، الهنود سوف يطردون أو يتبعثرون أو يختفون. السود كانوا في حاجة إليهم لفترة من أجل الرق لكن حين ينتهي الرق، سوف يعودون إلى الأماكن التي ينتمون إليها في أفريقيا وهاييتي. بالنسبة للاتينيين الجنوبيين هم عرق دوني لهذا سيجري اكتساحهم من قبل العرق الانغلو - ساكسوني الأرفع مقاماً. لنقتبس من مؤرخ أكاديمي

رفيع في هذا الموضوع هو (جيفرسون) الذي صَوَّرَ الولايات المتحدة وطناً للملايين المحتشدة التي ستهاجر وتتكاثر وتنتج جنسها في كل أقسام أمريكا الشمالية والجنوبية، التي ستحل محل ليس الهنود الحمر فقط بل السكان اللاتينيين أيضاً وينشئون قارة ستكون من دم أمريكي في اللغة والعادات والإيديولوجية السياسية. حسناً ذلك كان الهدف. لم ينجز كله لكنه أُنجِزَ فعلياً بشكل أو بآخر. خلال القرن التاسع عشر، وطدت الولايات المتحدة ما يسمى الآن أرضها القومية. معنى ذلك إبادة السكان المحليين الأصليين كما اعترف بذلك القادة الأكثر نزاهة، وذلك باحتلال نصف المكسيك وغيره من الأعمال الأخرى غير السارة.

يتحدث مؤرخو الإمبريالية أحياناً عن ما يسمونه فكرة (المياه المالحة الخاطئة). فكرة المياه المالحة الخاطئة تعني الإمبريالية إن عبرت المياه المالحة (المقصود المحيط - المترجم). لهذا لو كان نهر المسيسبي بعرض البحر الايرلندي لأصبح إمبريالية لكن بما أنه أضيق، لم يسم كذلك لكن الأشخاص الذين نفذوا الفتح لم تكن لديهم أوهام كهذه لقد فهموا بأن الفتح سيكون إمبريالية إن عبرت المياه المالحة أم لا وكانوا فخورين بإنجازهم في تأسيس الأرض القومية. قبيل نهاية القرن التاسع عشر كانوا يواجهون المياه المالحة وتوسعوا لغزو كوبا وبورتو ريكو وهاواي، واستمروا لفتح الفيليبين وقتلوا مئات الآلاف من الناس لكن دائماً مع أصدق النوايا الخيرة. لقد كان فعلاً إيثارياً صرفاً. الدموع تنهمر من عيونكم عند قراءة القصائد الغنائية التي تمجد هذه الفتوحات الخيرة - صور شبه كونية في الممارسة الإمبريالية. من الصعب إيجاد قوة إمبريالية لم تتظاهر بنفس الهيئة والموقف.

خلال الحرب العالمية الأولى، كان بداية الإدراك بأن النفط سيكون سلعة أساسية في الصورة العالمية القادمة لهذا طرد ودرو ويلسون الإنكليز من فنزويلا، أحد المنتجين الرئيسين للنفط واحتلها ودعم

ديكتاتوراً فاسداً. استمر ذلك فترة طويلة بعد ويلسون. خلال بضع سنوات أصبحت فنزويلا أكبر منتج للنفط في العالم. كانت الولايات المتحدة المنتج الرئيسي الأول لكن فنزويلا المصدر الرئيسي الأول بفضل الشركات الأمريكية التي تُسَيِّر العمل واستمرت هكذا.

في الشرق الأوسط، عرف خلال عشرينات القرن العشرين بأنه كان مصدراً هائلاً للطاقة لذلك تدخلت الولايات المتحدة هناك ونجحت بأن تشارك في أخذ قسم من حقوق الامتيازات التي كان معظمها بريطانية وفرنسية لكن الولايات المتحدة كانت قوية بما يكفي لتسيطر على قسم من الامتيازات. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت هناك حرباً صغيرة في الواقع دائرة بين الولايات المتحدة وبريطانيا لتحديد من سيسيطر على نفط العربية السعودية. عرفت هذه بجائزة مستقبلية وفازت الولايات المتحدة بالصراع طبعاً واستولت عليها. حتى الحرب العالمية الثانية لم تكن الولايات المتحدة لاعباً رئيسياً في الباسيفيكي لأن اللاعبين الأساسيين في الشؤون العالمية كانا بريطانيا أولاً وفرنسا ثانياً لكن الحرب العالمية غيرت ذلك كله. تمتلك الولايات المتحدة بالتأكيد أكبر اقتصاد في العالم. في الحقيقة كان ذلك من قبل قرن مضى لكنها لم تكن اللاعب الرئيسي في الشؤون الدولية لكن الحرب العالمية الثانية بدلت ذلك وكان من الواضح بأنها ستخرج من الحرب القوة الرئيسية العالمية. أدرك المخططون في وزارة خارجية الرئيس روزفلت ومجلس الشؤون الخارجية ذلك فعقدوا اجتماعات مكثفة خلال الحرب من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ خططوا فيه عالم ما بعد الحرب، عالم ستكون الولايات المتحدة القوة المهيمنة فيه. كانت خططهم مهمة جداً وفي الحقيقة نفذت كما وصفوها. المفهوم الرئيسي الذي طوره كان المفهوم الذي أسموه بالمنطقة الكبرى. المنطقة الكبرى بكاملها سوف تسيطر عليها الولايات المتحدة وسوف تشمل نصف الكرة الأرضية الغربي

طبعاً، والشرق الأقصى والإمبراطورية البريطانية السابقة وتشمل منابع النفط في الشرق الأوسط. على الأقل هذا القدر يجب أن يكون قسماً من المنطقة الكبرى.

الآن، في المراحل الأولى للحرب، اعتقدوا أن ألمانيا ستخرج من الحرب قوة رئيسية أوروبية لهذا سيكون هناك عالمان، عالم الولايات المتحدة الذي تسيطر فيه على المنطقة الكبرى والألمان يسيطرون على أجزاء من أوروبا وآسيا. في الوقت الذي بدأ فيه الروس بطرد الجيوش الألمانية والتراجع عن ستالينغراد، بات من الواضح أن ألمانيا لن تنجو حية من الحرب وتوسع مفهوم المنطقة الكبرى ليشمل أكبر قدر ممكن من آسيا، قلبها على الأقل، قلب اوراسيا الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وبشكل رئيسي أوروبا الغربية على الأقل. وفي الواقع كانت هناك خطط أبعد من ذلك. كان البريطانيون في بداية عام ١٩٤٣ يخططون لفترة ما بعد الحرب التي سيهاجم الحلفاء فيها روسيا فوراً ويدمرونها. كان ونستون تشرشل من تعهد بهذا. في الحقيقة، في أيار / مايو ١٩٤٥ حين اقتربت الحرب من نهايتها رسمياً، وطلب خططاً حربية لما سمي عملية لا تصدق: الجيش الألماني، مدعوماً بالقوة الجوية الملكية والقوة الجوية الأمريكية سيهاجم روسيا ويدمرها. لم تنفذ أبداً لكنها كانت الهدف. بينوا الهدف من القنبلة النووية صراحة الذي كان «لإخضاع الروس». هذه هي كلمات الجنرال ليسلي غروفز المسؤول عن مشروع مانهاتن الذي طور القنبلة. باختصار، نحن سوف نخضعكم وأنتم لن تستطيعوا فعل أي شيء إزاء ذلك.

كانت هناك آمال لتوسيع المنطقة الكبرى إلى منطقة عالمية. حسناً، ذلك لم يحدث برمته لكن أقترب منه كثيراً.

ماذا عن الشرق الأوسط؟ لقد بات مدركاً أن موارد النفط في الشرق الأوسط ذات أهمية خطيرة بالنسبة للعالم. أشار أحد المخططين البارزين

بأن السيطرة على الشرق الأوسط سوف تمنح سيطرة أساسية على العالم. طردت فرنسا من المنطقة وتم تقليص الدور البريطاني بالتدريج إلى شريك ثانوي وانبثقت الولايات المتحدة قوة مهيمنة في التحكم بنفط الشرق الأوسط وبناء على ذلك العالم أيضاً كما كان الأمل.

الآن، كانت أوروبا الغربية قسماً من المنطقة الكبرى، لكن كان مفهوماً دائماً بأنه عاجلاً أم آجلاً، أن أوروبا ربما تسلك مساراً مستقلاً وربما تتبع الرؤية الغولية لأوروبا من الأطلسي إلى الأورال وكان من الضروري فعل شيء لمنع ذلك. حسناً، لقد تم فعل عدد من الأشياء. أحدها سمي بالناتو. أحد أهدافه الرئيسية أن يضمن احتواء أوروبا ضمن حلف عسكري تديره الولايات المتحدة مما أدى إلى عقابيل حتى اللحظة. هذا القلق من احتمال استقلالية أوروبا لُوِّنَ أحياناً بدرجة معينة من الازدراء. منذ أيام قليلة فقط، في الحقيقة، رئيس مجلس العلاقات الخارجية، لمجموعة العلاقات الخارجية الحكومية الرئيسية، (ريتشار هاس) كتب مقالاً أسماه «وداعاً يا أوروبا». قال فيه أن أوروبا لم تعد قوة بارزة في الشؤون الدولية. إنها ترفض توفير قوات عسكرية للسيطرة على العالم في المستوى المطلوب لهذا «وداعاً يا أوروبا». بوسعها الغرق في النسيان. ليس هناك في الحقيقة من يصدق ذلك لكن ذلك في الخلفية. حسناً سميت هذه الفترة في الرواية الرسمية بالحرب الباردة. لهذا ما هي الحرب الباردة؟

يمكنكم النظر إلى الايدولوجيا أو يمكنكم النظر إلى الوقائع وإلى الأحداث. كانت أحداث الحرب الباردة واضحة جداً. كانت الأحداث الأساسية للحرب الباردة تدخلاً ممنهجاً وتخريباً ضمن المنطقة الكبرى وكان دائماً تحت تبرير أننا نحمي أنفسنا مما سماه (جون إف كندي) بـ«المؤامرة الهائلة والقاسية» للسيطرة على العالم، ذلك هو السبب الذي يجبرنا على التدخل. الروس فعلوا الشيء عينه في ميادين نفوذ أصغر.

في الحقيقة، الحرب الباردة إلى حد كبير اتفاق ضمني بين القوة العظمى الكبرى والقوة العظمى الصغرى كانت كل منهما فيه حرة كثيراً في فعل ما تريد في ميادين تأثيرها الخاصة بها، روسيا في أوروبا الشرقية والولايات المتحدة في أي مكان آخر، مغر لتهديد العدو. كان الأمر يخرج عن السيطرة أحياناً ويقترب كثيراً من حرب نووية لكن بشكل أساسي تلك كانت بنية الحرب الباردة.

هناك مبدأ آخر يجب وضعه في الذهن وهو واحد من المبادئ الفعالة الرئيسية في الشؤون الدولية حتى الوقت الحاضر وذلك ما يمكن تسميته بمبدأ (المافيا). تدار الشؤون الدولية مثل المافيا إلى حد كبير. العراب لا يسمح بالتمرد. ذلك جلي تماماً في تخطيط المنطقة الكبرى لكن ليس بتلك الكلمات بالضبط.

في المنطقة الكبرى، كان للولايات المتحدة «سلطة غير مقيدة» مع «تفوق عسكري واقتصادي» بينما تضمن «تقييد أي ممارسة للسيادة» من قبل الدول التي قد تتدخل في مخططاتها الكوكبية. ذلك هو مبدأ المافيا. في الواقع، ذلك هو التهديد الإيراني. الإيرانيون يحاولون أن يمارسوا سيادة وهذا غير مسموح به تحت مبدأ المافيا. لا تستطيع السماح بالاستقلال. يجب أن تملك الطاعة وهي مدركة. إن تمرد أي أحد، بلاد صغيرة أو صاحب دكان صغير في المافيا ونفذ بذلك فقد يفكر الآخرون بأنهم يستطيعون فعل ذلك أيضاً وخلال فترة قصيرة جداً يكون لديك ما أسماه (هنري كيسنجر) بالفايروس الذي ينشر العدوى. إن كان هناك فايروس قد ينشر العدوى، يجب عليك قتل الفايروس وتطعيم كل شخص غيره بفرض ديكتاتورية وحشية. ذاك جزء جوهري من تاريخ الحرب الباردة. إن أمعنت النظر فيه ترى أن ذلك هو ما وصلت إليه.

حسناً خلال تلك الفترة، باتت المنطقة الكبرى أكثر تنوعاً. في عام ١٩٥٠ مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان لدى الولايات المتحدة حرفياً

نصف ثروة العالم وأمن وقوة لا يمكن تخيلهما. في عام ١٩٧٠ هبطت إلى ٢٥٪ من الثروة العالمية، ظلت هائلة لكن أقل بكثير من ٥٠٪. أعيد بناء البلدان الصناعية وفكك الاستعمار. بات العالم ما يعرف بثلاثي القطب. نظام شمال أمريكا ومركزه الولايات المتحدة، أوروبا المرتكزة على ألمانيا وفرنسا أساساً، واقتصاد شمال شرق آسيا ومركزه اليابان. بات التنوع أكثر الآن وأصبح البناء أكثر تعقيداً وأصعب ضبطاً. أمريكا اللاتينية للمرة الأولى في تاريخها، تتقدم درجة نحو الاستقلال وهناك تتطور اتصالات جنوب / جنوب وهكذا أضحت الصين الآن الشريك التجاري الأهم للبرازيل، والصين أيضاً تتطفل في منطقة الشرق الأوسط الحيوية وتتعاقد وتأخذ النفط.

هناك نقاش كثير في هذه الأيام في دوائر السياسة الخارجية حول انتقال للقوة في المنظومة الكوكبية مع الصين والهند اللتان أصبحتا قويتين وعظيمتين. ذلك ليس دقيقاً. إنهما بلدان ينموان ويتطوران لكنهما بلدان فقيران جداً ولدى كل منهما مشاكلها الداخلية الهائلة لكن هناك انتقال كوكبي للقوة: إنه من قوة العمل الكوكبية إلى الرأسمال الخاص. هناك مركز إنتاج أسيوي والصين في قلبه، أغلبه مصنع تجميع للبلدان الآسيوية المحيطة الأكثر تقدماً - اليابان وسنغافورة وتايوان وكوريا الجنوبية - ينتج تكنولوجيا معقدة، وأجزاء ومكونات وترسلها تلك الدول إلى الصين حيث تُجَمَّع ثم ترسل إلى الولايات المتحدة وأوروبا. شركات الولايات المتحدة تفعل الشيء عينه. هي تنتج تكنولوجيا متطورة تصدر للصين حيث تجمع وتشترونها أنتم في بيوتكم مثل (الآي باد أو الكومبيوتر)، شيء مثل ذلك. إنها تسمى صادرات صينية لكن ذلك مضلل تماماً. تستطيعون رؤيته بوضوح كبير لو نظرتم إلى الإحصائيات الفعلية. لذلك هناك قلق كبير حول دَيْن الولايات المتحدة. في الواقع جل الدين الأمريكي لليابان وليس للصين. هناك قلق

حول العجز التجاري. نحن نشتري من الصين أكثر مما نصدر لها بكثير في الوقت الذي يتناقص فيه العجز التجاري لليابان وكوريا الجنوبية وتايوان معها. السبب أن اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان تورد المواد للصين لتجمعها. هذه تعتبر في الولايات المتحدة واردات من الصين، لكن هذا مضلل تماماً. إنه مركز الإنتاج الأسيوي هو الذي يطور وشركات الولايات المتحدة والاقتصادات الإقليمية المتقدمة مشاركة فيه بقوة. في هذه الأثناء حصة قوة العمل تهبط عالمياً. في الحقيقة هي تهبط حتى في الصين، نسبياً مع اقتصادها بصورة أسرع من أي مكان آخر. لهذا حين ننظر إلى العالم بصورة واقعية، هناك انتقال عالمي للقوة لكنه ليس إلى قوة الصين / الهند التي تحل مكان الولايات المتحدة. إنه انتقال من الناس العاملين في كل أنحاء العالم إلى الرأسمال العابر للحدود القومية. هم يزيدون ثراءهم. إنها في الأساس قصة قديمة لكنها تأخذ أشكالاً جديدة بتوفر قوة العمل العالمية. رأس المال متحرك والعمل ليس كذلك. هذا له عقابيل واضحة.

الآن هذا كله رائع للمؤسسات المالية ومدراء الشركات والمدراء التنفيذيين وسلاسل بيع التجزئة، لكنه مضر جداً للسكان. ذلك الجزء من الموضوع سَبَّبَ الكثير من المشاكل الاجتماعية الهامة داخل الولايات المتحدة. ليس لدي الوقت للدخول فيها.

للحصول على رؤية حقيقة للسياسة العالمية يجب الأخذ بعين الاعتبار تخطيط المنطقة الكبرى أثناء الحرب العالمية الثانية وتنفيذه. وفي مكان آخر نهاية الحرب الباردة.

لهذا ماذا حدث في نهاية الحرب الباردة؟ في عام ١٩٨٩ حين سقط الجدار (جدار برلين) وانهار الاتحاد السوفييتي لم يعد وجود للحرب الباردة. ماذا حدث؟ رئيس الولايات المتحدة آنذاك جورج بوش، جورج بوش الأول وإدارة بوش أنتجت خططاً جديدة على الفور للتعامل مع

نظام ما بعد الحرب الباردة. الخطط باختصار، كانت أن كل شيء سيبقى كما كان من قبل لكن مع ذرائع جديدة. لذلك لا تزال هناك ضرورة لقوة عسكرية ضخمة لكن ليس لحماية أنفسنا من الروس لأنهم زالوا. الآن لنحمي أنفسنا - أنا اقتبس - من الـ«التعقيد التكنولوجي» لقوى العالم الثالث. يفترض بك أن لا تضحك. لهذا السبب نحتاج إلى قوة عسكرية ضخمة وإن كنت شخص ذو تعليم جيد، تتبع مبدأ اورويل، لا تضحك. قل «نعم نحن نحتاج أن نحمي أنفسنا من التعقيد التكنولوجي لقوى العالم الثالث» كان ضرورياً لما سمي بـ«قاعدة صناعية دفاعية». ذلك تعبير لطيف عن شيء بغيض عن صناعة التكنولوجيا العالية. صناعة التكنولوجيا العالية لا تتطور بواسطة مبادئ السوق الحرة فقط. نظام الشركات يستطيع أن يوفر أكثر من خيار استهلاكي لكن التكنولوجيا العالية تتطور أساساً في قطاع الدولة: الحواسب والانترنت وهلم جر. ويتم عملها عادة تحت ذريعة الدفاع. لكن مع انتهاء الحرب الباردة ظل علينا أن نحافظ على، «القاعدة الصناعية الدفاعية». هذا هو هدف الدولة: دعم صناعة التكنولوجيا العالية.

ماذا عن قوات التدخل؟ حسناً، قوات التدخل الرئيسية هي في الشرق الأوسط حيث تكون موارد الطاقة. خطط ما بعد الحرب الباردة قالت نحن يجب أن نحافظ على هذه القوات موجهة إلى الشرق الأوسط، ثم جاءت عبارة مشوقة: حيث المشاكل الخطيرة التي «لا يمكن أن تترك عند باب الكرملين». أي التي لم يتسبب الروس في خلقها. لهذا بعبارة أخرى، نحن كنا نكذب عليكم لمدة خمسين سنة لكن الآن انقشعت الغيوم ويجب علينا أن نقول الحقيقة جزئياً على الأقل. لم يكن الروس هم المشكلة منذ البداية. لقد كانت ما سمي بالقومية الراديكالية القومية المستقلة، الساعية إلى ممارسة السيادة والسيطرة على مواردها الخاصة بها. الآن، ذلك لا يحتمل في كل أنحاء العالم بسبب مبدأ المافيا. لا يمكن السماح

بذلك. لذلك نحن لا نزال بحاجة إلى قوات التدخل. الشيء عينه في أمريكا اللاتينية وفي أي مكان آخر حتى مع عدم وجود الروس.

حسناً، ماذا عن الناتو؟ تلك حالة مشوقة. إن صدقت أي شيء قرأته أثناء سنوات الحرب الباردة المتطرفة فإنك يجب أن تستنتج بأن الناتو كان يجب أن يختفي. كان من المفترض أن يقوم الناتو بحماية أوروبا من الحشود الروسية. أليس كذلك؟ لم تعد هناك حشود روسية. ماذا حل بالناتو؟ حسناً، ماذا حدث للناتو لقد توسع وهو يتوسع الآن وفي هذه اللحظة. التفاصيل معروفة جيداً وقد درست من قبل مراكز أكاديمية جيدة. غورباتشيف، الرئيس الروسي، قام بتنازل استثنائي. وافق أن يدع ألمانيا الموحدة تنضم إلى الناتو، الحلف العسكري المعادي. ألمانيا وحدها عملياً دمرت روسيا مرتين في قرن واحد. الآن، لقد سمح لها لتتسلح ثانية في حلف عسكري مع الولايات المتحدة. طبعاً كان هناك شيء مقابل شيء آخر.

أعتقد أنه هناك اتفاق بأن الناتو سوف يصبح منظمة سياسية أكثر منه عسكرية. في الحقيقة، لقد وعد من قبل إدارة بوش. سيصبح الناتو منضمة سياسية أكثر منه عسكرية ولن يتوسع «بوصة واحدة في داخل ألمانيا الشرقية أو وراءها بالتأكيد». كان غورباتشيف ساذجاً وقَبِلَ بذلك الاتفاق. لم يتحقق من أن إدارة بوش لم تدون ذلك كتابيا. لقد كان اتفاقاً شفوياً فقط، وإن كان لديك ذرة عقل، فلن تعقد اتفاق جنتلمان مع قوى كبرى عنيفة. كان غورباتشيف منزعجاً جداً حين اكتشف أن الاتفاق كان بلا قيمة. حين بدأ الناتو في التوسع إثر ذلك مباشرة نحو الشرق، أُحضِرَ الاتفاق وأشارت واشنطن بعدم وجود أي شيء من ذلك على الورق وذلك صحيح. لم يكن هناك شيء على الورق. كان اتفاق جنتلمان. توسع الناتو إلى الشرق، توسع إلى داخل ألمانيا الشرقية بسرعة كبيرة وفي سنوات كلينتون، توسع أكثر في أوروبا الشرقية... وبعد

ذلك إلى مناطق أكثر بكثير. والآن الأمين العام للناتو يشرح أن على الناتو أن يتوسع أكثر. الناتو يجب أن يتولى مسؤولية التحكم في كل شبكة الطاقة العالمية، هذا يعني خطوط الأنابيب والممرات البحرية والمصادر. منذ أسابيع قليلة، كان هناك لقاء دولي ترأسته مادلين اولبرايت وزيرة الخارجية في زمن كلينتون. أصدر المجتمعون خططاً سميت الناتو ٢٠٢٠ وقالوا أن الناتو يجب أن يستعد للقيام بعمليات في أبعد من حدوده بكثير وبدون قيد، يعني أنه يجب أن يصبح قوة تدخل عسكرية عالمية تابعة للولايات المتحدة. لذلك لم يعد الناتو لحماية أنفسنا من الروس وإنما الهدف الحقيقي منه السيطرة على كل العالم.

حسناً، دعوني أقول بضع كلمات عن الصراع الفلسطيني / الإسرائيلي الذي تطور ضمن هذا السياق. لقد قلت كلمات قليلة عن التاريخ. السجل الأساسي واحد من العرضية الأمريكية التامة تقريباً، إنه رفض للانضمام إلى القبول الشامل لتسوية سياسية معقولة. كان هناك استثناء واحد، استثناء مثير جداً. في نهاية فترته، في عام ٢٠٠٠، أدرك كلينتون أن المقترحات التي تقدمت بها إسرائيل في كامب ديفيد قد فشلت. أدرك أن تلك المقترحات لن تكون مقبولة من أي فلسطيني وكذلك منه هو، لذلك، بدل تلك المقترحات. في كانون الأول عام ٢٠٠٠ أصدر ما سماه بمؤشراته (إطار عام للاتفاق). كان غامضاً لكنه كان أكثر اقتراباً.

ثم ألقى خطاباً آنذاك قال فيه أن كلا الطرفين قبلا بالقيود بامتياز، وكلا الطرفين عَبَّرَا عن تحفظاتهما. ثم اجتمعا بعد ذلك، إسرائيل والفلسطينيين في طابا في مصر في كانون الثاني / يناير لحل خلافتهما وكانا قد اقتربا من تسوية شاملة. في المؤتمر الصحفي الأخير المشترك قالا بأنه في مقدورهما التوصل إلى تسوية تامة خلال وقت قليل آخر. حسناً، أوقفت إسرائيل المفاوضات وبذلك وضعت نهاية لها. ذلك يخبرك

شيئاً. ذلك يخبرك أنه بضغط من الولايات المتحدة انضم كلا الطرفين إلى العالم للسماح بتسوية سياسية وبالتوافق الكبير مع الإجماع الدولي يمكنها أن تحدث. لقد حدث الكثير منذ ٢٠٠١ لكنني أعتقد أن تلك المبادئ باقية. أعتقد أن اللافت جداً هو أن نرى كيف يتعامل الناس الذين كتبوا التاريخ مع هذا. لهذا أحد الكتب الأساسية عن المفاوضات كتبه دينيس روس، مفاوض كلينتون الرئيسي قدم فيه وصفاً مفصلاً لكل جهود الولايات المتحدة والحكم المحايد والوسيط النزيه لجمع الطرفان معاً واستنتج في النهاية أنها فشلت وكان ذلك خطأ الفلسطينيين الذين رفضوا كل شيء. كان روس حريصاً جداً بأن ينهي هذا الكتاب في كانون الأول ٢٠٠٠ بالضبط قبل أن تفند فرضيته الأساسية تماماً التي دحضت تماماً بعد بضعة أسابيع قليلة. أنهى كتابه هناك ولم يقل المعلقون أي شيء عنه. ذلك مبدأ. إن أردت أن تكون مثقف محترم، يجب عليك أن تفهم هذه الأشياء. يجب عليك أن لا تفضح السلطة، خصوصاً إن كنت تأمل في الانضمام إلى العالم الأكاديمي أو الدبلوماسي. لهذا أنهى روس كتابه قبل أن تفند فرضيته وذلك مقبول وهو الآن تاريخنا، يقصي الحقيقة الحاسمة، كما كان الحال في الأحداث السابقة التي وصفتها حتى الآن. لكن في الحقيقة هي هناك ولا تزال مستمرة حتى اليوم. إذاً ماذا يترك اليوم من خيارات للفلسطينيين وللمهتمين بالحقوق الفلسطينية؟

الخيار الأول أن تنضم الولايات المتحدة إلى العالم كما فعلت قبل أسبوعين في كانون الثاني / يناير ٢٠٠١ ونحن سنوافق على نسخة ما من الإجماع الدولي، شيء مثل اتفاقات طابا. الآن هناك رأي شائع جداً عبرت عنه جماعات فلسطينية كثيرة وكثيرون غيرها متعاطفون معها يرون أن ذلك ليس إمكانية وأن هناك خيار أفضل. الخيار الأفضل الذي يقترحونه للقادة الفلسطينيين أن يقولوا أننا نحن إسرائيل وهي

ستأخذه؛ سنعطيهم كل الأراضي المحتلة ثم يكون هناك بعد ذلك صراع من أجل الحقوق المدنية وصراع داخلي ضد الأبارتايد وصراع كهذا يمكن الفوز به وسننال مكان ما. هناك الكثير من الناس الطيبين يقترحون هذا لكنهم يفشلون بملاحظة وجود خيار ثالث.

خيار ثالث أن تستمر الولايات المتحدة وإسرائيل بفعل ما تفعلانه بالضبط، أقصد نسخة لما أسماه (ايهود اولمرت) حين كان رئيساً للوزراء بنقطة الالتقاء. تستولي إسرائيل على كل شيء ضمن ما أسمته بجدار الفصل، حسناً، فعلياً بدأ الضم. استولت على مصادر المياه والأرض النافعة وضواحي القدس وتل أبيب. استولت إسرائيل أيضاً على ما سمي بالقدس وهي في الواقع منطقة هائلة من القدس الكبرى. واستولت على وادي الأردن، مزيد من الأرض الصالحة للزراعة. ثم دفعت بدهاليز عبر المناطق الباقية لتمزيقها إلى كانتونات معزولة. لذلك هناك واحدة شرق القدس، بقدر أريحا تقريباً، تشطر الضفة الغربية عملياً إلى نصفين، وهناك أخريات عازلة غيرها أبعد شمالاً. الآن، ماذا عن الفلسطينيين؟ لقد رحلّوا. ستندمج قلة قليلة منهم في المناطق الثمينة التي تستولي عليها إسرائيل، لهذا لن يكون هناك أي صراع من أجل حقوق مدنية ولن يكون هناك ما سمي بـ«مشكلة ديموغرافية»: عدد كبير جداً من العرب في دولة يهودية؛ سيرحل بقية الفلسطينيين أو تترك لتتعفن في التلال، عدا النخبة صاحبة الامتيازات. ما تبقى للفلسطينيين يستطيعون فعل ما يشاءون به. إن أرادوا تسميته دولة، فذلك رائع سموها دولة. في الحقيقة أول رئيس وزراء إسرائيلي خرج بهذا الاقتراح كان نتنياهو. هو أول رئيس وزراء إسرائيلي قال نعم، يمكن أن تكون هناك دولة فلسطينية، كان ذلك في عام ١٩٩٦ . حل محل شيمون بيريز. حين ترك بيريز المنصب، قال سوف لن تكون هناك دولة فلسطينية أبداً. جاء نتنياهو وإدارته وقالوا: حسناً، يستطيع

الفلسطينيون أن يسموا ما بقي لهم من بقايا «دولة» إن رغبوا في ذلك أو يمكنهم أن يسموها «دجاجة مقلية». وهذا ما يحدث في الوقت الحالي. منذ أسابيع قليلة فقط، سيلفان شالوم، وهو نائب رئيس الوزراء ووزير التطوير الإقليمي رد على المبادرات الفلسطينية حول إنشاء أساس لدولة وحين سئل ما رأيه فيها قال، ذلك رائع إن أرادوا أن يسمو ما ترك لهم دولة فذلك رائع. سوف تكون دولة بدون حدود مثل إسرائيل تماماً، أيضاً دولة بلا حدود. طبعاً نحن سنملك كل شيء ذو قيمة وهم سيملكون دجاجة مقلية لكن ذلك حسن ويجب أن يوقف الضغط ضدنا من أجل تسوية دبلوماسية وكل شيء سيكون رائعاً. ذلك تحسن مقارنة بالماضي. إن عدت إلى ١٩٩٠ مثلاً، ستجد أن موقف الحكومة الإسرائيلية وحكومة الولايات المتحدة، جيمس بيكر وجورج بوش بأن الفلسطينيين يملكون دولة يعني الأردن ولا يمكنهم أن يملكوا دولة فلسطينية إضافية. ذلك كان الموقف الرسمي منذ ١٩٩٠. الآن تحسن قليلاً. وافقت الولايات المتحدة وإسرائيل بأن الأردن ليست دولة فلسطينية وأن الفلسطينيين يستطيعون امتلاك دجاجة مقلية، شظايا أرض تحددها الولايات المتحدة وإسرائيل. الآن ذلك هو البديل.

ماذا عن الصراع من أجل حقوق مدنية، الصراع ضد الأبارتايد؟ ذلك ليس خياراً. الخيارات الفعالة هي تسوية الدولتين وفقاً للإجماع العالمي والقانون الدولي، ربما بالتوافق ما تم التوصل إليه في طابا، أو «دجاجة مقلية» بينما تأخذ إسرائيل ما تريد، بقدر ما تستطيع طالما تحظى بدعم أمريكي ثابت.

حسناً، سوف أنهي بقول كلمة واحدة عن السيناريوهات المحتملة. هناك أوجه كثيرة صنعية بين إسرائيل وجنوب أفريقيا. أغلبها ملتبسة نوعاً ما، أعتقد. مثلاً، اربيل شارون، مهندس سياسة الاستيطان، سمى البقايا التي ستُتْرَك للفلسطينيين بالـ«بانتوستانات» كما في دولة جنوب

أفريقيا العنصرية. لكن هذه ليست بانتوستانات. ذلك مضلل. إنها أسوأ من جنوب أفريقيا. كانت جنوب أفريقيا البيضاء بحاجة إلى السكان السود، لقد كانوا قوة عملهم. ٨٥٪ من السكان كانوا من السود لهذا كان عليهم أن يهتموا بهم بنفس الطريقة التي كان على مالك الرقيق الاهتمام بعبيده ولهذا وفر العنصريون الجنوب أفريقيون المتطرفون بعض الدعم للبانتوستانات. بالمقابل إسرائيل لا تحتاج إلى الفلسطينيين ولا تريدهم. لهذا إن تشتتوا مثل أوراق الخريف بالطريقة التي فعل بها الأمريكيون الأصليون فذلك رائع. إن ذهبوا إلى مكان آخر فذلك رائع. لن يتحمل الإسرائيليون أي مسؤولية نحوهم وليسوا بحاجة لهم لهذا هذا أسوأ من الأبارتايد فهم ليسوا بانتوستانات. هذه المقارنة غير صحيحة وكذلك الكثير غيره أيضاً، لكن هناك تشابه واحد وصحيح كما أعتقد ويبدو أنه لم يناقش أبداً.

قبل خمسين سنة، بدأت جنوب أفريقيا البيضاء تدرك بأنها كانت ستصبح دولة منبوذة، كانت تُعزل عن العالم وتحظى بدعم قليل ويقابلها الكل بكره متزايد. عند تلك النقطة، تكلم وزير خارجية جنوب أفريقيا مع السفير الأمريكي في جنوب أفريقيا وأشار له أن الكل يصوتون ضدنا في الأمم المتحدة لكن ذلك لا يهم لأننا نعرف أنا وأنت بأن هناك صوت واحد فقط في الأمم المتحدة هو صوتكم وطالما أنتم تساندوننا فإن رأي العالم ليس مهماً. هذا اعتراف بمبدأ المافيا، الواقعية في الشؤون العالمية، وثبت بأنه صحيح. لو نظرت إلى ما حدث في العقود التالية، استمرت المعارضة لجنوب أفريقيا في الازدياد والتطور. في حوالي عام ١٩٨٠ كانت هناك عقوبات وحملات تجريد وبدأت الشركات الغربية في الانسحاب وفرض الكونغرس الأمريكي عقوبات لكن لم يتغير شيء. السبب أن واشنطن استمرت في دعمها لجنوب أفريقيا فقد انتهك رونالد ريغان الذي كان رئيساً، قوانين الكونغرس بذريعة: الحرب على

الإرهاب التي أعلنها منذ بداية شغله للمنصب عام ١٩٨١. كان يقود حربه على الإرهاب وكان بيض جنوب أفريقيا تحت تهديد المؤتمر الوطني الأفريقي، حزب نيلسون مانديلا. في ١٩٨٨ أعلنت واشنطن أن حزب المؤتمر الإفريقي واحداً من «المجموعات الإرهابية الأسوأ سمعة» في العالم ولم يكن في الحقيقة مهماً رأي العالم أو رأي الكونغرس حتى. إن لم تحبه فذلك رائع ونحن سوف نستمر وفي ذلك الوقت أواخر ثمانينات القرن العشرين، بدا بيض جنوب أفريقيا محصنين تماماً. حققوا انتصارات عسكرية وأصبحوا أكثر غناً. كل شيء بدا رائعاً وكانوا راضين. بعد سنتين أو ثلاث، غيرت الولايات المتحدة سياستها وانهارت الأبارتايد. حين يغير العراب سياسته تتغير الأشياء. النتيجة ليست جميلة جداً لكنها كانت نصراً رفيعاً بلا شك للتخلص من الأبارتايد، رغم بقاء طريق طويل يجب قطعه. فاز نيلسون مانديلا بنصر شخصي أيضاً لكن ببطء أكثر. لقد أزيل من قائمة واشنطن للأشخاص الداعمين للإرهاب منذ سنة واحدة فقط، حتى السنة الماضية كان غير قادر على السفر إلى الولايات المتحدة بدون إعفاء خاص.

جوهرياً، ذلك هو ما حدث وأظنه يمكن أن يحدث مع إسرائيل. لو غيرت الولايات المتحدة سياستها وقررت الانضمام إلى العالم فلن يبقى أي خيار لإسرائيل سوى أن تلحق وتلتزم. يجب أن لايكون ذلك نهاية المسار، إن نهاية المسار لجنوب أفريقيا أكثر من إنهاء الأبارتايد. آمنت دائماً ولا أزال بوجود حلول أفضل من الإجماع العالمي حول حل الدولتين، لكن في العالم الحقيقي، ربما يكون ذلك خطوة أولى لا غنى عنها نحو تقدم مستقبلي من أجل نتيجة أكثر عدلاً.

الآن، يوجد كما ذكرت، مقدار كبير من التعقيد في النظام العالمي. هناك منظمات تتطور مستقلة عن الولايات المتحدة وهناك بلدان تحافظ على سيادتها كالصين مثلاً وهناك مقدار كبير من التنوع. هناك

سبع خطوات نحو درجة من الاستقلال ضمن الميادين التي تهيمن عليها الولايات المتحدة. خذ مصر ثاني أكبر متلقٍ للمساعدات الأمريكية بعد إسرائيل. كان هناك اجتماع قبل أسبوعين حول منع انتشار الأسلحة النووية، اجتماعات دولية. مصر تتكلم عن ١١٨ دولة من حركة عدم الانحياز، أخذت موقفاً قوياً وموقفاً مبدئياً في قضية خطيرة: تأسيس منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط. حسناً، يصعب على أي أحد أن يعارض هذا المبدأ فهو سيخفف أو ينهي أي تهديد نووي محتمل تفرضه إيران، وهذا هو قلق السياسة الخارجية للولايات المتحدة الرئيسي كما يفترض. طبعاً، سوف يشمل إسرائيل والقوات الأمريكية في المنطقة لذلك كانت الولايات المتحدة في مأزق نوعاً ما فهي لا تستطيع أن تظهر بأنها ضده ولا تستطيع أن تظهر استحسانه له لهذا صاغت أسلوباً للتملص من المعضلة، معتمدة على الطبقات المثقفة لتخفي ما كان يحدث، متبعة بذلك مبدأ اورويل. لقد أعلنت إدارة أوباما تأييدها لمنطقة خالية من الأسلحة النووية لكنها قالت بأن هذا الوقت مناسب لذلك. علينا أن ننتظر حتى تكون هناك تسوية سلمية شاملة. لكن لا يمكن تأخير ذلك بالرفضية الأمريكية الإسرائيلية كما في الماضي، لهذا خطر المنطقة الخالية من الأسلحة النووية يمكن تأجيله إلى وقت غير محدد أيضاً. حتى الآن واشنطن افلتت بهذا من دون عقاب لكن القضية يمكن أن تضغط أكثر بواسطة حركات شعبية تأخذ موقفاً مستقلاً.

الآن هناك نقاط أخرى كثيرة حيث نظام الهيمنة المسيطر، رغم فعاليته، لكنه عرضة للاختراق. هناك إمكانيات كثيرة مفتوحة لناس يؤثروا ويحددوا مصير المستقبل.

ليبيا والأزمات المتفاقمة

مقابلة أجراها ستيفن شالوم ومايكل البرت مع نعوم تشومسكي. زد نت - الخميس ٣١ آذار ٢٠١١

سؤال: ماهي أدق وأهم دوافع ومواضيع السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط وخاصة الوضع الراهن في ليبيا؟

نعوم تشومسكي: لمقاربة السؤال يجب أن نسأل عن الذي لا يشكل دوافع أمريكية. هناك طرق عديدة للاكتشاف. واحدة منها أن نقرأ الأدب المختص بالعلاقات الدولية على نحو مشترك تماماً روايته للسياسة هي نقيض لواقع السياسة، موضوع مشوق لن أتعقبه.

طريقة أخرى وثيقة الصلة بالموضوع الآن، يمكنك أن تستمع إلى القادة السياسيين والمعلقين. أفترض أنهم يقولون بأن دوافعهم للعمل العسكري إنسانية. هذا بحد ذاته لا يحمل أي معلومة لأنه عملياً كل لجوء إلى القوة يتم تبريره بتلك المصطلحات حتى من قبل أسوأ الوحوش الذين يقنعون أنفسهم بحقيقة ما يقولونه. لقد صدق هتلر بأنه استولى على أجزاء من يوغسلافيا لينهي الصراع الاثني فيها ويجلب لشعبها فوائد الحضارة المتقدمة، وأنه غزا بولونيا ليضع حداً «للرعب الوحشي» الذي يعاني منه البولونيون. كذلك اعتقد الفاشيون اليابانيون حين مزقوا الصين بأنهم كانوا يكدون بغيرية ليخلقوا «فردوساً أرضياً» ويحموا السكان المعذبين من «قطاع الطرق الصينيين». حتى أوباما قد يصدق ما قاله في خطابه الرئاسي في ٢٨ آذار عن الدوافع الإنسانية للتدخل في ليبيا.

هناك اختبار بسيط يحدد إن كانت نذر القصد النبيل جدية: هل طالب المتحالفون بتدخل إنساني و«مسؤولية الحماية» للدفاع عن

ضحايا جرائمهم الخاصة أم جرائم وكلائهم؟ هل طالب أوباما مثلاً بمنطقة حظر جوي أثناء الغزو الإجرامي والتدميري الإسرائيلي للبنان المدعوم من الولايات المتحدة عام ٢٠٠٦ بدون أي ذريعة معقولة؟ أم هل تباهى مفتخراً أثناء حملته الرئاسية بأنه رعى قرار لمجلس الشيوخ يؤيد الغزو ويطالب بمعاقبة إيران وسوريا لإعاقته؟ نهاية النقاش.

في الحقيقة، كل أدبيات التدخل الإنساني وحق الحماية، المكتوبة والشفوية عملياً تختفي تحت هذا الاختبار البسيط والمناسب. وهي على العكس لا تناقش الدوافع الحقيقية في الواقع وعلى المرء أن يطّلع على الوثائق والسجلات التاريخية للكشف عنها. ما هي إذن دوافع الولايات المتحدة؟ في المستوى العام، يظهر الدليل بأنها لم تتبدل منذ أن تولت الأمر دراسات التخطيط المتقدم أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد سلم مخططو زمن الحرب بديهياً بأن الولايات المتحدة ستظهر من الحرب في موقع من الهيمنة الساحقة وطالبوا بتأسيس أجندة كبرى تحافظ فيها الولايات المتحدة على «قدرة لا خلاف فيها» مع «تفوق عسكري واقتصادي» وبنفس الوقت ضمان «تقييد أي ممارسة للسيادة» من قبل الدول التي قد تتدخل في خططها الكونية. شملت الأجندة الكبرى نصف الكرة الأرضية الغربي والشرق الأقصى والإمبراطورية البريطانية (التي تشمل احتياطات الطاقة في الشرق الأوسط) وأكبر قسم ممكن من اوراسيا، على الأقل مركزها الصناعي والتجاري في أوروبا الغربية. من الواضح تماماً من السجل التاريخي أن «الرئيس روزفلت كان يهدف إلى سيطرة الولايات المتحدة على عالم ما بعد الحرب» كما قال المؤرخ الدبلوماسي البريطاني المحترم (جيفري ورنر) في تقييمه الدقيق. الأهم أن خطط زمن الحرب الحذرة نفذت حالاً كما قرأنا في الوثائق السرية للسنوات اللاحقة ورأيناها على الأرض وفي الواقع. طبعاً تبدلت الظروف وكذلك التكتيك لكن المبادئ الأساسية ثابتة تماماً حتى الوقت الحاضر.

ما يتعلق بالشرق الأوسط - «أهم منطقة إستراتيجية في العالم» حسب تعبير إيزنهاور - كان القلق الأول والأساسي ولا يزال هو احتياطاته التي لا تضاهى بالطاقة. السيطرة على هذه المصادر يعطي «سيطرة جوهرية على العالم» كما لاحظ سابقاً المستشار الليبرالي المؤثر (أ.أ بيرلي) هذه المخاوف نادراً ما كانت بعيدة عن خلفية القضايا المتعلقة بالمنطقة.

ففي العراق، مثلاً، بما أن أبعاد الهزيمة الأمريكية لم يعد بالإمكان إخفاءها، حل خطاب جميل محل الإعلان الصادق عن الأهداف السياسية. في كانون الأول ٢٠٠٧ أصدر البيت الأبيض إعلاناً بالمبادئ يلح بأن يمنح العراق قوات الولايات المتحدة تسهيلات غير محدودة ويعطي الامتيازات للمستثمرين الأمريكيين. بعد شهرين من ذلك أخبر الرئيس الكونغرس أنه سيتجاهل تشريعاً يحد من تموضع القوات الأمريكية الدائم في العراق أو من «سيطرة الولايات المتحدة على ثروات العراق النفطية».

رغم أن النفط ليس العامل الوحيد في سياسة الشرق الأوسط، لكنه مرشد ودليل جيد وصحيح الآن أيضاً. في بلد غني بالنفط وديكتاتور يعتمد عليه يطلق العنان لاستبداده.

البحرين قضية حساسة على وجه الخصوص لأنها تستضيف الأسطول الخامس الأمريكي «أقوى قوة عسكرية في المنطقة» وبسبب القسم الشرقي من العربية السعودية ذو الأغلبية الشيعية وخزان أكبر الاحتياطات النفطية. تصادف غريب في الجغرافية والتاريخ حين تحيط أكبر تجمعات الهيدروكربون بالجزء الشمالي من الخليج حيث مناطق الأغلبية الشيعية. فاحتمال تحالف شيعي كان كابوساً للمخططين منذ وقت طويل.

أما في الدول التي ليس فيها احتياطات هيدروكربونية فقد تنوع التكتيك لكنه التزم بخطة قياسية حين يكون الديكتاتور في خطر ادعمه

طالما ذلك ممكناً وحين يستحيل أصدر تصريحات رنانة عن حب الديمقراطية وحقوق الإنسان - ثم بعد ذلك حاول إنقاذ أكبر قدر ممكن من النظام السياسي السابق. السيناريو متكرر بشكل ممل: ماركوس، دوفالير، شاوشيسكو، موبوتو، سوهارتو وغيرهم.

اليمن مستنقع حيث التدخل المباشر فيه قد يخلق مشكلات أكبر لواشنطن. لهذا عنف الدولة لا يثير سوى بيانات ممارءة وزائفة. أما ليبيا فقضية مختلفة. ليبيا غنية بالنفط. رغم أن الولايات المتحدة لم تعط الديكتاتور الوحشي ذلك التأييد الكبير حتى الآن، فهو لا يعتمد عليه وتفضل تابعاً أكثر خنوعاً. إضافة إلى أن المناطق الشاسعة من ليبيا لم تستكشف بعد ويعتقد خبراء النفط بأنها تملك ثروات غير مكتشفة، قد تفتحها حكومة أكثر ضماناً أمام الاستثمارات الغربية.

حين بدأت الثورة غير العنيفة، سحقها القذافي بعنف واندلع التمرد الذي حرر بنغازي، ثاني أكبر المدن الليبية وانتقل إلى معقل القذافي الحصين في الغرب. قواته عكست مسار الصراع وكانت على أبواب بنغازي. مجزرة في بنغازي كانت على وشك الحدوث وكما أشار دينيس روس مستشار أوباما لشؤون الشرق الأوسط. «سيلومنا الكل عليها» ذلك لن يكون مقبولاً، بما أن نصر القذافي العسكري يعزز سلطته واستقلاله. انضمت الولايات المتحدة إلى قرار الأمم المتحدة ١٩٧٣ المطالب بفرض منطقة حظر جوي، تنفذه فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة مع انتقال الولايات المتحدة إلى دور داعم. لكن لم تُبذل جهود لحصر العمليات بتأسيس منطقة حظر جوي، أوالبقاء ضمن تفويض القرار ١٩٧٣. فسر الثالوث القرار فوراً بأنه تفويض بمشاركة مباشرة إلى جانب الثوار. وتم فرض وقف إطلاق النار بالقوة على قوات القذافي فقط وليس على الثوار الذين نالوا كثير من الدعم العسكري حين تقدموا إلى الغرب وأمنوا المنابع الرئيسية لإنتاج النفط الليبي.

منذ البداية شكل الاستخفاف الصارخ بقرار مجلس الأمن ١٩٧٣ بعض الصعوبات للصحافة حين أصبح التجاهل فاضحاً. فمثلاً تساءل كريم فهيم وديفيد كيركباتريك في نيويورك تايمز (٢٩ آذار) «كيف يمكن للحلفاء تبرير الضربات الجوية على قوات العقيد القذافي حول مركزه القبلي في سرت إن كانوا يحبون توسيع التأييد في المدينة ولا يريدون فرض تهديد على المدنيين». صعوبة فنية أخرى أن قرار الأمم المتحدة طالب بحظر أسلحة يطبق على كل الأراضي الليبية، مما يعني أن أي إمداد خارجي بالسلاح يقدم للمعارضة يجب أن يكون سرياً.

يقول البعض أن النفط لا يمكن أن يكون دافعاً لأن الشركات الغربية فازت بتسهيلات سخية في عهد القذافي. ذلك يسيء فهم المخاوف الأمريكية. لكن يمكن قول الشيء ذاته عن العراق في عهد صدام أو إيران وكوبا لسنوات كثيرة، حتى الوقت الحاضر. لقد صرح بوش بما تسعى إليه واشنطن: السيطرة أو على الأقل أتباع يُعتَمَد عليهم. تؤكد الوثائق البريطانية الداخلية أن خوفهم الكبير هو «فيروس الوطنية»، ليس في الشرق الأوسط بل في كل الأماكن. الأنظمة الوطنية قد تسلك ممارسات غير شرعية للسيادة وتنتهك مبادئ المنطقة العظمى.

من الطبيعي أن تنفرد الدول الإمبريالية الثلاث التقليدية في تنفيذ هذه العمليات. الدولتان الرئيسيتان في المنطقة، تركيا ومصر، تستطيعان فرض حظر جوي لكنهما لم تقدما سوى دعم فاتر للحملة العسكرية الثلاثية وديكتاتوريات الخليج التي يسرها أن ترى زوال الديكتاتور الليبي المجنون، والمحشوة بأدوات عسكرية متقدمة (تضخها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لتدوير البترودولار وضمان الطاعة) ليست راغبة إلا في تقديم مشاركة رمزية فقط من خلال قطر. لكن أفريقيا المؤيدة لقرار مجلس الأمن عارضت طريقة تفسير التحالف الثلاثي له باستثناء رواندا حليفة الولايات المتحدة.

خارج المنطقة، كان هناك تأييد قليل من روسيا والصين أما البرازيل فقد امتنعت عن التصويت وطالبت بوقف إطلاق نار شامل وبالحوار. الهند أيضاً امتنعت عن التصويت على أرضية أن الإجراءات المقترحة يمكن أن «تزيد صعوبة الوضع الصعب أساساً على الشعب الليبي» ونادت بإجراءات سياسية بدلاً من استعمال القوة. حتى ألمانيا امتنعت عن التصويت. إيطاليا كانت مترددة جزئياً بسبب اعتمادها الكبير على عقودها النفطية مع القذافي ونتذكر الإبادة الجماعية التي نفذتها إيطاليا في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى في القسم الشرقي من ليبيا المحرر الآن الذي ربما احتفظ ببعض الذكريات.

سؤال: هل أيد المناوئون للتدخل الذين يؤمنون باستقلال الأمم والشعوب وحريتها أي تدخل من قبل الأمم المتحدة أو بلدان محددة بصورة شرعية؟

نعوم تشومسكي: هناك قضيتان للدراسة: (١) تدخل الأمم المتحدة و(٢) تدخل بدون تفويض من الأمم المتحدة. إذا لم نؤمن بقدسية الدول في شكلها الذي تأسست فيه في العالم الحديث (نموذجياً بالعنف المفرط)، مع الحقوق التي تتجاوز كل الاعتبارات المتخيلة الأخرى، يكون الجواب حينها متشابهاً في الحالتين: نعم، من حيث المبدأ على الأقل. وأرى أنه لا مغزى هناك في مناقشة ذلك الاعتقاد لهذا سأتغاضى عنه.

فيما يخص الحالة الأولى، تمنح الوثيقة والقرارات اللاحقة مجلس الأمن حرية كبيرة في التدخل وجرى الشروع في ذلك في جنوب أفريقيا مثلاً. طبعاً لا يستلزم أن كل قرار لمجلس الأمن، يجب أن يوافق عليه «مناوئو التدخل الذين يؤمنون بالاستقلال الذاتي»؛ إذ تدخل اعتبارات أخرى في قضايا فردية لكن أكرر ثانية إذا لم تعط الدول المعاصرة منزلة الكيانات المقدسة، يظل المبدأ نفسه.

بالنسبة للحالة الثانية – التي تتعلق بالتفسير الثلاثي لقرار الأمم المتحدة ١٩٧٣ وأمثلة كثيرة أخرى يكون الجواب نعم مرة أخرى، في المبدأ

على الأقل، إذا لم نعتبر النظام العالمي للدول مقدساً في الشكل المؤسس في وثيقة الأمم المتحدة والمعاهدات الأخرى.

هناك دائماً عبء ثقيل من الإثبات يجب تلبيته لتبرير التدخل القوي أو أي استخدام للقوة. العبء عالي خصوصاً في الحالة (٢)، انتهاكاً للوثيقة، على الأقل بالنسبة للدول التي تعترف بأنها تطيع القانون. يجب أن نتذكر، أن السيطرة الكونية ترفض ذلك الموقف، وتحلُّ نفسها من وثائق الأمم المتحدة ومنظمة الدول الأمريكية والمعاهدات الدولية الأخرى. أثناء القبول بتشريع محكمة العدل الدولية عندما أسست المحكمة (بمبادرة أمريكية) عام ١٩٤٦، أعفت واشنطن نفسها من تهم انتهاك المعاهدات الدولية وأقرت فيما بعد معاهدة الإبادة الجماعية مع نفس التحفظات فكل المواقف التي اتخذتها المحاكم الدولية التي توجب القبول بأحكامها القضائية. عموماً يكون دور الولايات المتحدة أن تضيف تحفظات هامة إلى المعاهدات العالمية التي تقرها لتعفي نفسها.

هل يمكن تلبية عبء الإثبات؟

للنقاش المجرد أهمية قليلة لكن هناك حالات واقعية توصف ذلك. في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان هناك حالتان من اللجوء للقوة - لا توصفان بأنهما تدخل إنساني - قد تدعمان بشكل شرعي: غزو الهند لباكستان الشرقية في عام ١٩٧١ وغزو فيتنام لكمبوديا في كانون الأول ١٩٧٨ وكلا الحالتين، انتهتا بأعمال وحشية جماعية. لكن هاتان الحالتان لم تدخلا في المبدأ الغربي لـ«التدخل الإنساني» لأنهما يعانيان من فكرة الوكالة الخطأ: لم يقم بتنفيذهما الغرب، والمؤلم أكثر أن الولايات المتحدة عارضتهما بشدة وعاقبت الأوغاد الذين وضعوا حد للقتلة مرتكبي المجازر في بنغلاديش والذين طردوا (بول بوت) من كمبوديا لأن أعمالهما الوحشية كانت بالغة الشدة. لم تشجب فيتنام فقط وإنما عوقبت بغزو صيني مدعوم من الولايات المتحدة وبدعم

عسكري ودبلوماسي من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة للخمير الحمر في هجومهم على كمبوديا من القواعد التايلاندية.

في الوقت الذي تلبي فيه هاتان القضيتان الإثبات، يظل التفكير في غيرهما صعباً. في حالة تدخل ثالوث القوى الإمبريالية التي تنتهك قرار الأمم المتحدة ١٩٧٣ الآن في ليبيا، العبء ثقيل بشكل خاص، بسبب سجلاتهم المرعبة. مع ذلك، من الصعب جداً التمسك بإمكانية أن لا يكون مقنعاً أبداً من حيث المبدأ إلا إذا اعتبرنا أن الدول القومية في شكلها الراهن مقدسة. لكي نمنع مذبحة محتملة في بنغازي ليس قضية صغيرة مهما ظن المرء في الدوافع.

سؤال: الشخص القلق بأن لا يتعرض المنشقون في دولة للذبح وبذلك يظلوا قادرين على السعي وراء الاستقلال وحق تقرير المصير بشكل مشروع فهل يمكنه عندها أن يعارض التدخل المعني لتفادي مثل هذه المذبحة أياً كان قصده؟

نعوم تشومسكي: حتى القبول، من أجل النقاش، بأن النية صادقة وتلبي المعيار البسيط الذي ذكرته في البداية، لا أرى كيف سأجيب على هذا السؤال في هذا المستوى من التجريد: هذا يعتمد على الظروف. التدخل يمكن أن يعارض فمن المحتمل مثلاً أن يؤدي إلى مذابح أسوأ. افترض مثلاً أن قادة الولايات المتحدة عزموا صادقين إلى تجنب مذبحة في هنغاريا عام ١٩٦٥ بقصف موسكو. أو أن الكرملين كان ينوي صادقاً أن يتجنب مذبحة في السلفادور في عام ١٩٨٠ بقصف الولايات المتحدة. بسبب العقابيل المتوقعة نتفق كلنا أن تلك الأعمال (التي لا يمكن تخيلها) يمكن أن تعارض بشكل مشروع.

سؤال: كثير من الناس يرون تشابهاً بين التدخل في كوسوفو عام ١٩٩٩ والتدخل الحالي في ليبيا. هل يمكنك أن تشرح لنا بعض أوجه التشابه أولاً ثم أوجه الاختلاف الرئيسة ثانياً؟

نعوم تشومسكي: كثير من الناس يرون هذا التشابه في الواقع، إجلالاً لقوة أنظمة الدعاية الغربيةالتي لا تصدق. خلفية التدخل في كوسوفو صدف أنها لم توثق بشكل جيد على غير العادة. ذلك يشمل مجموعتي وثائق وزارة الخارجية المفصلة، تقارير واسعة من الأرض لمراقبي بعثة كوسوفو للتأكد من الحقائق، مصادر ثرية من حلف النيتو والأمم المتحدة، استجواب البرلمان البريطاني وكثير غيرها. التقارير والدراسات تتوافق مع الحقائق كثيراً.

باختصار، لم يحصل أي تبدل جوهري على الأرض في الأشهر التي سبقت القصف. الأعمال الوحشية التي ارتكبتهاالقوات الصربية وعصابات (كي ال ايه) التي كانت تهاجم من ألبانيا المجاورة - وبشكل أساسي الأخير أثناء الفترة اللازمة، على الأقل حسب السلطات البريطانية العليا (كانت بريطانية العضو الأبرز في التحالف). الأعمال الوحشية في كوسوفو لم تكن السبب في قصف النيتو لصربيا، بل نتيجة له. لقد قال الجنرال (ويسلي كلارك) القائد في النيتو للبيت الأبيض قبل أسبوعين من القصف بأنه سيحدث رداً وحشياً من قبل القوات الصربية على الأرض وعندما بدأ القصف قال للصحافة بأن هذا الرد كان متوقعاً.

اللاجئون الأوائل المسجلون لدى الأمم المتحدة خارج كوسوفو كانوا كلهم بعد أن بدأ القصف. اتهام ميلوسيفتش أثناء القصف، بني على استخبارات أنغلوأمريكية، ومحصور بالجرائم التي ارتكبت بعد القصف، مع استثناء وحيد، الذي نعرف أنه لم يؤخذ على محمل الجد من قبل قادة الأنغلوأمريكيين، الذين كانوا في نفس اللحظة يدعمون جرائماً أفظع. إضافة إلى ذلك كان هناك سبب وجيه للاعتقاد أن الحل الدبلوماسي يمكن التوصل إليه: في الحقيقة، قرار الأمم المتحدة الذي فرض بعد ٧٨ يوماً من القصف كان مجرد تسوية بين الصرب والنيتو.

كل هذا، بما فيه هذه المصادر الغربية المعصومة، معلق عليه في كتابي جيل جديد يرفض. المعلومات المثبتة ظهرت بعد ذلك. هكذا تفيد (ديانا جونستون) في رسالة إلى المستشارة الألمانية (انجيلا ميركل) في ٢٦ تشرين الأول عام ٢٠٠٧ بواسطة (ديتمار هارتويغ) الذي كان يرأس الحملة الأوروبية في كوسوفو قبل أن تنسحب في ٢٠ آذار بسبب إعلان القصف، وكانت في وضع جيد تعرف فيه ما كان يحدث. كتبت:

«لم يُسَلَّم تقرير واحد في الفترة من أواخر تشرين الثاني ١٩٩٨ حتى الإخلاء عشية الحرب ذُكِرَ فيه بأن الصرب ارتكبوا أية جريمة منظمة ضد الألبان ولم تكن هناك حالة واحدة أشارت إلى إبادة جماعية أو ما يشبهها من جرائم. على العكس تماماً، لقد أفدت في تقاريري مراراً، آخذاً بالاعتبار الهجمات المتكررة لـلا (كال ايه) ضد الإداريين الصرب، إن فرض قانونهم أثبت تقيداً وانضباطاً مميزين. الهدف الواضح والمذكور للإدارة الصربية مراقبة اتفاق ميلوسفيتش هولبروك تشرين أول ١٩٩٨ حرفياً لكي لا يتوفر عذر للمجتمع الدولي في التدخل.... كان هناك تناقض هائل في الرؤية بين ما كانت تريده البعثة في كوسوفو إلى حكوماتها الخاصة وعواصمها وما أطلقته بعد ذلك للميديا والعامة. هذا التناقض لا يمكن النظر إليه إلا كمدخل لتحضير طويل الآجل لحرب ضد يوغسلافية. حتى الوقت الذي غادرت فيه كوسوفو لم يحدث أبداً ما ادعت به الميديا والسياسيين الغربيين. وبناء عليه حتى ٢٠ آذار ١٩٩٩ لم يكن هناك أي سبب للتدخل العسكري الذي تسبب بإجراءات غير شرعية تعهد بها بعد ذلك المجتمع الدولي. السلوك الجمعي للدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي قبل اندلاع الحرب وبعدها أثار مخاوفاً خطيرة بسبب قتل الحقيقة وفقد الاتحاد مصداقيته».

التاريخ ليس فيزياء كمية وهناك دائماً متسعاً للشك. لكن من النادر بالنسبة للنتائج أن تكون مدعومة بقوة كما هي في هذه الحالة. مكشوفة

جداً، إنها غير متصلة بالموضوع تماماً. العقيدة السائدة أن النيتو تدخل لإيقاف التطهير العرقي لكن مؤيدو القصف الذين تسامحوا على الأقل مع إيماءة إلى الدليل الواقعي يصفون دعمهم بالقول أن القصف كان ضرورياً لإيقاف الأعمال الوحشية المحتملة يجب علينا لذلك أن نعمل على إحداث أعمال أكثر وحشية لإيقاف الأعمال التي قد تحدث إن لم نقصف. وهناك تبريرات أكثر ترويعاً.

لهذه الأسباب فإن الإجماع الفعلي والانفعال واضح. القصف جاء بعد عربدة حقيقية من تمجيد الذات والترويع بالقوة التي كانت تؤثر على (كيم ال – سونغ). لقد انتقدتها في مكان آخر، وهذه اللحظة المميزة في التاريخ الفكري يجب أن لا يسمح لها بأن تبقى في طي النسيان الذي أودعت فيه. بعد هذا العرض، يجب أن تكون هناك وثائق مجيدة قدمها التدخل النبيل في كوسوفو.

بالعودة إلى السؤال، هناك تشابه بين التصوير الذي يخدم المصلحة الذاتية في كسوفو وليبيا، فكلاهما يحركهما قصد نبيل في نسخته الروائية لكن العالم الحقيقي غير المقبول يوحي بتشابهات مختلفة.

سؤال: بالمثل، كثير من الناس يرون تشابهاً بين التدخل المستمر في العراق والتدخل الحالي في ليبيا. في هذه الحالة أيضاً، أيمكنك أن تشرح لنا أوجه التماثل والاختلاف؟

نعوم تشومسكي: لا أرى أي تماثل مهم هنا أيضاً، ما عدا أن الدول المتورطة هي نفسها. في حالة العراق، كانت الأهداف تلك التي تم التنازل عنها أخيراً. في حالة ليبيا، الهدف مماثل في مظهر واحد فقط: الأمل بنظام تابع موثوق يدعم الأهداف الغربية ويقدم للمستثمرين الغربيين تسهيلات وامتيازات للوصول إلى ثروة ليبيا النفطية الغنية.

سؤال: ماذا تتوقع، في الأسابيع القادمة أن يحدث في ليبيا، في ذلك السياق، ماذا يجب أن تكون أهداف المعادين للتدخل وحركة المعادين

للحرب في الولايات المتحدة فيما يتعلق بسياسات الولايات المتحدة برأيك؟

نعوم تشومسكي: ليس مؤكداً طبعاً، لكن مشاهد محتملة الآن (٢٩ مارس) إما انقسام ليبيا إلى منطقة شرقية غنية بالنفط تعتمد بشدة على القوى الإمبريالية ومنطقة غربية فقيرة تحت سيطرة الطاغية المتوحش مع قدرة متضائلة أو نصر للقوات المدعومة من الغرب. في كلا الحالتين، كما يأمل الثالوث، سيحل نظام أقل إزعاجاً وأكثر إتكالاً. النتيجة المحتملة وصفت بدقة، أعتقد بواسطة صحيفة القدس العربي في لندن (آذار ٢٨). بينما نقر بشكوكية التنبؤ، من المتوقع أن يترك التدخل ليبيا في «دولتين، الثوار يسيطرون على الشرق الغني بالنفط وغرب معدم يقوده القذافي... بما أن آبار النفط أصبحت آمنة قد نجد أنفسنا بمواجهة إمارة نفطية ليبية جديدة، يقطنها عدد قليل من السكان، يحميها الغرب وتشبه كثيراً الدول الأميرية في الخليج». أو قد يستمر الثوار المدعومين من الغرب حتى نهاية مشوارهم في إزالة الديكتاتور المثير للسخط.

هؤلاء الذين يهتمون بالسلام والعدالة والحرية والديمقراطية يجب أن يحاولوا أن يجدوا طرقاً لتقديم التأييد والمساعدة لليبيين الذي يسعون إلى رسم مستقبلهم، والتحرر من القيود التي فرضتها عليهم قوى خارجية. نستطيع أن نكن لهم الأماني حول التوجهات التي يجب أن يسلكوها لكن مستقبلهم يجب أن يكون في أيديهم.

ما يخيف أمريكا الاستقلال وليس الإسلام الراديكالي

نعوم تشومسكي - صحيفة الغارديان
٤ شباط ٢٠١١

العالم العربي يحترق «هذا ما أفادت به محطة الجزيرة الأسبوع الماضي، بينما بدء حلفاء الغرب في المنطقة كلها يفقدون تأثيرهم بشكل سريع». لقد انطلقت موجة الصدمة من الثورة المفاجئة في تونس التي طردت الديكتاتور المدعوم من الغرب مع ارتدادات لها في مصر خصوصاً، حيث قامت شرطة الديكتاتور هناك بقمع المحتجين. قارنها المراقبون مع سقوط المقاطعات الروسية عام ١٩٨٩ لكن الاختلافات كانت مهمة. الأول: حافظت وحلفاءها حافظوا على العمل بالمبدأ المتأصل الذي يرى بأن الديمقراطية مقبولة فقط طالما تتطابق مع أهدافهم الإستراتيجية: رائعة في مناطق العدو لكنها ليست كذلك في فنائنا الخلفي، إلا إذا دجنت بالشكل اللائق.

لا يصلح للمقارنة سوى واحد من أحداث عام ١٩٨٩ وهو ما جرى في رومانيا، حيث حافظت واشنطن على دعم (نيكولاي شاوشيسكو)، الذي يعتبر من أقسى الحكام المطلقين في أوروبا الشرقية حتى أصبح الولاء متعذراً؛ بعد ذلك رحبت واشنطن بخلعه بعد أن جرى طمس الماضي. وذلك نموذج قياسي: فرديناند ماركوس وجان كلود دوفينار وشون دوهوان وسوهارتو وكثيرين من رجال العصابات النافعين وقد يكون حسني مبارك الحالة الراهنة التالية مع جهود روتينية لضمان نظام وريث لا ينحرف بعيداً عن المسار المقبول. يبدو أن الأمل المخلص لمبارك هو الجنرال عمر سليمان الذي عُيِّنَ حديثاً نائباً للرئيس والذي ترأس المخابرات لفترة طويلة ويضمر له الثوار والشعب قدراً من الاحتقار لا يقل عن الدكتاتور نفسه.

إن اللازمة المشتركة بين النقاد هي الخوف بأن الإسلام الراديكالي يفضي إلى معارضة الديمقراطية على أرضية براغماتية. لكن الصيغة مضللة مع بعض الاستحقاق. لقد كان التهديد العام دائماً هو الاستقلال فالولايات المتحدة وحلفاءها يدعمون الإسلاميين المتطرفين دائماً وأحياناً لمنع خطر القومية العلمانية. ومثال آخر من القائمة الطويلة ضياء الحق وهو واحد من أكثر حكام باكستان المستبدين وحشية والمفضل عند ريغان.

«إن الحجة التقليدية التي تقدم في العالم العربي وخارجه هي عدم وجود أي خطر وأن كل شيء تحت السيطرة» كما يقول مروان معشر، مسؤول أردني سابق ومدير بحوث الشرق الأوسط لمعهد كارنيجي. «بهذا الخط من التفكير، تحاول القوى المتخندقة أن تثبت بأن الخصوم والغرباء المنادين بالإصلاح يبالغون في تصوير الظروف التي على الأرض». لذلك يمكن صرف النظر عن الشعب. يعود هذا المبدأ إلى وطنه أرض الولايات المتحدة نفسها ويتعمم في كل العالم أيضاً. عند حدوث الاضطراب، قد تكون الانتقالات التكتيكية ضرورية لكن العين دائمة على إعادة فرض السيطرة ثانية.

كانت الحركة الديمقراطية المتذبذبة في تونس موجهة ضد «دولة بوليسية فيها حيز قليل من حرية التعبير ومشاكل خطيرة في انتهاكاتها لحقوق الإنسان تحكمها عائلة ديكتاتور مكروهة بسبب فسادها» هذا ما قاله سفير الولايات المتحدة روبرت جوديك في تموز ٢٠٠٩ في برقية كشف عنها موقع ويكيليكس. لذلك بالنسبة لبعض مراقبي ويكيليكس، «يجب أن تخلق الوثائق شعوراً مريحاً بين الشعب الأمريكي لأن المسؤولين ليسوا نائمين عن التغيير» - في الحقيقة تلك الوثائق داعمة جداً لسياسات الولايات المتحدة وكأن أوباما هو من سربها تقريباً (كما كتب جاكوب هيلبرون في ناشينال انتريست يجب على أميركا أن تعطي

وساماً (لأسانج) هكذا كان أحد عناوين الفايننشال تايمز عن (جدعون راشمان) الذي كتب: «تواجه السياسة الخارجية الأمريكية المبنية على الاستخبارات والبراغماتية.... الموقف العام الذي اتخذته الولايات المتحدة في أي قضية هو عادة الموقف الخاص أيضاً». في هذا المنظور تقوض ويكليكس حجج «منظري المؤامرة» الذين شككوا بالدوافع النبيلة لتصريحات واشنطن.

تدعم برقية جوديك تلك الحجج - على الأقل إن لم ننظر إلى الأبعد. لو فعلنا، كما أفاد محلل السياسة الخارجية ستيفن زونيس في فورين افيرز ان فوكس نجد أن معلومات جوديك متاحة، قدمت واشنطن ١٢ مليون دولار مساعدة عسكرية لتونس. كما يحدث، تونس كانت أحد المستفيدين الخمسة الأجانب: إسرائيل (بشكل روتيني) ودولتان دكتاتوريتان في الشرق الأوسط، مصر والأردن وكولومبيا التي لديها أسوأ سجل في انتهاك حقوق الإنسان وأكبر مساعدة عسكرية أمريكية في نصف الكرة الأرضية. كما بَيَّنَ مستند هيلبرون دعم الحكام العرب لسياسات الولايات المتحدة التي استهدفت إيران، كشفت عنه وثائق ويكيليكس. يستغل راشمان هذا المثال أيضاً كما فعلت وسائل الإعلام عموماً، مُرَحِّباً بهذه الإفشاءات. ردود الأفعال تبين المدى العميق لاحتقار الديمقراطية في الثقافة التعليمية.

ما يفكر به الناس لم يرد ذكره - يُكتَشَفُ بسهولة. حسب الاستطلاعات التي أجرتها مؤسسة بروكينغز في شهر آب، بعض العرب يتفقون مع واشنطن والمعلقين الغربيين بأن إيران تهديد: ١٠٪. مقابل من يعتبرون أن الولايات المتحدة وإسرائيل خطران رئيسيان ٧٧٪: ٨٨٪ على التوالي.

إن رأي العرب معادي لسياسات واشنطن لذلك يعتقد (٥٧٪) من المستفتين وهم أكثرية، أن الأمن الإقليمي سيتعزز إن امتلكت إيران

الأسلحة النووية. «لا يوجد هناك خطأ، كل شيء تحت السيطرة» (كما وصف معشر الوهم السائد)، لا يزال الحكام المستبدون يدعموننا أما رعاياهم فيمكن تجاهلهم - إلا إذا كسروا قيودهم، بعدها يجب أن تعدل السياسة.

كما ظهرت تسريبات أخرى عن دعم الآراء المتحمسة لشهامة واشنطن. في تموز ٢٠٠٩، هوغو لورينس، السفير الأمريكي إلى هندوروس، أخبر واشنطن بتحقيق السفارة في (القضايا الدستورية الشرعية المحيطة بخلع الرئيس مانويل ميل زيليا بالقوة في ٢٨ حزيران التي استنتجت أنه «لا يوجد شك بأن المحكمة العسكرية العليا والهيئة التشريعية العليا تآمرتا في ٢٨ حزيران فيما شكل انقلاباً تشريعياً غير قانوني ضد فرع الهيئة الإدارية». باهر جداً، ماعدا أن الرئيس أوباما شرع في الانفصال عن أمريكا اللاتينية وأوروبا اللتان دعمتا نظام الانقلاب وتغاضتا عن الأعمال الوحشية اللاحقة.

ربما أبرز فضائح ويكليكس تتعلق بباكستان التي استعرضها محلل السياسة الخارجية فريد برانفمان في تروثديغ. تكشف الوثيقة أن السفارة الأمريكية واعية جيداً بأن حرب واشنطن في أفغانستان وباكستان لا تقوي الشعور بمعادة أمريكا المتفشي فقط بل «تهدد بزعزعة استقرار الدولة الباكستانية أيضاً» وتزيد خطر الكابوس المميت: احتمال وقوع الأسلحة النووية بأيدي الإرهابيين الإسلاميين.

مرة أخرى هذا الكشف «يجب أن يخلق شعوراً مريحاً .... لأن المسؤولون ليسوا نائمين عن التغيير» - بينما واشنطن تتقدم بثقة وقوة نحو الكارثة.

لحظة أحادية القطب والثقافة الإمبريالية

محاضرة في ذكرى إدوارد سعيد
ألقيت في جامعة كولومبيا
٣ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠٩

أعتقد أن الإنجاز الفذ والأعظم لإدوارد سعيد كناقد أدبي،..... أنه وضع الإمبريالية في مركز الحضارة الغربية. ما تجدونه في الأعمال الأدبية التاريخية والسياسية في الغرب في الأربع مئة سنة الأخيرة تأكيد كبير على دور التنوير في صنع الحضارة وخطابها. تجدون مقداراً كبيراً من التأكيد على العقلانية.. على الديمقراطية والقيم الديمقراطية وعلى الليبرالية كمظهر من التنوير. هناك نزوع لافت لعدم التطرق إلى الإمبريالية تقريباً كمشكل لخطوط الحضارة الغربية. في النقد الأدبي والكتابة التاريخية هناك عصران: قبل الاستشراق وبعد الاستشراق.

أنا اقتبس تقييم إدوارد سعيد للمساهمات الأدبية من قبل صديقه المقرب ورفيقه في الصراع إقبال أحمد، مثل سعيد نموذج نادر وممتاز للمثقف المنشغل الوفي للحقيقة والعدالة في القول والفعل. رحيلهما منذ بضع سنوات خسارة يتعذر تعويضها بالنسبة لفقراء العالم ومعذبيه من أجل عمق ووضوح الفكر والفهم.

من بين إنجازات سعيد أنه جذب «الثقافة الإمبريالية» من الظل واستكشف جذورها العميقة ومضامينها الشاملة في ميادين كثيرة. في هذه الملاحظات سأحاول أن أستكشف بعضاً من تجلياتها المحددة، مُركِّزاً على أحداث فتحت الطريق إلى «اللحظة الأحادية القطب» من سيطرة الولايات المتحدة الكوكبية الواضحة قبل عشرين سنة والطرق التي ذكرت بها في الذكرى السنوية العشرين التي يحتفل بها الآن. فعل هذا يتطلب إتباع مسارين: السياسة وتفسيرها عبر موشور الإيديولوجية

الإمبريالية. فَجَّرَ اللحظة الأحادية القطب كحالة اختبارية تعليمية، في كلا الميدانين.

يمكننا الإحساس بعمق جذور الإيديولوجية الإمبريالية في أخذ حالات جلية. ليس هناك أوضح من الجرائم المريعة التي اعترف بها المرتكبون صراحة ومرت كفعل غير هام أو أُنكرت حتى عند استعادتها من قبل المستفيدين. الكولينيالية الاستيطانية، الشكل الأشد شراً من الفتح الامبريالي، تقدم إيضاحات منقوشة. المستعمرون الإنكليز في شمال أمريكا لم يكن عندهم أي شك حول ما كانوا يفعلونه. بطل الحرب الثورية الجنرال (هنري هوكس)، أول وزير حرب في المستعمرات الأمريكية المحررة حديثاً، وصف «الاستئصال المطلق لكل الهنود في معظم أجزاء الاتحاد» بوسائط «تدميرية للهنود أكثر من تصرف فاتحي المكسيك والبيرو»، الذي لم يكن مأثرة صغيرة. في سنواته الأخيرة، بعد أن باتت إسهاماته في هذه الجرائم من الماضي، (جون كوينسي آدامز) رثى مصير «ذلك العرق القليل الحظ من السكان الأميركيين الأصليين، الذين نبيدهم بوحشية غادرة لاتعرف الرحمة، من بين الآثام الشائنة لهذه الأمة، التي أعتقد أن الرب سيحاسبها يوماً ما». البعض قدم لازمة مواسية، منهم رئيس المحكمة العليا جوزيف ستوري الذي تعجب من الطرق الغريبة للعناية الإلهية التي في «حكمتها» سببت اختفاء السكان الأصليين مثل «أوراق الخريف الذابلة» مع أن المستعمرين كانوا «يحترمونهم باستمرار» قسوة التفكير.

أعاد المعلقون المعاصرون البارزون تفسير حكمة العناية الإلهية بمصطلحات علمانية. المؤرخ ييل البارز (جون لويس غاديس) يحيي (آدامز) كأعظم استراتيجي وضع الأساسات لمبدأ بوش: المبدأ: «التوسع هو السبيل إلى الأمن» - مبدأ ملائم لهؤلاء الذين يفلتون من العقاب أو الذين لديهم نصراء نافذون. بتقدير جلي، غاديس يرى أن المبدأ كان

مطبقاً بشكل روتيني عبر تاريخ «الإمبراطورية القاصرة» التي سماها جورج واشنطن بالجمهورية الجديدة. هو تجاهل صامت لإسهامات آدامز الملطخة بالدماء في «الآثام الشائنة لأمته» بأنه أسس المبدأ في وثيقة حكومية شهيرة تبرر فتح فلوريدا بذرائع مخادعة تماماً من الدفاع عن النفس. كان الفتح جزءاً من مشروع آدامز في «إزالة أو اجتثاث السكان الأمريكيين الأصليين من الجنوب الشرقي»، في كلمات (وليام آيرل ويكس) المؤرخ الأهم للمذبحة، الذي قدم وصفاً رهيباً لهذا «المعرض من القتل والاغتصاب» اللذان استهدفا «الهنود الخارجين عن القانون» والعبيد الهاربين.

لنذكر مثالاً راهناً آخر أكثر تطرفاً، منذ أشهر قليلة، في (ذا نيويورك ريفيو إف بوكس)، يصف المحلل السياسي (روسل بيكر) ما تعلمه من عمل «المؤرخ الملحمي» ادموند مورغان: بدقة، أن كولومبس «وجد فسحة قارية مأهولة بشكل متناثر من قبل شعب يعمل بالزراعة والصيد ..... في العالم الذي لا حدود له وغير المسلوب الذي يمتد من الغابة الاستوائية إلى الشمال المتجمد، الذي ربما ليس فيه أكثر من مليون قاطن بصعوبة» لم تظهر أي رسالة رد، لكن بعد أربعة أشهر نشر المحررون «توضيحاً» أُعلِنَ أنه في أمريكا الشمالية تشير البحوث الحديثة أن العدد كان عالياً ويصل إلى ثمانية عشر مليون ساكن.

إن التوضيح مُعَبِّرٌ أكثر من الأصل. لم يكن بيكر يشير إلى أمريكا الشمالية – وإنما «من الغابة الاستوائية...» البحث ليس حديثاً وعمره عقود من الزمن. وقد عرف منذ وقت طويل أن «العالم المأهول بشكل متناثر.... وغير المسلوب» يشمل حضارات متقدمة (في الولايات المتحدة أيضاً). مع ذلك، ممارسة إنكار الإبادة الجماعية بإفراط لا تستحق إلا القليل من الاهتمام لأنها عادية جداً ولها مبرر جيد كما يفترض.

ليس كل حالات إنكار الإبادة الجماعية تنال مثل هذا المرور السهل، والمعيار ليس صعباً إدراكه. وافق الاتحاد الأوروبي على قرار «هيكلي في قتال العنصرية والرهاب من الأجانب» الذي يحرم ويدين «التغاضي العلني والإنكار أو التتفيه الفظ لجرائم الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب» إن كانت تحرض على العنف أو الكره. بوضع مسألة إن كانت الدولة المقدسة يجب أن تُمنح الحق في تقرير الحقيقة التاريخية وتعاقب الانحراف عن مراسيمها جانباً، تظل انتقائية المخاوف تتمتع بأهمية خاصة فالمؤرخون يخشون أن لا يمنع القرار الهيكلي الأسئلة حول الهولوكوست فقط بل والتحقيق في جرائم الإمبراطورية العثمانية وروسيا الستالينية أيضاً. ربما هناك حالات أخرى تخطر بالبال، ربما مع القوى الغربية كمرتكبي أعمال رديئة وكمحسنين. ذلك السؤال لم يطرح على ما يبدو.

حتى هذا اليوم، تفخر الولايات المتحدة بتوقير شديد، في الوطن على الأقل، كـ«مدينة على تل» أو كما فضل رونالد ريغان «مدينة متألقة على تل». في نيسان / أبريل الماضي عاتب كاتب العمود في نيويورك تايمز (روجر كوهين) اللوم المؤرخ البريطاني (جيفري هجسن) لوصفه الولايات المتحدة كـ«بلاد عظيمة وحيدة وسط غيرها لكنها ناقصة» خطأ هجسن كما علل كوهين، فشله بأن يدرك أنها بخلاف الدول الأخرى، أمريكا وُلدت كفكرة كـ«مدينة على تل»، «فكرة خلاقة» تكمن «عميقاً في النفس الأمريكية». جرائمها مجرد هفوات غير سارة لا تلوث النبالة الجوهرية للغرض من أمريكا الفائق والمتجاوز للمعرفة والخبرة، لنستعر عبارة العالم البارز (هانس مورغينثاو)، أحد مؤسسي المدرسة الواقعية العنيدة في نظرية العلاقات الدولية، شارحاً «الغرض من أميركا».

العبارة الخلاقة «مدينة على تل» صاغها (جون وينثروب) في عام ١٦٣٠ مُوجزاً المستقبل المجيد لأمة جديدة «أمر بها الرب». قبل سنة،

ماساشوسيتس، تسلمت مستعمرة الخليج عقد ترخيصها من ملك إنكلترا وأسست ختمها العظيم. الختم الذي يصور هندياً مع لفيفة من ورق البردي خارجة من فمه تناشد «تعالوا وساعدونا». العقد ينص أن إنقاذ السكان من القدر الوثني اللدود هو «الغاية الأساسية من هذه المزرعة». كتبة العواميد الإنكليز استرشدوا بما سمته سفيرة أوباما في الأمم المتحدة (سوزان رايس) «انبثاق معيار عالمي» يقر «مسؤولية حماية المدنيين الأبرياء» الذين يواجهون تهديدات إرهابية. كان المستعمرون بهذا في مهمة إنسانية حين استأصلوا وأبادوا السكان الأصليين - لمصلحتهم الخاصة، كما علل حلفاءهم. الرئيس تيودور روزفلت خطب قائلاً أن «التوسع خلال القرون الأربعة الماضية...... شُحن بمنفعة دائمة لأغلب الشعوب التي كانت تقيم في الأراضي التي وقع فوقها التوسع»، رغم ما يعتقد به عن خطأ الأفارقة والأمريكيون الأصليون والفيليبينيون والمستفيدون الآخرون.

التصور الجليل، لازال نشطاً وفعالاً جداً، وُجِّهَ جزئياً من قبل مدرسة العناية الإلهية التي أثرت بعمق على الثقافة الأمريكية من أوائل المستوطنين إلى جورج دبليو بوش - التصور أننا ننفذ مشيئة الرب، بطرق غريبة - وأيضاً بفرضية تفوق الأنغلوساكسونيين التي تعود إلى الآريين الأصليين والتيوتونيون في الغابات الألمانية، الذين حافظوا على نقاءهم العرقي بإفناء هؤلاء الذين في طريقهم، معتقدات نبتت في التاريخ الثقافي الإنكليزي وحُملت إلى الإمبراطورية القاصرة التي أسسها الإنكليز في «العالم الذي لا حدود له وغير المستلب» الذي وجدوه. بالنسبة لمؤسس الانثروبولوجيا (علم الإنسان) الأميركي، لويس مورغان، «تمثل العائلة الآرية الدفق المركزي للتقدم لأنها أنتجت أرفع صنف من البشرية ولأنها أثبتت تفوقها العضوي المتأصل بواسطة تنطعها التدريجي

ـﻓﻲ السيطرة على الكرة الأرضية». يصادق (تشارلز داروين) على الرأي أن تاريخ «ثقافة العقل» من اليونان إلى الإمبراطورية الرومانية ومابعد قَدَّمًا «لا يظهر أي غرض أو قيمة إلا عندما يشاهد ﻓﻲ ترابط مع أو بالأحرى كشيء ثانوي..... للدفق العظيم من هجرة الانغلوساكسونيين إلى الغرب»، أخيراً إلى الولايات المتحدة، حيث وصل تقدم الحضارة إلى ذروته لأن الأمة أنتجت «أكبر عدد من الرجال الخيرين الوطنيين الشجعان النشيطين ورفيعي الثقافة». حين كان المشروع يقترب من نجاحه النهائي ﻓﻲ وسط القرن التاسع عشر، أخبر حاكم كاليفورنيا بيتر بيرنيت الشعب أن «حرب الإبادة ستستمر بالنشوب بين العرقين حتى يصبح العرق الهندي منقرضاً ...... القدر المحتوم للعرق [الأبيض] أكبر من أن تتجنبه قدرة الإنسان وحكمته». الشاعر التقدمي الوطني (وايت ويتمان) رأى مسار التاريخ بطريقة مماثلة. فتوحاتنا، صرح، «تنزع الأغلال التي تمنع البشر من فرصة أن يكونوا سعداء وصالحين» وعن فتح نصف المكسيك، سأل سؤلاً بلاغياً «ماذا بوسع المكسيك البائسة والعاجزة أن تفعل بخصوص المهمة العظيمة لتأهيل العالم الجديد بعرق نبيل؟» كتب (رالف والدو ايمرسون) أنه «من المؤكد جداً أن العرق البريطاني القوي الذي غمر الآن الجزء الكبير من هذه القارة، يجب أن يغمر [تكساس] والمكسيك واريغون أيضاً وستكون الأحداث والوسائل التي نفذ بها العمل ذات أهمية صغيرة مع مرور العصور».

للبعض، حتى التيوتونيين من غابات ألمانيا الغامضة لم يكونوا مؤهلين وربما اختلطوا مطولاً جداً مع الجماعات المتوسطية الدنيا وقد امتعض بنجامين فرانكلين من «الفلاحين الإقطاعيين الذين لن يتبنوا أبداً لغتنا أو عاداتنا، أكثر من عجزهم ﻓﻲ اكتساب بشرتنا» وكان الأوروبيين «داكنو البشرة» للعين العنصرية الخبيرة بعكس الإنكليز. الأمثلة جائرة لأن الأفكار باتت تقليدية جداً.

باقترابنا من الحاضر، قلة من الحواجب رفعت حين عَلَّقَ المثقف البارز في تاريخ دبلوماسية الولايات المتحدة العالم الليبرالي توماس بيلي ببراعة في عام ١٩٦٩ «بعد تحرير أنفسنا من الحكم البريطاني، استطاعت المستعمرات المتحدة أن تركز على مهمة اقتلاع الأشجار والهنود وإكمال حدودنا الطبيعية».

من المهم أن ندرك أن مثل هذه الكلمات لم تعد مقبولة بعد الأثر المثقف لمذهب النشاطية في ستينيات القرن العشرين لكن يظل هناك طريق طويل يجب قطعه.

مع هذه الكلمات غير الوافية عن الخلفية، دعونا نعود إلى الحاضر، إلى المسار المزدوج للسياسة والايدولوجيا، بادئين بالأخيرة.

شهر تشرين الأول / نوفمبر ٢٠٠٩ كان موسوماً بمناسبة الاحتفال في الذكرى السنوية العشرين لما أسماه المؤرخ البريطاني (تيموثي غارتون آش) «أعظم سنة في تاريخ العالم منذ عام ١٩٤٥ » التي «بدلت كل شيء» ويعود الفضل في ذلك إلى إصلاحات (ميخائيل غورباتشيف) داخل روسيا «وتخليه الحابس للأنفاس عن استخدام القوة، ...... مثال مضيء لأهمية الفرد في التاريخ» التي أدت إلى الانتخابات الروسية الشفافة جزئياً في آذار / مارس ١٩٨٩ وبلغت ذروتها في سقوط جدار برلين في ٩ تشرين الثاني / نوفمبر الذي فتح الطريق لتحرير أوروبا الشرقية من الاستبداد الروسي. أسر المزاج العام المحامي (ماثيو رايدر) الذي يكتب في الاوبزيرفير اللندنية. تكلم عن «التسعات» الجيل الذي يقدم الآن القيادة الكوكبية مع باراك أوباما في المقدمة، مفهوم مهم للتاريخ الذي «تشكل بعالم تغير بدون بنادق» في ١٩٨٩ ، أحداث أعطتهم الثقة في قوة الإخلاص للاعنف والعدالة.

التكريمات للتاسع من تشرين الثاني / نوفمبر تستحق والأحداث جديرة بالذكرى فعلاً. والصورة فارضة ومقنعة، طالما أننا ملتزمين

بصرامة بمبدأ مسيطر من الحضارة الإمبريالية: ركزوا مثل الليزر على جرائم الأعداء وعلى شجبنا الشجاع والأخلاقي لجرائمهم. لكن تأكدوا بشكل حاسم أن لا تنظروا إلى أنفسنا. تطبق المبادئ بالطريقة المألوفة على أحداث نوفمبر. بعض المناظير البديلة قد تكون مثقفة ومنورة.

أحدها قدمته بدون قصد المستشارة الألمانية انجيلا ميريكل التي ناشدتنا كلنا أن «نستغل هذه النعمة التي لا تقدر بثمن من الحرية.... للتغلب على جدران زمننا» نصيحة جيدة، نستطيع إتباعها بسهولة. إحدى الطرق أن نفكك الجدار الضخم، الذي يفوق جدار برلين ويحوله إلى قزم في الطول والعرض، الذي يشق طريقه متعرجاً عبر الأراضي الفلسطينية في انتهاك فادح وفاضح للقانون الدولي. واقعياً مثل كل عمل للدولة، «جدار الضم» كما يجب أن يسمى، مبرر بشروط الأمن. لكن كما هي الحالة، الإدعاء تنقصه كل المصداقية. لو كان الهم هو الأمن لبني الجدار على الحدود ولصنع بشكل منيع. الغرض من هذه البشاعة الفائقة غير الشرعية، شيدت بتأييد أمريكي حاسم وتواطؤ أوروبي، في السماح لإسرائيل أن تستولي على أرض فلسطينية نفيسة وعلى المصادر المائية الرئيسية في المنطقة، جزء واحد من مشروع ضم أكبر. اعترفت السلطات الإسرائيلية العليا منذ البدء أن هذه البرامج كانت في انتهاك مباشر للقانون الدولي لكن كما علق وزير الدفاع (موشيه ديان) في آخر عام ١٩٦٧ «المستوطنون الإسرائيليون في الأراضي المحتلة يتنافى كما هو معروف مع الاتفاقيات الدولية، لكن ليس هناك أي جديد في ذلك». لهذا يمكن إهمال القضية - طالما أن المهيمن الكوكبي يقدم غطاءاً دبلوماسياً والدعم المطلوب المادي والإيديولوجي.

منظور آخر على احتفالات ٢٠٠٩ قدمه العالم البارز المدافع عن «ترقية الديمقراطية» (توماس كاروثرز) الذي كتب من وجهة نظر المطلع، كونه خدم في هذه البرامج خلال إدارة ريغان. بعد مراجعة

السجل استنتج كاروثرز بحزن أن كل قادة الولايات المتحدة كانوا يؤيدون الديمقراطية «بشكل انفصامي» إن وفقط تطابقت مع الأهداف الإستراتيجية والاقتصادية: في الدول التابعة للسوفييت لكن ليس في الدول العميلة للولايات المتحدة.

الأحكام كانت مثبتة ومؤكدة بشكل مثير في ثمانينيات القرن العشرين. سقوط جدار برلين جرى الاحتفال به بحق في الأسابيع الأخيرة لكن كان هناك اهتمام صغير لما حدث بعد أسبوع واحد، في ١٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٩ في السلفادور: اغتيال وحشي لستة مثقفين بارزين أمريكيين لاتينيين، قساوسة يسوعيون مع مدبرة منزلهم (جوليا ايلبا) وابنتها (سيلين)، من قبل كتيبة النخبة (اتلاكاتل)، التي سُلحت ودُربت من قبل واشنطن. عادت الكتيبة لتوها من دورة منعشة مدتها عدة شهور في (كلية جيه إف كي الحربية الخاصة في فورت براغ)، وقبلها بأيام قليلة شارك القتلة في تمرين تدريبي آخر أجرته قوات خاصة أمريكية طارت إلى السلفادور. رُحِّبَ كـ«أفضل ما في السلفادور»، تركت الكتيبة التي رحب بها بأنها «الأفضل في السلفادور» قافلة دامية من الضحايا المعتادين أثناء العقد المريع في الثمانينيات، الذي افتتح باغتيال رئيس الأساقفة (أوسكار روميرو)، «صوت الذين لا صوت لهم» بنفس الأيدي. القصة كانت مشابهة في كل أمريكا الوسطى، ترك مئات الآلاف من الجثث وبؤس عام، خلال حكم التعذيب والقتل والتدمير الذي قادته إدارة ريغان تحت قناع الحرب على الإرهاب.

خُمِّنَ في ذلك الوقت أن قتل اليسوعيين خططه القائد الأعلى لجيش السلفادور. أُثبت ذلك منذ أسبوعين بنشره في الصحافة الإسبانية لنسخة من الوثيقة التي تَـأْمُرُ بالقتل بدون شهود، وَقَّعَها رئيس الأركان ومساعديه، كلهم مرتبطون بقوة في البنتاغون والسفارة لذلك من الصعب تخيل أن واشنطن كانت جاهلة. الاكتشافات المثيرة سيتم نقلها بعد.

يستطيع المرء أن يفهم بسهولة لماذا تشكل الوعي بـ«التسعات» بواسطة الإخلاص للأعنف وقوة المثالية. ذلك سليم، إذا وجه الاهتمام بشكل صارم بواسطة ثقافة الإمبريالية: ركزوا على جرائمهم مع إزاحة جرائمنا بعيداً عن الرؤية أو الذاكرة.

التباين خلال ثمانينيات القرن العشرين بين تحرير الدول التابعة للسوفييت والسحق العنيف للأمل في المقاطعات الخاضعة للولايات المتحدة لافت، لكنه يكون أكثر دائماً حين نوسع المنظور. اغتيال المثقفين اليسوعيين كان صفعة ماحقة للاهوت التحرري، الانبعاث اللافت للمسيحية الذي له جذوره الحديثة في مبادرات البابا جون الثالث والعشرين والفاتيكان الثاني، الذي افتتح في عام ١٩٦٢، حدث «دخل في عهد جديد في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية» في كلمات عالم اللاهوت الشهير (هانس كينغ). ملهمين بالفاتيكان الثاني، الأساقفة الأمريكيون اللاتينيون تبنوا «الخيار التفضيلي لصالح الفقراء» مجددين السلمية الراديكالية للأناجيل التي رقدت حين شَرَعَ الإمبراطور قسطنطين المسيحية كدين للإمبراطورية الرومانية - مدشناً «ثورة» حولت في أقل من قرن معتقد «الكنيسة المضطهَدة» إلى «كنيسة مضطهدة». في محاولة مابعد الفاتيكان الثاني لإنعاش مسيحية ماقبل الفترة الرومانية أخذ الرهبان والراهبات رسائل الأناجيل إلى الفقراء والمضطهدين وجلبوهم معاً في «جماعات قاعدية» وشجعوهم أن يأخذوا قدرهم بأيديهم ويعملون معاً لقهر البؤس والبقاء في الممالك الشريرة من القوة الأمريكية.

رد الفعل على هذه الهرطقة الخطيرة لم يتأخر في المجيء. في عام ١٩٦٤انقلاب عسكري أرست أسسه إدارة كندي، وطد دولة وطنية أمنية في البرازيل، مطيحاً بحكومة ديمقراطية اشتراكية معتدلة ومؤسساً لحكم التعذيب والعنف - «النصر الأشد حسماً للحرية في أواسط القرن العشرين» كما هلل سفير كندي - جونسون، (لينكولن غوردون) وأضاف

أن «القوى الديمقراطية» التي تتولى القيادة الآن يجب «أن تخلق جواً محسناً جداً لاستثمار الأموال الخاصة» تردد صدى كلمات غوردون منذ أيام قليلة حين وصف سفير أوباما إلى الهندوراس الانتخابات تحت نظام الحكم العسكري «احتفال مهيب بالديمقراطية»، بينما أخبرت وزارة الخارجية الصحافة أن «القضية ليست من الذي سيكون الرئيس القادم........ الشعب الهندوراسي سيقرر ذلك» الذين سيمارسون خيارهم بين اثنين من مؤيدي الانقلاب العسكري الذي طرد الرئيس المنتخب. كما كان يحدث في الماضي غالباً، الولايات المتحدة عزلت نفسها من كل أمريكا اللاتينية تقريباً وحتى عن أوروبا، في هذا الفعل الصفيق من الاحتقار للديمقراطية وحقوق الإنسان.

في أثر الانقلاب البرازيلي لعام ١٩٦٤انتشر وباء رهيب من الكبت عبر نصف الكرة الأرضية شمل ١١ سبتمبر (ناين اليفن) الأولى في تشيلي – التي كانت بكل المعايير أقسى من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ – ووصل أخيراً القتلة والمعذبون في الأرجنتين المفضلون عند ريغان، إلى أميركا الوسطى خلال ثمانينيات القرن العشرين. في حلقة الإرهاب والذبح، كان أصحاب اللاهوت التحرري هدفاً أولياً ومن بينهم شهداء الكنيسة الذين يحتفلون بالذكرى العشرين لإعدامهم الآن في صمت مدوٍ نادراً ما يقطع، ناسين تماماً (جوليا ايلبا وسيلينا) أما الناجي الوحيد من المذبحة الراهب (جون سوبرينو)، فيذكرنا أنهم «كانوا رموزاً» للجماهير المعذبة في السلفادور والعالم.

كان هناك جدل كثير حول من الذي يستحق الفضل في سقوط الجدار. كان أيضاً موضوع لقاء حديث للرؤساء الثلاث المعنيين بالأمر بشكل مباشر. ختم اللقاء الألماني (هيلموت كوهل) قائلاً «بت أعرف الآن كيف ساعدنا الرب» وأطرى جورج اتش دبليو بوش بسخاء على شعب ألمانيا الشرقية الذي «حرم طويلاً جداً من حقوقه التي منحها له

الـرب» أمـا غورباتـشيف فنـصح أن الولايـات المتحـدة تحتـاج إلى بيريسترويكا خاصة بها.

ليس هناك شكوك كثيرة حول تدمير محاولة إنعاش كنيسة الأناجيل. كلية الأمريكيتين (منذ أن أعيدت تسميتها) التي اشتهرت بتدريب القتلة الأمـريكيين اللاتينـيين، أعلنـت بفخـر كواحـدة مـن «نقـاط حـديثها» أن اللاهوت التحرري دحر بمساعدة جيش الولايات المتحدة - بالتحديد يد العون، ليضمن للفاتيكان، استخدام وسائل ألطف من الطرد والقمع.

الحملة اللاذعة لنقض الهرطقة حَرَّكَها الفاتيكان الثاني قوبلت بتعبير أدبي لا يضاهى في حكاية ديستوفسكي الرمزية المفتش الجليل. في هـذه الحكايـة، الـتي حـدثت في سـيفيلي في «أفظـع زمـن مـن التفتـيش» ظهـر يسوع المسيح في الشوارع فجأة، «بهدوء، دون أن يلحظ، ولكن من الغريـب القول، أن الكل عرفوه» و«انجذبوا إليه بـشكل لا يقـاوم». المفـتش الجليـل، الـذي أدرك الخطـر المميـت، «أمـرَ الحـراس: خـذوه وغيبـوه» إلى الـسجن حيث الرجل العجوز الـذي يتهم المـسيح بـأن قدومـه «أعاقنـا» عـن عملنـا العظـيم في تـدمير الأفكـار التخريبيـة في الحريـة والتـشارك. أمـا المفـتش فحـذر يـسوع «نحـن أخـذنا سـيف القيـصر ونتبعـه هـو ولـيس أنـت. نحـن نـسعى لنكـون حكـام الأرض لكـي نُعَلِّمْ «الجمـاهير الـضعيفة والخسيـسة» أنهم لن يصبحوا أحراراً إلا حين يتخلون عن حريتهم لنـا ويخـضعون لنـا، بعـدها يكونـون رعديـدين ومرعـوبين وسـعداء. لهـذا غـداً «أنـا يجـب أن أحرقك» وأضع نهاية لأسـاليبك الـشريرة. لكـن أخيراً رق الرجـل العجـوز وتركه يخرج إلى أزقة البلدة المظلمة. وانصرف السجان».

تلاميذ فورت براغ تعلموا درساً أقسى.

في عام ١٩٧٧، ألقى القس اليسوعي المحترم جداً (روتيلـو غرانـدي) خطبة في السلفادور عن مخاوفه أن «الكتاب المقدس والإنجيل لن يُسمح بهمـا ضـمن بلادنـا. سـننال الأغلفـة ولاشـيء غيرهـا، لأن كـل صـفحاته

مخربة...... وأخشى يا أخوتي، إن عاد يسوع الناصرة...... سيلقون القبض عليه. وسيأخذونه إلى المحاكم ويتهمونه بكونه غير دستوري ومخرّب». كانت بصيرته السياسية صحيحة ودقيقة. بعد بضعة أسابيع تم اغتياله، مرة أخرى بنفس الأيدي عينها.

الحدثان - انهيار الحكم الاستبدادي الروسي وتخريب الوسائل الشريرة للأناجيل - ترابطا بشكل رمزي حين جاء بطل (فاكلاف هافل)، إلى واشنطن عام ١٩٨٩ بعد اغتيال نظراءه السلفادوريين بوقت قصير، استقبل بتصفيق مدوي حين أثنى على الولايات المتحدة بـ«المدافعة عن الحرية» سلب لب الطبقات المثقفة. في أقصى الجانب المنشق، رحب انثوني لويس بهافل وشكره لأنه علمنا «أننا نعيش في عصر رومانتيكي». أما الواشنطن بوست فوصفت رسالة هافل بـ«صوت الضمير» الذي يتكلم «بشكل فارض عن المسؤوليات التي تدين بها القوى الكبرى والصغرى لبعضها البعض». بينما تساءل آخرون «لماذا لا يرتقي المثقفون الأمريكيون إلى هذه القمم الرفيعة».

يمكن للمرء أن يتخيل ردود الأفعال لو كانت الظروف معكوسة - تجربة فكرة يمكن أن تعلمنا الكثير عن أنفسنا.

دعونا نعود إلى المسار الثاني، السياسة. كيف سيكون رد فعل صناع السياسة على سقوط الجدار، باستهلال اللحظة أحادية القطب؟

بعد بضعة أسابيع، غزت الولايات المتحدة بناما وكان الغرض خطف سفاح قاصر جلب إلى فلوريدا ليحاكم على جرائم ارتكبها، أغلبها حين كان على جدول رواتب السي آي إيه لكنه تحول من صديق يحظى بالتقدير إلى شيطان شرير بتوريطه في دعم حروب ريغان الإرهابية في نيكاراغوا وفَنَّدَت الذريعة الرسمية بسهولة على الفور. قتل الغزو مئات كثيرة من الشعب الفقير حسب محققي حقوق الإنسان البنامية. ليست هناك مصادر رسمية أمريكية: «نحن لا نجري إحصاءات جسدية» كما

قال الجنرال (تومي فرانكس)، فاتح العراق. أعاد الغزو حكم الصيرفيين وتجار المخدرات المرتبطين بالولايات المتحدة. إحياء ذكراهم بيوم حداد - في بناماز لم يكن أكثر من هامش تاريخي لكن له بعض الملامح الجديدة التي شرح أحدها موظف سابق رفيع المستوى في وزارة الخارجية (ايليوت ابرامز)، الذي أشار أنها المرة الأولى التي استطاعت فيها الولايات المتحدة أن تتدخل بدون قلق من رد فعل روسي في مكان ما من العالم كما أطنب معلقون آخرون بارزون بالشرح، مع ذهاب الردع السوفييتي، ستكون الولايات المتحدة أكثر حرية في اللجوء إلى القوة والعنف والتدمير لتحقيق أهدافها العالمية أما الملمح الجديد الآخر أن غزو بناما لم يوجه بشكل انعكاسي للخطر الشيوعي لذلك كانت هناك الحاجة إلى ذريعة جديدة وتوفرت بسرعة: تهديد تجار اللؤلؤ اللاتينيين الساعين إلى تدمير الولايات المتحدة. إن «حرب المخدرات» أعلنها ريتشارد نيكسون - سأضعها جانباً لأسباب مشوقة - لكنها أخذت دوراً جديداً حين بزغت اللحظة الأحادية القطب.

اعتبارات مماثلة وجهت الصيغة العامة للسياسة بعد انهيار ال«المؤامرة القاسية الهائلة» الهادفة إلى فتح العالم، لنستعر عبارة جي اف كي. خلال أشهر، رسمت واشنطن خطوط نهجها الجديد: باختصار، كل شيء سيبقى على حاله السابق، لكن بذرائع جديدة. لا نزال نحتاج إلى منظومة عسكرية ضخمة لكن لأسباب جديدة: «المعرفة المتطورة المعقدة التكنولوجية» لقوى العالم الثالث. يجب علينا أن نحافظ على «القاعدة الصناعية الدفاعية» - عبارة ملطفة عن صناعة التقنية العالية التي تدعمها الدولة. يجب أن نبقي قوى التدخل موجهة إلى مناطق النفط في الشرق الأوسط - حيث التهديدات الهامة لمصالحنا «لا يمكن أن تترك عند أبواب الكرملين» نقضاً لعقود من الخداع. هذا كله وأكثر بكثير مثله مر بهدوء ولم يتم الإبلاغ عنه إلا نادراً. لكن بالنسبة لهؤلاء الذين يأملون في فهم العالم هذا مثقف ومتنور تماماً.

كعذر للتدخل، «الحرب على المخدرات» كانت ضيقة جداً لذلك كانت هناك حاجة إلى مهمة كاسحة جداً توجه إليها المجتمع الثقافي بسرعة وأعلن عن «ثورة معيارية» منحت الولايات المتحدة حق التدخل الإنساني، كما تختار ولأنبل الأسباب بالتعريف أما الضحايا التقليديون فلم يبالوا بهذا القول الملطف. أدان قادة الجنوب بشدة في مؤتمراتهم ما أسموه «الحق المزعوم في التدخل الإنساني» وأيد هذا الموقف هيئة عالية المستوى في الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٤ مع شخصيات غربية هامة مشاركة، من بينهم مستشار الأمن القومي السابق (برينت سكاوكروفت) والدبلوماسي الاسترالي البارز (غاريث ايفانز).

لذلك أضحت التنقية ضرورية، ومرة أخرى، هبت الطبقات المثقفة للمناسبة، مبتكرة مبدأ جديداً، «مسؤولية الحماية» المعروفة بشكل غير رسمي بـ(آر تو بي) التي أضحت الآن موضوعاً لأدب مهم ومؤتمرات كثيرة ومنظمات جديدة وصحف وكثير من الإطراء. الإطراء مبرر على الأقل في مجال واحد. يمكننا أن نقرأ رد غاندي على سؤال عن رأيه بالحضارة الغربية. زعم أنه قال «ستكون فكرة جيدة» ونفس الشيء يمكن أن يقال عن (آر تو بي). ستكون فكرة جيدة.

على ذلك الكثير يجب أن يوافق الكل. لكن المشاكل المعتادة تظهر. ما هي (آر تو بي) ومتى تطبق؟

عن السؤال الأول - ما هي (آر تو بي) - هناك روايتان، كلاهما كونفليتد في الغرب. الأولى أعطيت أسلوباً رسمياً في القمة العالمية للأمم المتحدة في عام ٢٠٠٥. وتمت صياغة موقف مختلف جداً وجرى توضيحه في الوثيقة المؤسسة لـ(آر تو بي) وتقرير اللجنة الدولية في عام ٢٠٠١ التي كان الناطق باسمها الشخصية البارزة (غاريث ايفانز).

تبنت الأمم المتحدة مواقف المؤتمر الدولي المكررة مسبقاً وبتركيز أكثر حدة في غالبها. تبنى المؤتمر الموقف المصر للمحكمة العالمية والجنوب

العالمي وهيئة الأمم المتحدة الرفيعة المستوى بأن العمل القوي لا يمكن تنفيذه إلا تحت تخويل من مجلس الأمن، مع استثناء غير متصل بالموضوع، منح الاتحاد الأفريقي حقاً مؤهلاً للتدخل ضمن الاتحاد الأفريقي نفسه. إن تعمم هذا الاستثناء، ستكون العواقب مثيرة. مثلاً، ستخول بلدان أميركا اللاتينية في تنفيذ إرهاب واسع النطاق في الولايات المتحدة لحماية ضحايا عنف الولايات المتحدة في نصف الكرة الأرضية. الاستنتاج فوري لكنه لم يسحب. يمكننا وضع استثناء الاتحاد الأفريقي جانباً، لكنه يُقدم بشكل عادي من قبل مؤيدي (آر تو بي) ليبينوا أن حق التدخل ليس أداة إمبريالية وإنما هو متجذر في الجنوب - كما كان في رواية المؤتمر العالمي لـ(آر تو بي).

تختلف الرواية الثانية لـ(آر تو بي)، من تقرير ايفانز عن بيان القمة بشكل أساسي. ففي فقرتها الهامة، تخول اللجنة «العمل ضمن منطقة نطاق سلطتها لمنظمات إقليمية أو تحت إقليمية.... خاضعة لتخويلها اللاحق الملتمس من مجلس الأمن».

هذه الفقرة ابتدعت بوضوح لتطبق بشكل ارتجاعي على قصف صربيا الذي رفضه بقوة الجنوب العالمي وهيئة الأمم المتحدة السامية ورواية قمة العالم لـ(آر تو بي). الفقرة الشرطية من لجنة ايفانز تخول بشكل فعال (القوي) في استخدام القوة متى شاء ذلك. السبب واضح: القوي يقرر من جانب واحد «منطقته الخاضعة لسلطته» لا تستطيع (أو ايه اس - منظمة الدول الأمريكية - المترجم) والاتحاد الأفريقي فعل ذلك لكن الناتو يستطيع، وقد فعل. قرر الناتو أن «منطقة سلطته» تشمل البلقان - لكن ليس الناتو نفسه، بل قائد العالم الحر الذي بسبب دعمه العسكري الحاسم ترتكب الجرائم الصادمة ضد الأكراد في جنوب شرق تركيا خلال تسعينيات القرن العشرين. قرر الناتو لاحقاً أن «منطقة سلطته» تمتد إلى أفغانستان بل أبعد من ذلك لتشمل حماية

أنابيب النفط والطرق البحرية وغيرها من «البنية التحتية الحاسمة»، لأنظمة الطاقة التي يتكل عليها الغرب. تمارس الحقوق المتمددة التي منحتها لجنة ايفانز حصرياً من قبل الناتو لوحده، منتهكاً بشكل خطير المبادئ التي تبنتها القمة العالمية. لقد فتح هذا الوضوح الباب على مصراعيه إلى اللجوء إلى (آر تو بي) كسلاح من التدخل الإمبريالي في الوقت الذي يشاء.

دعونا نرجع إلى السؤال الثاني: كيف يطبق (آر تو بي) عملياً؟ الجواب لن يفاجئ أحد له أقل ألفة مع التاريخ أو فهم أولي لتركيب القوة. لن أشرح التطبيق الانتقائي جداً لكن تأملوا هذه الأمثلة فقط. ليس هناك أي فكرة في تكريس قروش لحماية الأعداد الهائلة من المحتضرين من الجوع أو نقص الرعاية الصحية، بمستوى أعلى من رواندا بكثير وسط الأطفال وحدهم يومياً وليس لمدة مئة يوم فالحماية تمنع عن السكان المحميين ومن بينهم ضحايا الهجمات الإسرائيلية الأمريكية في غزة، الذين يعتبرون أشخاصاً محميين تحت اتفاقيات جنيف وكذلك الضحايا الذين هم مسؤولية مباشرة لمجلس الأمن أيضاً عاجزين عن اللجوء إلى الـ(آر تو بي)، مثلاً، شجب خضوع العراقيين لعقوبات كلينتون الإجرامية، كـ«إبادة جماعية» من قبل مدراء برامج الأمم المتحدة، الدبلوماسيان الدوليان المحترمان (دينيس هاليدي) و(هانس فون سبونيك) اللذان استقالا بالتتالي من أجل ذلك السبب أو ضحايا أسوأ المذابح في السنوات الأخيرة، في الكونغو الشرقية حيث لا يشك سوى المتشائم بأن الإهمال له علاقة بحقيقة أن أسوأ المذنبين حليفة الولايات المتحدة رواندا وأن المتعددين الجنسية يربحون المال من سرقة ثروات المنطقة الغنية مع مساعدة حاسمة من الميليشات التي تمزق المكان إلى قطع صغيرة. وهكذا كما يتوقع المنطق تماماً.

عودة إلى فجر اللحظة الأحادية القطب، سؤال أخير يأتي إلى المقدمة في الحال وهو مصير الناتو الذي كان مبرره التقليدي الدفاع ضد الحشود الروسية ومع زوال الاتحاد السوفييتي، تبخرت الذريعة وتوقعت أرواح ساذجة، آمنت في مبدأ مسيطر، بوجوب اختفاءه أيضاً لكنه على العكس تماماً توسع بسرعة إلى الشرق في انتهاك للضمانات التي قُدمت لغورباتشيف وكما ذكرت للتو. لقد توسع إلى قوة تدخل دولية تحت إمرة الولايات المتحدة وكان أحد الدوافع، كما يفترض منع أوروبا من سلوك مسار مستقل، ربما على خطوط ديغولية، وهذا يسبب قلقاً أساسياً لمخططي الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية.

بشكل أعم، السياسات خلال اللحظة الأحادية القطب وإلى الوقت الحاضر التزمت بشدة بالخطوط الهادية التي ابتكرها مخططو (إف دي آر) خلال الحرب العالمية الثانية الذين أدركوا أن الولايات المتحدة ستنبثق قوة عالمية مسيطرة، تحل محل بريطانية وبناءاً عليه، طوروا خططاً للولايات المتحدة كي تمارس السيطرة على حصة هامة من الكوكب. هذه «المنطقة الكبرى» كما سموها، كانت ستشمل نصف الكرة الأرضية الغربي على الأقل والإمبراطورية البريطانية والشرق الأقصى. في المنطقة الكبرى الولايات المتحدة ستحتفظ «سلطة غير مقيدة» وسوف تعمل على ضمان «تقييد أي ممارسة للسيادة» من قبل الدول التي قد تتدخل معنا بـ«بتفوقها العسكري والاقتصادي». لاحظوا الشبه بمبدأ بوش الذي أثار رأياً واضحاً بعد ستين عام. مراجعة فترة التدخل تكشف أن المبادئ التي سادت فيها لا تزال نفسها حتى الآن.

إيضاح جيد هز سلف بوش المباشر، بيل كلينتون الذي اعْتُبِرَ وسطياً معتدلاً أشبه بطراز أوباما. تحت إدارة كلينتون، احتفظت الولايات المتحدة رسمياً بحق العمل «بشكل أحادي حين الضرورة» الذي يشمل «استخدام أحادي الجانب للقوة العسكرية» لضمان «مدخل غير مقيد للأسواق

الرئيسية وإمدادات الطاقة والموارد الإستراتيجية»، بدون حتى ذريعة الدفاع عن النفس التي ألح عليها مخادعو بوش الجدد ولم يستنبط مبدأ كلينتون أي إدانة على خلاف تصريحات إدارة بوش المتغطرسة والمزدرية. وبحق، تكررت مواقف قديمة وقُدمت بكبت مهذب.

في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، ظن المخططون أن ألمانيا قد تنتصر في أوروبا، لكن حين هزمت روسيا الفيرماخت (القوات المسلحة الألمانية - المترجم)، أصبحت الرؤية أكثر شمولية: كانت المنطقة الكبرى ستدمج أكبر قدر ممكن من أوراسيا، على الأقل أوروبا الغربية، قلبها القاري وطُورت خطط مفصلة للنظام العالمي نفذت عاجلاً وحُدد لكل منطقة «وظيفتها» في النظام العالمي الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة وهكذا كانت جنوب شرق أسيا لـ«تكمل وظيفتها الرئيسية كمصدر للمواد الأولية لليابان وأوروبا الغربية» تحت درع الولايات المتحدة وحدد للجنوب عموماً دور خدماتي: أن يقدم الموارد والعمل الرخيص والأسواق وفرص الاستثمار ومؤخراً خدمات أخرى، مثل تصدير التلوث والنفايات.

في ذلك الوقت لم تكن الولايات المتحدة مهتمة بأفريقيا، لهذا سلمت لأوروبا «لاستغلالها» من أجل إعادة البناء من دمار زمن الحرب - التعبير (لجورج كينان). يمكن للمرء أن يتخيل علاقات مختلفة بين أوروبا وأفريقيا في ضوء التاريخ لكن هذه لم تأخذ في الاعتبار. على العكس، احتياطات نفط الشرق الأوسط قدرت لتكون «مصدر مذهل للقدرة الإستراتيجية» و«أحد أعظم الجوائز المادية في تاريخ العالم»، «أهم منطقة استراتيجياً في العالم» في كلمات إيزنهاور. السيطرة على نفط الشرق الأوسط سيزود الولايات المتحدة بـ«سيطرة جوهرية على العالم» هذا ما أدركه المخططون. المبدأ يظل سارياً وفعالاً.

فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية، استنتج مخططو مابعد الحرب أن الخطر الأولي لمصالح الولايات المتحدة تفرضه «أنظمة حكم وطنية راديكالية مغرية لجماهير السكان» تسعى لتلبية «المطلب الشعبي بتحسين فوري لمستويات معيشة الجماهير» وتحسين للحاجات المنزلية. هذه الميول تتعارض مع الطلب من أجل «مناخ سياسي واقتصادي يفي إلى الاستثمار الخاص» مع توزيع للأرباح و«حماية موادنا الخام». قسم كبير من التاريخ اللاحق ينبع من هذه الأفكار.

استمر تأييد الديكتاتوريات القاسية بلا تغيير. حين شرع الرئيس أوباما لإلقاء خطابه الذي نال ثناءاً كبيراً في القاهرة، أسرع شارحاً أنه لا يعتبر الرئيس المصري حسني مبارك زعيماً استبدادياً. «أنا لا أميل إلى استخدام اللصاقات المميزة على الأقوام» قال أوباما؛ حين سئل؛ حين يستخدم قائد سياسي كلمة «أقوام» يجب أن نتحضر لما يليها. أوباما ملزم، بالثناء على الديكتاتور المصري كـ«قوة من أجل الاستقرار والفائدة» في الشرق الأوسط. كما في الماضي، دعم من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان أيضاً. التقيد بالنموذج الذي كشفه الباحثون بشكل متكرر المترابط بقوة مع الأهداف الإستراتيجية والاقتصادية.

عجب قليل أن قلة خارج الولايات المتحدة تستطيع اعتبار تهم الولايات المتحدة لإيران بشكل جدي، ليس فقط القلق المزعوم حول حقوق الإنسان بل أيضاً التهم الأساسية: إن إيران تخفي شيئاً عن وكالة الطاقة الذرية الدولية كشيء لا شك فيه. آخرون لا يخفون أي شيء إطلاقاً، مثلاً، البلدان الثلاث التي لم توقع أبداً على معاهدة عدم الانتشار - الهند وباكستان وإسرائيل، كلها اعتمدت على دعم الولايات المتحدة من أجل برامجها النووية.

في ذروة الغضب الحديث من إيران، أعلنت الهند أنها «تستطيع الآن بناء مفاعلات نووية بنفس القوة التدميرية كتلك التي في ترسانات

المفاعلات النووية الرئيسة العالمية» بنفس الوقت، وكالة الطاقة الذرية العالمية مررت قراراً يدعو إسرائيل للانضمام إلى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية وإلى فتح منشآتها للتفتيش. حاولت الولايات المتحدة وأوروبا أن تسد القرار وحين فشلتا صوتتا ضده. لقد مر على كل حال. طمأن البيت الابيض أيضاً حليفته الهند أنها تستيطع رفض القرار كما طمأنها (الهند) أيضاً أنها تستطيع تجاهل قرارات مجلس الأمن حول الأسلحة النووية، أحدثها القرار ١٨٨٧ في ٢٤ أيلول / سبتمبر.

رد أوباما على القرار ١٨٨٧ بطريقة مختلفة أيضاً. بعد يومين كوفئ بجائزة نوبل لالتزامه الخلاق بالسلام، أعلن البنتاغون أنه كان يُسَرِّع تسليم أشد الأسلحة الميتة فتكاً للترسانة عدا عن الأسلحة النووية، قنابل — ١٣ طن سوف تحمل بقاذفات بي ٥٢ وستيلث المصممة لتدمير المستودعات تحت الأرض المخفية عميقاً المحصنة بعشرة آلاف رطل من الإسمنت المقوى. ليس هناك سر عن ماهيتها. التخطيط لمثل هذه «المعدات الحربية الخارقة الضخمة» بدأ في سنوات بوش لكنها فترت حتى دعا أوباما إلى تطويرها بسرعة حين فاز بالمنصب.

التعليقات طبعاً نادراً ماتخدش سطح تشكيل السياسة وتنفيذها أثناء اللحظة الأحادية القطب. عنصر هام واحد هو استمرار التخطيط والتفسير منذ الحرب العالمية الثانية، حين تحملت الولايات المتحدة المسؤولية التي وصفت ببلاغة من قبل ونستون تشرشل: مسؤولية حماية مصالح «الأمم الراضية والقانعة» التي قوتها تضعنا «فوق البقية»، «الرجال الأغنياء يقيمون بسلام ضمن أماكن إقاماتهم» الذين «يجب أن يُعهد بحكومات العالم لهم» الآن تحت يد واشنطن المرشدة. هذا يبقى المعنى الفعال للعبارة الأنيقة الحديثة «مسؤولية الحماية».

حرية التعبير

نص المحاضرة التي ألقاها تشومسكي في
مؤتمر حرية التعبير في اسطنبول
١٠ نيسان / أبريل ٢٠١٠

في ملاحظات موجزة، افتتاحية هذا الصباح ذَكَرت الحقيقة الحاسمة أن الحقوق لا تُمنح عادة وإنما تُنتزع بواسطة صراع شعبي مطلع ومخلص وهذا يشمل المبدأ الجوهري لحرية التعبير. التسليم بهذه الحقيقة يجب، باعتقادي، أن يؤخذ كمُرشد حين نفكر كيف يمكننا البدء والتقدم على جبهات كثيرة: في صد الموجات الراهنة من الكبت في العالم كله وفي الدفع قدماً بالمكاسب التي تحققت وتتعرض للهجوم الآن وفي الأسلوب الحالم جداً الذي اقترحه منظمو المؤتمر والتفكير بالآفاق التي تنتظر والتي لاتزال فجراً بعيداً جداً تتوطد فيه معايير مناسبة وحقيقية للدفاع عن حرية التعبير التي بمجرد أن تُوَطَّد تُراعى وتُطاع.

وذكرت أيضاً أن الولايات المتحدة وتركيا رغم اختلافهما في نواح كثيرة، قدمتا صوراً توضيحية تنويرية شفافة للأساليب التي تنتزع بها الحقوق التي تصان بمجرد أن تنتزع. فيما يتعلق بالولايات المتحدة، يُعتقد على نطاق مشترك وعام أن حرية التعبير يضمنها التعديل امندمينت الأول للدستور منذ أكثر من قرنين. هذا صحيح لكن لدرجة محدودة جداً، أولاً بسبب صياغته والأهم لأن القانون المطبق هو الذي تقرره المحاكم والذي يستعد الشعب الدفاع عنه. سأعود إلى هذا غداً لكن أود أن أشير الآن بأن ذلك لم يتحقق إلا في ستينيات القرن العشرين حين أخذت المحاكم الأمريكية موقفاً قوياً لحماية حرية التعبير. فعلت هذا تحت ضغط حركة الحقوق المدنية وفعاليات أخرى في جبهة واسعة. وبانحدار الفعاليات تآكلت الحقوق كما نسمع اليوم، موضوع آخر أود العودة إليه غداً.

حقائق كهذه تطرح سؤالاً حول حرية التعبير يظهر حين نتأمل الأهداف البعيدة. السؤال الذي في ذهني ليس جديداً بالمطلق. الشخص الذي طرحه كان جورج اورويل، الذي اشتهر أكثر بمقالاته الناقدة للأعداء الشموليين الاستبداديين، لكنه لم يكن أقل حدة في التطرق إلى أمراض مجتمعه الخاص به. مثال واحد وثيق الصلة مقال عن ما سمي «الرقابة الأدبية في إنكلترا» كتب المقال كمقدمة لروايته مزرعة الحيوان، هجائه الساخر والشديد لجرائم الستالينية. في هذا المقال الاستهلالي اوريل يرشد جمهوره من البريطانيين أن لا يشعروا بالرضا الذاتي الزائد عن استقامتهم الأخلاقية حول هذا الفضح لجرائم الستالينية. في إنكلترا الحرة، كتب، يمكن إخماد الأفكار بدون استخدام للقوة. ويعطي بعض الأمثلة، وبضع جمل تفسيرية لكنها تجسد حقائقاً هامة. «الحقيقة المشؤومة عن الرقابة الأدبية في إنكلترا»، كتب اورويل، «إنها إرادية بشكل واسع. الأفكار غير المقبولة يمكن أن تسكت، والحقائق المزعجة تبقى غامضة وخفية، بدون أي حاجة إلى حظر رسمي» السبب الأول هو تركز الصحافة بأيدي «الرجال الأثرياء الذين لديهم كل الدوافع ليكونوا مضللين في مواضيع هامة معينة». والسبب الآخر، تربية جيدة وتعميد في الثقافة الفكرية المهيمنة، التي تغرس فينا قطرة قطرة واتفاق ضمني عام بأنه لا يصح أن نذكر تلك الحقيقة الخاصة بعينها.

المقال الاستهلالي ليس مشهوراً، بعكس الكتاب نفسه الذي هو عبارة عن إدانة موجعة للحكم السوفييتي الاستبدادي الذي اشتهر وقرأ في كل مكان. السبب بأنه لم يُنشر، ربما يُثبت فرضيته عن الرقابة الأدبية في إنكلترا الحرة. وُجد بعد سنين كثيرة بين كتاباته التي لم تُنشر. القصد الأساسي أنه حتى في زمن مستقبلي ما حين تتوطد الحقوق وتراعى الحقوق التي على الورق (النظرية) تظهر أسئلة جديدة وحاسمة.

نظرية تاريخية صغيرة مفيدة في هذا السياق. منذ قرن، في أكثر المجتمعات تحرراً أصبح من الصعب ضبط السكان بواسطة القوة. فقد

تشكلت النقابات العمالية والأحزاب النيابية العمالية وتوسع الحق الانتخابي - الدستوري وتعزز وكانت الحركات الشعبية تقاوم السلطة الاستبدادية، ليس للمرة الأولى بالتأكيد ولكن مع قادة أوسع ونجاح أعظم. أصبحت القطاعات المهيمنة في أكثر المجتمعات تحرراً، إنكلترا والولايات المتحدة، تدرك أنها كي تحافظ على سيطرتها، عليها أن تنتقل من القوة وتلجأ إلى وسيلة أخرى، أولاً وقبل كل شيء التحكم بالمواقف والآراء وضبطها. دعا المفكرون البارزون إلى تطوير دعاية فعالة لفرضها على جماهير الرعاع «أوهام ضرورية» و«تبسيط مفرط قوي عاطفياً» وسيكون من الضروري، استنباط وسيلة لـ«لتصنيع الإجماع» لضمان أن يبقى «الدخلاء الجهلة والفضوليين» أي عموم السكان، «في مكانهم» كـ«متفرجين» وليسوا «مشاركين فاعلين» وبذلك المجموعة الصغيرة ذات الامتيازات من «الرجال الموثوقين» يكونوا قادرين على صياغة سياسة لا يعكرها «هياج ودوس أقدام القطيع المرتبك». أنا اقتبس من المفكرين التقدميين الشعبيين الأكثر احتراماً في الولايات المتحدة في القرن العشرين، ولتر ليبمان ورينهولد نيبور، كلاهما ليبراليان بالنسبة لويلسون وروزفلت وكندي والثاني فيلسوف أوباما المفضل.

بنفس الوقت كَرَّسَتْ صناعة العلاقات العامة الضخمة التي بدأت بالتطور لنفس الغايات. في كلمات قادتها، أيضاً من الطرف الليبرالي في الطيف رأوا أن هذه الصناعة يجب أن توجه عامة السكان إلى «الأشياء السطحية من الحياة مثل الاستهلاك الأنيق والحديث» لكي تكون «الأقلية الذكية» حرة في تحديد المنهج السياسي الصحيح والمناسب.

هذه المخاوف مستمرة. كانت الثورة الديمقراطية في ستينيات القرن العشرين مرعبة لرأي النخبة. دعا المفكرون من أوروبا والولايات المتحدة واليابان إلى إنهاء «الإفراط في الديمقراطية». يجب أن يعود السكان إلى اللامبالاة والسلبية وبشكل خاص يجب فرض عقوبات أقسى من قبل مؤسسات مسؤولة عن «تلقين المعرفة للصغار»: المدارس والجامعات

والكنائس. أنا اقتبس من طرف الطيف الليبرالي العالمي، هؤلاء الذين كانوا من هيئة إدارة كارتر في الولايات المتحدة ونظراءهم في كل مكان في الديمقراطيات الصناعية. أما اليمين فدعا إلى إجراءات أقسى. جهود هامة ورفيعة جرى التعهد بها لتقليل الخطر الديمقراطي مع درجة محدودة من النجاح. ونحن نعيش الآن في تلك الفترة.

التفكير بمثل هذه المسائل يجب أن يوصلنا إلى الإدراك أنه وراء المهمة الصعبة في توطيد حقوق التعبير الحر والدفاع عن المؤسسات الرسمية لهذه الحقوق تظل هناك قمم جبلية يجب تسلقها.

عودة إلى تركيا، المهمات العاجلة أصعب بكثير. منذ خمس سنوات، سُئِلْتُ أن أُقَدِّمَ تعليقاً لمؤتمر عن حرية التعبير هنا. أود أن أكرر ما قلته، والذي يبدو لي مهماً وإبقاءه في الذهن. تركيا لديها حصتها من انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان وتشمل جرائماً رئيسية. لا حاجة لي أن أتوسع في ذلك بعد نقاش اليوم. لكن لدى تركيا تقليد لافت في مقاومة هذه الجرائم. ذلك يتضمن، أولاً وبشكل رئيسي، الضحايا الذين رفضوا الاستسلام وواصلوا الصراع من أجل حقوقهم بشجاعة وإخلاص لا يمكنه إلا أن يثير الضعة وسط الناس الذين يتمتعون بالامتياز والأمن. لكن أكثر من ذلك تركيا لها مكان استثنائي وفريد في العالم - هذه الصراعات التي ارتبطت بكتاب بارزين وفنانين وصحفيين وناشرين وأكاديميين وغيرهم، الذين لم يحتجوا على جرائم الدولة فقط بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إلى أعمال متواصلة من المقاومة، خاطروا بحياتهم وأحياناً تحملوا عقاباً قاسياً. لا يوجد شيئاً كهذا في الغرب الآن.

حين أزور أوروبا وأسمع التهم المنافقة بأن تركيا لاتزال غير مهيأة بعد للانضمام إلى رفقة الاتحاد الأوروبي المستنيرة، أشعر دائماً وأقول أن العكس هو الصحيح وخصوصاً في الدفاع عن حرية التعبير ذلك السجل الذي تفخر به تركيا جداً والذي نستطيع تعلم الكثير منه.

«سوط الإرهاب البغيض الشرير»
الحقيقة والبنية والعلاج

ألقيت المحاضرة في جمعية ايريك فروم العالمية، شتوتغارت، ألمانيا
٢٣ آذار / مارس ٢٠١٠

حظي الرئيس بتبرير لم يعرف مثله حين أدان «سوط الإرهاب البغيض». أنا اقتبس رونالد ريغان الذي وصل إلى المنصب في ١٩٨١ معلناً أن سياسته الخارجية ستركز على الإرهاب العالمي الموجه من قبل الدول، «وباء العصر الحديث» و«عودة إلى البربرية في زمننا» إلى بعض اللغة الطنانة لإدارته. حين أعلن جورج دبليو بوش «الحرب على الإرهاب» بعد عشرين سنة من ذلك كان يعلن عن حقيقة هامة تستحق النبش من شق في ذاكرة اورويل إن كنا نأمل في فهم طبيعة السوط البغيض للإرهاب أو الأهم، إن كنا نأمل فهم أنفسنا. نحن لا نحتاج إلى نقوش دلفي لندرك عدم وجود واجب أهم منه. بوضع الشخصي جانباً، جلبت هذه الضرورة الملحة والحرجة الوطن إلى قبل ٧٠ سنة تقريباً في لقاءي الأول مع عمل ايريك فروم في مقاله الكلاسيكي حول الهروب إلى الحرية في العالم الحديث والسبل الكالحة التي أغرت الفرد الحر العصري على اختيارها في محاولة الفرار إلى العزلة المصاحبين للحرية المكتشفة حديثاً - مسائل وثيقة الصلة جداً بالموضوع في الوقت الحاضر لسوء الحظ.

إن أسباب إرسال حرب ريغان على الإرهاب إلى مستودع الوقائع غير المرغوبة مفهومة ومثقفة - عن أنفسنا. على الفور أصبحت حرب ريغان على الإرهاب حرباً إرهابية همجية، خلفت مئات الآلاف من الجثث المشوهة والمبتورة في خرائب أمريكا الوسطى وعشرات الآلاف الأخرى في الشرق الأوسط، كما قتل مليون ونصف شخص بإرهاب جنوب

أفريقيا المدعومة من إدارة ريغان في انتهاك لعقوبات الكونغرس. كل هذه الممارسات الإجرامية لديها ذرائع طبعاً. في الشرق الأوسط، فقد تأسس دعم ريغان الحاسم لغزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ الذي تسبب بمقتل من ١٥ إلى ٢٠ ألف شخص ودمر معظم جنوب لبنان وبيروت، على ذريعة الدفاع عن النفس ضد قصف منظمة التحرير الفلسطينية للجليل، تلفيق وقح: أدركت إسرائيل أن التهديد كان دبلوماسية منظمة التحرير التي كان يمكن أن تقوض غزو إسرائيل للأراضي المحتلة. في أفريقيا، برر الدعم لدولة الأبارتايد النهاية رسمياً ضمن إطار الحرب على الإرهاب: كان من الضروري حماية جنوب أفريقيا البيضاء من واحدة من «أردأ الجماعات الإرهابية سمعة»، «حزب المؤتمر الأفريقي» - حزب مانديلا، هكذا صممت واشنطن في عام ١٩٨٨. الذرائع في الحالات الأقرب ليست أقوى.

غالبية ضحايا الإرهاب الريغاني كانوا من المدنيين العزل لكن في حالة واحدة كانت دولة، نيكاراغوا التي استطاعت أن ترد عبر قنوات شرعية. أحضرت نيكاراغوا اتهاماتها إلى المحكمة العالمية التي أدانت الولايات المتحدة على «الاستخدام غير القانوني للقوة» - بمصطلح ضمني، إرهاب دولي - في هجماتها على نيكاراغوا من قواعدها في هندوراس، وأمرت الولايات المتحدة أن تنهي الهجوم وتدفع تعويضات مادية. النتيجة مثقفة.

رد الكونغرس على قرار المحكمة بزيادة المساعدة لجيش المرتزقة الذي تديره الولايات المتحدة في هجومه على نيكاراغوا، بينما شجبت الصحافة المحكمة بـ«منبر معادي» ولذلك غير لازمة. نفس المحكمة كانت لازمة جداً قبل بضع سنوات حين حكمت لصالح الولايات المتحدة ضد إيران. أهملت واشنطن قرار المحكمة باحتقار. بعد فعل هذا، انضمت إلى صحبة ليبيا القذافي والبانيا اينفر هوكسا الشهيرة. ليبيا وألبانيا

منذ أن انضمتا إلى الدول المطيعة للقانون في هذا المجال، والآن تحتل الولايات المتحدة عزلة ممتازة. جلبت نيكاراغوا المسألة إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي مرر قرارين يدعوان كل الدول إلى مراعاة القانون الدولي. نقضت الولايات المتحدة القرارين بالفيتو وبمساعدة من بريطانيا وفرنسا اللتان امتنعتا. كل ذلك مر عملياً دون أن يُلحظ وشُطبَ من التاريخ.

وأيضا نُسي أو لم يُلحظ أبداً - حقيقة أن «المنبر العدائي» خنع وتراجع ليلائم واشنطن. رفضت المحكمة كل قضية نيكاراغوا تقريباً التي قدمها محامي عالمي بارز من جامعة هارفارد، على حجج أن الولايات المتحدة حين قبلت بالسلطة القضائية للمحكمة الدولية في عام ١٩٤٦ أضافت تحفظاً يستثنيها من تهم تحت المعاهدات الدولية وعلى وجه الخصوص شرائع الأمم المتحدة ومنظمة الدول الأمريكية. وبناءً عليه، الولايات المتحدة مخولة ذاتياً لتنفذ عدواناً وجرائماً أخرى أشد خطورة من الإرهاب العالمي. اعترفت المحكمة بشكل صحيح بهذا الاستثناء، مظهر واحد من قضايا أوسع من السيادة والهيمنة العالمية سأضعه جانباً.

أفكار كهذه يجب أن تكون في أرفع مكان في أذهاننا حين ندرس ونتأمل سوط الإرهاب البغيض. ويجب أيضاً أن نتذكر سنوات ريغان رغم أنها تشكل فصلاً من التطرف النادر في سجلات الإرهاب، فهي ليست خروجاً غريباً عن القاعدة والمعيار. ونجد المثل في الطرف المعاكس من الطيف السياسي أيضاً: إدارة كندي. كوبا أحد الأمثلة التوضيحية. وفقاً للأسطورة القديمة التي فككتها تماماً الدراسات الحديثة، تدخلت الولايات المتحدة في كوبا في عام ١٨٩٨ لتضمن تحررها من إسبانيا، وتحويلها إلى مستعمرة فعلية للولايات المتحدة. في عام ١٩٥٩، حررت كوبا نفسها أخيراً، مسببة ذعراً في واشنطن. خلال

أشهر، إدارة إيزنهاور، خططت سراً للإطاحة بالحكومة، وباشرت في القصف والعقوبات الاقتصادية. التفكير الأساسي عَبَّرَ عنه مسؤول أمريكي رفيع المستوى في وزارة الخارجية: ستتم إزالة كاسترو «من خلال التحرر من السحر والنفور المؤسس على استياء اقتصادي وحرمان [لهذا] يجب أن نباشر في كل وسيلة ممكنة على الفور لإضعاف الحياة الاقتصادية في كوبا [لكي] تجلب الجوع واليأس والإطاحة بالحكومة».

تولت إدارة كندي الجديدة هذه البرامج وصعدتها. الأسباب شرحت بصراحة في السجل الداخلي منذ أن أزيلت السرية عنها. العنف والخنق الاقتصادي نفذا رداً على «تحدي كوبا الناجح» للسياسات الأمريكية التي تعود إلى ١٥٠ سنة للوراء: ليست روسيا وإنما مبدأ (مونرو) من أسس حق واشنطن في الهيمنة على نصف الكرة الأرضية.

ذهبت مخاوف إدارة كندي إلى أبعد من الحاجة إلى معاقبة التحدي الناجح. خافت الإدارة من أن يعدي النموذج الكوبي الآخرين بفكرة «أخذ المسائل بأيديهم هم» فكرة ذات جاذبية عظيمة في كل القارة لأن توزيع الأرض وأشكال أخرى من الثروة الوطنية يحابي كثيراً الطبقات ذات الأملاك، والفقراء والمعدمون الذين حرضهم نموذج الثورة الكوبية يطالبون الآن بفرص من أجل حياة كريمة. «ذلك كان التحذير الذي نقل إلى الرئيس كندي القادم من قبل مستشاره لشؤون أمريكا اللاتينية، المؤرخ الليبرالي (آرثر شليزينغر)». صدقت السي آي ايه على التحليل فوراً ولاحظت قائلة «شبح كاسترو يلوح ضخماً بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية في كل أرجاء أمريكا اللاتينية يغري المعارضة في السيطرة على السلطة ويشجع التهييج والاضطراب من أجل تغيير راديكالي» الذي تقدم كوبا كاسترو نموذجاً عنه.

نُفذّت الخطط المستمرة للغزو فوراً. حين فشل الغزو في خليج الخنازير، لجأت واشنطن إلى حرب إرهابية رئيسية. حدد الرئيس

المسؤولية عن الحرب لشقيقه روبرت كندي، الذي كانت أولويته الأسمى جلب «إرهاب الأرض» إلى كوبا، في كلمات كاتب سيرته، ارثر شليزنغر. لم تكن الحرب الإرهابية قضية تافهة؛ فقد كانت عاملاً رئيسياً في وضع العالم على شفير حرب نووية في عام ١٩٦٢ ثم استؤنفت حالما انتهت أزمة الصواريخ. استمرت الحرب الإرهابية خلال القرن من أرض الولايات المتحدة، لكن في السنوات الأخيرة لم تعد واشنطن تتولى هجمات إرهابية ضد كوبا وإنما كانت توفر الأساس لها واستمرت في تأمين ملجأ لبعض من أردأ الإرهابيين العالميين سمعة، مع سجل لهذه الجرائم وغيرها : اورلاندو بوش ولويس بوسادا كارليس وآخرون كثيرون أسماءهم ستكون مشهورة في الغرب إن بات للمخاوف من الإرهاب مبادئ وقوانين. كان المعلقون مؤدبين لدرجة لم يتذكروا مبدأ بوش المعلن حين هاجم أفغانستان: الذين يؤون الإرهابيين مذنبون كالإرهابيين أنفسهم وبناءاً عليه يجب أن يعاملوا بالقصف والغزو.

ربما هذا يوضح بشكل كافي أن الإرهاب العالمي الذي توجهه الحكومات اعتُبر أداة مناسبة للدبلوماسية في الطيف السياسي. ومع ذلك، كان ريغان أول رئيس حديث استخدم الأداة المتهورة لحجب لجوءه إلى «سوط الإرهاب البغيض» تحت عباءة «الحرب على الإرهاب».

كان تهور الإرهاب الريغاني مثيراً للخشية في شدته. لننتقي مثالاً واحداً فقط، وفرت ألمانيا ذريعة لأحداثه. في نيسان / أبريل ١٩٦٨ قصفت قوات الولايات المتحدة الجوية ليبيا وقتلت العشرات من المدنيين. أضيف ملاحظة شخصية، في يوم القصف، في حوالي الساعة السادسة والنصف بعد الظهر، تلقيت مكالمة هاتفية من طرابلس من مراسل تلفزيون ايه بي سي في الشرق الأوسط، تشارلز غلاس، صديق قديم. نصحني بمشاهدة أخبار السابعة مساءاً. في عام ١٩٦٨، كل القنوات التلفزيونية تبث نشرة الأخبار في الساعة السابعة مساءا وفعلت

وفي السابعة بالضبط، تحول الوكلاء الهائجون إلى تسهيلاتهم في ليبيا كي يستطيعوا تقديم بث حي لقصف الولايات المتحدة لطرابلس وبنغازي، أول قصف في التاريخ يقدم في أفضل وقت مشاهدة تلفزيونية – مقدرة لوجستية ليست قليلة: رفضت فرنسا حق المرور للقاذفات فأجبرت على أخذ انعطاف أطول فوق الأطلنطي لتصل في الوقت المناسب لأخبار المساء. بعد عرض المناظر المثيرة للمدن المشتعلة، تحولت القناة إلى واشنطن، من أجل نقاش رزين عن كيف كانت الولايات المتحدة تدافع عن نفسها من الإرهاب الليبي، تحت المبدأ المبتدع حديثاً في «الدفاع عن النفس ضد هجمات مستقبلية». موظفون رسميون أخبروا البلاد أن لديهم معرفة أكيدة بأن ليبيا نفذت تفجير حانة الديسكو في برلين قبل بضعة أيام التي قتل فيها جندي أميركي. انخفض اليقين إلى الصفر بعد ذلك بوقت قصير، بعد أن خدم غرضه. وكان من الصعب أن تجد حاجباً واحداً مرفوعاً حول فكرة إن كان قصف الديسكو مبرراً للهجوم الإجرامي على المدنيين الليبيين.

كانت الميديا مهذبة أيضاً بأن لا تلاحظ التوقيت الغريب. افتتن المعلقون بصلابة الدليل غير الموجود وإخلاص واشنطن للقانون. في رد فعل نموذجي، علل محررو نيويورك تايمز أن «حتى المواطن الأشد شكاً لا يستطيع إلا أن يستحسن ويصفق للهجمات الأمريكية على ليبيا، فالولايات المتحدة حاكمت القذافي بعناية وبشكل متناسب وعادل» دليل المسؤولية الليبية عن تفجير حانة الديسكو «قدم بوضوح للشعب» و«بعد ذلك جاءت هيئة المحلفين»، الحكومات الأوروبية التي أخرجت الولايات المتحدة عن طريقتها لترسل مبعوثين ليوزعوا الدليل ويحثوا على عمل متفق عليه ضد الزعيم الليبي. غير متصل بالموضوع نهائياً لم يقدم أي دليل موثوق وكانت «هيئة المحلفين» شكوكية وبشكل خاص في ألمانيا نفسها، حيث لم يجد التحقيق المكثف أي دليل على الإطلاق؛ أو أن هيئة المحلفين كانت تناشد الجلاد أن يحجم عن أي فعل.

وقد قصفت ليبيا بدقة من أجل تصويت في الكونغرس على مساعدة للقوة الإرهابية التي تهاجم نيكاراغوا وتديرها الولايات المتحدة. لضمان عدم خطأ التوقيت، جعل ريغان الرابط جلياً. في خطاب في اليوم الذي تلا القصف قال ريغان: «سَأُذَكِّرُ مجلس النواب المصوتين هذا الأسبوع أن هذا الإرهابي الرئيسي [القذافي] أرسل ٤٠٠ مليون دولار ومستودع من الأسلحة والمستشارين إلى نيكاراغوا ليجلب حربه إلى الولايات المتحدة. تباهى أنه يساعد النيكاراغويين لأنهم يقاتلون أميركا على أرضها «يقصد أرض أميركا في نيكاراغوا». الفكرة أن ذلك «الكلب المجنون» كان يجلب حربه إلينا بتزويد الأسلحة لبلاد نحن نهاجمها بجيش إرهابي تديره السي آي ايه قواعده في ملحقنا الهندوراسي، كانت لمسة متقنة، لم تمر دون أن تُلحظ. شَرَحَت الصحافة الوطنية، قصف ليبيا يجب أن «يقوي يد الرئيس ريغان في التعامل مع الكونغرس حول قضايا مثل الميزانية العسكرية ومساعدة الكونترا النيكاراغوية.

هذا نموذج صغير فقط عن إسهامات ريغان في الإرهاب العالمي. أطولها بقاءاً كان تنظيمه الحماسي للحركة الجهادية في أفغانستان. شرح الأسباب رئيس مركز السي أي ايه في إسلام آباد، الذي كان يوجه المشروع. في كلماته، كان الهدف «لقتل الجنود السوفييت، هدف نبيل أحبه» هو ورئيسه في واشنطن وأكد أيضاً أن «المهمة لم تكن لتحرير أفغانستان» - في الحقيقة وإنما لتأخير الانسحاب الروسي، كما يعتقد بعض المختصين. بغريزته التي لا تخطئ في تفضيل أعتى المجرمين وأشدهم عنفاً، اختار ريغان للمساعدة السخية (قلب الدين حكمتيار)، المشهور بقذف الحمض في وجوه النساء الشابات في كابول والآن قائد المتمردين في أفغانستان مع ذلك ربما ينضم قريباً إلى حكومة جنرالات الحرب المدعومة من الغرب، كما توحي التقارير. كما قدم ريغان أيضاً دعماً قوياً لأسوأ ديكتاتور باكستاني ضياء الحق وساعده على تطوير برنامج أسلحته النووية وتنفيذ

مشروعه الممول في الأسلمة الراديكالية لباكستان. ليس هناك حاجة للتفكير في هذا الميراث لتلك البلدان المعذبة والعالم.

بمعزل عن كوبا، بدأ وباء إرهاب الدولة في نصف الكرة الأرضية الغربي بانقلاب عسكري في البرازيل عام ١٩٦٤، نصب أول سلسلة من الدول القومية الأمنية النازية الجديدة واستهلال وباء من القمع لا سابق له في نصف الكرة الأرضية، المدعوم من واشنطن دائماً وخصوصاً شكل عنف خاص من الإرهاب العالمي الذي توجهه الدولة. كانت الحملة بمقياس كبير حرباً ضد الكنيسة. كانت أكثر من رمزية فقد توجت في اغتيال ستة من المثقفين الأمريكيين اللاتينيين البارزين، قساوسة يسوعيون، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩ بعد بضعة أيام من سقوط جدار برلين. قتلوا بيد كتيبة النخبة السلفادورية، التي جدد تدريبها حديثاً في كلية جون اف كندي للقوات الخاصة في كارولاينا الشمالية. كما عرفنا في تشرين الثاني / نوفمبر الماضي، لكن دون إثارة أي قلق كما هو واضح، إن أمر الاغتيال وَقَّعَه رئيس الأركان ومعاونيه، كلهم على صلة وثيقة بالبنتاغون وسفارة الولايات المتحدة لذلك بات من الصعب حتى التخيل بأن واشنطن كانت جاهلة بخطط كتيبتها المثالية. قوة النخبة هذه تركت مسبقاً ذيلاً من دماء الضحايا المعتادين خلال العقد الشائن في ثمانينيات القرن العشرين في السلفادور الذي افتُتح باغتيال رئيس الأساقفة روميرو، «صوت الذين لا صوت لهم»، بنفس الأيدي تماماً.

قتل القساوسة اليسوعيين كان ضربة ماحقة للاهوت التحرري، الإحياء اللافت للمسيحية التي استهلها البابا جون الثالث عشر في الفاتيكان الثاني، الذي افتتحه في عام ١٩٦٢، حدث «دخل حقبة تاريخية جديدة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية» بكلمات اللاهوتي البارز ومؤرخ المسيحية هانس كينغ. ملهمين بالفاتيكان الثاني، تبنى المطارنة الأمريكيين اللاتينيين «الخيار التفضيلي إلى جانب الفقراء»، مجددين السلمية

الراديكالية للأناجيل التي بعثرت حين وَطَّدَ الإمبراطور قسطنطين المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية - «ثورة» حولت «الكنيسة المضطهَدة» إلى «كنيسة مضطهدة» بكلمات كينغ. في مابعد محاولة الفاتيكان الثاني لإحياء المسيحية ماقبل الفترة القسطنطينية، أخذ الكهنة والراهبات رسالة الأناجيل إلى الفقراء والمضطهدين وجلبوهم معاً في «مجتمعات قاعدية» وشجعوهم أن يأخذوا قدرهم بأيديهم وأن يعملوا معاً لقهر بؤس البقاء في ممالك وحشية من سلطة الولايات المتحدة.

لم يتأخر رد الفعل على هذه الهرطقة الخطيرة طويلاً وكان أول وابل النيران انقلاب كندي العسكري في البرازيل في ١٩٦٤ الذي أسقط الحكومة الديمقراطية الاجتماعية المعتدلة وأسس بدلاً منها حكماً من التعذيب والعنف وانتهت الحملة بقتل المثقفين اليسوعيين قبل عشرين سنة. كان هناك نقاش كثير حول من يستحق فضل سقوط جدار برلين لكن ليس من تلقى عليه مسؤولية التدمير الوحشي لمحاولة إحياء كنيسة الأناجيل. كلية واشنطن للأمريكيتين، المشهورة لتدريب القتلة الأمريكيين اللاتينيين، أعلنت بفخر كواحدة من «نقاط الحديث» أن اللاهوت التحرري «دحر بمساعدة جيش الولايات المتحدة».

كما تتذكرون، كرس تشرين الثاني / نوفمبر الماضي للاحتفال بالذكرى السنوية العشرين لتحرير أوروبا الشرقية من الحكم الاستبدادي الروسي، نصر لقوى «الحب والتسامح واللاعنف والروح الإنسانية والصفح» كما صرح فاكلاف هافيل. اهتمام أقل - في الواقع - كرس للاغتيال الوحشي لنظرائه السلفادوريين الذي حدث بعد بضعة أيام من سقوط جدار برلين، وأنا أشك إن استطاع أحد أن يجد تلميحاً حتى لما كان يعنيه هذا الاغتيال الوحشي: نهاية لعقد من الإرهاب الوحشي في أميركا الوسطى وانتصار حاسم لـ«العودة إلى البربرية في زمننا» افتتح بالانقلاب البرازيلي عام ١٩٦٤، وخلف الكثير من الشهداء

المتدينين في أثره وأنهى الهرطقة التي استهلت في الفاتيكان الثاني - ليست بالضبط حقبة من «الحب والتسامح واللاعنف والروح الإنسانية والصفح». نستطيع أن ننتظر حتى الغد لنرى كم هو الاهتمام الذي سيعطى للذكرى السنوية الثلاثين لاغتيال صوت الذين لا صوت لهم بينما كان يقرأ القداس، بعد بضعة أيام من رسالة كتبها للرئيس كارتر يناشده فيها - عبثاً - أن لا يرسل مساعدة إلى المجلس العسكري، الذي «لا يعرف سوى قمع الناس والدفاع عن مصالح الاوليغاركية السلفادورية» وسوف يستخدم المساعدة لـ«تخريب المنظمات الشعبية التي تقاتل للدفاع عن حقوقها الإنسانية الأساسية»، كما حدث. ونحن نستيطع أن نتعلم القليل مما يحتمل أن نراه في الغد.

التباين بين الاحتفال بسقوط الحكم الاستبدادي للعدو في تشرين الثاني / نوفمبر الماضي والصمت حول ذروة الأعمال الوحشية الشنيعة في مناطق سلطتنا، ساطع جداً لدرجة بات تجاهله يستلزم ولاءً حقيقياً. إنه يسقط ضوءاً داكناً على ثقافتنا الأخلاقية والفكرية. ويصح ذلك على التقييم الاسترجاعي لحقبة ريغان. يمكننا وضع الأسطورة جانباً حول إنجازاته، التي كانت تثير (كيم ايل سونغ). ما فعله في الواقع اختفى عملياً. الرئيس أوباما حَيَّاه ونعته بـ«شخصية متحولة» وفي مؤسسة هوفر ذات الهيبة التابعة لجامعة ستانفورد يُبَجَّل ريغان كتمثال ضخم «روحه تبدو تذرع البلاد، يراقبنا مثل شبح دافئ ودود» وصلنا بالطائرة إلى واشنطن في مطار ريغان الدولي - أو إن فضلتم في مطار جون فوستر دالاس الدولي، تكريماً لقائد إرهابي شهير آخر من بين مآثره الاطاحة بالديمقراطية في إيران وغواتيمالا، وتنصيب دولة إرهاب وتعذيب للشاه وأردأ دولة إرهابية في أمريكا الوسطى. المآثر الإرهابية لعملاء واشنطن الغواتيماليين وصلت إلى إبادة جماعية حقيقية في الأراضي الجبلية في ثمانينيات القرن العشرين بينما كان ريغان يمدح أسوأ القتلة، ريوس

مونت بأنه «رجل ذو استقامة شخصية عظيمة كرس نفسه تماماً للديمقراطية» كان يتلقى «نقداً لاذعاً» من منظمات حقوق الإنسان.

أنا كنت أكتب عن الإرهاب الدولي منذ أن أعلن ريغان الحرب على الإرهاب في عام ١٩٨١. بفعلي هذا التزمت بالتعاريف الرسمية لـ«الإرهاب» في قانوني الولايات المتحدة وبريطانيا وفي كتيبات الجيش وكلها متشابهة تقريباً. لنأخذ تعريفاً رسمياً بليغاً واحداً، **الإرهاب** هو «استخدام مقصود للعنف أو التهديد بالعنف لتحقيق مآرب سياسية أو دينية أو إيديولوجية.... بواسطة التخويف أو الإكراه أو في غرس الخوف». كل شيء وصفته للتو ومقدار كبير آخر مثله، يقع ضمن صنف الإرهاب، في الحقيقة الإرهاب الدولي الموجه عن طريق الدولة، في المعنى التقني للقانون الأمريكي - البريطاني. من أجل ذلك السبب بالضبط، التعاريف الرسمية غير صالحة للاستخدام. فشلت في إحداث فرق حاسم: مفهوم «الإرهاب» يجب أن يُصاغ بطريقة ما ليشمل إرهابهم ضدنا ويستثني إرهابنا ضدهم الذي يكون في الغالب أشد بكثير. ابتكار مثل هذا التعريف مهمة شاقة. بناءاً عليه، من ثمانينيات القرن العشرين كان هناك مؤتمرات ثقافية كثيرة جداً ومنشورات أكاديمية وندوات عالمية كُرست لمهمة تعريف «الإرهاب». في النقاش العام لم تظهر المشكلة. أضْفَتْ الدوائر الفكرية والثقافية معنىً ذاتياً خاصاً «للإرهاب» طالب بتبرير لفعل الدولة وضبط للسكان المحليين وتجاهل الخروج عن المعيار عموماً أو إن لوحظ لا يحدث سوى نوبات غضب انفعالية.

دعونا نلتزم إذاً بالعرف، ونحصر اهتمامنا على الإرهاب الذي يرتكب ضدنا. إنه مسألة لا تثير الضحك وأحياناً يصل إلى مستويات قصوى. ربما الجريمة الأفظع من الإرهاب الدولي في الحقبة الحديثة كانت تدمير مركز التجارة العالمي في ١١/٩ الذي قُتِلَ فيه ثلاثة آلاف

شخص، «جريمة ضد الإنسانية» نفذت «بحقد ووحشية مروعة» كما نقل روبرت فيسك في تقريره. من المتفق عليه وعلى نطاق واسع أن ٩/١١ غيّرت العالم.

بشناعة الجريمة، يمكن للمرء أن يتصور الأسوأ. افترض أن القاعدة كانت مدعومة من قوة كبرى مرعبة نوت أن تطيح بحكومة الولايات المتحدة وافترض أن الهجوم نجح: قصفت القاعدة البيت الأبيض وقتلت الرئيس ونصبت ديكتاتورية عسكرية فاسدة، قتلت من ٥٠ ألف إلى ١٠٠ ألف شخص، وعذبت بوحشية ٧٠٠ ألف شخص آخر، وشيّدت مركزاً للإرهاب والتدمير ونفذت اغتيالات في كل أرجاء العالم وساعدت في إقامة «دول قومية أمنية» في مكان آخر تعذب وتقتل بحماس وافترض أن الديكتاتور جلب مستشارين اقتصاديين قادوا البلاد خلال بضع سنوات إلى واحدة من أسوأ الكوارث في تاريخها بينما كان مستشاريهم الحكماء يجمعون جوائز نوبل ويتلقون الميداليات. ذلك سيكون أشنع من ٩/١١ بكثير.

ويجب أن نعرف كلنا أن التخيل ليس ضروري، فقد حدث ذلك في الحقيقة: في تشيلي، في التاريخ الذي يسميه الأمريكيون اللاتينيون بـ٩/١١ الأولى، في الحادي عشر من سبتمبر من عام ١٩٧٣. التغيير الوحيد الذي قمت به على المتكافئات لتوافق القياس المناسب. لكن ٩/١١ الأولى لم تبدل التاريخ لأسباب جيدة: الأحداث كانت أكثر من عادية. في الحقيقة تنصيب نظام حكم بينوشيه كان حدثاً واحداً من الوباء الذي بدأ بانقلاب عسكري في البرازيل عام ١٩٦٤ ونشر رعباً مماثلاً بل أسوأ حتى في بلدان أخرى ووصل إلى أمريكا الوسطى في ثمانينيات القرن العشرين في عهد ريغان - الذي كان نظام الحكم المفضل لديه نظام الجنرالات الأرجنتينيين، الأكثر همجية بين الكل، المتناغمين مع موقفه العام من عنف الدولة.

بوضع كل هذا الواقع غير المناسب جانباً، دعونا نواصل لنَتَّبِع التقليد ونتخيل أن الحرب على الإرهاب التي كرّر إعلانها جورج دبليو بوش في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانت موجهة لإنهاء وباء الإرهاب العالمي ومقتصرة بشكل مناسب في المدى لتلبي حاجات عقائدية لكان بإمكانها المباشرة بخطوات محسوسة لإنجاز ذلك الهدف فقد أدينت الأفعال الإجرامية في ٩/١١ بقسوة حتى ضمن الحركات الجهادية وكانت خطوة بناءة هامة لعزل القاعدة وتوحيد معارضة لها حتى بين الذين انجذبوا إلى مشروعها لكن لم يؤخذ شيئاً من هذا النوع كما يبدو. بدلاً من ذلك، اختارت إدارة بوش وحلفاءها توحيد الحركة الجهادية دعماً لابن لادن وتعبئة كثيرين آخرين لقضيته في تأكيد اتهامه للغرب في محاربة الإسلام: غزو أفغانستان ومن بعدها العراق واختيار العنف بشكل عام لأغراض تخدم سلطة الدولة. لسبب وجيه، استنتج مايكل شيوار من الصقور، كان مكلفاً في تعقب بن لادن من أجل السي آي ايه لسنوات كثيرة أن «الولايات المتحدة الأمريكية تبقى حليف بن لادن الوحيد الذي لا غنى عنه» وخرج في الاستنتاج نفسه الرائد الأميركي ماثيو الكساندر، المستجوب الأميركي الأكثر احتراماً الذي انتزع معلومات لأسر رئيس القاعدة في العراق أبو مصعب الزرقاوي والكساندر هذا لا يكن سوى الاحتقار لطرق الاستجواب القاسية التي طالبت بها إدارة بوش. مثل مستجوبي الـ(إف بي آي) كما يعتقد.

تفضيل رامسفيلد – تشيني للتعذيب لم ينتزع أي معلومات مفيدة، مقارنة مع أشكال أكثر إنسانية من الاستجواب نجحت في تحويل المستهدفين وتجنيدهم كمخبرين موثوقين ومتعاونين وميز إندونيسيا لنجاحها بأشكال حضارية من الاستجواب وحث الولايات المتحدة لإتباع أسلوبها. ليس فقط تعذيب رامسفيلد – تشيني لم ينتزع أي معلومات مفيدة فقط وإنما خلق إرهابيين أيضاً. من مئات من الاستجوابات،

اكتشف الكساندر أن الكثيرين من المقاتلين الأجانب جاؤوا إلى العراق في رد فعل على التعسف في غوانتانامو وأبو غريب، وأنهم وحلفائهم المحليين تحولوا إلى التفجير الانتحاري والأعمال الإرهابية لنفس السبب. هو يعتقد أن استخدام التعذيب قد يؤدي إلى موت جنود أميركيين أكثر من كلفة هجوم ١١ سبتمبر الإرهابي. أهم إفشاء في نشر مذكرات التعذيب أن المستجوبين كانوا تحت «ضغط لا يلين» من تشيني ورامسفيلد إلى اللجوء إلى وسائل أقسى لإيجاد دليل عن زعمهم الوهمي بأن صدام حسين كان يتعاون مع القاعدة. الهجوم على أفغانستان في تشرين أول / أكتوبر ٢٠٠١ سمي بـ«الحرب الخيرة» لم تثر أي أسئلة، فعل مبرر من الدفاع عن النفس مع هدف نبيل في حماية الحقوق الإنسانية من طالبان الشرير. هناك مشاكل قليلة مع ذلك الخلاف شبه العالمي. لشيء واحد، لم يكن الهدف التخلص من طالبان بل على العكس، أخبر بوش شعب أفغانستان أنهم سوف يُقصفون إن لم يسلموا بن لادن إلى الولايات المتحدة، كما كان متوقعاً، لو وافقت الولايات المتحدة على طلبهم لتقديم بعض الأدلة عن مسؤوليته عن ١١ سبتمبر. تم إهمال الطلب بازدراء لأسباب جيدة. كما أذعن رئيس الإف بي آي بعد ثمانية أشهر، بعد أكثف تحقيق عالمي في التاريخ لا يزالون بدون دليل وبالتأكيد لم يكن لديهم في تشرين / أكتوبر السابق كذلك. أكثر ما استطاع قوله أن الإف بي آي «تعتقد» أن المؤامرة دبرت في أفغانستان ونفذت في دولة الإمارات وألمانيا.

بعد ثلاثة أسابيع من بدء القصف، انتقلت الأهداف الحربية إلى الإطاحة بنظام الحكم. أعلن الأدميرال البريطاني السير مايكل بويس أن القصف سيستمر حتى «يحصل شعب البلاد على تبديل القيادة» - حالة دراسية من الإرهاب العالمي. صحيح لم تكن هناك اعتراضات على الهجوم. لكن منظمات المساعدة الإنسانية عارضت بصخب وبإجماع فعلي

لأن الهجوم أنهى جهودها الإغاثية التي كانت الحاجة إليها ماسة جداً. في وقت قدرت أن خمسة ملايين شخص كانوا يعتمدون على المساعدة في بقاءهم على قيد الحياة وأن مليونين ونصف سيكونون مهددين بخطر المجاعة نتيجة الهجوم الأمريكي البريطاني. لذلك كان القصف مثالاً عن الإجرام المفرط إن حدثت النتائج المتوقعة أم لم تحدث.

علاوة على هذا، أدين القصف بشدة من قبل القادة الأفغان المعادين لطالبان ومنهم المفضل لدى الولايات المتحدة عبد الحق، الذي أعطي ثناء خاص كشهيد بعد الحرب من قبل الرئيس حامد كرزاي. قبل أن يدخل أفغانستان مباشرة، تم أسره وقتله. أدان القصف الذي كان جارياً آنذاك وانتقد الولايات المتحدة لرفضها دعم جهوده وجهود غيره «لخلق ثورة داخل طالبان». كان القصف نكسة كبيرة لهذه الجهود قال موجزاً الأسباب ومناشداً الولايات المتحدة أن تساعدهم بالتمويل وأشكال الدعم الأخرى بدلاً من تقويضهم بالقصف وقال أن «الولايات المتحدة تحاول أن تستعرض عضلاتها وتحرز نصراً وتروع كل واحد في العالم. الأمريكيون لا يهتمون بعذاب الأفغان أو بعدد الناس الذين سيموتون».

بعد وقت قصير من تجمع ألف قائد أفغاني في بيشاور، بعضهم في المنفى وبعضهم أتى من داخل أفغانستان والتزموا كلهم بالإطاحة بنظام حكم طالبان. «كان عرضاً نادراً للوحدة بين كبار رجال القبائل والعلماء الإسلاميين والسياسيين العنيدين وقادة حرب العصابات السابقين» كما جاء عن الصحافة. كانت لديهم خلافات كثيرة لكنهم بالإجماع، «حثوا الولايات المتحدة كي توقف غاراتها الجوية» وناشدوا وسائل الإعلام الدولية أن تصرخ من أجل وضع نهاية «لقصف الناس الأبرياء» وحثوا على تبني وسائل أخرى للإطاحة بنظام حكم طالبان المكروه، هدف اعتقدوا بإمكانية تحقيقه دون المزيد من الموت والدمار. كما أدين القصف بقسوة أيضاً من قبل المنظمة النسائية البارزة (راوا) - التي

تلقت اعترافاً متأخراً حين أصبحت مفيدة إيديولوجيا للتعبير عن القلق (باختصار) حول مصير النساء في أفغانستان. باختصار، «الحرب الخيرة» التي لا يرقى إليها الشك لا تبدو خيرة حين نكرس بعض الانتباه إلى الحقائق غير المقبولة.

لم يعد من الضروري التلكؤ عند غزو العراق وسنكتفي فقط بالتأثير على الإرهاب الجهادي، فقد بوشر بالغزو رغم التوقع بأنه سيؤدي إلى زيادة في الإرهاب، كما فعل أكثر مما هو متوقع بكثير وسبب زيادة في الإرهاب قدرها سبعة أضعاف حسب تحاليل لخبراء الإرهاب في الولايات المتحدة.

ربما يسأل المرء لماذا بوشر بتلك الهجمات، لكنه واضح بشكل صائب أن مجابهة سوط الإرهاب البغيض لم تكن أولية عالية حتى لو كانت رأياً.

إن كان ذلك هو الهدف، فهناك خيارات يجب إتباعها. بعضها ذكرته آنفاً. الأكثر عموماً، كان يمكن للولايات المتحدة وبريطانيا أن تتبعا الإجراءات المناسبة للتعامل مع جريمة كبرى: تحددان المسؤول وتعتقلان المشتبه بهم (مع تعاون دولي إن لزم، سهل إحرازه) وإحضارهم لمحاكمة عادلة. إضافة، كان يجب لفت الانتباه إلى جذور الإرهاب. ذلك يمكن أن يكون فعالاً بشكل زائد، كما تعلمت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في ايرلندا الشمالية. إرهاب الآي أر ايه، كان قضية خطيرة جداً. طالما كانت لندن ترد بالعنف والإرهاب والتعذيب، كانت «الحليف الذي لا يستغنى عنه» لأعنف العناصر في الآي أر ايه وكانت دورة الإرهاب تتصاعد. في أواخر التسعينيات، بدأت لندن تنظر إلى المظالم التي تكمن في جذور الإرهاب وتتعامل مع المشروعة منها - كما يجب أن يتم فعله بغض النظر عن الإرهاب. ضمن بضع سنوات اختفى الإرهاب عملياً. صدف أن كنت في بيلفاست في عام ١٩٩٣. كانت منطقة حربية. وكنت هناك في الخريف الماضي. هناك توترات لكن بمستوى نادراً ما يكتشفه

الزائر. توجد دروس مهمة هنا. حتى بدون هذه التجربة نحن يجب أن نعرف أن العنف يولد العنف بينما التعاطف والاهتمام يبردان الانفعالات ويحثان على التعاون والتفاهم.

إن أردنا أن ننهي وباء الإرهاب حقاً، نحن نعرف كيف نفعل ذلك. أولاً، ننهي دورنا كمرتكبين. هذا لوحده سيكون له أثر ضخم. ثانياً، النظر والاهتمام بالمظالم النموذجية التي في الخلفية وأن نفعل شيئاً من أجلها إن كانت مشروعة. ثالثاً، إن حدث فعل إرهابي، نتعامل معه كفعل إجرامي: نحدد ونقبض على المشتبه بهم وننفذ عملية قضائية صادقة. ذلك ينجح.

هذه ليست الحالة الوحيدة التي كان يمكن للمقاربات التي تم تجاهلها بشكل منظم أن تقلل تهديداً خطيراً والتي استبدلت بخيارات غير محتملة. مثال عن هذه الحالة ماسمي «الحرب على المخدرات». لأكثر من أربعين سنة، فشلت الحرب في تقليص استخدام المخدرات أو حتى سعر الشارع للمخدرات. لقد ثبت من دراسات كثيرة بما فيها دراسات لحكومة الولايات المتحدة أن المقاربة المربحة الأكثر والمؤكدة للتعامل مع إساءة استخدام المخدرات هي الوقاية والعلاج لكن هذه المقاربة تم تجنبها بشكل ثابت في سياسة الدولة التي فضلت إجراءات عنيفة أكثر تكلفة قلما كان لها أي تأثير هام على استعمال المخدرات، رغم النتائج الثابتة الأخرى التي لديهم.

في حالات كهذه، الاستنتاج المنطقي الوحيد هو أن الأهداف المعلنة ليست الأهداف الحقيقية، وإن أردنا أن نعرف الأهداف الحقيقية علينا أن نتبنى مقاربة مألوفة في القانون: الاعتماد على النتيجة المتنبأ بها كدليل عن القصد. أعتقد أن المقاربة التي تؤدي إلى نتائج معقولة تماماً حول «الحرب على المخدرات» و«الحرب على الإرهاب» والكثير غيرهما لكن ذلك يحتاج إلى عمل يوم آخر.

مركب الدولة - الشركة: تهديد للحرية والبقاء

نص المحاضرة التي ألقيت في جامعة
تورنتو ٧ نيسان / أبريل ٢٠١١

سأتحدث عن الولايات المتحدة في المقام الأول، ليس لأنني أعرفها بشكل أفضل وإنما لأنها بالمقارنة دلالة فريدة في النظام العالمي. ذلك كان صحيحاً وبشكل دراماتيكي منذ الحرب العالمية الأولى. ميزة ومدى هذا التفرد ليس مفهوماً على الأغلب ويستحق بسهولة حديثاً مخصصاً له لكنني لن أدخل في ذلك.

لكن، نحن نرى ذلك باستمرار وبشكل ثابت حتى بطرق صغيرة نسبياً. لهذا مثلاً حين انفجرت فقاعة الإسكان في الولايات المتحدة منذ سنتين، التي استهلت أزمة اقتصادية عالمية لازال أغلب العالم غائصاً في وحلها وتم تفادي نتائجها الأسوأ بواسطة إجراءات يائسة تماماً.

في ميدان آخر، حين أرادت فرنسا وبريطانيا قصف ليبيا منذ أسبوعين، لجأتا إلى واشنطن المانعة لتقوم بالحمل الثقيل وتقدم الحجم الواسع الأكبر من وسائل العنف. تمتلك الولايات المتحدة أفضلية نسبية هائلة في ذلك الميدان. إضافة، رغم أن الولايات المتحدة - مجتمع الولايات المتحدة واقتصادها السياسي - غير عاديين في بعض الأوجه، فهي لا تختلف عن أي مكان آخر. وفي الحقيقة التطورات داخل الولايات المتحدة بمر السنين أنذرت في أحوال كثيرة بما سيحدث قريباً في المجتمعات الصناعية الأخرى في عالم الدولة الرأسمالي.

ذلك العالم وفي الواقع كل العالم، يتغير دائماً لكن هناك روابط مهمة تستحق الحفظ في الذهن. الرابط الأول: أن الذين يسيطرون على الحياة الاقتصادية لبلد ما ينزعون إلى امتلاك تأثير ساحق على سياسة

الدولة. تلك يجب أن تكون بديهية تعلم في المدارس الابتدائية. رَسَمَها آدم سميث في كلمات بإيجاز بارع اقتبستها سابقاً لكنني سأعيدها لأهميتها الكبيرة. هو يتحدث عن بريطانيا طبعاً، كتب أن المهندسين الرئيسين للسياسة هم مالكو المجتمع، في زمنه التجار وأصحاب الصناعة «سادة البشرية» كما نعتهم. وهم يضمنون أن سياسة الدولة تخدم مصالحهم مهما كان التأثير خطيراً على الآخرين، وضمنهم السكان الداخليين لكن ضحايا ظلمهم الهمجي كما سماهم من خارج الوطن في المقام الأول، الهند مثاله الأصلي. كان ذلك أيام تدمير الهند.

اليوم سادة العالم هي الشركات المتعددة القومية والمؤسسات المالية، لكن الدرس لازال يطبق ويساعد في تفسير لماذا مركب الدولة الشركة تهديد للحرية وللبقاء نفسه حتى في الواقع. حتى الآن هناك شروح مهمة لبديهيات (سميث) تنطبق على العالم الحديث. النسخة الأهم والأمتع التي أعرفها لعالم الاقتصاد السياسي توماس فيرغسون والتي أسماها نظرية استثمار السياسية التي باختصار وتبسيط، تبين ببساطة أن انتخابات الولايات المتحدة مناسبات تندمج فيها تحالفات المستثمرين الخاصين ليستثمروا ولكي يسيطروا على الدولة. ثبت أنها فرضية ذات نجاح تنبؤي تماماً لأكثر من قرن من الزمن كما يبين المؤلف.

ماذا تعني حقيقة أن الانتخابات تشترى عملياً وأن المشترين يترقبون المكافأة وأن هذا يحدث دائماً. وقد تجلت بوضوح شديد في انتخابات الولايات المتحدة الرئاسية الأخيرة في ٢٠٠٨. انتصار الرئيس أوباما يُعزى بشكل كبير إلى تدفق ضخم من رأس المال من المؤسسات المالية وخصوصاً عند اقتراب نهاية الحملة التي فضلته على منافسه ماكين وتوقعت أن تنال المكافأة وطبعاً تم ذلك. البلاد في ذاك الوقت كانت تغوص في ركود اقتصادي عميق، لهذا كان أول فعل لأوباما اختيار فريق اقتصادي الذي جرى أخذه كله تقريباً من هؤلاء الذين سببوا الأزمة

الاقتصادية الحادة التي ورثها هو وتجنب بمنهجية ناقدي ممارساتهم بمن فيهم ذوو الاعتبار البارزين جداً والحائزين على نوبل.

في الواقع كتبت صحافة التجارة والأعمال حول هذا بطريقة ساخرة. استعرضت ذا بلومبيرغ نيوز فريق أوباما الاقتصادي، درست كل واحد منهم ونظرت إلى سجلاتهم واستنتجت أن هؤلاء الناس يجب أن لا يكونوا في الفريق الاقتصادي ليصلحوا الاقتصاد وإنما يجب أن يعطوا مذكرات استدعاء أمام القضاء، وهو الصحيح تماماً. لم يفعلوا طبعاً.

حسناً، من غير المفاجئ أن يختار ذلك الفريق الإجراءات التي كافأت المتهمين الرئيسيين الذين أصبحوا أكثر غنى وتنفذاً من السابق وتوازنوا الآن ليقودوا الطريق ربما إلى أزمة مالية أخرى أقسى. كان هناك مؤخراً مقالة مشوقة حول هذا بقلم المفتش الخاص لبرامج إنقاذ المؤسسات المالية (نيل باروفسكي). كتب إدانة لاذعة للطريقة التي نفذ فيها. وكشف أن المرسوم التشريعي الذي فوض الإنقاذ المالي للمؤسسات المأزومة كان صفقة. المؤسسات المالية التي كانت مسؤولة عن الأزمة سوف تنقذ من قبل دافع الضرائب وضحايا جرائمهم الشريرة، في الحقيقة جرائم حقيقية - الضحايا سوف يعوضون بطريقة ما بواسطة إجراءات تحمي أثمان البيوت وتحافظ على الملكية المنزلية. لقد كانت أزمة سكنية في أغلبها.

لقد جرى الالتزام بالقسم الأول من الصفقة. كوفئت المؤسسات المالية بسخاء لتسببها بالأزمة وأعفيت عن جرائمها الصريحة، لكن القسم الآخر من البرنامج تعثر. كما كشف باروفسكي، أنا سأقتبسه، «استمرت حبوسات الرهن لترتفع من ثمانية ملايين إضبارة إلى ثلاثة عشر مليون متوقعة خلال حياة البرنامج بينما أصبحت البنوك الكبرى أكبر بـ٢٠٪ مما كانت عليه قبل الأزمة وباتت تسيطر على قسم أكبر من الاقتصاد من أي وقت مضى». هم يفترضون بشكل صائب أن الحكومة

سوف تنقذهم مرة أخرى إن لزم الأمر. في الواقع، تدخل وكالات الائتمان انقاذات سوق حكومية مستقبلية في تقييمها لأكبر البنوك مما يعني تضخيم تشويهات السوق التي توفرها مع ميزة غير عادلة فوق المؤسسات الأصغر التي تستمر في الصراع.

لهذا باختصار كما يقولها، كانت برامج أوباما هبة لمدراء وول ستريت وصفعة في الضفيرة الشمسية للضحايا العزل. في عبارة أخرى، استمعت الحكومة لهؤلاء الذين لهم صوت في النظام السياسي وعملت بموجبه، بتوافق تام مع بديهية سميث.

في الوقت الذي يجب أن لا تكون مفاجآت هنا، هناك دراسات يقظة لعمليات تصويت مجلس الشيوخ خلال فترة طويلة من الوقت وتبين أن مجلس الشيوخ في الواقع كان مستجيباً لقطاع من السكان [أي] الثلث العلوي من الدخل وفي تحليل أقرب إلى الواقع أظهر إن القطاع جزء صغير من الثلث العلوي. على العكس من ذلك ليس هناك أي ترابط على الإطلاق بين أصوات مجلس الشيوخ وأراء الثلث الأوسط أما بالنسبة للثلث الأدنى فهناك ترابط، لكنه سلبي. أصوات مجلس الشيوخ مضادة لخيارات الثلث الأدنى وهناك انفصال حاد جداً بين الرأي العام والسياسة الحكومية ضمن فترة طويلة في قضايا رئيسية من السياسة الداخلية والخارجية.

ربما يجادل المرء أن هذه النتائج لا تبتعد كثيراً في الحقيقة عن نوايا مؤسسي المجتمع. لهذا جيمس ماديسون، الذي كان الواضع الرئيسي للنظام الدستوري، شرح الوثيقة الدستورية بأن السلطة يجب أن تبقى في أيدي مجلس الشيوخ. لم يكن الشيوخ يختارون مباشرة من قبل المقترعين حتى قبل قرن مضى تقريباً. في تلك الأيام كان المدير أشبه برجل إدارة وليس إمبراطوراً وكانت سلطة المجلس التشريعي، القسم الثالث من النظام والأقرب للشعب، سلطة محدودة أكثر بكثير. تلك هي

الطريقة التي نصبت فيها. كما شرح ماديسون للوثيقة الدستورية، «مجلس الشيوخ يمثل ثروة الأمة، المجموعة الأكفأ من الرجال، الرجال الذين لديهم احترام لملكية الملاكين وحقوقهم ويفهمون أن الحكومة يجب أن تحمي الأقلية الغنية من الأكثرية».

ذلك صحيح ودقيق تماماً. شيء آخر يجب أن يُعَلَّمَ في المدارس الابتدائية.

لكن يجب أن نبقي في أذهاننا نوع من دفاع ماديسون، أي عقليته التي كانت قبل الرأسمالية. لهذا افترض أن عضو مجلس الشيوخ سيكون، كم قالها، «رجل دولة متنور وفيلسوف خير» سيكون مجلس الشيوخ «هيئة مختارة من المواطنين يدركون بحكمتهم المصالح الحقيقية لبلادهم وتكون وطنيتهم وحب العدالة أقل عرضة للتضحية من أجل اعتبارات مؤقتة أو جزئية» لذلك سوف يوسعون وجهات النظر الشعبية بالدفاع عن الشعب ضد الأعمال المؤذية للأغلبيات الديمقراطية. هذا أشبه بالسيد النبيل الروماني (من أوهام اليوم).

حسناً، لم يستغرق الأمر طويلاً مع ماديسون ليغير تفكيره حول هذا. كما رأى وحلل النتائج المبكرة للتجربة الديمقراطية، كان لديه مراجعة لأفكاره. في الحقيقة، في عام ١٧٩٢، بعد سنتين، رثى ما أسماه «الفساد الجسور للعصور حين يصبح سماسرة البورصة الجماعة البروليتارية للحكومة، على الفور أداتها وطاغيتها المرتشى بهباتها والمرتعب من الصخب والتجمعات» وصف ليس رديئاً للنظام السياسي اليوم وارتباطاته الاجتماعية والاقتصادية.

في الوقت الحاضر ٢٠٪ من السكان مؤهلون لطوابع الغذاء في أغنى بلاد في التاريخ البشري والبطالة الحقيقية اليوم في مستواها الأعلى لأكثر من نصف السكان كعمال تصنيع السلع مثلاً وفي الحقيقة إن ظروفهم الفعلية أسوأ بكثير مما كانت عليه في أيام الكساد الكبير الذي

يسمح لي عمري بتذكرها فأغلب العائلات العاطلة عن العمل من الطبقة العاملة والبلاد طبعاً أفقر مما هي عليه اليوم لكنها كانت فترة مفعمة بالأمل في طرق كثيرة. كان هناك إحساس بأن الناس يفعلون شيئاً حول ذلك وأن الظروف ستتحسن وتم ذلك بالفعل بفضل التنظيم الفعال والمدراء التنفيذيين وأشياء أخرى غيرها ثم بعد ذلك بحوافز حكومية هائلة أو خلال الحرب ثم استمرت خلال العقود التي تلت الحرب.

ذلك ليس صحيحاً اليوم. الوظائف التي ضاعت من غير المحتمل أن تعود على الأقل تحت البرامج الحالية لأسياد البشرية. لا شيء البتة..... سوى برامجهم. مع معاناة السكان، بنك غولدمان ساكس، أحد المهندسين الرئيسين للأزمة الراهنة، بات الآن أغنى من السابق وأعلنوا بهدوء عن تعويض إضافي بقيمة ١٧,٥ بليون دولار من أجل السنة الفائتة ونال المدير التنفيذي لويد بلانكفين ١٢,٦ مليون دولار بينما راتبه الأساسي ثلاثة أضعاف ذلك. وكما قال بروفسكي بالضبط، لقد توازنوا واستعدوا للعب اللعبة نفسها مرة أخرى.

ولماذا لا؟ يستطيعون الاعتماد على سياسة التأمين الحكومية التي تمكنهم من التورط الآمن في صفقات محفوفة بالمخاطر، محققين أرباح ضخمة، ولا يأخذون في حسابهم ما يسمى في لغة الاقتصاد الأشياء الخارجية - أثر الصفقة على الآخرين؛ في حالتهم بشكل قاطع ما يسمى المجازفة الجهازية، الجهاز برمته سينهار نتيجة صفقاتهم المحفوفة بالمخاطر والمربحة بذلك.

وحين ينهار كما هو متوقع تلك هي المعضلة الكبيرة. يركضون إلى الدولة الجدة التي أنشأوها ورعوها، ممسكين بأيديهم بنسخهم من هاييك وميلتون فريدمان وايان راند ويطالبون بالإنقاذ المالي المؤهلين له لأنهم أكبر من أن يسقطوا كما قالوها. كما أضاف أحد المعلقين، إن رايلي، كبير على السجن أيضاً لجرائمه الخطيرة جداً. إنه خداع مثير ولافت

جداً. طبعاً هو انتهاك جوهري للمبادئ الرأسمالية، لكن سادة البشرية يعتقدون في تلك المبادئ من أجل الآخرين فقط وليس من أجل أنفسهم.

ذلك الموقف له تاريخ طويل. تلك قضية أخرى ومن المهم أن نفهمها إن أردنا أن ندرك طبيعة العالم الذي نعيش فيه: في الواقع يكمن في الخلفية تفاعل كاشف جداً يحدث بين بلدين: الولايات المتحدة ومصر. الثورات الديمقراطية في العالم العربي، وخصوصاً في مصر، هذه الأحداث ذات أهمية تاريخية حقيقية. وهي مرعبة جداً للقوة الغربية لنفس الأسباب البسيطة. الغرب بالتأكيد سوف يفعل كل ما يستطيعه ليمنع الديمقراطية الحقيقية في العالم العربي.

إن إلقاء نظرة على دراسات الرأي العام العربي كافية لمعرفة المخططين ولكنها ليست كذلك للعامة في الغرب، على الأقل لهؤلاء الذين يكتفون بوسائل الإعلام. ما تظهره في مصر مثلاً، ٩٠٪ من السكان يعتقدون أن الولايات المتحدة تمثل التهديد الرئيسي الذي يواجههم. ربما ١٠٪ يعتقدون أن إيران تهديد. حدث أن كانت هذه الأرقام عالية لكنها صحيحة تماماً عبر العالم العربي، لهذا من الواضح أن الغرب سوف يفعل ما يستطيعه لمنع هذه الآراء من دخول السياسة مما يعني منع أي شكل من الديمقراطية الحقيقية.

حسناً، هذه أحداث بأقصى درجة من الأهمية ومن الهام أن نلقي نظرة على كيفية تطورها. كل هذه الأحداث لها تاريخ طويل بالمناسبة. الحركة المصرية مثلاً، كما رأيتم قادها مجموعة من الشبان الأذكياء الملمين بالتكنولوجيا الذين سموا أنفسهم بحركة السادس من أبريل. ما هو السادس من أبريل؟ ذلك إسناد إلى فعل رئيسي خطط له في السادس من ابريل ٢٠٠٨. في أحد التجهيزات الصناعية الرئيسية في مصر، نسيج المحلة، كان هناك إضراب كبير مفترض وكان هناك الكثير من الفعاليات المؤيدة لكنه سحق بديكتاتورية عسكرية نحن ندعمها.

ناسين هنا؛ من يكترث؟ لكن لم تنسى هناك. ونفس الشيء يصح في البلدان الأخرى.

الأشياء التي انفجرت فجأة لم تأتي من فراغ. وذلك صحيح بالنسبة للحالة الأولى أيضاً، التي لم تنقل بالأخبار حتى. الموجة الراهنة من الثورات بدأت فعلياً في آخر مستعمرة أفريقية واحدة من الدولتين الأثنتين من العالم العربي التي تم غزوها واحتلالها واستيطانها بواسطة قوى خارجية. تلك هي الصحراء الغربية، تقنياً هي بلد تابع للأمم المتحدة ويفترض أن ينتقل إلى الاستقلال. لقد جرى غزوها في ١٩٧٥، بطريقة وحشية كأغلب الغزوات. وطّنوا الكثير من السكان المغاربة هناك، بصورة غير شرعية طبعاً. وكانت هناك احتجاجات متكررة. كان أحدها في نوفمبر / تشرين الثاني الماضي، محاولة نصب مدينة من الخيام لكن القوات المغربية سحقتها فوراً. بما أنها مسؤولية الأمم المتحدة أتت القضية إلى مجلس الأمن لكن فرنسا ضمنت أن لا يكون هناك أي تحقيق في الذي حدث. كان عليها أن تحمي عميلتها. تلك كانت الأولى من البلدان المحتلة أما الأخرى فلايزال الغطاء مغلقاً بإحكام إلى الآن. هي فلسطين التي يمكن قول الكثير عنها لكن أعتقد أنكم ألفتموه وعلى الأقل العمل الشجاع جداً والهام الذي قام به هنا الراحل جيم غراف.

ما سيحدث ليس واضحاً فهذا كله لازال عملاً جارياً لكن رغم العوائق الداخلية والمقيدات والكوابح أنجزت هذه الحركات الشعبية نجاحات جوهرية ولها توقعات مثيرة تماماً. واحدة من أكثر اللحظات درامية كانت في ٢٠ فبراير/شباط الماضي حين أرسل كمال عباس رسالة من ميدان التحرير في القاهرة إلى عمال ويسكينسون قائلاً «نحن نقف معكم كما وقفتم معنا» عباس قائد لسنوات من صراع العمال المصريين من أجل حقوق أولية تكمن في خلفية الربيع العربي الحالي وكما قلت سحق ذلك الصراع بشكل وحشي بيد ديكتاتور مدعوم من الغرب وهو أيضاً شخصية

بارزة في الثورة الراهنة. رسالة عباس التضامنية مع عمال ويسكينسون استحضرت المطامح التقليدية لحركة العمل - التضامن بين الشعب العامل في العالم والقطاعات السكانية عموماً.

الآن المساران في القاهرة وماديسون يتقاطعان لكنهما متوجهان في اتجاهين متعاكسين: في القاهرة نحو الفوز بحقوق أولية تنكرت لها ديكتاتوريات؛ في ماديسون نحو الدفاع عن حقوق اكتسبت في صراعات طويلة وصعبة والآن تتعرض لهجوم شرس. كل من هذين هما نوع من عالم صغير من الميول التي تحدث وتتقدم في المجتمع الكوني متبعة مسارات متنوعة. هناك بالتأكيد عواقب بعيدة المدى لما يحدث في القلب الصناعي لأغنى وأقوى دولة في التاريخ البشري وفي ما اسماه الرئيس ايزنهاور المنطقة الإستراتيجية الأهم في العالم، الشرق الأوسط - «مصدر هائل من القوة الإستراتيجية وربما أغنى جائزة اقتصادية في أربعينيات القرن العشرين». تلك كانت جائزة عزمت الولايات المتحدة الاحتفاظ بها لنفسها وحلفاءها في نظام العالم الجديد المترعرع الذي كانت تنظمه مع حلفائها وتنفذه ولا تزال في الحقيقة.

من المعتاد للمنتصرين أن يودعوا التاريخ في سلة القمامة ومن المعتاد للضحايا أن يأخذوه على محمل الجد. إن أردنا أن نفهم العالم يجب علينا أن نحذو حذوهم. اليوم في الحقيقة ليس المناسبة الأولى التي تواجه مصر والولايات المتحدة فيه مشاكل مماثلة وتتحركان في اتجاهين متعاكسين. ذلك كان صحيحاً أيضاً في القسم الأول من القرن التاسع عشر بأشكال حاسمة جداً لكلا المجتمعين عُممت في أرجاء العالم وهي حاسمة لفهم خلق القسمة بين العالم الأول الغني والعالم الثالث الفقير، التي كانت أقل حدة في تلك الأيام الماضية.

في ذلك الوقت، بداية القرن التاسع عشر، وضعت كل من مصر والولايات المتحدة للشروع في تطور اقتصادي ففي كلا البلدين زراعة غنية

تشمل القطن وهو نوع من الوقود في بداية الثورة الصناعية لكن على خلاف مصر، كان على الولايات المتحدة أن تطور إنتاج القطن وقوة العمل بواسطة الغزو والإبادة والعبودية مع نتائج تتردد حتى الوقت الحاضر. كان هناك فرق أساسي واحد بين مصر والولايات المتحدة، أقصد أن الولايات المتحدة فازت باستقلالها ولذلك كانت حرة في تجاهل وصفات النظرية الاقتصادية - الشبيهة جداً بنظريات اليوم التي حررها وسلمها في ذاك الوقت أكبر عالم اقتصاد في العصر (آدم سميث) في عبارات مماثلة لتلك التي توعظ وتُبشر بها ما سمي بالمجتمعات النامية اليوم.

لهذا حض سميث المستعمرات الأمريكية على الالتزام بما سمي لاحقاً بالأفضلية النسبية، أي، إنتاج منتجات للتصدير واستيراد سلع مصنعة بريطانية أفضل وبالتأكيد أن لا تحاول احتكار السلع الحاسمة. ذلك يعني القطن بالخصوص في تلك الأيام كان نوعاً مثل النفط اليوم. أي مسار آخر، حَذَّرَ، سوف اقتبسه، «سوف يؤخر بدلاً من أن يسرع الزيادة الإضافية في قيمة الإنتاج السنوي وسيعيق بدلاً من أن يعزز تقدم بلادهم نحو ثروة حقيقية وعظيمة» تقريباً ما ندرسه في المناهج الاقتصادية اليوم والنصيحة التي تعطى للعالم من قبل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. بنيلها استقلالها كانت مستعمرات الولايات المتحدة حرة في تجاهل قوانين الاقتصاد السليم والصائب. كانت المستعمرات حرة في إتباع مسار إنكلترا نفسها في تطور مستقل توجهه الدولة مع رسوم جمركية عالية لحماية الصناعة من الصادرات البريطانية الأقوى، في الأول صناعة المنسوجات ومن ثم صناعة الصلب وغيره، وتشكيلة واسعة من أساليب تدخل الدولة الأخرى لكي تسرع التطور الاقتصادي.

حاولت الجمهورية المستقلة أيضاً واقتربت كثيراً من الحصول على احتكار للقطن - لمبرر جيد. كان الغرض لوضع كل الأمم عند أقدامنا،

كما قال الرؤوساء الجاكسونيين في الوقت الذي كانوا يضمون فيه تكساس ونصف المكسيك. كانوا مهتمين بإنكلترا بشكل خاص فقد كانت إنكلترا العدو والعائق الأكبر في تلك الأيام وتصوروا أنهم لو احتكروا القطن فسيُركعُونَ إنكلترا. هذا مهم جداً. مثلاً، أحد الأسباب التي أدت إلى عدم التغلب على كندا، فقد أعاق البريطانيون ذلك مرات كثيرة. ربما كان يمكن قهرها في طرق أخرى لكن ذلك قضية أخرى. لكن لم يكن نصراً عسكرياً.

ولم يقدروا أن يخضعوا كوبا أيضاً، بالقدر الذي أرادوه لأن الأسطول البريطاني كان في الطريق. لقد تم إخضاعها أخيراً في وقت متأخر من القرن في ١٨٩٨ تحت ذريعة تحريرها لكنه في الواقع غزوها. كانت الفكرة إن استطاعوا احتكار السيطرة على القطن فسيستطيعون التغلب على هذا الرادع الذي كان في درب توسعهم. في الحقيقة هو نوع من التشويق تلك هي السياسة نفسها التي نسبت لصدام حسين في ١٩٩٠ آنذاك. لكن لو نظرتم إلى الدعاية في زمن الغزو كانت الذريعة، أنه يحاول أن يحتكر النفط ليركعنا كلنا. هذا غريب وهمجي بالمطلق. لكن ما التهمة، الجريمة التي نسبت إلى صدام حسين، لقد كانت في الحقيقة الجريمة الرئيسية التي أدت إلى تطور الولايات المتحدة الاقتصادية. حدث ذلك وكان له تأثير كبير، أحد الأسباب أنها خارج التاريخ ماعدا ما هو ليس تاريخاً.

تلك كانت الولايات المتحدة. ماذا عن مصر؟ حيث لم تستطع مصر إتباع المسار المشابه لأن بريطانيا سدته. لم تكن مستقلة. لهذا أعلن اللورد بالمرستون بكلماته أنه «لا ينبغي أن تكون هناك أي فكرة عادلة نحو مصر تقف في وجه السيطرة السياسية». وعبر عما اسماه كرهه للبربري الجاهل محمد علي، الزعيم المتطور الذي كان يحاول توجيه

مصر إلى مسار مستقل. نشر الأسطول البريطاني والموارد المالية لإنهاء سعي مصر من أجل الاستقلال والتطور الاقتصادي.

بعد الحرب العالمية الثانية حلت الولايات المتحدة مكان بريطانيا كمسيطر كوني وتبنت نفس الموقف. أوضحت الولايات المتحدة أن واشنطن ستقدم المساعدة إلى مصر والعالم كله كان بأمس الحاجة آنذاك. الولايات المتحدة لن تقدم أي عون لمصر حتى تلتزم بالقواعد القياسية للضعيف، القواعد التي استشهدت بها، التي استمرت في انتهاكها الولايات المتحدة نفسها طبعاً، فارضة ضرائب جمركية لمنع القطن المصري ومسببة عجزاً موهناً في الدولار. في الواقع [هذا] هو التفسير لمبادئ السوق. إنه مناسب لك، مناسب لتأديب الضعفاء والسيطرة عليهم لكن ليس أنا من فضلك. أنا أريد الدولة الجدة أن تثق بأنني على ما يرام. ذلك يطبق في الوطن أيضاً، الطريقة التي يفهمها غولدمان ساكس وزملائه وممثليه في الحكومة بشكل جيد جداً. هذه في الحقيقة مواضيع بارزة في التاريخ الحديث. وهي أساساً، الأساس لاختلاف العالم الأول والثالث - هذا يُعَمَّم في كل مكان - ومن أجل ما يحدث داخلياً للمجتمعات الغنية أيضاً.

كما يتنبأ هذا النوع من المبادئ البسيطة، تصبح الانتخابات بشكل متزايد خدعة تديرها العلاقات العامة التي تحاول تعبئة الجماهير للاقتراع وتتأكد من تهميش القضايا الأساسية للسبب الذي ذكرته وللشعب آراء مختلفة حول القضايا عن آراء سادة البشرية لهذا يجب أن يبقى جانباً.

يجب أن أقول أن ما تحدثت به عن الولايات المتحدة ليس صحيحاً في كل مكان. فلو ذهبتم إلى أفقر بلاد في جنوب أمريكا مثلاً، بوليفيا، فهم يجرون انتخابات ديمقراطية لافتة جداً وخصوصاً في العشر سنوات الأخيرة. ففي السنوات العشر الأخيرة دخل القطاع السكاني

المضطهد، السكان الأصليون، المعترك السياسي، مدافعين بقوة عن مطالبهم وشاركوا في الانتخابات وفازوا فيها وانتخبوا واحداً من صفوفهم - فلاح فقير، ليس شخصاً من الجمجمة والعظام في يال - وفازوا في انتخابات حول قضايا حقيقية، من قضايا هامة مثل السيطرة على الثروات والحقوق الثقافية وكيفية معالجة مشاكل العدل في مجتمع معقد متعدد الأثنيات. ثم بعد سنتين أجروا انتخابات أخرى أفضل.

تلك هي الديمقراطية. يجب عليك أن تنظر باجتهاد كبير لتجد شيئاً مثل ذلك في العالم الصناعي. ما يحدث في مجتمعاتنا مختلف تماماً. صناعة العلاقات العامة، التي تدير الانتخابات تطبق مبادئ محددة لتقويض الديمقراطية وهي نفس المبادئ التي طبقت لتقويض الأسواق. آخر شيء تريده البزنس والأسواق ما تعنيه النظرية الإقتصادية. خذ أي مقرر في الاقتصاد وستجد فيه أن السوق مبني على مستهلكين عارفين يأخذون خياراتهم المنطقية لكن كل من نظر إلى محطة تلفزيونية يعرف بأن ذلك غير صحيح ففي الحقيقة لو كان لدينا نظام سوق وإعلان لجنرال موتورز مثلاً لكان بياناً بسيطاً للمواصفات الإنتاجية للسنة التالية. ذلك ليس ما ترونه. أنتم ترون ممثلة سينمائية ما وبطل كرة قدم أو شخص يقود سيارة في الجبال أو شيئاً مثل ذلك. وذلك صحيح حول الإعلان. الهدف تقويض الأسواق بخلق مستهلكين جهلة يأخذون قرارات غير منطقية وعالم البزنس يصرف جهوداً هائلة على ذلك.

الشيء نفسه صحيح عندما نفس الصناعة، صناعة العلاقات العامة، تتحول إلى تقويض الديمقراطية. هي تريد أن تنظم انتخابات يأخذ فيها المقترع الجاهل قرارات غير منطقية. وهذا معقول جداً وواضح جداً ولا يمكن إغفاله. وهذا شيء آخر من الأشياء التي يجب أن تتعلموها في المدارس الابتدائية. من المريك التحدث عن شيء واضح جداً بحضور طلاب جامعيين.

الانتخابات ٢٠١٢ الآن يتوقع أن تكون تكلفتها بليونين دولار. ستكون أكبر تمويل للكوربوريت. لهذا من غير المفاجئ أن يختار أوباما قادة البزنس في المناصب العليا. الشعب غاضب جداً ومحبط لكن سيظل السكان في الغرب ضحايا حتى يرتقوا إلى مستوى المصريين.

في الولايات المتحدة الجمهوريون منذ وقت طويل كفوا عن التذرع بأنهم حزب سياسي تقليدي فهم غارقون في جيوب الشركات الأمريكية، كبار الأغنياء الذين تحتاج إلى تلسكوب لتجدهم. الديمقراطيون، الذين كانوا يسمون جمهوريين معتدلين بالمناسبة ليسوا متخلفين عنهم كثيراً قبل الآن. اختيار أوباما لفريق اقتصادي ذكرته هو مثال على ذلك. في الواقع أنا لم أقدم بدقة كبيرة. كان هناك استثناء وحيد في فريقه وهو بول فوكلر. كان وزير المالية في عهد ريغان. لكن الطيف انتقل بعيداً إلى اليمين لذلك كان فوكلر آخر ريبالي ينادي بنوع من التنظيم - كان في الماضي بالمناسبة وليس الآن لذلك طرد واستبدل بجيفي ايميلت الذي كان المدير التنفيذي لجنرال الكتريك أي أكبر شركة قومية.

مسؤوليته الخاصة، لو نظرتم للوراء إلى الخطب الطنانة، كانت لخلق وظائف. في الواقع لحظة أكثر دقة، مرة أخرى بواسطة توم فيرغسون، ما لدينا هنا في الواقع اختفاء المشهد من أشهر وأوضح ناقد لافراطات القطاع المالي واستبداله بتنصيب مدير تنفيذي لشركة تعتمد بقوة على المساعدة الحكومية بكل أنواعها بما فيها المساعدة الدبلوماسية لتستثمر أكثر في الصين ولنقل وظائفها إلى هناك. هذا ليس عن الوظائف، إنه عن المال السياسي. البيت الأبيض يعرف أنه سيحتاج إلى جمع بليون دولار من أجل حملته الانتخابية الثانية.

ذلك هو السياق الذي يجب أن تحكم تعيينات أوباما الوظيفية هذه وغيرها من المناصب الحديثة، وليس من المفاجئ أن يكون عالم البزنس

راضياً تماماً. نقلت الفايننشال تايمز اللندنية أن تعيين السيد ايميت في منصبه كان مستحسناً من قبل غرفة تجارة الولايات المتحدة، لوبي البزنس الرئيسي، الذين قالوا أنه كان من بين أقسى نقاد الرئيس ومُوِّلَ كثيراً من الجمهوريين الذين تسابقوا ضد الديمقراطيين في انتخابات تشرين الثاني الماضي. لكن ربما سينتهي ذلك وآخر عقبة لحكم البزنس أمكن إزالتها من الطريق.

لو نظرتم إلى جي أي، جنرال اليكتريك، إن أكثر من نصف قوة العمل فيها خارج البلاد وأكثر من نصف دخلها يأتي من عمليات ماوراء البحار وأغلب دخولها أيضاً لا تأتي من الإنتاج رغم كونها مؤسسة مصنعة بل من العمليات المالية التي من أجلها بالمناسبة، تلقت إنقاذاً هائلاً حين حوصرت وول ستريت وحين أعلن إن التعيين كان من أجل زيادة الوظائف لكن الحقيقة لم يكن لها علاقة بذلك والأدق كان ما سمي (اتبع النقود). منذ أكثر من قرن قال الممول السياسي الكبير مارك حنا أن الشيئين الإثنين المهمين في السياسية: النقود و(أنا نسيت الثاني. شيء آخر للمدارس الابتدائية).

هذا أكثر حقيقة اليوم وخصوصاً مع التغييرات الجذرية في الثلاثين سنة الأخيرة. وهي مهمة لنفهمها. هذه التطورات الغريبة في الثلاثين سنة الأخيرة اتبعت واحداً من التغيرات الرئيسية في النظام العالمي في الفترة الحديثة، أقصد تفكيك النظام الاقتصادي لما بعد الحرب العالمية الثانية، المسمى نظام بريتون وودز، الذي صممه المنتصرون في الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة وبريطانيا. المصممان الأساسيان لهذا النظام جون مينارد كينيز من بريطانيا واقتصادي الاتفاق الجديد نيوديل هاري ديكستر وايت للولايات المتحدة.

لهذا النظام مركب مركزي واحد هو تنظيم العملات وكان في الحقيقة جزءاً من أساس للنمو الاقتصادي الضخم الذي شهده العقدين

التاليين للحرب وهو الأعلى في التاريخ لكنه يفكك منذ أربعين سنة فكان واحداً من العوامل التي أدت إلى الانفجار الهائل في المضاربة المالية والنمو السريع للمؤسسات المالية. في ذلك الوقت كانت مركبات صغيرة من الاقتصاد تقوم أغلبها بما يفترض أن تفعله البنوك في الدول ذات النظام الرأسمالي، أقصد توجيه الموارد المالية غير المستخدمة مثل بنككم إلى نوع من الاستثمار المنتج.

كان ذلك قبل ٢٠٠٧ أي قبل انهيار المؤسسات المالية الكبير، ربحوا حوالي ٤٠٪ من أرباح الشركات في الولايات المتحدة. أتت أكثر أرباحهم من التلاعبات المالية المعقدة، أعمال لها منفعة اجتماعية أو اقتصادية قليلة إن وجدت ومضرة للاقتصاد والناس أيضاً بطرق كثيرة. كان يمكن تقليص هذه الممارسات بحدة لو سادت المبادئ الاقتصادية الغالبة وأمكن اختصار الانهيارات المالية وخسارة نقودكم. لكن لحسن الحظ لا يوجد خوف من ذلك على الأقل بالنسبة للأغنياء.

العامل الآخر في تمويل الاقتصاد هو انحدار معدل الربح في الإنتاج لهذا كان من السهل جني المال بتلاعبات مالية، ودائماً مع حماية من الجدة (الدولة) بالإضافة إلى تطور متصل جداً تمثل في ترحيل الإنتاج إلى خارج البلاد الذي تم ضمن نظام تجارة كوكبي صمم بحرص لوضع الشغيلة في تنافس مع بعضهم البعض في كل أنحاء العالم مع مستوى عالي جداً من الحماية للثروة وحقوق غير مسبوقة للمستثمرين. ذلك هو التفسير المعتاد لمبدأ السوق مرة أخرى: رائع بالنسبة لك، لكن ليس لي أرجوك.

هذه التطورات أطلقت حركة دائرة شر لتركز الثروة ومعها تركز السلطة السياسية، مرة أخرى بما يتفق مع بديهية سميث. في الثلاثين سنة الماضية كانت سياسة الدولة الشركة مصممة بدقة لتسريع هذه الدائرة لهذا عدم التساوي كما عرفتم حَلَّقَ إلى أعلى مستوياته في تاريخ

الولايات المتحدة. لكن المعروف بشكل قليل أن هذا في الواقع تضليل. اللامساواة المتطرفة نتجت أساساً من الثروة الاستثنائية لقمة الواحد بالمئة من السكان، في الواقع بدقة أكبر القمة الواحد بالألف. إنهم مجموعة صغيرة جداً يغفلها الإحصاء في الولايات المتحدة، التي تبخس بشكل واسع التباين من أجل هذا السبب. لقد درست من قبل علماء في الإقتصاد.

في الوقت الحالي ركدت الدخول الحقيقية للأغلبية السكانية كثيراً. ونجا الناس بأعباء عمل أكثر، أكبر بكثير من أوروبا واليابان مثلاً، دين وتضخم في الأصول مثل فقاعة الإسكان الأخيرة. الفئة الصغيرة من المستثمرين وهي صغيرة بشكل زائد وفي المقام الأول من مدراء تنفيذيين ومدراء صناديق وقائية وما شابه استخدموا سلطتهم السياسية لتعزيز العملية. صممت التخفيضات ببراعة لتفيد الأغنياء الكبار. لو نظرتم للوراء حتى عام ١٩٨٠ كانت الضرائب في الولايات المتحدة توزيعية إلى حد ما - ذلك وفقاً للتحليل (خدمة الدخل الداخلي) - كما في أغلب البلدان. ذلك هو ما يفترض أن يكون. منذ ذلك الحين مع انحدار النقطتين المضيئتين في الحقيقة وإذا قدمت عوامل أخرى، مثل ملاجئ ضريبية وخيارات مراوغة أخرى، فهي ستعيد التوزيع باتجاه الأعلى. ذلك صمم بعناية.

خذ تخفيضات بوش الضريبية قبل عشر سنوات، التي كانت عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد. صممت بحذر شديد. بدأت السنة الأولى بحسم ضريبي صغير للناس. لهذا أنت تحصل على مئتي دولار في البريد وتعتقد أن هذا حسم ضريبي كبير. لكنها كانت مصممة هكذا مع السنين لتتحول إلى الأغنياء وقبل السنة العاشرة صممت لينتهي مفعولها، أكثر من نصف أرباح الضريبة ذهبت إلى الواحد بالمئة الأغنياء، الناس الذين يحسب حسابهم. لكن آنذاك هي نوع من غير المنظور إن حدثت بتلك

الطريقة. هناك اسم لها. أنها تسمى تقنية غروب الشمس. تأكدوا أنه قبيل غروب الشمس، الأشياء تحدث في الطريقة الصحيحة. أنتم نوع من الناس المضللين في البداية. فقط هؤلاء في داخل اللعبة يستطيعون أن يروا ماذا يخطط في الطريق.

هذا نوع قياسي تماماً من سياسات الناس المسميين بالمحافظين، الذين يريدون الآن أن يجعلوها مستمرة. القوا نظرة على صفحة الغلاف للصحيفة. يريدون أن يجعلوا هذه التخفيضات دائمة لكن في الوظائف ونفس الشيء هنا. المبرر لإعطائنا مقدار ضخم من المال لهذا الواحد بالمئة الذين في القمة من السكان أو الجزء العشري منهم، الذين ينفقوها على ما يحبون، هو من أجل الوظائف. في الواقع يوجد تغييرات ممتعة تقع في اللغة الإنكليزية في هذا الخصوص. توجد كلمة أصبحت فاحشة، لكن بوجود ربما أطفال مع الحضور لا أستطيع قولها لكنني سأهيجها: أرباح. غير مسموح لكم قول ذلك. في الحقيقة تلفظ بطريقة أخرى. إنها تسمى وظائف وهذا نوع روتيني قبل الآن.

نفس الشيء هنا. تلك كانت تخفيضات بوش الضريبية لكن الشيء عينه يحدث الآن وفي هذه اللحظة. مثل جلسة الكونغرس البطة العرجاء (الكونغرس الموشكة نهاية فترته - المترجم)، الدورة بعد انتخابات نوفمبر/تشرين الثاني قبل أن يتولى الكونغرس التالي منصبه. امتدح أوباما كثيراً لإنجازاته أثناء الدورة العرجاء، عرض لشبه رجل دولة مزدوج الولاء. مدح من قبل مؤيديه في الحقيقة. كان هناك بعض الإنجازات. الإنجاز الرئيسي تخفيض ضريبي لكبار الأغنياء وأقصد كبار الأغنياء. مثلي أنا غني لكنني دون حد التخفيض. كان تخفيضاً ضريبياً لكبار الأغنياء. طبعاً الضريبة زادت من العجز الذي يفترض أن يكون الشيء الكبير الذي نقلق حوله. تطلب النجاح حركة مؤثرة جداً لكنها تمت.

أيضا بنفس الوقت كان هناك زيادة ضريبية للعمال الفدراليين، لكنها لم تسمى كذلك لأنه لا يفترض بكم أن تتكلموا عن زيادة ضريبية. سميت تجميداً، أعتقد لمدة خمس دقائق. التجميد يمكن أن يكون لثانية واحدة فقط. التجميد بالنسبة للقطاعات الشعبية مطابق للزيادة الضريبة، لهذا هي زيادة ضريبية لعمال القطاع العام قنعت كتجميد. وكان هناك أيضاً زيادة ضريبية على الرواتب من أجل التأمين الاجتماعي يدفعها الناس الشغيلة. لم تساهم بأي شيء في العجز - على العكس. دفعها العمال وكان هناك نقص في ذلك الدفع. الناس يحتاجون المال. لكن مرة أخرى كانت مثل حصان طروادة. خذ نظرة على الطريقة التي صممت فيها. كانت تكنيك غروب الشمس مرة أخرى. صمم التجميد بحرص لكي ينتهي قبل الانتخابات الرئاسية.

الشخصيات السياسية تفهم جيداً تماماً أنه مع قدوم الانتخابات، لن يقول أحد دعنا نرفع ضريبة جدول الرواتب. هذا يجعلها دائمة وهي طريقة لعدم تمويل صناديق التأمين الاجتماعي. التأمين الاجتماعي في الحقيقة في حال جيد جداً رغم كل الصراخ حوله. لكن إن استطعتم وقف تمويل صناديقه لن يبقى في حال جيد. وهناك تكنيك قياسي من الخصخصة، أقصد أوقف تمويل ما تريد تخصيصه. مثل تاتشر أرادت أن توقف تمويل السكك الحديدية، أول شيء تفعله وقف تمويلها عندما لا تعمل والناس يغضبون ويريدون التغيير. تقولون حسناً، خصخصوها ثم تصبح أسوأ. في تلك الحالة تتدخل الحكومة لإنقاذها.

ذلك هو التكنيك القياسي للخصخصة: لا تمول ولا تدخر في صناديق، تأكد أن الأشياء لا تعمل، يغضب الناس، سلمها لرأسمال خاص. ذلك الاحتيال على الضمان الاجتماعي. إن استطاعوا النجاح في عدم التمويل - كانوا يحاولون منذ عقود، إنه شعبي جداً لعمل الكثير من أجله، وفعال جداً بالمناسبة، تكاليف إدارية صغيرة جداً. لا شيء مثل

نظام الرعاية الصحية المخصخص لهذا التخلص منه صعب. لكن إن استطعت أن لا تمول ولا تدخر في صناديق، قد تنجح الخطة. إنها محفوظة في صندوق وديعة أو مستثمرة في سندات حكومية وتعود للناس الشغيلة. لكن ذلك يمكن أن يقع بأيدي المؤسسات المالية، يمكنها أن تربح طناً من النقود باستغلال هذه الودائع لإثراء أنفسهم. وكالعادة حين ينهار النظام، يعودون إلى دافع الضرائب لينقذهم من الإفلاس.

هناك عيوب في الضمان الإجتماعي حقيقة. إنه بلا فائدة بالنسبة للناس الأثرياء. ربما هم يحصلون عليه ينتقمون منه لكنهم لن يلاحظوه. إنه نكاشة أسنان على جبل. من يهتم؟ لكن من أجل قسم كبير من الناس إنه وسيلة لبقائهم أحياء. ذلك صواب. لدى الناس مقدار هائل من الثروة المزيفة التي وثقوا بها في الإسكان. كانت فقاعة مزيفة لكنهم صدقوها. لهذا كانت اقتراض قديم من أجل التعليم، من أجل أي شيء. ثمانية تريليونات ضاعت. هؤلاء الناس سوف يعتمدون على التأمين الاجتماعي الذي لا أهمية له بالنسبة للأثرياء طبعاً.

هناك نقطة أعمق، إن التأمين الاجتماعي مؤسس على مبدأ تحدث عنه كمال عباس، أقصد التضامن الاجتماعي. التأمين الاجتماعي مبني على فكرة أنك مهتم بما يحدث للناس المحتاجين. لهذا مثلاً إن كانت هناك أرملة مقعدة في طرف البلدة ولا تملك طعاماً تأكله، يفترض بك أن تعتني بها. هذا هو ما يدور حوله الضمان الاجتماعي. وتلك فكرة سيئة. أنت يفترض أن تهتم بنفسك وليس بالناس الآخرين. الضمان الاجتماعي خطير. إنه نوع من التشويهات للعقائد المفضلة ويمكن أن يؤدي إلى فعل، ببدل الطريقة التي يعمل بها العالم. لهذا نحن لا نريد ذلك. في الحقيقة هناك هجوم بمستوى كبير على التعليم الحكومي مؤسس على نفس المبدأ، إن استطعت تخصيص... ونفس التكنيكات تستخدم. جفف تمويله لكي لا يعمل، تذمر بأنه لا يعمل، خصخصه،

يزداد سوءاً. لكن أنت بذلك قوضت التضامن الاجتماعي وهذا مناسب جداً للأثرياء في كافة الأحوال. سيحصلون على ما يريدون.

إن هذا كله جزء من الحملة الهادئة المؤثرة من الحرب الطبقية، التي لها أوجه عديدة. الكثير من تلك الأوجه غير مدرك فوراً لكنها هناك. مثلاً، الحكومة تضع قوانين عن كيفية إدارة الشركات، ما سمي حكم الشركات. وهذه القواعد التي وضعت خلال فترة هذه الحرب الطبقية المتقدة، القواعد تمكن المدراء التنفيذيين من اختيار مجلس الإدارة الذي يضع رواتبهم ويطبقون تقنيات مثل، خيارات الأسهم التي تخفي الربح القصير الأمد. يمكنك تخيل كيف ينجح ذلك حين تختار مجلس الإدارة الخاص بك.

كانت هناك جهود بذلت لجعل هذا الأمر أكثر شفافية، لكنها رفضت من قبل الكونغرس. ونفس الشيء صحيح عن إلغاء القيود المنظمة. أثناء الفترة حين ألغيت القيود المنظمة للصفقة الجديدة لم تكن هناك أزمات مالية. سار النظام بسلاسة. منذ ريغان كانت هناك أزمات مالية دورية، كل واحدة أسوأ من سابقتها. لكن الأغنياء والمتنفذين ينجحون بشكل ممتاز للأسباب التي ذكرتها. الشعب يدفع والأغنياء يستفيدون.

وهذا كله نوع من مرحلة جديدة من رأسمالية الدولة. الولاء للشركات بات أقل وأقل من الضروري عندما يكون هدف الإدارة هو الأرباح القصيرة الأجل، والتي يأتي أغلبها من التلاعبات المالية. لهذا من يهتم بالشركة؟ إن سقطت؟! البطالة الداخلية ليست مشكلة. ليس هناك حاجة إلى قوة عمل داخلية حين يمكن استخدام مصادر لقوة العمل الرخيصة والمستغلة بشكل وحشي في المكسيك والصين وفيتنام كمصانع تجميع وهي مصانع تجميع. الصناعات الرئيسية لديها قوة العمل الخاصة بها مسبقاً وهي في تنامي، مثل جنرال اليكتريك، بينما - يجب أن أقول، أنا أخشى، (آسف) بينما تعود الأرباح إلى جيوب فئة قليلة جداً في الوطن.

خذوا (آي بي إم). إنها مثال ممتع جداً. صحافة البزنس أدارت مقالة كبيرة عنها قالت وهذا صحيح إن (آي بي إم) قد تفاجئ الكثير من الناس بأنها الشركة الأمريكية المثالية، لكن ٧٠٪ من قوة عملها كانت خارج الولايات المتحدة في نهاية ٢٠٠٨. وفي السنة التالية، بينما استمرت في تخفيض التشغيل والتوظيف في الولايات المتحدة، أعلنت الشركة برنامجاً يوفر للموظفين فرصة لنقل وظائفهم إلى أسواق ناشئة. في عبارة أخرى، لديك الفرصة للانتقال إلى الهند مثلاً، حيث يمكنك العيش بمستوى معاشي أقل. فرصة رائعة، لكن ذلك يزيد كفاءة الشركة ويقدم الثروة للسادة. إذا لم يغتنم الموظفون هذه الفرصة التي قدمت لهم بكرم كبير، فلهم خيارات. يستطيعون الانضمام إلى الناس الواقفين في طابور من أجل طوابع الطعام. لكن (آي بي إم) شركة خيرة، كما أبرزت المقالة. هم يعرضون ليدفعوا من تكاليف الانتقال إلى مكان جديد لهذا هم فتيان لطيفون فعلاً.

لم يوضح التقرير في صحافة البزنس لماذا يجب أن تعتبر شركة (آي بي إم) الشركة المثالية الأمريكية لكن هناك أسباب جيدة في الواقع. الأول أن (آي بي إم) تعتمد على دافع الضريبة في ثروتها. هكذا تعلمت أن تنسى الأشياء السابقة مثل مساعدة ألمانيا النازية. لكن في الفترة الحديثة تعلمت أن تنتقل من ثقب البطاقات إلى الحواسيب الحديثة. تعلمته في المختبرات التي يمولها البنتاغون حيث أنا أعمل مثلاً. أخيراً في أوائل الستينيات كانت الشركة قادرة أن تنتج حواسيبها السريعة الخاصة بها لكنها كانت مكلفة جداً للبزنس، لهذا تقدمت الولايات المتحدة لشرائها. عموما قوادة من قبل الدولة وسيلة رئيسية من إعانة دافع الضرائب المالية.

سنوات كثيرة، في الواقع بعد عقود، كانت (آي بي إم) قادرة أن تحقق أرباحاً في السوق وكانت أيضاً قادرة أن تطلق مشاريع مكملة ناجحة

بشكل متهور مثل مايكروسوفت وغيره التي استفادت أيضاً بإسهاب من الإعانة المالية العامة. في الواقع هذا صحيح. إنها شركة أمريكية مثالية وتتبع مبادئ اقتصادية سليمة في نقل التوظيف إلى خارج البلاد. ما يحدث للبلاد ليس شأنها. ولا يساوي شيئاً وهذا ليس جديداً. ليس منذ زمن بعيد المستقبل الطويل الأجل للشركة كان اعتباراً مهماً للإدارة. أصبح أقل فأقل تحت أشكال حديثة من رأسمالية الدولة.

الممتع أكثر في هذه القضايا كانت مدركة من قبل المؤسسين العظام لعلم الاقتصاد الحديث، آدم سميث مثلاً. لقد اعترف وناقش ما سيحدث لبريطانيا إذا التزم السادة بقواعد علم الاقتصاد الصائبة – ما يسمى الآن بالليبرالية الجديدة. حذر إذا تحول المصنعون والتجار والمستثمرون البريطانيون، قد يربحون لكن بريطانيا ستعاني. مع ذلك، شعر أن هذا لن يحدث لأن السادة سيدلهم الانحياز للوطن. لهذا إذا كانت إنكلترا ستنجو بيد خفية فإنه يتلف المنطقية الاقتصادية.

المقطع يصعب إهماله. إنه الظهور الوحيد للعبارة الشهيرة «يد خفية» في ثروة الأمم، يعني في المقالات النقدية نسميها النيوليبرالية. المؤسس البارز الآخر لعلم الاقتصاد الحديث، (ديفيد ريكاردو)، توصل إلى استنتاجات مماثلة. أمل أن الانحياز الوطني سيقود، أنا اقتبسه الآن، «سيدل رجال الملكية ليكونوا قانعين وراضين بمعدل منخفض من الأرباح في بلدهم بدلاً من البحث عن توظيف أفضل فرصة لثروتهم في أمم أجنبية». قال «هذه هي مشاعر أنا آسف أن أراها موهنة وضعيفة» بوضع تنبؤاتهم جانباً، كانت غرائز الاقتصاديين الأصيلين مصيبة تماماً.

ذكرت سابقاً أحد لاكفاءة السوق المشهورة، لاكفاءة السوق في إهمال الأشياء الخارجية؛ أي، أثر صفقة على الآخرين. في حالة المؤسسات المالية، الشيء الخارجي الذي يتم التغاضي عنه هو المجازفة الجهازية، المجازفة التي تحطم النظام برمته نتيجة لصفقة فاشلة. أنت لاتأخذ

ذلك في الحسبان حين تعقد صفقة. في تلك الحالة يستطيع دافع الضرائب الإسراع إلى الإنقاذ. بتلك الطريقة يمكنكم أن تتأكدوا أن هؤلاء الذين يربحون من الصفقات المجازفة سوف يُنقذون.

لكن ذلك ليس خياراً دائماً والعواقب يمكن أن تكون قاسية - في الحقيقة قاسية بشكل مروع. لهذا لا أحد سوف يأتي للإنقاذ إن تدمرت البيئة وأنها على وشك أن تدمر وإلى حاجة مؤسساتية تحت دولة رأسمالية معاصرة. فكر بها كلها. زعماء البزنس الآن يديرون حملات دعائية ضخمة لإقناع السكان أن التسخين الكوكبي الأنثروبوجيني - تسخن كوكبي بسبب التدخل الإنساني - خدعة ليبرالية، وهم ينجحون. كما في الولايات المتحدة ربما ثلثا السكان يعتقدون بهذا الآن.

المدراء التنفيذيون الذين يديرون هذه الحملات، يفهمون ما نفهمه كلنا. هم يفهمون أن التهديد حقيقي جداً، وخطير جداً وأنه سيدمر كل شيء يملكونه وأنه سيحطم حياة أحفادهم. هم يعرفون كل ذلك. لكن كمدراء تنفيذيين لشركة، في تلك المؤسسات ليس لديهم أي خيار. يستطيعون الانسحاب طبعاً لكن إن بقوا هناك عليهم أن يضاعفوا إلى أقصى حد ربح قصير الأجل وحصة في السوق (ماركت شير). في الحقيقة ذلك مطلب شرعي تحت القانون الانغلوأمريكي. إن لم يفعلوها سوف يكونون في الخارج وسيأتي شخص آخر ليفعلها. لهذا هي ملكية مؤسساتية، وليست فردية. وهي تطلق دائرة شريرة، دائرة يمكن أن تكون مميتة.

لنرى المدى الذي تجذر فيه الخطر ليس علينا إلا أن نلقي نظرة فقط على الكونغرس الجديد في الولايات المتحدة، الكونغرس دفع إلى السلطة بتمويل من البزنس ودعاية بمقياس كبير. تقريباً كل واحد هناك هو ناكر للتغير المناخي وهم يتصرفون على هذه الافتراضات. لقد

قلصوا النفقات المحدودة الموجودة من أجل معالجة المشاكل البيئية. إذاً الولايات المتحدة لم تفعل أي شيء هام، بقية العالم لن يفعل أيضاً.

أسوا من ذلك، بعضهم مؤمنين حقيقيين. مثلاً، الرئيس الجديد لإحدى هذه اللجان التي تتحدث عن البيئة علل أن التسخن الكوكبي لا يمكن أن يكون مشكلة لأن الرب وعد نوح بعدم حدوث فيضان آخر. ذلك يعتني بالأمر. إن كان ذلك يحدث في اندورا أو بلاد نائية صغيرة، ربما سنضحك نحن لكنه ليس مضحكاً حين يحدث في أغنى وأقوى البلدان في العالم. قبل أن نضحك، يجب أن نبقي بأذهاننا أن الأزمة الاقتصادية الراهنة ملحوظة بمقاييس ليست صغيرة للمؤمن المتعصب في هكذا عقائد مثل فرضيات السوق الكفؤ وفي العموم إلى ما أسماه الفائز بجائزة نوبل جوزيف ستيغليتز قبل ١٥ سنة «الدين الذي تعرفه الأسواق جيداً». لقد أجبر الدين الاقتصاديين والاحتياط الفيدرالي أن يلاحظوا وجود فقاعة الثمانية تريليونات دولار التي لا أساس لها على الإطلاق في مبادئ الاقتصاد الأساسية، بعيداً جداً عن النزعات التاريخية، ستُخَرِّبُ الاقتصاد حين تنفجر لكن لا حاجة للنظر إليها لأن لدينا دين. الأسواق تعرف أفضل، لهذا انسوها. عاد ذلك الدين للحياة رغم ما حدث.

كل هذا وأكثر بكثير يمكن أن يستمر في الحدوث طالما عموم السكان سلبيين ولا مبالين مكرسين للنزعة الإستهلاكية أو ربما كره القابل للعطب. طالما ذلك صحيح يستطيع الأقوياء أن يفعلوا ما يشاؤون وهؤلاء الناجون سيتركون ليتأملوا الدمار.

القسم الثاني

مقالات كتبت عن تشومسكي

ضمير أمة

مايا جاغي - ذا غارديان

٢٠ كانون الثاني / يناير ٢٠٠١

حين يؤدي جورج دبليو بوش القَسَمْ كرئيس حالي للولايات المتحدة، سوف تستجمع واشنطن قواها في أكبر تظاهرة بمناسبة يوم التتويج منذ أن أقلق المتظاهرون ضد الحرب الفيتنامية ريتشارد نيكسون عام ١٩٧٣ وهذه الدعوة إلى الشوارع مدعومة من نعوم تشومسكي، المحارب القديم الرئيسي في الحركة المناوئة للحرب. منشق أميركا الأول ظل غير متفاجئ ولا خائب من انتخابه.

وقال «إنه انتصار للديمقراطية» مع سخرية حادة يمكن أن تفهم خطأ على أنها كلبية. «إن القضايا التي اتحد عليها عالم البزنس لا تظهر في الانتخابات، لهذا يقترع الناس على قضايا محيطية وسطحية تركز عليها الميديا : الشخصية - هل يتذكر جورج بوش أين تقع كندا؟ بهذا الشكل يمكن الحفاظ على السلطة حين لا تستطيع ضبط الشعب بالسلطة. تلك هي الطريقة بالضبط التي يفترض بنظام ماديسون أن يعمل بها».

تشومسكي الآن في الثانية والسبعين من العمر، وقد أمضى الكثير من حياته في تعرية أهم أوهام أمريكا المدللة مهاجماً نظاماً سياسياً مؤلفاً من «ديكتاتورية مدتها أربع سنوات» وطبقة مثقفة متذللة للسلطة، وصحافة لا يراها حرة وإنما أداة لـ«غسل الأدمغة في ظل الحرية». انتقاد معمر لسياسة الولايات المتحدة الخارجية من حديقتها الخلفية أمريكا اللاتينية إلى إسرائيل وإندونيسيا، يطعن في «مداهنة أميركا لصورتها الذاتية» في نيتها الخيرة. يصر بأن الحريات الداخلية في أكثر

المجتمعات تحرراً تتواجد مع دافع ومحرك امبريالي لجعل العالم آمناً لرأسمال الولايات المتحدة الذي يخلف دماء الأعمال الوحشية على الأيادي الأمريكية.

إدوارد سعيد، أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا، يرى أعمال تشومسكي كـ«حرب مؤجلة بين الحقيقة وسلسلة من الأساطير». بالنسبة له: «نعوم واحد من أهم التحديات للقوة الظالمة والأوهام»؛ ويذهب ضد كل افتراض عن الإيثارية الأمريكية وحبها للخير والإحسان. «صديق آخر الصحفي جون بيلجر، يتفق مع فكرة تشومسكي الثابتة عن السلطة» أن السلطة غير المسؤولة يجب أن تفحص دائماً ولا يجب أن تقبل في قيمتها الظاهرية. هو يزيل طبقات الدعاية المموهة ويغربل الخطاب السياسي بصورة ذكية ويذهب إلى السجل الشعبي ليكشف الحقيقة في كلمات السلطة نفسها.

أحدث كتب تشومسكي، «**جيل جديد يرسم الخط**»، سيخرج في الشهر القادم. عنوانه يردد صدى كلمات توني بلير في حرب كوسوفا عام ١٩٩٩. بالنسبة لتشومسكي «العقيدة الرسمية» لفجر عهد شجاع جديد من التدخل العسكري لحماية حقوق الإنسان زيف وخدعة مثل «النظام العالمي الجديد» الذي دوت طبوله في حرب الخليج. التباين القلق المعلن حول كوسفو مع اللامبالاة نحو الأكراد في تركيا حليفة الناتو أو مع دعم الولايات المتحدة وتغذيتها للأعمال الوحشية في كولومبيا و(مع الصديق الحميم البريطاني) تيمور الشرقية، ينكر أن التضارب يمكن أن يكون حاداً. حول كوسوفو يضيف تشومسكي، لأن أسوأ الأعمال الوحشية التي ارتكبها الصرب تلت بشكل متنبأ به ضربات الناتو الجوية التي قيل أنها لحماية حقوق الإنسان التي لم تكن لا حافزاً ولا نتيجة.

صنع تشومسكي شهرته في الفلسفة اللغوية أولاً حيث كانت «**الثورة التشومسكية**» في دراسة اللغة كمقدرة للعقل/الدماغ محورية في الانتقال الراديكالي في العلم الإدراكي في الخمسينيات والستينيات؛ الفترة قبله عرفت بـ«لغويات بي سي» (قبل تشومسكي - المترجم). بينما كان يعدل نظريته اللغوية على مر السنين - الأحدث **برنامج المعتدل**، رسمت خطوطه الخريف الماضي في كتابه **آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل** - أثره على الساحة كان مشابهاً للأثر الذي تركه كل من اينشتاين وفرويد. لقد رفع العوائق بين العلوم والإنسانيات. «فَعَلَ للعلم الإدراكي ما فعله غاليلو للعلوم الفيزيائية» يقول نيل سميث، أستاذ اللغويات في ينوفيرستي كوليج. «نحن ندرس العقل الآن كجزء من العالم المادي».

يندرج تشومسكي في مصاف ماركس وشكسبير والكتاب المقدس كواحد من أهم المصادر المقتبسة في الإنسانيات - والكاتب الوحيد منهم كلهم الذي لا يزال حياً. حتى أعتى نقاده الفيلسوف هيلاري بونتام يعترف أن قراءة تشومسكي يجب أن تخترق بإحساس من القوة العقلية الكبيرة............ يعرف المرء أنه يواجه عقلاً استثنائياً «شملت فضائله» أصالة واحتقار للسطحية والبدع. «براعته المزدوجة في اللغويات والسياسة وحوالي ٧٠ كتاب غذت الشكوك بأنه هناك تشومسكيان اثنان. مع ذلك تظل علاقتهما لغزاً». حين نعتته نيويورك تايمز «قد يكون أهم مثقف حي اليوم». استمر الكاتب: «وإلا كيف استطاع أن يكتب مثل هذه الأشياء البغيضة عن السياسة الخارجية الأمريكية؟»

رأيه أن غير الأكاديميين والصحفيين كـ«كقساوسة دنيويين» لم يحببوا الناس به ويُشَهِرُوه بوسائل الإعلام في الولايات المتحدة، مع ذلك ضمنت له أحاديثه المتكررة في الولايات المتحدة وفي الخارج حضوراً في الآلاف وملأت خطبه ومقابلاته وتسجيلاته الانترنت.

هو أستاذ للغويات والفلسفة في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا في كامبريدج، على طرف نهر تشارلز في بوسطن. جسده الذي كان نحيلاً يبدو الآن مملوءاً أكثر (لكنه ظل سباحاً ممتازاً) وصوته الناعم والأجش يُكَذِّبُ سمعته في الشجارات العنيفة. جديته تفسح المجال لتوقع متوهج لزيارة نهاية الأسبوع من ابنته دياني، التي تعمل لدى وكالات للتنمية مع زوجها النيكاراغوي في ماناغوا وطفليهما ايما واينتي (تشومسكي وزوجته كارول لديهما ابنة أخرى، تعلم تاريخ أمريكا اللاتينية وابن اسمه هارين مهندس برمجيات في كاليفورنيا).

وصف تشومسكي نفسه كـ«**متعصب**» بمعنى عبء العمل و«كاتب رسائل عصابي». حسب ما جاء عن موريس هالي، زميل وصديق لأكثر من أربعين سنة، «حين ترسل له خمس صفحات من النقد، يعيدها لك عشر صفحات، أياً كنت، إنه ليس الغرور، مادة النقد هي المهم» مساعدان اثنان يتعاملان مع مئتي رسالة إلكترونية غريبة يتلقاها يومياً. بينما يؤكد كثير من الأصدقاء على أخلاقية أعمال تشومسكي وذاكرته الظاهراتية وحسه بالفكاهة الساخرة وعدم حبه للأضواء، يقول هالي إنه «لا يحب كثيراً الأحاديث الصغيرة؛ كل شيء يفعله يأخذه على محمل الجد - بالتزام حقيقي».

ولد تشومسكي في عام ١٩٢٨ في فيلادلفيا بنسلفانيا، الأكبر بين صبيين. والده وليام مدرس العبرية فَرَّ من روسيا في ١٩١٣ ليتفادى سحبه إلى جيش القيصر. أمه ايلزي، التي جاءت طفلة من ليتوانيا، علمت أيضاً في مدرسة عبرية. «عائلتي المباشرة كانت نوعاً من الغيتو اليهودي في فيلادلفيا»، قال تشومسكي. «عائلة والدي كانت أرثوذوكسية متطرفة، من شتيتل في أوروبا الشرقية». أقرباء أمه، الذين يشملون شيوعيين كانوا، عاطلين عن العمل ومشاركين في حياة ثقافية غنية نابضة بالحياة - تمتد من الموسيقى والفن إلى النشاط السياسي. ليس

لدى أغلبهم سوى تعليم رسمي ضئيل، لكن أن تكون يهودياً فهذا ثقافة طبقة عاملة نشطة. «أحد أعمامه في نيويورك»، أثقلته خلفية من الجريمة، كان يدير كشكاً للصحف في زاوية الشارع ٧٢ وبرودوي.

كان تشومسكي طفل الكساد الكبير ١٩٢٩ - ١٩٣٠. «بمقاييس تلك الأيام كنا في حالة مالية مرضية؛ لدى كل من والدي ووالدتي وظيفته». من بين أقدم ذكرياته كانت رؤية الناس يأتون إلى الباب يبيعون الأسمال، وفي عربة الترام مع أمه «رأيت أناس يضربون نساء مضربات عن العمل خارج معمل للنسيج» لقد جاء مبكراً إلى الوعي السياسي. «اشتهرت دائماً بأنني وحيد في صورتي للعالم. كان هذا في أواخر الثلاثينيات؛ زمن مذهب الفعالية السياسية والنقاشات والخوف الكبير من احتلال هتلر لأوروبا. رأيت العالم كمكان معقد ومخيف».

كان البقاء على قيد الحياة قاسياً لـ«العائلة اليهودية الوحيدة في جوار من الطبقة الوسطى الدنيا أغلبهم من الإيرلنديين والألمان الكاثوليك، ومعادين للسامية مسعورين». الأطفال ذهبوا إلى مدرسة يسوعية وكبرت في خوف عميق من الكاثوليكيين. كان هناك أحزاب كبيرة مؤيدة للنازية عند سقوط باريس. ثم في كانون الأول ديسمبر ١٩٤١ [بعد الهجوم الياباني على أسطول الولايات المتحدة في بيرل هاربور] انتقل الجيران ١٨٠ درجة. نفس الأشخاص الذين كانوا يشجعون ويهتفون للنازيين فتحوا أبوابهم وهم يرتدون قبعات قصديرية ليقولوا، «انزلوا الستارات». كانت تجربة تربوية وأضاف: «لا أنا ولا أخي تحدثنا مع والدينا حول هذا. كانا في الغيتو اليهودي وكنا جزئياً في الشوارع. لم يكن هذا من الأشياء التي يمكن التحدث عنها».

إن تشومسكي حذر ومتردد حول أصول إحساسه الحاد بالمسؤولية الأخلاقية «حين كنت طفلاً تأثرت جداً من الاضطهاد والتدمير والخوف القوي مما كان يحدث في أوروبا. كنت أسمع خطابات هتلر على المذياع

وأرى ردود أفعال أمي. في التاسعة أو العاشرة تقريباً من عمري كنت أقرأ الصحف واستمرت هذه العادة منذ ذلك الحين. بدا الأمر واضحاً: أنت مسؤول عن أفعالك ونتائجها المتوقعة». كان في السادسة عشر حين ألقت الولايات المتحدة القنبلة الذرية على هيروشيما. «كنت في المعسكر الصيفي للناطقين بالعبرية حين أتت الأخبار. وجدتها صادمة وصدمني بالمثل عدم اهتمام أي أحد بذلك. لم يكن هناك أحد تتحدث معه إذ ليس هناك من اعتبر هذا العمل عملاً شنيعاً». بالرغم من أن مدرسته الابتدائية التقدمية وضعت «جائزة للإبداع الفردي»، لكنه وجدها – حيث تفوق – تنافسية بشكل ممل.

يرى تشومسكي أن تربيته السياسية أتت من النقاش بين المهاجرين. فوضوي طيلة حياته أو «اشتراكي تحرري» – ليس مذهباً وإنما «ميل في الفكر الإنساني» – هو يعتقد أن «العنف والخداع واللاقانون وظائف طبيعية للدولة». في سن العاشرة كتب افتتاحية لصحيفة مدرسته حول سقوط برشلونة في الحرب الأهلية الإسبانية، عويل حول ظهور الفاشية. «كنت دائماً إلى جانب الخاسرين»، يقول. يتذكر قائلاً: «قضيت وقت فراغي من عمر الثالثة عشر التقط الكتب الفوضوية من المخازن. لقد انجذبت بسرعة إلى المقالات النقدية اليسارية الفوضوية التي يكتبها البلاشفة [وأصبحت] مهتماً في الثورة الإسبانية الفوضوية التي سحقها الشيوعيون».

كان ناشطاً في «جماعة ذات آراء متطرفة صهيونية» – معارض دائم للدولة اليهودية ومؤيد لنتيجة ثنائية القومية في فلسطين مؤسسة على تعاون عربي – يهودي، «لم يكن ذلك غير واقعي جداً آنذاك كما يبدو عليه اليوم». في عام ١٩٥٣ قضى ستة أسابيع في كيبوتز إسرائيلي مع زوجته كارول شاتز (هي الآن لغوية) التي عرفها في مدرسة عبرية وتزوجا في عام ١٩٤٩. «نحن فكرنا في الانتقال إلى هناك جدياً، أحببت

الحياة. الشيء الجميل في العمل الجسدي أن لديك مهمة محددة حين تنجزها تنتهي من ذلك. لا أحد سيخمنك ثانية». لكن كانت هناك عيوب في ما اعتبره تشومسكي تجربة فوضوية. «كانت الطريقة التي تعاملوا بها مع العرب وحتى اليهود الشرقيين بشعة جداً». أكثر ما ضايقني التماثل الإيديولوجي: الذي كان «ستالينياً بشكل عميق - يسارياً وبوبرايتياً - وجدت أن قبوله كان مستحيلاً».

بانجذابه إلى اللغويات في جامعة بنسيلفانيا حيث عمل تحت إشراف التحرري زيلغ هاريس (ودفع مسيرته كمدرس للغة العبرية)، أصبح تشومسكي زميلاً مستجداً في هارفارد. ارتحل على الطريق المؤدي إلى (ام آي تي) في عام ١٩٥٥. لم يكن أحد يطيق اليهود في هارفارد إلا نادراً؛ لم يكونوا جزءاً من الحياة الثقافية. أحد الأسباب التي جعلت (ام آي تي) كبيراً أن المثقفين اليهود لم يجدوا وظائفاً في مكان آخر. «شعر بأنه دخيل في أشكال أخرى». «لم يكن لدي أوراق اعتماد احترافية. نلت منصبي هنا في مختبر للبحوث عن الإلكترونيات، التي لا أعرف شيئاً عنها. لكن حدث أن يكون مركز للبحوث الإبداعية ولم تكن فيه اهتمامات راسخة في العلوم الإنسانية. كان العاملون فيه راغبين في التجريب».

كتابه التراكيب النحوية الذي نشر في عام ١٩٥٧ حين كان في التاسعة والعشرين، سبب ثورة في دراسة اللغات كجزء من علم النفس وعلم الأحياء. من اعتقاده في اشتراك البشر في مقدرة لغوية فطرية، أو «عضو» نشأت نظريته عن النحو الكوني الضمني رغم اختلاط الألسن وانبثقت من أفكاره ضوابط قواعد جديدة، من علم اللغة السلوكي إلى كيفية تعلم الأطفال اللغة. حسب جان ايتشيسون، أستاذ اللغات والتواصل في أكسفورد: «بأقل من ١٢٠ صفحة، قلب اللغويات من قواعد يدرسها المبشرون إلى علم اجتماعي رئيسي. نقل الجدل من جسد النطق الفعلي إلى النظام العقلي الذي ينتجه».

كوريث لأفكار التنوير بأن اللغة «مرآة للعقل» شارك تشومسكي الرأي الديكارتي بأن اللغة هي الميراث الإنساني الأكثر الذي يميز الإنسان عن الحيوان أو الآلة. (شمبانزي حاول الباحثون تعليمه لغة الإشارة في سبعينيات القرن العشرين دون أن ينجحوا سمي بخبث نيم تشيمبسكي). لا يزال عمله يتعرض للاستخفاف في بعض المراكز كـ«عقلية غير علمية لإم آي تي». مع ذلك وبناءاً على رأي ستيفن بينكر أستاذ علم النفس في (ام أي تي) ومؤلف غريزة اللغة، «نظرية تشومسكي في النحو التوليدي المقاربة الوحيدة الأكثر شيوعاً في اللغة في العصر الحالي. إنه رأي الأقلية لكن الكل ينصب رؤيته عليها».

مراجعة تشومسكي النقدية المريرة في عام ١٩٥٩ (لبي اف سكينر)، الذي كانت اللغة بالنسبة له مجرد سلوك يتعلمه الشخص، العقيدة التجريبية للوح الأبيض - أي ليس هناك شيء في العقل لم يكن موجوداً في الحواس أولاً. «لقد صوب الطلقة المميتة الأولى للمدرسة السلوكية وألف نظريات عن البنية العقلية الفطرية جديرة بالاحترام بعد قرون من عدم التفكير بها» يقول بينكر، الذي لمح إلى رابطة واحدة بين نظريات اللغة والسياسة: «قال سكينر أن السلوك يجب أن يُضبط»؛ أراد أن يحول المجتمع إلى صندوق سكينر - يكافئ البشر ويعاقبهم مثل الجرذان والحمام في تجاربه، رؤية وصفها تشومسكي مثل «معسكر اعتقال مُدار بشكل جيد».

مَالَ تشومسكي إلى النفور من الربط المبسط بين نظرياته اللغوية والسياسية. رغم ذلك ربط آخرون إلحاحه على الكونية - إن كل واحد يتكلم «إنسان» والمقدرة الإبداعية المثبتة باللغة مع نظرته الفوضوية في التزامل الحر. تستند الأنظمة السياسية غالباً على رؤية للطبيعة الإنسانية، وفي مقال له عن اللغة والحرية في عام ١٩٧٠ كتب تشومسكي عن اللغة كـ«منصة انطلاق» لتفحص تلك الطبيعة. «الروابط التي

استجرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر بين اللغة كمكون أساسي وإبداعي في الذكاء، وغريزة للحرية بإمكانها أن تكون الأساس لكيفية تنظيم البشر لحياتهم»، يقول. «أعتقد هناك شيء لكن بالتأكيد ليس هناك رابط منطقي».

لكن لماذا كان للسلوكية الفتنة والهيبة التي حظيت بهما إن كانت بهذا العقم وهذه الضحالة هو سؤال ممتع. ضمن اليسار الماركسي - دون شمل ماركس - هناك نزوع قوي للإصرار على عدم وجود طبيعة إنسانية: إن الناس تبنيهم وتنشئهم ظروفهم التاريخية وبيئتهم. هذا لا معنى له، لكن هذه الأفكار ملائمة جداً لهؤلاء الذين يطمحون إلى سياسات إدارية، فهم ينقلون العوائق الأخلاقية إلى التلاعب والقسر.

إذا لم يكن للبشر طبيعة إنسانية أساسية مبنية على غريزة للحرية تستطيع التحدي وهزم العدوان والهرمية، إذ ليس هناك في الحقيقة قيم أخلاقية؛ إن كان الناس مخلوقات جاهلة ومطيعة تستطيع التجربة والتمرين أن تعدلهم، إذ يمكن التحكم بهم لمصلحتهم الخاصة. تلك فكرة مرعبة للعقلاء عبر الطيف السياسي. «اللينينية التعبير الأول عنها والديمقراطية الإشتراكية التعبير الآخر».

في عام ١٩٦١، كان تشومسكي أستاذاً تاماً في (ام آي تي)، سعيداً في بحثه مع عائلة ناشئة. في ١٩٦٤، أيد طلاب ضد النظام وبدأ يقاوم الحرب الفيتنامية بشكل صريح «كان الامتناع عن ذلك غير أخلاقي بشكل بائس». وندم لأن ذلك تأخر كثيراً جداً؛ بعد أن غزت الولايات المتحدة فيتنام الجنوبية، ماذا نسمي التطهير العرقي حين يقوم الآخرون به الذي كان مستمراً من بداية الستينيات. ذاك هو الوقت للتورط في الأمر على نحو جدي. هو عرف أنه لم يعد هناك تراجع. «كان عبئاً ثقيلاً على زوجتي. عادت إلى الجامعة وحصلت على شهادة وذلك جزئياً بسبب احتمال تعرضي للسجن».

ظل يُذْكَرُ لسنين، «كان العمل العلني ضد الحرب مستحيلاً تقريباً. في بوسطن، مدينة ليبرالية تحب أن تطلق على نفسها اسم أثينا أمريكا، تكلمت في اللقاء الشعبي الرئيسي الأول في أكتوبر تشرين أول ١٩٦٥. هاجمتنا حشود من الناس، ولم ينقذنا منهم سوى تدخل شرطة الولاية: لم يحبوا ما كنا نقوله لكنهم لم يريدوا أن يقتل أناس في مجلس عموم بوسطن». رفض دفع الضرائب في عام ١٩٦٦ واعتقل في احتجاج البنتاغون عام ١٩٦٧ وذكره نورمان ميلر الذي سجن معه، كرجل نحيل حاد القسمات مع تعبير زاهد في وجهه ونفحة من السلطة الأخلاقية المطلقة لكنها لطيفة «بدا» قلقاً من فكرة إضاعة الدرس يوم الاثنين.

في مقال له في ١٩٦٦ عن مسؤولية المثقفين، وصف تشومسكي واجبهم بأن «يقولوا الحقيقة وأن يفضحوا الأكاذيب». أول مجموعة له من الكتابات السياسية، السلطة الأمريكية والموظفين الكبار الجدد، نشرت في ١٩٦٩. بينما كان المثقفون والـ«المفوضون» يكذبون في خدمة السلطة، أوضح أن فهم السياسة والشؤون الخارجية لا يتطلب أكثر من «الحس الديكارتي العام». اعترض بعض النقاد على وجود تضاد بين «نخب» ملقنة وبين «الشعب» فرد عليهم: «في أي مجتمع غير متساو؛ هناك ميل لهؤلاء الذين يقتسمون الثروة والسلطة أن يحاولوا الحفاظ عليه. بعض الأنظمة تفعل ذلك بالقوة وأنظمة أخرى تفعله بالفوز في موافقة السكان وإجماعهم أو امتثالهم على الأقل».

في تصنيع الإجماع، الذي ألفه بالاشتراك مع ادوارد هيرمان، أشار تشومسكي إلى طراز من وسائل الإعلام الجماهيرية يقولب هذا الإجماع بتحيز وإغفال. وكتبا أن «الدعاية بالنسبة للديمقراطية هي العنف بالنسبة للشمولية». رأى البعض «النموذج الدعائي» كمصغر مقلل لكل شخص وتحويله إلى مغفل أو كذاب، لكن آخرون رفضوه كنظرية مؤامرة. «إنها العكس تماماً - إنها نظرية السوق الحرة» يقول تشومسكي.

وسائط الإعلام شركات رئيسية. هي تبيع منتج (قارئ أو مشاهد) إلى سوق (معلنين). لو نظر مريخي إلى هذا النظام، ماذا سيتوقع؟ منتج وسائط الإعلام يتشكل بواسطة آراء ومصالح الباعة والمشترين والظروف الخارجية (الدولة). عليك أن تتوقع عدم وجود أي تفاعل إطلاقاً. هي ليست مؤامرة أكثر من محاولة جنرال موتورز لتحقيق ربح.

تشومسكي يعتقد أن الانترنت وسيلة للتملص من قيود وقصور وسائط الإعلام ويقتبس احتجاجات مثل تلك في سياتل، التي كانت متكلة كثيراً على منظمة إنترنت. لكنه يرى أن الصراع قد شب منذ أن سُلِّمَ تطور الانترنت إلى شركات خاصة في أواسط التسعينيات، بين استخدامها كـ«جادة عظمى معلوماتية» وقناة «للتجارة الإلكترونية». هو يقول: «طالما كانت في القطاع العام كانت حرة ومفتوحة لكنها محدودة؛ قلة من الناس لديهم مدخل. الآن المنفذ بات أوسع لكن الحرية مهددة».

في ردع الديمقراطية وكتب أخرى حول الشؤون الدولية، وَثَّقَ تشومسكي بغزارة كيف تخذل واشنطن التجارب الديمقراطية وتعيقها في كل أرجاء الكوكب. رغم أن تركيزه كان متزايداً على قضايا اقتصادية وتجارية إلا أنه استمر في تمسكه بوصف الولايات المتحدة «**قوى كبرى شريرة**» تميز بين ضحايا أعمال وحشية «جديرين» و«غير جديرين» معتمدة على إن حدث ذلك في دولة عميلة أو في «عدو رسمي» ويزعم لو أن قوانين نوريمبيرغ طبقت لشنق كل رئيس أمريكي بعد الحرب.

اتهم بالتقليل من أعمال الخمير الحمر الوحشية في كمبوديا، لكنه ظل يقول أنه كان يروي الحقيقة فقط عن عدد الوفيات. «نحن أشرنا أيضاً بأن خسائر القصف الأمريكي ضخمت بشكل كبير لكن لم ينتقدنا أحد لتصحيح ذلك».

كذلك لم يتوقع أي تغيير تحت وزير خارجية بوش كولين باول: «لو أخذت الجمهوريين بكلماتهم، فهم راغبون ربما في استخدام القوة في

طرق محدودة جداً فقط تحت «مبدأ باول» الذي يقول «لا تتدخلوا إلا بقوة ضخمة وساحقة. ذلك بقي مجرد اختلاف مع الديمقراطيين». لكنه يعتبر الإدارة الجديدة «أخطر بكثير» في التزامها ببرنامج الصواريخ الدفاعية القومي. «سوف يفسر كنظام سلاح الضربة الأولى من قبل أي عدو محتمل. هذا جنون واضح بكل تأكيد».

يعتقد فريد هاليداي، أستاذ العلاقات الدولية في (ال اس أي)، أن تشومسكي نجم «معاداة الإمبريالية الجديدة»، بَالَغَ في تقدير قوة الولايات المتحدة وقلل من شأن التحول الشعبي في المواقف والنقاشات حول حقوق الإنسان في السنوات العشر الماضية. «لقد أصبح المرشد الروحي للحركات المعادية للرأسمالية وحركات العالم الثالث. يأخذون بآرائه بدون نقد نهائي؛ إنه جزء من مزاج سياتل - أي كل ما تفعله أمريكا خطأ. هو يجابه أرثوذوكسية لكنه أصبح مبسطاً كبيراً. ما لا يستطيع رؤيته هو أن العالم الثالث وأنظمة حكم أخرى هي قمعية ولا تتحكم بها أميركا».

يعتقد (بنكر) أن الميل للتعامل مع تشومسكي على أنه «مرشداً روحياً أو أسقفاً أو شيطاناً كبيراً» شجعه أسلوبه الخاص به، الذي يصور الناس الذين يختلفون معه في الرأي كأشخاص أغبياء أو أشرار، مستخدماً ازدراءاً مدمراً في طريقة خطابه. «ترف كبير أن تعرفت به لكن تلك المعرفة تؤدي إلى ردود متطرفة على حد سواء من الجانب الآخر». لكن بالنسبة لنيل سميث، تشومسكي «يمكن أن يكون مناقشاً عديم الرحمة في الجدال من أجل ما يعتقد أنه حقيقة. هو يفكر أسرع من الناس الآخرين ويميل إلى الفوز بالمناظرات. لكنه مسبب للشقاق فقط لأنه يضع مقدماً مواقعاً جديدة تقوض الآخرين».

جذب تشومسكي نيران المدافع في أوائل الثمانينيات بسبب موقفه مع حرية التعبير في قضية روبرت فوريسون، أدين الأستاذ الفرنسي في

محكمة بتهمة تزييف التاريخ لإنكاره وجود غرف الغاز النازية. يقول تشومسكي: «المبدأ الذي يرى أن الدولة هي من تحدد وتقرر الحقيقة التاريخية وتعاقب هؤلاء الذين يرون غير ذلك هو ميراث من أنظمة الحكم الشمولية. في هذه الحالة ما تقرره الدولة بأنه حقيقي يصبح حقيقي لكن ذلك غير متصل بالموضوع. هي لا تظهر تعاطفاً كبيراً من أجل ذكرى ضحايا الهولوكوست لتتبنى مبادئ قاتليهم». كذلك عارض قضية تشهير (أي تي ان) ضد مجلة (ال إم)، التي زعمت أن الصور المأخوذة لمخيم ترنوبولجي في البوسنة كانت مزيفة - باعتبارها شركة إعلام كبيرة تستقوي على حرية التعبير.

بالنسبة للمؤرخ الاكسفوردي ستيفن هاوي، لتشومسكي «نقائص الفاتح الأخلاقي بالإضافة إلى فضائله. أحياناً تبدو هجماته مفرطة وغير مميزة». فيل ادواردس، محرر ثقافي سابق في مجلة ريد بيبر، يعتقد «من الصعب أن تنتقد تشومسكي بأنه يساري - وهذا غريب، بسبب شجبه للإجماع».

تشومسكي نفسه لا يشجع الولاء غير النقدي إلى آراء أي أحد، سواءاً كان ماركسياً أم فرويدياً. وهو ينكر «اليقين التلمودي» ونسب إليه أحد المعلقين قوله «إنه اختيار رديء للكلمات؛ التلمود أي شيء غير اليقين - يغص بالنقاش والخلاف. لكن إن كان صحياً، فهو خطأ».

في شأن تباطؤه في العمل يقول: «يجب أن أتقاعد، لكن لا أعتقد أن ذلك سيغير شيئاً. عملي المهني مركز ومستفز، والالتزامات السياسية تكبر. لقد حاولت أن أعيش حياتين مكثفتين هناك شيء ما يجب أن يحدث - مثل الاسترخاء. لو نجحنا أنا وزوجتي بأن نشاهد فيلماً سينمائياً في السنة نعتبره بهجة وانتصار». لكن لديهما كوخاً صيفياً في كيب كود وقارباً. «إنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أحياها فيما يتبقى من السنة».

بالنسبة لبليجر، الذي يقول أن تشومسكي كشف الأعمال الإندونيسية الوحشية في تيمور الشرقية لوحده، هو «بطل شعبي حقيقي؛ ومصدر إلهام لكل الصراعات في كل أرجاء العالم من أجل تلك الحشمة الأساسية المعروفة بالحرية. للكثيرين من الناس في الحركات المهمشة والناشطين - هو سند لا يخذل». بينما بعض الكلبية الصائبة (وصف واقعي للطريقة التي يعمل فيها العالم سوف يبدو ساخراً - شكاكاً)، تشومسكي يفضل «تشاؤم غرامشي في العقل وتفاؤله في الإرادة». في دوره الفريد الخاص به كضمير أخلاقي يصر أن امتيازات «العالم الحر» يجب أن لا تتكئ على جثامين في مكان آخر، البعض يرى ضغطاً ودفعاً لاهوتياً؛ لأنه يحمل مشعلاً أخلاقياً سامياً لأقوى دولة في العالم.

«هناك حقيقة في ذلك» يقول. «أنا مواطن من الولايات المتحدة ولدي حصة من مسؤولية ما تفعله. أحب أن أراها تعمل بطرق تتوافق مع المعايير الأخلاقية المحترمة. إنها عودة إلى البديهيات الأخلاقية: أن تنتقد جرائم الآخرين - رغم أنه يجب أن تفعل ذلك وتروي الحقيقة هو عمل ذو قيمة أخلاقية قليلة. ليس لدي تأثير على سياسات السودان لكن إلى درجة محددة على سياسات الولايات المتحدة. إنها ليست مسألة توقع وإنما طموح.

أعظم اثني عشر مفكراً في عصرنا

نيل كلارك – نيوستيتمان

١٤ تموز / يوليو ٢٠٠٣

تُشَنُّ تهمة معاداة الأمركة والسامية بشكل منتظم من قبل مروّجي الدعايات في النظام العالمي الجديد ضد هؤلاء الذين لا يشاركونهم حماسهم تأييداً للانتهاكات الحولية للدول ذات السيادة ونشر النيوليبرالية بواسطة طائرات البي فيفتي تو والقنابل العنقودية لكن ما لم يستطع مايكل غوف وباربارا اميل وميلاني فيليبس تفسيره، الحقيقة المزعجة بأن البعض من أشد خصوم نظرتهم العالمية صراحة كانوا إما من الأميركيين أو من اليهود أو كليهما معاً على الأغلب. تدين الحركة العالمية المعادية للحرب كثيراً إلى جهود غور فيدال ورمزي كلارك ومايكل بارينتي وهاوارد زين لكن الرقم الأكبر هو نعوم تشومسكي، الذي أمضى أكثر من أربعة عقود وهو يحذر من الخطر الذي تفرضه إمبريالية الولايات المتحدة على سلام العالم وأمنه.

ولد تشومسكي في فيلادلفيا لأب روسي مهاجر لديه ميول سلمية قوية، وكان تعليمه المبكر في مدرسة تقدمية وفي المدرسة الثانوية المركزية للمدينة. درس الرياضيات والفلسفة بالإضافة إلى اللغويات في جامعة بنسلفانيا . منذ إكمال الدكتوراه في اللغويات عام ١٩٥٥ علم في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا حيث عين أستاذاً جامعياً في المعهد عام ١٩٦٧ .

إسهامه في اللغويات عميق. تراكيبه النحوية (١٩٥٧) تعتبر واحداً من الإنجازات الفكرية للقرن العشرين. ابتكر تشومسكي الفكرة التي ترى بأن كل طفل بشري لديه مقدرة فطرية لتذليل علم النحو وبنية خفية

للغة. أسست نظرته على الملاحظة بأن الأطفال يتعلمون النحو بدرجة أعظم بكثير مما يمكن تفسيره بواسطة استقراءهم من الأمثلة المعطاة لهم لذلك يجب أن تكون لديهم مقدرة فطرية ليس لتعلم اللغة فقط وإنما لفهم آلية عملها وبما أن اكتساب اللغة شامل وكوني فكل اللغات تتشارك بنفس البنية الأساسية أو «النحو الخفي».

لم يؤثر عمل تشومسكي الثوري في علم النحو واللغة بعمق على اللغويات فقط بل على العلوم الإدراكية عموماً وكان له تأثير عظيم على تفكيره السياسي أيضاً. ما يقدمه تشومسكي هو، بكلمات المؤلف كولين كوين، «وصفاً لتحول القوة الدولية من منظور لغوي». بالنسبة لتشومسكي، لكلمة «ديمقراطية» معنيان متمايزان تماماً. وفقاً للمعجم، هي نظام ما ديمقراطي بالدرجة يوفر لمواطنيه وسائل للمشاركة في قرارات تخص الشؤون العامة وفي المعنى الإيديولوجي للديمقراطية، يعتبر المجتمع ديمقراطياً من قبل الولايات المتحدة فقط إن كانت تجارته تسير بطريقة خاضعة لمصالح تجارة الولايات المتحدة. إن كل من ظل يشكك بالسبب الكامن وراء رفض وزارة خارجية الولايات المتحدة منح صفة «ديمقراطية» لغواتيمالا في خمسينيات القرن العشرين أو لنيكاراغوا في الثمانينيات وليوغسلافيا في التسعينيات رغم إجراء انتخابات حرة في تلك البلدان، لم يعد محتاراً الآن.

وصل تشومسكي للشهرة كناقد اجتماعي لسياسة الولايات المتحدة الخارجية خلال الحرب الفيتنامية. نصه السياسي الرئيس الأول، **السلطة الأمريكية والمندرين الجدد** (١٩٦٩) كان نقدياً للفئة المثقفة الليبرالية المؤيدة للصراع الفيتنامي أو المعارضة له فإنها فعلت ذلك ليس لأنه كان خطأ وإنما بسبب المستوى العالي للخسائر في الأرواح. في السبعينات والثمانينات كان تشومسكي ومعه جون بيلجر، من القليلين

الذين تكلما صراحة عن الإبادة الجماعية «المخفية»، في تيمور الشرقية، حيث كانت القوات الإندونيسية المسلحة المدعومة من الولايات المتحدة مسؤولة عن موت أكثر من ٢٠٠ ألف شخص لفترة أكثر من عشرين سنة.

كما رحب تشومسكي الإشتراكي التحرري غير الماركسي بسقوط جدار برلين لكنه بنفس الوقت فهم الأخطار التي ستنشأ بواسطة فراغ القوة الجديدة. مع تركة الاتحاد السوفييتي أثبتته الأحداث اللاحقة خوفه من أن يبحث المركب العسكري الصناعي للولايات المتحدة عن أعداء جدد ليبرر وجوده وقد تم ذلك بنجاح كبير والفضل الأكبر يعود إلى ما سماه تشومسكي بـ«بالتحالف الآثم» بين دولة الولايات المتحدة ووسائل الإعلام.

في أعمال مثل **تصنيع الإجماع** (كُتب بالاشتراك مع ادوارد هيرمان في ١٩٨٣) و**أوهام ضرورية** (١٩٨٩)، تحدى تشومسكي الأرثوذكسية التي ترى أن «الصحافة الحرة» تقوم بدور «كلب حراسة» في الديمقراطية الرأسمالية وبرهن بدلاً من ذلك أنها بواسطة «وضع الخطوط الرئيسية لتقريرها الإخباري والتحليل بطريقة داعمة للامتياز المؤسساتي وتقييد النقاش بناءاً عليه» تساعد على الحفاظ على الوضع الراهن وسيطرة التمويل العالمي.

فهم تشومسكي الآليات الإمبريالية الأمريكية وقدرته في كل الأوقات على رؤية الـ«صورة الكبيرة» قاده ذلك إلى معارضة التدخلات العسكرية الأمريكية الحديثة في كوسوفو وأفغانستان والعراق وكذلك حروب الرئيس بوش على الإرهاب ولم يساوم أبداً في إيمانه في حرية الكلام لدرجة أنه في عام ١٩٨٠ كتب مقدمة لكتاب لروبرت فوريسون يشكك بحقيقة الهولوكوست.

في أربعين سنة من الكتابة عن السياسة، كانت أخطاء تشومسكي في إصدار الإحكام - كان مخطئاً في الإعتقاد بأن سقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية كان «انتصاراً للروح» وأن الغرب ضيع «فرصة عظيمة» للتخلص من صدام حسين في ١٩٩١ - قليلة جداً على نحو لافت. لأي شخص راغب في اكتشاف الكثير عن العالم الذي نحيا فيه، لأي شخص لا يفهم لماذا تجاهلت الولايات المتحدة الإبادة الجماعية في تيمور الشرقية وتدخلت بشكل عدواني بمقياس منخفض في حرب أهلية في كوسوفو، لا يوجد سوى جواب بسيط: إقرأ تشومسكي.

ربما هو مكروه بشكل واسع من قبل معلقي المؤسسة الرسمية لكن من خلال فضح الحقائق البغيضة للطريقة التي تسير فيها البلاد وبتذكيرنا أن نفقات الجيش الأمريكي لا تحمي مواطني الولايات المتحدة وإنما مصالح الشركات الكبيرة في الولايات المتحدة، قام تشومسكي بخدمة نفيسة لبلاده وللعالم. هذا، مع عمله الريادي في اللغويات، يجعله واحداً من أعظم مفكري هذا العصر أو عصر آخر.

الحفاظ على استقامة التسجيل

حول رحلة تشومسكي إلى الشرق الأوسط
في مايو / أيار ٢٠١٠. عساف خوري -
زدنت ٣١ يوليو / تموز ٢٠١٠

لقد قيل وكتب الكثير عن رحلة نعوم تشومسكي إلى الشرق الأوسط في أيار ٢٠١٠. تكررت أغلاط واقعية، كحذف واقتباس خارج السياق في التقارير الإعلامية خلال الرحلة نفسها ثم أعيدت وضخمت من قبل آخرين لاحقاً، وفصلت غالباً لتناسب الأفكار المكونة مسبقاً لما يقوله تشومسكي ويؤمن به.

لقد اشتركت في ترتيب الرحلة منذ بدايتها حتى نهايتها. كانت الخطة الأصلية أن تنطلق من رام الله في الأراضي الفلسطينية المحتلة في ١٦ أيار/مايو وتنتهي في بيروت في ٢٧ أيار/مايو. طرنا من الولايات المتحدة إلى عمان بعد عصر ١٥ أيار ثم ركبنا السيارة إلى جسر اللنبي في صباح ١٦ أيار. كما يحدث، لم يمنح تشومسكي إذن الدخول إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة من جسر اللنبي ومعه الثلاثة الآخرين الذين كانوا في صحبته: (ابنته افي وايرين جندزير وأنا) فامتد عبورنا الذي مدته نصف يوم من خلال الأردن إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى إقامة مرتجلة في عمان لمدة ثلاثة أيام ثم أضيف يومين أيضاً إلى حصة لبنان الأصلية من الرحلة.

نحن نظمنا الرحلة استجابة لدعوتين منفصلتين، واحدة من جامعة بيرزيت في الأراضي الفلسطينية المحتلة والأخرى من جمعية اللقاء في بيروت. أدرج جدول عمل لتشومسكي يلقي فيه سلسلة من المحاضرات في كلا المكانين. بعد المحاضرات خططنا للقيام برحلات جانبية والالتقاء بالناس، كلها مع بُعدٌ سياسي وفي رفقة المضيفين المحليين. من

أجل الإرشاد والاقتراحات اعتمدنا كثيراً في الأراضي الفلسطينية المحتلة على المبادرة برئاسة مصطفى البرغوثي وفي لبنان على جمعية اللقاء. كان الاعتماد على المبادرة واللقاء قراراً مدروساً يعكس تقاربنا السياسي فإدوارد سعيد كان عضواً مؤسساً للمبادرة في ٢٠٠٢ وكان الكاتب والمؤرخ فواز طرابلسي، عضواً مؤسساً في اللقاء صديق قديم ورفيق سياسي.

رغم العقبة عند جسر اللنبي أو بسببها، كانت الرحلة ونتائجها اللاحقة إيجابية بشكل غامر، أكثر بكثير من توقعاتنا. حاضر تشومسكي في قاعتين غاصتين بالحضور، أعطيت أماكن تواجده تغطية الصفحة الأولى في الصحافة المحلية وكانت مقابلاته تذاع وتنشر وتحظى بالتعليق على نطاق واسع. بشكل محتوم، كان هناك اللكم التشومسكي المعتاد من اليمين ومن اليسار، ملاحظات صاخبة متضاربة من النماذج التي تعتبر نفسها أقوم من الآخرين.

فيما يلي سأتحدث عن التشويش والتشويه اللذان انتزعا من بعض تعليقات تشومسكي خلال الرحلة

«سياسات فياض في تطوير الوقائع على الأرض محسوسة ومعقولة»

بعد ساعات كثيرة من الاستجوابات المتقطعة عند جسر اللنبي، حالما بات واضحاً أنهم لن يسمحوا لتشومسكي في دخول الأراضي الفلسطينية المحتلة، ونحن معه،

[١] كنت أشغل هاتفنا النقال لأنبه هؤلاء الذين ينتظروننا في رام الله وعلى الفور اتصل مصطفى البرغوثي بالصحافة. العودة إلى عمان بعد ساعتين، في مساء ١٦ أيار وكل يوم ١٧ أيار، كنا أنا ومعين رباني نتصل بالهواتف لننسق سيلاً من طلبات المقابلات، قريبة وبعيدة - من نيويورك إلى الدوحة وأبعد - شخصياً أو بواسطة الهاتف أو السكايبي.

أنقذ قسمان فقط من برنامجنا في الأراضي المحتلة الذي أفشله الحظر الإسرائيلي: لقاء مع سلام فياض ومحاضرة جامعة بيرزيت. الأخيرة كانت منقولة بالفيديو من عمان في ١٨ أيار، بتأخير ٢٤ ساعة عن وقتها الأصلي المجدول، الفضل للجهود التي بذلها عبد الرحيم الشيخ في جامعة بيرزيت.

[٢] في ١٧ مايو/أيار، في الوقت الذي ألغي فيه الموعد مع فياض في رام الله، هتفوا لنا من مكتب الأخير وسألوا تشومسكي إن كان متاحاً من أجل محادثة على الهاتف. حوار لمدة ٤٥ دقيقة تقريباً شرح فيه فياض السياسات التي يتبعها لمجابهة الاحتلال. لاحقاً في نفس اليوم، مقابلة مع ديموكراسي ناو! من نيويورك، ذكر تشومسكي الحوار وقال «أن فياض يتبع سياسات هي في رأيي معقولة تماماً، سياسات تطوير الوقائع على الأرض بشكل أساسي».

ذلك كان كافياً لإثارة عقيرة الكثيرين الذين لا يستطيعون فهم أي شيء جيد يأتي من السلطة الفلسطينية أو فتح أو أي شيء منهما معاً.

كيف استطاع تشومسكي أن يزكي فياض ويستحسنه؟ لماذا اعتبر تشومسكي لقاء فياض في المقام الأول؟ كلا، تشومسكي ليس منحازاً مع فياض ضد أي قيادة أو عصبة فلسطينية أخرى. كلا لم يضع تشومسكي في جدول مواعيده اللقاء بفياض فقط وإنما خطط ليلتقي بعدة شخصيات سياسية من كل الطيف السياسي بما فيهم برلمانيين حمساويين وكانت المبادرة متوقعة لترشده في زيارات مكانية. كلا. تشومسكي لم يوافق على النظريات الاقتصادية للبنك الدولي (الذي كان فياض موظفاً فيه لسنوات كثيرة) أكثر مما ناصر إيديولوجية حماس الإسلامية.

سيكون تهوراً من تشومسكي، بخصوص تلك المسألة، أو لأي صديق أمريكي لحقوق الفلسطينيين أن يضع معايير للوطنية الفلسطينية. [٣]

الانحياز إلى جانب حماس في دفاعها عن غزة، أو شجب تواطؤ السلطة الفلسطينية مع قوات الأمن الإسرائيلية في اقتفاء أثر عناصر من حماس، لا ينفي الاتفاق مع بعض من سياسات السلطة الفلسطينية الأخرى. الشجب المدثر لفياض يصبح غير منطقي إطلاقاً حين نذكر أن خطط خلق الوقائع والمقاطعات حضت عليها جماعات فلسطينية أخرى وشجعها مؤيدوها الدوليون قبل تبنيها من قبل فياض. هل يجب أن يشجع فياض أم يوبخ – من قبل الضيوف الأمريكيين، ليس أقل – حيث التركيز الوحيد هو على هذه الخطط التي اعتنقها هو والجماعات الأخرى؟

الأمر يستحق التوسع في الأسباب خلف عبارة تشومسكي المادحة لسياسات فياض في «تطوير الوقائع». أقتبس مقطعاً من مقابلة أخرى أجراها تشومسكي بعد بضعة أيام من ذلك. [٤]

«منذ عشر سنوات تقريباً، كان هناك نصيحة من الصناعيين الإسرائيليين للحكومة، تقول أنه يجب عليهم أن ينتقلوا في الضفة الغربية من «الكولنيالية» إلى «النيوكولنيالية». يعني، أنهم يجب أن يبنوا بنى كولنيالية جديدة على الضفة الغربية. بتنا نعرف الآن ماذا تكون. خذ أي مستعمرة سابقة. نموذجياً، لديهم قطاع يتمتع بثروة مفرطة ويتعاون مع السلطة الكولنيالية السابقة وكتلة كبيرة من البؤس والرعب تطوقه. هذا ما يقترحونه وهذا ما حدث ويحدث. لهذا إن ذهبت إلى رام الله – أردت أن أراها بنفسي لكنني لم أصل إلى هناك – إنها نوع شبيه بباريس، أنت تعيش حياة جميلة، هناك مطاعم أنيقة وهلم جراً، لكن إن ذهبت إلى داخل الريف، فهو مختلف تماماً، طبعاً وهناك حواجز تفتيش والحياة مستحيلة. حسناً، تلك هي النيوكولنيالية. هناك تطور تابع فقط، وهم لن يسمحوا بأي تطور مستقل وهم يحاولون فرض ترتيب دائم لهذا النوع».

سلام فياض، الذي رغبت أن التقي به في رام الله - نحن تحدثنا على الهاتف - وصف برامجه، التي بدت معقولة لي. أولاً وقبل كل شيء، الدعوة إلى مقاطعة إنتاج المستعمرات، وهي باعتقادي منطقية جداً ويجب أن تطبق في كل أرجاء العالم، وبنفس الوقت يحاول أن يرتب للفلسطينيين أشكالاً من التوظيف غير العمل في المستوطنات كي لا يساهموا في نموها والمشاركة في المقاومة غير العنيفة للتوسع وعمل أي بنية مهما كانت كي يستطيعوا النجاح في عملها ضمن الإطار الإسرائيلي، ربما حتى في المنطقة (سي)، المنطقة الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية، وأخذ خطوات صغيرة نحو محاولة وضع أساس لكيان فلسطيني مستقبلي مستقل.

«كلا، هذا زيف تماماً، أنا اعتبر نفسي مؤيداً لإسرائيل».

بحد ذاتها هذه عبارة ملغومة. أجرى تشومسكي مقابلة متلفزة مع القناة التلفزيونية الإسرائيلية الثانية، سجلت في عمان في ١٨ مايو / أيار وأذيع قسمٌ منها في ٢٢ مايو/ أيار، وهو يواجه من أجرى المقابلة الذي كان متأثراً من «تقويض تشومسكي لوجود إسرائيل» (كما لو أن ذلك كان في قدرته السحرية!) أكثر من اهتمامه في آرائه حول القضايا العالمية. انتقاها البعض كشيء مناقض للأشياء التي قالها تشومسكي وكتبها في مكان آخر. الأكثر مكراً، اتهمه آخرون بإخفاء تعاطف سري مع الصهيونية.

ليس هناك نسخة مكتوبة لكل المقابلة التلفزيونية ولم يذع سوى جزء منها جعل من السهل إنتاج تشويهات غير مدروسة أو حاقدة وصعبت عملية التحقق منها.

دعوني أعود وأشير إلى التسجيل المكتوب أولاً، موثوق أكثر ومصدق عليه بيسر. تأمل الفقرة الختامية لمقال كتبه تشومسكي بعد التخريب غير المتكافئ الإسرائيلي لغزة في يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٩. [٥]

«منذ عشرات السنين، كتبت إلى هؤلاء الذي يدّعون بأنهم «داعمين لإسرائيل» هم في الحقيقة «داعمون لانحلالها الأخلاقي ولدمارها النهائي المرجح». المؤسف أن ذلك الحكم يبدو معقولاً أكثر فأكثر. في الوقت الراهن نحن نراقب بهدوء حدثاً نادراً في التاريخ، سماه عالم التاريخ الإسرائيلي بروواخ كيمرلينغ (الانتحار السياسي)، قتل أمة - بأيدينا».

كيف يستطيع تشومسكي إذاً أن يعتبر نفسه «مؤيداً لإسرائيل» في مقابلته على القناة الثانية حين يدين هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم «مؤيدي إسرائيل» في الفقرة السابقة؟ لا يمكنك الإدعاء بكليهما إلا إذا كان التعبير نفسه «مؤيدو إسرائيل» يدل على حقيقتين متناقضتين حقيقته وحقيقتهم. إسرائيل التي تهمه في الحقيقة ليست الدولة بل الشعب الذي يعيش فيها، في المقام الأول غير المحرر المحروم من حق الاقتراع منهم، يشمل الأقلية الضخمة (حوالي ٢٠٪) وهي العرب. هذا متناغم مع فلسفة تشومسكي السياسية والتي بالنسبة لها تعدّ أي دولة هي أداة قسر يجب الحذر والحماية منها. إسرائيل ما يهمها في الحقيقة هي الدولة، دولة يهودية قوية ترتكب «إبادة سياسية» ضد الفلسطينيين وتنتزع امتيازاتهم ونزعتها للعنف من شراكتها الدنيا مع الولايات المتحدة.

هذا فرق أولي بين حقيقة تشومسكي وحقيقة منتقديه - صريح بما يكفي لأي شخص يهتم بمراجعة التسجيل بصدق - وهو الطريقة الوحيدة لفهم التناقض المزعوم في موقف تشومسكي.

أخذت تعبيراً آخر لتشومسكي من المقابلة التلفزيونية نفسها، أقل من دقيقتين بعد عبارة «مؤيدو إسرائيل»

«لا أعتقد أن إسرائيل يجب أن توجد كدولة يهودية».

جملة أخرى ملغومة بحد ذاتها. قراءة في الحد الأدنى لها أن تشومسكي يعارض إسرائيل كدولة لليهود فقط، أو دولة تعامل اليهود بشكل مفضل، مما يتناقض مع عبارته «مؤيد لإسرائيل» - إلا لكي نفسرها بشكل غير ملتبس مرة أخرى، تأييد تشومسكي ليس للدولة مع كل أدواتها من الاضطهاد الداخلي والعنف الخارجي، وإنما لمصير مواطنيها.

لكن العبارات المقطوعة عن سياقها غادرة وعرضة للاستخدام المضلل. من أجل قراءة أكثر صدقاً، انسخ مقطعاً أطول من مقابلة القناة التلفزيونية الثانية، مع المواربات وكل شيء. [٦] تخيل الوضع: تشومسكي يواجه الشخص الذي أجرى المقابلة القلق حول ولاءاته اليهودية. هو يحاول مخاطبة أوسع القضايا السياسية التي لا يبدو على الشخص الذي أجرى المقابلة الإكتراث بها، كصحفي استمر في رفع الاتهامات بأنه معادٍ لليهود ويريد أن يؤذيهم. التأكيد لي، الحذوفات بين الأقواس المربعة هي حذوفاتي من أطوال مختلفة، تشمل مقاطعات الصحفي الكلامية: [٧]

الصحفي: «من جانب أنت تتكلم العبرية، فأنت تنحدر من عائلة يهودية، أنت تحدثت عن معاداة السامية حين كنت صغيراً، أنت عشت في كيبوتز [في الخمسينيات] ووقرت البقاء [............]. من جانب آخر أنت الناقد الأكثر صراحة لإسرائيل، وأنت تقوض وجود إسرائيل و...».

تشومسكي: كلا، هذا زيف بالكامل، أنا لا اعتبر نفسي ناقداً لإسرائيل. أنا اعتبر نفسي مؤيداً لإسرائيل. الأشخاص الذين يضرون إسرائيل، برأيي، كما قلت في مرات كثيرة، هم هؤلاء الذين يدّعون بأنهم يؤيدون إسرائيل [....] دعنا نعود خطوة. أنت قلت أنني أدعو إلى دمار إسرائيل أو بعض الكلمات بهذا الفحوى. حسناً، أنا لا أعتقد أنها يجب أن توجد كدولة يهودية، [مثلما] لا أعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن

توجد كدولة مسيحية [....] بنفس القدر [إسرائيل] ليست دولة لمواطنيها وإنما دولة لصنف خاص من مواطنيها، أنا اعترض عليها نظرياً. [.....] رغم أني كنت معارضاً لوجود دولة يهودية [قبل ١٩٤٨]، [....] منذ أن تشكلت في ١٩٤٨، موقفي كان متسقاً وهو أن إسرائيل يجب أن تملك حقوق كل دولة في النظام العالمي، لا أكثر ولا أقل. الآن إسرائيل تطالب بالأكثر ولا أتفق معها.

«ولماذا لا تكون اللادولة؟»

كانت محاضرة تشومسكي في بيروت في قصر اليونيسكو، الأكبر في المدينة، في مساء ٢٥ مايو/أيار. اجتمع المئات في القاعة الممتلئة، بعضهم جلس في الممرات والبعض الآخر وقف في كل مكان والكثيرون غيرهم في الخارج لم يستطيعوا الدخول.

بعد المحاضرة، الكثير من أسئلة الحضور كانت لا علاقة لها بالأشياء التي تحدث عنها تشومسكي. قلة بدت تتحدى تشومسكي على موقفه المسلم به في «دولة واحدة مقابل دولتين» وعلى «حملة المقاطعة والتجريد والعقوبات» اللتين لم يناقش تشومسكي أياً منهما في محاضرته.

أحد السائلين هلل للفضائل الرفيعة للدولة الديمقراطية الواحدة في فلسطين. آخر سأل: لماذا تشومسكي ملتزم بقوة بحل الدولتين؟

بدأ تشومسكي رده بسؤال بلاغي: «لماذا لا تكون اللادولة؟» صفق الكثير من الحضور. بعضهم الآخر ضحكوا، معتقدين أنها كانت تلاعب لفظي على ذلك السؤال الفارغ جداً (دولة واحدة أم دولتان)، لكنها لم تكن كذلك بالكامل. التلاعب اللفظي عكس رأيه بأن دول الشرق الأوسط، نتاج لعبة بين الإمبراطوريات الاستعمارية في القرن العشرين، كانت مضرة على نحو غريب لمصلحة شعوبها. لعبة لفظية لكنها من أجل المستقبل البعيد أيضاً، إن كان للشرق الأوسط أن يتغلب أخيراً على أمراض نظام دوله.

خط تشومسكي في النقاش في رده سار كالتالي: طرح المقترحات سهل، التأييد الفعال شيء آخر. إن كنت تريد حل الدولة الواحدة في فلسطين - دولة ديمقراطية واحدة، وليس دولة ثنائية القومية، أو أياً كان شكلك المثالي - إذاً يجب عليك أن تتعقب مساراً من هنا إلى هناك. هذه مقترحات جميلة، العواطف خلفها كلها مشرفة، لكن الإستراتيجية المؤثرة تبدأ من إدراك الظروف الحالية والتقييم الواقعي للخطوة التالية. في كلماته في مكان آخر ب[٨].

التأييد يستلزم أكثر من مجرد مقترحات. إنه يعني تنصيب أهدافك (مقترحاتك)، ولكن أيضاً رسم مسار من هنا إلى هناك (ذلك التأييد). والمسار من هنا إلى هناك يستلزم بشكل ثابت تقريباً خطوات صغيرة. يستلزم إدراك الواقع الاقتصادي والاجتماعي كما هو موجود، وأفكاراً حول كيفية بناء مؤسسات من أجل المستقبل ضمن المجتمع الحالي [...]. ذلك يعني خطوات يجب أن تؤخذ لتكيُف خلافات الواقع، ولا تنكر وجوده (بما أنني لا أحبه، أنا لن أتكيف معه) هذه هي الطرق الفعالة الوحيدة.

[إستراتيجية بعيدة المدى] تهتم بتكتيكات إصلاحية معتدلة. ذلك ليس نقداً. [...] ذلك ما يجب أن تهتم به إن كنت تريد تأييد تغيير اجتماعي هام طويل الآجل نحو مجتمع أكثر حرية وعدالة [....] وإلا، الإصرار على نقاء المقترح يعزلك ببساطة من التأثير في الفعالية، وحتى من الاقتراب من أهدافك. ويؤدي إلى نوع من الطائفية وضيق الأفق وانعدام التضامن والهدف المشترك الذي أعتقد أنه كان دائماً نوعاً من مرض القوى الهامشية، وفي الخصوص اليسار.

كيف يمكن «تعقب مسار من هنا إلى هناك؟» التالي مقتطف من رد تشومسكي، بعد المحاضرة في قصر اليونيسكو[٩]:

«من الأفضل كثيراً أن لا تكون هناك دولة من دولة واحدة. [...] يوجد هناك تطورات في ذلك الاتجاه في مكان آخر. في أوروبا تسمى الآيلولة - تنازل عن السلطة تقوم به الحكومة المركزية للسلطات المحلية. [...] لهذا، دعونا نقترح تسوية اللادولة؟ لكن إن أردتم أن تكونوا جديين حوله، كيف ستصلون إلى هناك؟»

«الشيء ذاته مع تسوية الدولة الواحدة. هي ليست بتلك الجودة لكنها أفضل من تسوية الدولتين. مرة أخرى، كيف ستصلون إلى هناك؟»

«الشكل الوحيد للتأييد [نحو تسوية الدولة الواحدة التي سمعت بها في مراحل]. لأن تسوية الدولتين، التي هي ليست ممتازة لكنها ضمن المعقول، يمكنها أن تقلل من مستوى العنف والعداء، يمكنها أن تؤدي إلى تبادل أكثر، [...] يمكنها أن تدفع نحو شكل من التكامل [...] في الحقيقة، في مستوى مناطقي».

«إن كان هناك شكل آخر من التأييد، فأنا لم أسمع به».

بالنسبة لتشومسكي، لذلك تسوية الدولتين هو تأييد فعال نحو تسوية الدولة الواحدة وما بعدها.

من جانبي، سأضيف فكرة واحدة. دولة أو حكومة هي ليس غاية بحد ذاتها، العدالة والحقوق المتساوية هي الغاية. أصبح التفكير بأن العدالة للفلسطينيين لا يمكن أن تقدم إلا بواسطة دولة هو نوع من الهاجس التافه والمبذر، دولة ما، ولا شيء غيرها سينفع حتى يتم ذلك. الدولة لن تكون نهاية الطريق. الحقيقة أن الكثير من حقوق الفلسطينيين يجب أن تكتسب جيداً قبل، وكثير من الحقوق الأخرى ستبقى بحاجة لأن تنتزع بعد أن تتشكل أي دولة جديدة. الهاجس حول دولة من بين غيره أصبح تافهاً لأنه يحول الانتباه - ومبذر لأنه يحرف الطاقة - من شيء أبعد وأكثر إلحاحاً.

وليس هناك تكهن إلى الآن بالأشكال المتعاقبة التي ستأخذها العدالة من أجل الفلسطينيين (وكل جيرانهم) كما يكشف صراعهم. إن كان سيعبر إلى دولة فلسطينية صغيرة على قسم من فلسطين القديمة، أو دولة ثنائية القومية أكبر بقليل أو دولة وحدوية ما - لا أحد سيتجنب حتمية الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك إلى مستقبل مهما كان بعيداً، حين يكون الشرق الأوسط متحرراً من قيود الحدود، متحرراً من الدول المريضة بشكل مميز والحكومات (كلٌ بطريقتها الآن)، حقوق الفلسطينيين هي مساوية لحقوق أي شعب آخر.

«مقاطعة، تجريد، عقوبات»

ربما كانت الحالة الحديثة المنظورة الأكثر في حملة المقاطعة والتجريد والعقوبات في الولايات المتحدة الاقتراح الذي سلم إلى مجلس طلاب جامعة كاليفورنيا في بيركلي في نيسان/ابريل ٢٠١٠ الذي غطي بشكل واسع في الولايات المتحدة، في وسائل الإعلام الرئيسية وفي منافذ الأخبار البديلة. عقد مجلس الطلاب عدة جلسات ليلية حول مقترح يدعو الجامعة إلى «تجريد شركتين أمريكيتين من الربح المادي والعسكري» من الأراضي الفلسطينية المحتلة. رغم انهزامهم في النهاية - أغلبية مجلس الجامعة من ١٣ إلى ٥ لم يكن كافياً لإسقاط فيتو الرئيس - حشد الإجراء عدد كبير من المنظمات التقدمية والأفراد. كان نعوم تشومسكي من بين المثقفين البارزين الذين شجعوا إجراء بيركلي وقرأت رسالته الداعمة، ورسائل آخرين غيره بصوت جهوري أثناء النقاشات.

إن أي متتبع لحادثة بيركلي لن يفشل في ملاحظة موقف تشومسكي. مع ذلك، نتيجة الجهل وعدم المبالاة، هناك أشخاص يصرون على التأكيد بأن تشومسكي ضد حملة المقاطعة والتجريد والعقوبات. أحد ما في بيروت بدا أنه تمسك بهذا التحريف، في نهاية المحاضرة في قصر

اليونيسكو، تحدى تشومسكي أن يأخذ موقفاً من حملة المقاطعة والتجريد والعقوبات. رد تشومسكي بالقول:

«بعض أشكال المقاطعة والتجريد والعقوبات بنّاء وبعضها الآخر غير بنّاء. [...] هناك أشكال من المقاطعة والتجريد والعقوبات مضرة جداً بالفلسطينيين، [حين] تصبح أسلحة في أيدي المتشددين [الصهاينة]. [...] إن أردت أن تساعد شعباً عليك أن تتخذ قرارات - عليك أن تأخذها بشأن التكتيك - أيها قرارات بناءة ومفيدة وأيها مضرة».

حملة المقاطعة والتجريد والعقوبات وسيلة إلى غاية، مثل أي تكتيك آخر، جيد بقدر فعاليته. هي ليست مبدأ أو اختبار عباد الشمس للحكم بواسطته على ناشطين آخرين ضد الاحتلال. التكتيك، إن كان فعالاً، ينتج نتائج ملموسة ويتبدل معها. الخلافات المنطقية في تقييم حالات مفردة لا يجب أن يمنع ضم القوى في حالات أخرى سعياً وراء الأهداف المشتركة في تأييد حقوق الشعب الفلسطيني.

بدون إلصاق نية خبيثة بأي أحد، قسم من التشويش أن أعمال المقاطعة والتجريد والعقوبات لم يتم تقييمها بشكل حريص لما يمكن أن تحققه. أحياناً يكون هناك تشويش متعمد حول ما تحاول المقاطعة والتجريد والعقوبات إنجازه وكانت هناك صيغ غامضة تربك المستمعين المتعاطفين بشكل أو بآخر. [١٠]

موقف تشومسكي هو الإحجام عن السعي وراء «الرضا شعور بكونه جيداً» وإنما في النهاية عن التكتيك الدون كيشوتي. في محاضرة قصر اليونيسكو، قال إنه يؤيد ويفضل تماماً «مقاطعة الشركات الأمريكية التي تعمل في الأراضي المحتلة» لأنها تنتهك القانون الأمريكي والدولي. بحد ذاته، هذا النوع من المقاطعة يمكن أن يتابع لجذب طيف واسع من الدعم ويكون فعالاً جداً لكنه شكك بتكتيك آخر أيضاً، على الأرجح يتلاشى أو يعطي نتائج عكسية.

«يجب أن تسأل نفسك، هل المقاطعة الأكاديمية لجامعة تل أبيب مفيدة إلى [...] الفلسطينيين أم مضرة لهم؟ إن قاطعت جامعة تل أبيب، إذاً لماذا لا تقاطع هارفارد التي هي شريك في دعم ضمني للسياسات الإسرائيلية؟»

إن استهدفت جامعة تل أبيب بمقاطعة أكاديمية، ذلك يمكن أن يجمع مجموعة كاملة من الجامعات الشريكة على نحو متساوٍ في دفاعها. هل هذه المعركة جديرة بالخوض؟ وعلى أية أسس، في انعدام خرق صريح للقوانين.

بعد ذلك في رده، سأل تشومسكي عن تأثير الدعوة إلى مقاطعة شركة إسرائيلية للرقص. بنفس الإشارة، نستطيع أن نسأل عن تأثير مقاطعة حفلة موسيقية لقائد الفرقة الإسرائيلي دانييل بارينبيوم. أم هل كان علينا أن نستثني بارينبيوم فقط لصداقته مع الراحل إدوارد سعيد؟ نحن لا نتحدث عن حفلة موسيقية نسخة عن حدث لجمع تبرعات للجيش الإسرائيلي أو المنظمة الصهيونية الأمريكية، في أي حال إن المقاطعة يدعو لها تشومسكي بالتأكيد في المقابلة الأخيرة، توسع في آراءه عن حملة المقاطعة والتجريد والعقوبات بالتفصيل - «تكتيك، واحد من كثير من غيره، وليس مذهباً دينياً» وحذر ضد مساواة التقييم الحذر للخيارات التكتيكية مع المبدأ الناقص. [١١].

أسئلة كثيرة طرحت أثناء الرحلة. ظهر بعضها في لقاءات صغيرة ومحادثات أو على هوامش المقابلات. كانت النقاشات مضغوطة دائماً وتُتْرَكُ غير منتهية بسبب الجدول المكثف.

إن كان هناك أي خيط مشترك لكل تصريحات تشومسكي السياسية في تلك الرحلة، في قناعته أن دوره ليس أن يحاضر في الفلسطينيين عما يجب عليهم فعله، تلك مسؤولية الفلسطينيين والقرار يتوقف عليهم. مسؤوليته، ومسؤولية مؤيدي حقوق الفلسطينيين في الولايات

المتحدة، أن «يثقفوا وينظموا الشعب الأمريكي ويطوروا قوى شعبية تستطيع أن تقهر صور الدعاية المهيمنة التي تؤازر سياسات الولايات المتحدة التي كانت ولا تزال تقوض حقوق الفلسطينيين».

ملاحظات

١ - نعوم تشومسكي وابنته (آيفي) أخذا جوازيهما مختومين برفض دخول صريح. جوازي وجواز ايرين جيندزير لم يختما بنفس الطريقة، في الحقيقة هم لم يختموهما كلياً - لا موافقة ولا رفض. قابلنا مراقبي الحدود على انفراد أكثر من مرة. حين قابلوني وايرين جيندزير، سألونا إن كنا نفكر في دخول إسرائيل بشكل منفصل - أشاروا إلى إسرائيل فقط، ليس الأراضي الفلسطينية المحتلة - بدون نعوم تشومسكي وابنته. لا ضرورة للقول: إننا رفضنا، وأصررنا إما أن ندخل كمجموعة من أربعة أو نعود إلى عمان.

٢ - نقلت المحاضرة بالفيديو من قاعة اجتماعات في جامعة الأردن، في عمان ونقلت في بث مباشر إلى جامعة بيرزيت. كان بإمكان السلطات الإسرائيلية بالتأكيد وقف البث أو التشويش عليه. لكن بذلك الوقت، بعد أمر الترحيل بيومين في جسر اللنبي، كانوا يرتعشون من ضجة عالمية وبلا شك، حذرين أن لا يتسببوا بفشل تام في العلاقات العامة. حضر المحاضرة مئات في مبنى الاجتماعات العامة في عمان ومبنى بيرزيت وبث بنفس الوقت بالقمر الصناعي على تلفزيون الجزيرة. في النهاية كان التأثير أكبر مما أملنا بكثير، لو سمح لتشومسكي بدخول الأراضي الفلسطينية المحتلة وألقى محاضرته في بيرزيت نفسها.

٣ - الافتراض كان في غير محله لأمريكي عربي مثلي بالرغم من روابطي الشخصية مع فلسطين. بعيداً عن كل شيء آخر، أن يُنَصِّبَ المرء نفسه رقيباً على الآخرين الذين سُمح لهم أن يتكلموا إليه عن كيف

تحكم على المجموعات المختلفة التي تناضل من أجل حقوق الفلسطينيين، يكشف عن غطرسة لافتة.

٤ - دافيد تريسليان، «نعوم تشومسكي: التكلم عن الصدق والسلطة»، مقابلة، الأهرام ويكلي، ٣ - ٩ حزيران/ يونيو ٢٠١٠ عدد رقم ١٠٠١.

٥ - نعوم تشومسكي، «أبيدوا كل البهائم» زدنت ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩.

٦ - استمر تسجيل المقابلة أكثر من ساعة بقليل. القناة الثانية حررت واختصرت أقساماً منها. الجزء الذي بث وبات الآن في متناول الجمهور (من أرشيفات الاحتلال الإسرائيلي وعلى اليوتيوب من بين أماكن أخرى) يستمر إلى ٢٢ دقيقة فقط. في الأقسام الأشد تنافراً، بدت الصحفية التي أجرت المقابلة في آخر فطنتها، تسأل أسئلة ثم تكررها نفسها مرة أخرى بشكل مختلف متعمدة على نحو ظاهر أن توقع تشومسكي في شرك. رغم النسخة المحررة تعطي فهماً جيداً لصيرورة المقابلة. هذا هو نوع الأسئلة التي سألتها بشكل متكرر في كل مكان: «في إسرائيل يعتبرونك شخصاً تؤذي إسرائيل، هل يسيء إليك ذلك؟» «هل أنت منزعج لأن الرأي العام [في إسرائيل] ضدك؟» والكثير على نفس الشاكلة. بعضها يمكن سماعها في النسخة المحررة.

٧ - في النسخة المحررة، الجزء المدوّن هنا يبدأ بعد ٣ دقائق و٣٠ ثانية من البداية ويستمر إلى ٧ دقائق و٣٠ ثانية. هذا فاصل مدته ٤ دقائق، يشغل منه النص المدون هنا أقل من ربعه.

٨ - دونت هنا مقطعاً من مقابلة تشومسكي في أوائل آذار/ مارس ٢٠١٠. تسجيلها متوفر على اليوتيوب. غطت المقابلة مدى واسعاً من القضايا، من العلم المعرفي إلى السياسة والفوضوية. المقطع المدون هنا (يبدأ في ٦ دقائق و١٠ ثواني من بداية التسجيل) يستخرج زبدة أحد

أجوبة تشومسكي بعد المحاضرة في قصر اليونيسكو في بيروت في ٢٥ أيار/ مايو.

٩ - دونت من تسجيل كامل للمحاضرة، وتوفر ذلك بجهود (جنان جمعاوي) من جريدة السفير اللبنانية اليومية.

١٠ - أشارك هذا النقد، كما يفعل الكثيرون من مؤيدي حقوق الفلسطينيين. مثال، هنا ما قاله نورمان فينكلشتاين عن هذا الغموض (الأجزاء المشددة لي):

(المقاطعة والتجريد والعقوبات) لها في اعتقادي وجهان اثنان: الوجه الأول أنها تستهدف إسرائيل عالمياً، قول أي شيء وكل شيء له علاقة بإسرائيل يجب أن يقاطع والوجه الثاني يقول نحن يجب أن نركز على تلك المظاهر التي تفعلها إسرائيل والتي هي غير شرعية بنظر القانون الدولي. مثلاً، ما فعلته الكنيسة المنهجية في بريطانيا: لم تمرر قراراً يقول: نحن يجب أن نقاطع كل المنتجات الإسرائيلية بالرغم من وجود بعض الناس الذين كانوا يضغطون من أجل ذلك. مررت قراراً يقول: نحن يجب أن نقاطع البضائع التي تأتي من المستوطنات، لأن المستوطنات غير شرعية بنظر القانون الدولي. إذاً هناك استهداف (لكاتربيلار) لأن كاتربيلار متورطة في تهديم البيوت وهذا غير شرعي بنظر القانون الدولي وهلم جرا. لهذا هناك مجموعة فرعية في المقاطعة والتجريد والعقوبات لا تركز على إسرائيل بشكل شامل وإنما على مظاهر من السياسة الإسرائيلية تنتهك القانون الدولي. هناك مجموعة فرعية أخرى تقول كل شيء يتعلق بإسرائيل يجب أن يقاطع - مؤسساتها الأكاديمية وكل منتجاتها. أعتقد أن المجموعة الفرعية الأولى - أقصد استهداف تلك المظاهر من السياسة الإسرائيلية المنتهكة للقانون الدولي. لها فرصة أفضل بكثير من النجاح لأن الناس يفهمون القانون الدولي. حين تبدأ باستهداف كل شيء يتعلق بإسرائيل هذا يبدأ

بطرح أسئلة باعثة - حسناً، الآن، ما الذي نعارضه هنا بالضبط؟ هل نحن نعارض الاحتلال أم نعارض إسرائيل كلها؟ والاستهداف الشامل برأيي مشوش ومربك في تلك القضية.

السابق مقتطف من مقابلة مع ستيرن - وينر، «الرب يساعد هؤلاء الذين يساعدون أنفسهم»: مقابلة مع نورمان جي فينكلشتاين، إم آر زاين ٧ تموز/يوليو ٢٠١٠. سأضيف إلى ما سبق التالي، كما اقترح فرانكلشتاين نفسه لاحقاً في نفس المقابلة: المقاطعة والتجريد والعقوبات يجب أن لا تقتصر كمبدأ على السياسات الإسرائيلية غير الشرعية بنظر القانون الدولي على وجه الخصوص. هناك أعمال نافعة كثيرة يجب مواصلتها رغم عدم القدرة على تفسيرها كداعمة للقانون الدولي أم معاقبة للحكومة الإسرائيلية التي تنتهكه بشكل صريح. مثلاً، حين أعلن الفنانون والمثقفون تضامنهم علانية مع الفلسطينيين في الامتناع عن المشاركة في المهرجانات والاحتفالات الموافق عليها رسمياً في إسرائيل، هذه المقاطعة يجب أن يرحب بها ويهلل لها لأنها توسع الوعي الشعبي بمأزق الفلسطينيين وليس لأنها تدعم القانون الدولي.

١١ - مقابلة حصرية لل (أي أو ايه) مع نعوم تشومسكي: حرب إسرائيل ضد فلسطين - الآن ماذا؟ أرشيف الاحتلال الإسرائيلي، ٢٦ تموز/يوليو. فكر بشكل خاص بجواب تشومسكي على السؤال قبل الأخير حول المقاطعة والتجريد والعقوبات.

صورة لتشومسكي كصهيوني صغير

أجرى المقابلة:
غابرييل ماثيو شيفون - نيو فيوسيز
٧ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١١

شيفون: أنت ذكرت بأنك كنت شاباً صهيونياً منظماً معارضاً للدولة اليهودية. أي نوع من الصهيونية تصورت أنت والشباب الآخرين وأردتم الانضمام إليها؟

تشومسكي: لقد كنت مرتبطاً بقسم مهم من الحركة الصهيونية كانت معارضة لدولة يهودية. إنها ليست مشهورة لكن حتى عام ١٩٤٢ لم يكن هناك التزام رسمي بمنظمات صهيونية بدولة يهودية. وحتى ذلك كان في منتصف الحرب العالمية الثانية. كان قراراً اتخذ في فندق بيلتمور في نيويورك، حيث كانت الدعوة الرسمية الأولى لدولة يهودية. قبل ذلك في كل الحركة الصهيونية، كان تأسيس دولة يهودية ربما ضمنياً أو في أذهان الناس أو شيء ما، لكن لم تكن هناك دعوة رسمية.

المجموعة التي كنت مشاركاً فيها كانت ثنائية القومية. ولم تكن صغيرة جداً. قسم أساسي من حركة الكيبتوز، مثلاً، (هاشومر هاتزاير) كانت معادية للدولة رسمياً على الأقل، نادت من أجل دولة ثنائية القومية. والمجموعات التي كنت منضماً لها كانت تأمل بفلسطين مؤسسة على تعاون الطبقة العاملة العربية اليهودية في مجتمع ثنائي القومية: لا دولة، لا دولة يهودية، فلسطين فقط.

كان هناك شخصيات هامة مشاركة في ذلك. فعلياً كان زيليغ هاريس أحدهم في فيلادلفيا، الفتى الذي أنهيت دراستي معه في جامعة بنسلفانيا، كان قائداً لجماعة سميت (افيوكاح) التي انحلت في الوقت

الـذي وصـلت فيـه إلى هنـاك لكنـها خـلال ثلاثينـات القـرن وأوائـل أربعينياتـه كانـت منظمـة هامـة للجنـاح اليـساري، مـن الـشبان اليهـود الصهاينة المعادين للدولة. كثير من الناس مروا بذلك - كثرة من الناس المشهورين الآن - من كل أرجاء المكان. لم تكن قسماً تافهاً من الجالية اليهودية الشابة اليسارية في الولايات المتحدة وحدث أن تكون جزئياً في فيلادلفيا.

وأتذكر بأن قرار الأمم المتحدة للتقسيم في عام ١٩٤٧كان مثل يوم حداد تقريباً في هذه الدوائر لأننا لم نرد دولة يهودية.

ادعت اللجنة الأنغلو - أمريكية بأن حوالي ٢٥٪ من السكان اليهود في فلسطين كانوا معارضين للدولة. كان هناك نوع من عقلية مختلفة في ذلك الوقت ولم يعتبر التحدث عن الاشتراكية مزحة آنذاك. كانت ظاهرة حقيقية حية هادفة، وقسم كبير من (اليشوف - جالية التجمع اليهودية في فلـسطين) - كانـت، في الحقيقـة، جاليـة متعاونـة مـع المنظمـات التعاونية، صناعة تعاونية، تجارة، الكثير من المؤسسات الاشتراكية. كان هناك أيضاً يهود عنصريون لكن هناك الكثير من المعارضة لذلك أيضاً، في جماعات من العرب واليهود كما يفترض.

في ذلك الوقت تقريباً، من أواخر ستينيات القرن العشرين حتى منتصف سبعينياته، باتت ثنائية القومية فعلياً هدفاً معقولاً وملائماً. حتى ذاك الوقت كانت قادرة على التحرك في ذلك الاتجاه. قبل ذلك كانت ستأخذ شكلاً مختلفاً لما قبل ١٩٤٨ طبعاً وأن تكون هناك تحركات نحو نوع من الفيدرالية، التي يمكن أن تتطور إلى مجتمع ثنائي القومية أكثر اندماجاً. وفي الحقيقة، حتى عناصر من الاستخبارات الإسرائيلية كانت تضغط من أجل شيء كهذا.

بعد ١٩٧٥ ضاعت الفرصة. بعد ذلك الوقت، دخلت القومية الفلسطينية الأجندة العالمية وبشكل أساسي بين الفلسطينيين. ومنذ ١٩٧٥ تقريباً، لم يكن هناك أي سبيل لتحقيق أهداف كتلك إلا على مراحل ومرحلتها الأولى تسوية الدولتين. إن كانت هناك طريقة أخرى لفعل ذلك، سأكون مؤيداً لها لكني لم أسمع بها قط.

يتحدث أناس عن دولة واحدة - والتي ستكون طبعاً، دولة ثنائية القومية - لكن بدون القول كيف سنصل إلى هناك. في ذلك الوقت من شبابي، كان ذلك قبل ١٩٤٨ . في أوائل السبعينيات، كان ممكناً التفكير حول كيفية الوصول إلى هناك مباشرة. الآن، حسب ما أرى، السبيل الوحيد لإنجاز هدفٍ كهذا سيكون بطريقة غير مباشرة، من خلال الدولتين.

وعرضياً، أنا حقيقة لم أكن أبداً ميالاً لدولة ثنائية القومية لأنني لم أر أي مبرر لتبجيل الحدود الإمبريالية فهي حدود اعتباطية تماماً. في الواقع، حين عشت وزوجتي في كيبوتز في أوائل الخمسينيات، كنا نتنقل. في المكان وحقائبنا على ظهورنا

شيفون: قبل أن تكون في إم أي تي؟

تشومسكي: قبل إم أي تي، كنا طلاباً بعد التخرج. كنا نتنقل شمال الجليل في إسرائيل. صدف أن عبرنا الحدود. لم تكن الحدود معلمة. لم نعرف. كان هناك طريق ومشينا وعبرنا الحدود السبب الوحيد الذي عرفناه هو، أتت سيارة جيب على الجانب الإسرائيلي وبدأ الفتى بالصياح بنا، وهو يأمرنا بالعودة إلى ذلك الجانب. لكن بعيداً عن القوى الإمبريالية، ليس هناك أي مبرر لتبجيل تلك الحدود. ينبغي أن يكون هناك تكامل إقليمي أكثر تدير فيه المجتمعات شؤونها مندمجة كما

تختار - نوع مما وجد تحت الإمبراطورية العثمانية. صحيح، لا أحد يريد الإمبراطورية العثمانية لكن بعض من البنى التي كانت لديها معقولة جداً للمنطقة.

شيفون: كنت ستعيش هناك قسماً من تحقيق أفكارك عن التعاون العربي - اليهودي؟

تشومسكي: نعم، لقد نوينا ذلك آنذاك. كنا في وسط الكلية وفكرنا أن نعود ونبقى. في الحقيقة زوجتي عادت وبقيت لفترة طويلة. فكرنا بالذهاب ولم نفعل أبداً. كان هناك الكثير من العقبات. البلاد[إسرائيل] كانت مختلفة جداً عن الشكل التي فيه الآن، لكن كان هناك الكثير من المشاكل. لكن في ذلك الوقت لم تكن أفكاراً غريبة. لم تكن في مركز الحركة الصهيونية لكنها كانت عنصراً منها.

من أجل تشومسكي

روبين بلاكبيرن — بروسبيكت
تشرين الثاني / نوفمبر

التصويت الهائل لنعوم تشومسكي بالمثقف الشعبي الأهم في العالم يجب أن لا يدهش أحد إطلاقاً فمن ذا الذي يضاهيه في إنجازاته الثقافية وشجاعته.

قلة قليلة جداً من الناس يبدلون مجالاً كاملاً من البحث كما فعل تشومسكي في اللغويات. لا يزال عمل تشومسكي العلمي خلافياً لكن إنجازه الهائل ليس مجالاً للشك، يمكن تأكيده بقول رفيق تشومسكي الجديد في كامبريدج: «هو لم يبدل اللغويات فقط في خمسينيات وستينيات القرن العشرين؛ وإنما ظل في طليعة الجدل والبحث».

رغبته في اجتياز مجال دراسته وتكريس نفسه لفضح الجرائم الكبيرة والجنح لأقوى بلاد في العالم وتواطئها مع الحكام المرتشين والوحشيين في أربع قارات لمدة نصف قرن أو أكثر.

يعتقد البعض - كما قال بول روبن، الكاتب في نيويورك تايمز بوك ريفيو، - بوجود «مشكلة بالنسبة لتشومسكي» فهو من جانب له إسهامات عميقة فنية في اللغويات ومن جانب آخر «بياناته السياسية ساذجة بشكل مغضب».

في الحقيقة ليس من الصعب تحديد روابط بين الاستراتيجيات الفكرية التي اتخذها تشومسكي في العلم والسياسة. طريقة تشومسكي في النحو أكدت على الاقتصاد في الشرح الذي يمكن إنجازه إذا نظر للتشابهات في بنيات اللغات الإنسانية بكونها تنبع من قدرات فطرية

متجذرة بيولوجياً في العقل البشري وأهمها القدرة الراجعة المتكررة لتوليد عدد غير محدود من التعبيرات من مجموعة محددة من الكلمات والرموز. يميل كثير من نقاد المدرسة الراديكالية الحديثين إلى النواح على استخفافها بالطريقة العلمية والدليل. هذا ليس تأنيباً يستطيع استهداف تشومسكي الذي اتبع وجهة نظر طبيعية واختزالية في ما يسميه في مجلده ١٩٩٥ «البرنامج المعتدل».

يجاهد تشومسكي في تحاليله السياسية أن تبقى بسيطة، لكن ليس على حساب الدليل، الذي يمكنه الاستشهاد به بغزارة إن استدعاه الأمر إلى ذلك. لكنها مع ذلك مغضبة، كما يغضب البرنامج المعتدل بعضاً من زملائه العلميين. الاستقامة الواضحة والمباشرة لآراء وأحكام تشومسكي السياسية - معارضته «غير المتكهن» بها و«تحديه» و«غير المتأنية» للغرب، خصوصاً التدخل العسكري للولايات المتحدة - يمكن أن تُرى ساذجة. لكنها مؤسسة على جبل من الأدلة ووصف مقتصد لكيفية التشارك في السلطة والمعلومات وتوزيعها وإنكارها. نموذجياً بدأ تشومسكي بطلب البساطة الصارمة التي تتطور إلى وصف معقد لوظائف الحكومة والجيش والميديا (الإعلام) والبزنس (التجارة) في إدارة وتسيير العالم.

من الواضح أن موقف تشومسكي السياسي البسيط متأصل في الفوضوية والجماعية الاشتراكية التي تولد إحساسها الخاص بها في الفردية والتعقيد. لقد انجذب إلى دراسة اللغات والنحو بواسطة معلمه زيليغ هاريس، الذي جمع أيضاً بين التحررية واللغويات. فكرة تشومسكي عن المقدرة اللغوية الفطرية المشتركة للتعاون والابتكار إيجابية قياساً بالحجة الستراوسية المعيارية الصرفة النافية بأن التفاوت البشري الطبيعي يبطل الديمقراطية.

حكايــة اندرســون عــن الــصبي الــصغير الــذي – (لإغاظــة رجــال الحاشـية) – أشـار إلى أن الإمبراطـور كـان عاريـاً، لهـا نكهـة تشومسكية، ليس لأنها نقلت حقيقـة بليغـة للسلطة فقـط وإنمـا لأن العـين الطفوليـة البسيطة أثبتت بأنها أقـوى وأحـد مـن عـين البـالغ المحنـك. كنـت حاضـراً حين وجه تشومسكي خطابه في الحلقـة الدراسـية في كـارل بـوبر اس ال أي في ربيع ١٩٦٩ وأنـصف قـدرات الأطفـال العقليـة، (ضَـمِنَ تشومسكي إذن دخولي إلى الحلقة الدراسية في الوقت الـذي علقـت فيـه وظـيفتي في اس ال أي.

كما أذكر، شرح تشومسكي كيف كان تبدل الحـرف الـصوتي في اللغـة الإنكليزية الذي حدث في آخر القرون الوسطى جزءاً من تحـول نـاتج عـن دينامية توليدية. جيل الآباء تكلموا مستخدمين ابتكـارات صـغيرة خاصـة بهـم وصـلت في طريقـة عفويـة وغـير مخططـة. رتـب الـصغار النـامون، بسبب مقدرتهم النحوية الفطرية، اللغة التي سمعوا آبـاءهم يـستخدمونها بواسطة تركيب قواعدي أكثر شمولاً مكن بدوره من تغيير منظم أكبر.

في الـسياسة، قـد تخـترق مباشـرة الهـراء الخـيري والـديمقراطي إلى نتائج التدخلات العسكرية الغربيـة – دول محطمـة، قطـاع طـرق، تهريـب مخدرات، تنافس النخب على خدمة المحتل، كره ديني وطائفي بغيض.

يعـترف تشومـسكي صـراحة بأنـه يفـضل «ابتـذالات الـسلميين» علـى كذب المولعين بـالحرب. أدى هـذا إلى اتهـام خـاطئ بأنـه «سلبي في وجـه الشـر». لكن الأبارتايد في جنوب أفريقيا أو الستالينية في روسيا أو حكـم العـسكر في أمريكـا اللاتينيـة لم تنـدحر أو تفكـك بالقـصف والغـزو. لم يجـد تشومـسكي صـعوبة في دعمـه للحملـة النـاجحـة النهائيـة ضـد الأبارتايد أو مـن أجـل الإنـسحاب الإندونيـسي مـن تيمـور الـشرقية. هـو

عارض ببساطة وضع جنود الولايات المتحدة في طريق الضرر - أيضاً يقصد حيث سيتسببون بضرر ويكتسبون الولع به.

انتصار تشومسكي في لعبة الردهات يجب أن لا تقرر نتيجتها كيفما اتفق. لكن مثل فوز ماركس في وقت مبكر من هذا العام في مسابقة راديو بي بي سي فور لـ«أعظم فيلسوف»، بَيَّنَ أن الناس المفكرين لازالوا ينجذبون بواسطة الدافع النقدي، قبل كل شيء حين يوجه بأمانة نحو فكرة عالمية فريدة. اقتصدت بروسبيكت في قائمة الفيلسوف الأول قلّما تشمل نقاد سياسة الولايات المتحدة الخارجية، والتي ربما زادت من حظوظ تَصَدُّر تشومسكي للقب. لكن أي تغيير لن يشكل فرقاً في النتيجة. أخطأ المحررون في تقديرهم لمزاج قرائهم وحسهم على التمييز.

منشق أميركي

بول اندرسون وكيفن ديفي
نيوستيتمان اندس وسيتي
٣ حزيران / يونيو ١٩٩٤

نعوم تشومسكي ليس شيئاً إن لم يكن ثابتاً ومتماسكاً. في الماضي في وسط ستينيات القرن العشرين، نجم صاعد في الأكاديمية الأمريكية بسبب عمله في اللغويات، صعق زملائه بأخذه موقفاً شعبياً صريحاً ضد ما سماه «الغزو الأمريكي لفيتنام». في مقال له عام ١٩٦٦ «مسؤولية المثقفين» شجب الادعاء الكامن في أساس النقاش السائد لسياسة الولايات المتحدة في الهند الصينية - أي إن «للولايات المتحدة الحق في مد سلطتها وسيطرتها دون حدود، بأقصى درجة ممكنة ومعقولة».

منذ ذلك الحين، بينما استمر في تطوير نظرياته اللغوية، كان أبرز ناقد أمريكي لسياسة بلاده الخارجية وللمثقفين ووسائل الإعلام التي أعطتها تأييداً ساحقاً ورضائياً تاماً. تلت «مسؤولية المثقفين» سلسلة هجمات كاسحة أكثر حدة على السياسة الأمريكية في فيتنام (جمعت في **السلطة الأمريكية والمندرين الجديد** في **حرب مع آسيا**): في عام ١٩٧٠، كان بسهولة أشهر مثقف مناوئ لجهود حروب الولايات المتحدة الأمريكية.

بعد انسحاب الولايات المتحدة من فيتنام في ١٩٧٥، وسع حقله الناري بسلسلة من المقالات والكتب. كلها جديرة بالقراءة لكن لم يشتهر منها سوى البعض. في ١٩٧٩، **الاقتصاد السياسي لحقوق الإنسان** المكون من مجلدين وألفه بالاشتراك مع ادوارد هيرمان، فضح دعم أميركا

لحرب إندونيسيا ضد تيمور الشرقية، ومسؤوليتها عن صعود بول بوت في كمبوديا ودعمها للدكتاتوريات الدموية في أمريكا اللاتينية. في ١٩٨٢، باتجاه حرب باردة جديدة أخضع برنامج الولايات المتحدة لإعادة التسلح والمدافعين عنه لهجوم سياسي صارم.

التالي كان **مثلث الشؤم** (١٩٨٤)، انقضاض على كفالة الولايات المتحدة لقمع إسرائيل للفلسطينيين، الذي حرض الصهيونية على اتهام تشومسكي بـ«يهودي يكره نفسه». تلاه **بتحول المد** (١٩٨٥) الذي عارض فيه حصار الولايات المتحدة لنيكاراغوا ودعمها لفرق الموت والديكتاتوريات في السلفادور وغواتيمالا. في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات أتت دفعة أخرى أعمق من الكتابات عن وسائل الإعلام أبرزها («**أوهام ضرورية**»، **أمريكا اللاتينية سنة ٥٠١**، **فضحية إيران كونترا** (**ثقافة الإرهاب**) و**النظامان العالميان، القديم والجديد**).

تشومسكي ناقد وليس صانع سياسة، نافخ صفارة وليس استراتيجياً مجهزاً بالبدائل. اليوم، يستخدم كل قواه الضخمة في المحاججة ضد النداءات الموجهة للجيش الأمريكي للتدخل في البوسنة وهاييتي. رغم أنه يدعم رفع حظر الأمم المتحدة على بيع الأسلحة إلى البوسنة، يقول: «أجد من الصعب الأخذ على محمل الجد الذين يقولون «دعونا نتدخل». وصدف وجود دولة واحدة عرضت أن ترسل قوات لحماية البوسنة - إيران. لم اسمع أحداً وافق على ذلك، وهناك سبب صريح. إن كانت إيران ستغزو البوسنة لتنقذها من الهجوم الصربي، فالنتيجة لن تكون حسنة. نفس المشكلة تظهر مع أي أحد آخر».

بالنسبة لهاييتي يعلق: «الناس هناك لا يريدون تدخل الولايات المتحدة ويدركون ماذا يعني من التجربة المرة - نهاية الحركات الجماهيرية ونهاية أي أمل في الديمقراطية».

جمع تشومسكي كياناً استثنائياً من الأدلة التي تبين ذلك، منذ ١٩٨٤، نفذت الولايات المتحدة سياسة خارجية برفض السماح لأي نظام وطني راديكالي في العالم الثالث من أن يأتي بين الولايات المتحدة والمواد الخام المطلوبة جداً لصناعتها وقد استخدمت التدخلات العسكرية لهذه الغاية بشكل ثابت - ووفرت وسائل الإعلام لهذه السياسة تأييداً سخياً تقريباً.

لكن نقد تشومسكي المخلص والوطيد أثار كثيراً من المعلقين فصحفيو الاتجاه السائد على الخصوص ضاقوا ذرعاً من «طرازه الدعائي» لوسائل الإعلام في الولايات المتحدة.

بناء عليه أذعنت شبكات التلفزة والصحافة بشكل وضيع لرغبة الحكومة في كل قضية مثيرة للنزاع من قضايا السياسة الخارجية. بل إن الأمر أعقد من ذلك بكثير كما يقول الصحفيون. كل جزء من بحث أداره هو وادوارد هيرمان عن تغطية وسائل الإعلام لنيكاراغوا في الثمانينيات يبين «درجة من الامتثال للقوة التي لم تتوفر حتى في الدولة الشمولية»، يقول: «المرة الوحيدة التي يشوه فيها النموذج الدعائي حين تتحول وسائل الإعلام إلى مجرد عبد متذلل لمصالح الدولة أكثر مما نتوقع».

والمثير للجدل أكثر، لقد انتُقدَ تشومسكي من قبل اليمين، لكونه متساهلاً مع الشيوعية وأنظمة الحكم الشمولية في العالم الثالث. كان يركز نيرانه دائماً على الولايات المتحدة وجادل بشكل ثابت من أجل التضامن مع ضحايا سياسة الولايات المتحدة. لكن منتقدوه يسألون أين مجادلاته العنيفة ضد تدخل الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، ومذابح بول بوت الجماعية وتهريب كوبا للمخدرات وإرهاب منظمة التحرير الفلسطينية؟

أغفل تشومسكي هذا الخط من النقد. «لو نظرت إلى كل المواد التي كتبتها عن حرب فيتنام، لا توجد كلمة واحدة تؤيد الفيتكونغ»، يقول:

«اليسار كله كان يؤيد هوشي مينه، كنت أقول إن فيتنام الشمالية ديكتاتورية ستالينية وحشية. لكن ليس شأني أن أملي على الفيتناميين كيف يديرون المشهد. رأيي أن التضامن يعني أخذ بلادي، حيث علي بعض المسؤولية ولي بعض التأثير، وإجبارها أن تخرج أياديها القذرة من شؤون شعوب أخرى. أنت تعطي التضامن لشعب البلاد وليس للسلطات. أنت لا تعطي التضامن للحكومات، أنت لا تعطيه للقادة الثوريين، أنت لا تعطيه للأحزاب السياسية».

«المغزى هو أن شعب بلاد ما يجب أن يكون حراً فيما يريد أن يفعل - والسبب الرئيسي لكونهم ليسوا كذلك أننا وضعنا أحذيتنا العسكرية على رقابهم. بمجرد أن تُزال أحذيتنا العسكرية عن رقابهم؛ سيقدرون أن يرسموا الطريقة التي يكونوا فيها أحراراً. إن تركوا مع حكومة مستبدة، يستطيعون الإطاحة بها حينئذ - وقد أساعدهم أنا». رفض تشومسكي ليمد تأييده للحكومات والقادة متجذر في فلسفته السياسية الفوضوية الكامنة. هذه النظرة العالمية مؤسسة على فكرة أن القدرة على تحقيق الذات والحرية جزء لا يتبدل من الطبيعة الإنسانية (فكرة ليست غير لازمة للفرضية المركزية لنظريته اللغوية التي ترى أننا نملك مقدرة فطرية على اكتساب قواعد اللغة وذلك جزء من تكويننا الجيني) وإنما مؤسسة أيضاً على دراسة تشومسكي للنقابية الفوضوية الإسبانية وللماركسية التحررية المنشقة عن مجالس الشيوعية في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين - أرضية تقاليد اشتراكية صادفها من خلال أصدقاء وعائلة كمراهق في الأربعينيات.

«أنا اختلف مع اليسار التقليدي الأرثوذوكسي في كل شيء تقريباً»، ويعود إلى الثورة البلشفية، يقول: «كل ما نجح البلاشفة في إنشائه كان شكلاً من رأسمالية الدولة. كان ذلك هزيمة للاشتراكية. دمر لينين وتروتسكي مجالس المصانع، وأعادوا صنع السوفياتات ومسحوا كل

نزعة اشتراكية في الثورة. فهم المثقفون الاشتراكيون البارزون مثل انطون بايكويك وروزا لوكسيمبورغ على الفور أنها كانت ثورة مضادة».

بخلاف غالبية الفوضويين، الذين جادلوا أن العمل المباشر هو الشكل الوحيد الذي تأخذ السياسة الفوضوية، لايعتقد تشومسكي أن فلسفته السياسية تملي أي تكتيك سياسي محدد. «الفكرة الفوضوية الأساسية هي أن أي نظام سلطة يجب أن يثبت شرعيته، إن لم يستطع إثبات شرعيته حينها يجب التخلص منه. أحياناً نظام سلطة ما يستطيع تبرير نفسه. إن لم يستطع، ولم يكن مهماً جداً، حسناً، يجب عليك تقويضه. كيف تفعل ذلك هذا يعتمد على الوضع. لا يوجد شيء في الفوضوية يخبرك كيف تباشر وتستمر».

هذا يعني أنه حتى النشاط الإصلاحي التقليدي أحياناً يكون الطريق الأفضل للأمام. تشومسكي عضو (ولو سلبي جداً) من الاشتراكيين الديمقراطيين في أميركا، لكن المؤسسة الأممية الاشتراكية في الولايات المتحدة تتباهى بحفنة من مؤيدين لها وسط نواب الكونغرس. «يمكنك أن تكون ضد برلماني وفي الحقيقة أنا كذلك ومازلت أعتقد أن التعامل مع البرلمان مهم جداً» «إن كنت تحاول وقف إرهاب الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى، من الفعّال جداً أحياناً أن تشكل جماعة ضغط في الكونغرس. ليست هناك أفكار جديدة في الإستراتيجية السياسية سوى التثقيف والتنظيم الدائمين والثابتين».

نعوم تشومسكي ومنتقدوه

لويس برويكت – ماكسميل
١٥ آب / أغسطس ٢٠٠٢

على إثر ١١ أيلول / سبتمبر، انهارت قطاعات محددة من اليسار في الولايات المتحدة تحت ضغط الطبقة الحاكمة وانقلبت ضد تشومسكي. عداؤه للإمبريالية العنيد كان يمكن أن يكون مقبولاً خلال ثمانينيات القرن العشرين حين كان الساندينستاتيون تحت بندقية واشنطن والجو القمعي اليوم لم يترك أي ملجأ للمثقف المنشق. طبعاً تشومسكي لم يسأل عن أي ملجأ فقد ظل جسوراً مبدئياً كما هو دائماً.

لتكدير نقاد الطبقة الحاكمة واليساريين المترددين، حصلت مجموعة من المقابلات مع تشومسكي، نشرت تحت عنوان «ناين/الفن» وحصلت على أعلى المبيعات. وفقاً لما جاء عن مقال في الواشنطن بوست بتاريخ ٥ أيار/مايو، بيع من الكتاب ١٦٠ ألف نسخة وترجم إلى أكثر من عشر لغات من كورية إلى يابانية إلى نوعين مختلفين من البرتغالية.

في محاولة لتحذير الناس من الكتاب وإبعادهم عنه، البوست تقتبس برايان مورتون، «روائي وكاتب مقالات من اليسار» كما هو مفترض، الذي اعتبر تشومسكي مثقفاً مهماً عانت حججه تصليداً تصلبياً. يقول: «تشومسكي يرى العالم في طريقة صارمة جداً ويصل إلى حقائق مؤكدة في تلك الطريقة، لكن رأيه في النهاية ساذج جداً لذلك ليس مفيداً. لقد أصبح طوراً يجب أن يمر به اليساريون حين يكونون شباباً».

يُفترض أن يكون فَشَل الواشنطن بوست في تحديد قطاع اليسار المرتبط به (مورتون) غير مفاجئ. كما تبين فهو رئيس تحرير (ديسينت ماغازين)، المنشور الذي يجب أن يوصف بالديمقراطية الاجتماعية في

حالة متقدمة من الخصوصية. ايرفينغ هاو، مؤسس المجلة الذي كان مؤيداً خطيراً للحرب الفيتنامية، ادّخر جُلَّ حقده للحركة المناهضة للحرب بدلاً من الرأسمالية. رئيس التحرير الحالي، مايكل ولزر، كان منبراً لحرب بوش ضد الإرهاب وقال في عدد خريف ٢٠٠١: «يجب علينا أن نحمي أرواحنا؛ ونحمي أسلوب عيشنا أيضاً. كل واحد يقول هذا، لكنه صحيح. الإرهابيون يقاومون ويكرهون أسلوبنا الحياتي وسيظلون يقاومونه ويكرهونه حتى ولو عشنا حياتنا بشكل أفضل بكثير مما يفعلون».

ايريك الترمان وكريستوفر هيتشينز، مشاركان في ذا نيشن ماغازين، أسبوعية يسارية ليبرالية تنشر باستمرار منذ الحرب الأهلية، صَعَدَت على عربة الجوقة الموسيقية المعادية لتشومسكي لتنتقم. رغم أن للمجلة سمعة العداء المبدئي للإمبريالية إلا أنها انتقلت بشكل ملحوظ إلى اليمين في السنين الأخيرة.

يعترف الترمان في مدونته (ام اس ان بي سي دوت كوم) أن (تشومسكي فعل الكثير من العمل الطيب حول تيمور الشرقية) لكنه حين اتهم الولايات المتحدة بـ(ارتكاب محرقة في أفغانستان) وقارن الهجوم على معمل الأدوية في السودان بذاك الذي حدث للبرجين التوأمين، فقد خرج عن (الصورة المطابقة للنعرة القومية الجاهلة لبينيت وكراثامر وكيلي وويل الخ).

كان (كريستوفر هيتشينز) مؤلف أغلب الهجمات الحامية والملحوظة ضد تشومسكي. في هجوم متعصب على حركة السلام في الرابع والعشرين من أيلول سبتمبر ٢٠٠١ في مجلة ذا نيشن بعنوان (من إثم اليسار والفاشية الإسلامية) يصف هيتشينز تشومسكي كـ(طري وناعم تجاه الجريمة وناعم تجاه الفاشية) ويضيف مع هكذا أشخاص (التحالف السياسي غير ممكن).

أصبح تشومسكي مكروهاً أيضاً لبعض من يساريي مابعد الحداثة. يشعر مايكل بيروب، معلق على الفنون والمجتمع، أن (اليسار التشومسكي أودع نفسه في مزبلة التاريخ). في تفسير للشقاق بين اليسار التشومسكي واليسار الهيتشينزي يظن بيروب أن (حقيقة أن القنابل كانت تتساقط) قد يكون له علاقة بذلك.

بالنسبة ليساريي الولايات المتحدة الذين تعلموا من الدروس في كمبوديا وليبيا ومدرسة الأمريكيتين، كل أعمال القصف الأمريكية مشكوكة: فقد أعلن عنها شبان بيض شاحبون بشعور رديئة، تغطيهم سبعة أقنية تلفزيونية متنافسة بين بعضها البعض من أجل شعار (الحرب الجديدة) المثير للانتباه وجوائز إيمي لعرض علم إبداعي، وهم يقتلون عادة المدنيين والفقراء والتعساء والمعاقين. بالتأكيد هناك الكثير المكروه حول أي حملة قصف.

بالاستغناء عن النسبية والسخرية اللعوبة اللتين تسميان (يسار مابعد الحداثة) يذكرنا بيروب أن الحرب عمل جدي: لكن من ينكر على أمة هوجمت حقها بالرد بالقوة العسكرية ومن يعتقد جاداً أن أي واحد يستطيع أن يتعهد في مشروع (بناء أمة) في أفغانستان بدون طرد طالبان من السلطة أولاً؟

باد سابجيكتس، منفذ آخر لما بعد الحداثيين، انضم إلى الحملة الصليبية. في أحدث نسخة للموقع تذمر جو لوكارد: تبدأ النزهة في مسلّمة بسيطة تنبع منها كمشتقات: الولايات المتحدة الدولة الإرهابية الرئيسية. السيد سميث ليس ذاهباً، لن يذهب إلى واشنطن؛ السيد سميث سيذهب إلى المركز الرئيسي للإرهاب. لماذا يتساءل مقتبسو تشومسكي، لماذا لم يدعوا بطلهم إلى جلسة مشتركة خاصة للكونغرس؟

عجبي الوحيد كيف يمكن لعضو في جماعة باد سابجيكتس أن يعتبر رحلة إلى الكونغرس جديرة بالعناء. يفترض أن تظل المحترمية

البورجوازية رغبتهم الكامنة رغم كل الإيماءات العدائية لصديقنا ما بعد الحداثي.

من السهل فهم سبب استهداف تشومسكي فهو هدف مغر كأبرز وأجلّ شخصية في الحركة الراديكالية. حين يتورط امرؤ في عراك في الشارع، من الجيد في علم النفس أن تصرع أكبر وأقوى خصم وبهذا تضعف وتربك صفوف العدو. هذه المقالة سوف تدرس كيف أصبح تشومسكي شخصية بارزة كهذه. في سياق هذا النقاش، سنتفحص بعضاً من عجزه الذي لا حاجة للقول بأنه صنف مختلف تماماً عن ذلك الذي تبجح به خصومه. نحن نفهم أن مقدرته في وقوفه بوجه ضغوطات زمن الحرب هي بالضبط التي ميزته عن المثقفين العاديين.

من كتاب السيرة الممتاز وصورة المثقف لنعوم تشومسكي الذي كتبه روبرت بارسكي (نعوم تشومسكي حياة منشق، ام أي تي بريس ١٩٩٨) علمنا أنه ولد في ٧ كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٢٨ إلى كتاب الدكتور ويليام (زيف) تشومسكي وايلسي سيمونوفسكي في فيلادلفيا، بنسلفانيا.

والد تشومسكي كان مدير مدرسة عبرية، ربّى ابنه على التقاليد والمعتقدات اليهودية. رغم انتساب والديه إلى المعاملة الجديدة كان أبناء عمومته وأخواله أكثر يسارية وضمن الأسرة الموسعة تصادمت آراء متنوعة مع بعضها البعض وسمعت الآراء الراديكالية التي كانت تنسب لليسار على خلفيته السياسية، وكانت الأفكار الراديكالية التي سمعها من حوله تتعزز بواسطة «رؤية أناس يأتون إلى الباب ويحاولون بيع الأسمال والتفاح» و«يسافر في عربة الترام مروراً بمصنع نسيج فيه نساء مضربات عن العمل ويراقب شرطة الشغب وهي تضرب المضربات».

معظم الشبان الذين أصبحوا راديكاليين أثناء ثلاثينيات القرن العشرين انضموا إلى الحزب الشيوعي، بينما عدد أصغر منهم أصبحوا

معادين للستالينية. وضمن هذه الأقلية انضمت الأكثرية منها إلى الحركة التروتسكية أو إلى الجناح اليساري من الحزب الاشتراكي، اللذين رغبا في التطابق. لكن كان هناك عدد أصغر عرفوا بالفوضوية أو الشيوعية اليسارية (أحياناً سميت بشيوعية المجالس) وشكلوا رد فعل على التسويات الوسطى مع عالم الرأسمالية التي فرضت على الاتحاد السوفييتي. نعوم تشومسكي أصبح جزءاً من هذا التيار.

أنشأ تشومسكي خليطاً انتقائياً من شيوعية المجالس والفوضوية والصهيونية اليسارية التي كانت طبيعية لأسرة يهودية احتفظت بمعتقدات تقليدية كثيرة جنباً إلى جنب مع الآراء السياسية التقدمية. المؤثرات الثلاثة قوت بعضها البعض وأنتجت ما يبدو أنه تعاطف دائم لجمعيات تعاونية على صعيد صغير ضد «اشتراكية الدولة».

بينما كل كتاباته تركزت على جرائم الولايات المتحدة، وشكلت أفكاره عن بدائل ذات أساس محلي للرأسمالية واشتراكية الدولة مجرى متناسقاً ومتيناً في كل حياته وسيرته مثلاً، بينما كتابه في عام ١٩٦٧ (القوة الأمريكية والمندرين الجديد) كرس أغلبه لهجوم ساحق على جريمة رجال اللاهوت الكبرى (تراهيسون ديس كليركس) الذين جعلوا الحرب الفيتنامية ممكنة وهناك أيضاً فصل يشمل مناقشة مطولة للحرب الأهلية الإسبانية. رغم تأطرها كرد على التفسيرات الليبرالية التي بررت قمع الفوضويين، هي أيضاً دفاع عن الفوضوية الأناركية نفسها خصوصاً كما تم التعبير عنه فيه جماعات أراغون. يلقي تشومسكي اللوم على (المركزية الشمولية) بدلاً من السياسة الخارجية السوفيتية في التعاون الطبقي. وجهة النظر الماركسية المناقضة لرأي تشومسكي، بأن المركزية لا يمكن أن تكون كلمة ذات معنى عند فصلها عن الاقتصاد السياسي وعن معايير طبقية رئيسية مثل ملكية وسائل الإنتاج.

مال تشومسكي في وقت مبكر إلى مزارع الكيبوتز الإسرائيلية كنوع من (التجربة الاشتراكية)، بعد وقت طويل أصبحت النوايا الاستعمارية للمستوطنين واضحة وانقلب على الكيبوتز الذي كان يعمل فيه بالذات لكن ليس بسبب أي نواقص اقتصادية وإنما كانت عنصرية المستوطنين العامل الرئيسي. إلى اليوم، لا يزال تشومسكي يتكلم بايجابية عن المخافر المتقدمة للصهيونية دون التطرق إلى المخاوف من الطبيعة الطبقية للدولة الإسرائيلية. (الغارديان ١٤ أيار/مايو ٢٠٠١).

لم يكتب تشومسكي بشكل منظم عن كيفية إنجاز صنفه من اشتراكية ذات نطاق ضيق. هذا يستلزم نقاشاً لمسائل مثل وكالة إنسانية وسياسة اقتصادية تبدو ذات أهمية صغيرة لديه. رغم انتسابه إلى حركة كتبت أدبيات كثيرة عن هكذا قضايا، يبدو تشومسكي على الأغلب قانعاً في إعلان أفضليتها وتفوقها على اشتراكية الدولة من حيث القيمة السطحية.

شكل مفهوم، هذا الموقف ينحرف كثيراً إلى نوع من الوعظ الذي كان عرضياً في مزاج الطبقة المثقفة في بداية الحرب الباردة، حين بدا كلا المعسكرين متساويين في الشر - في الوقت ذاته كان تشومسكي ينضج سياسياً وثقافياً في الحقيقة. يعلق باركلي:

من بين الأشخاص البارزين الذي انجذب إليهم، جورج اورويل فاتن بشكل خاص، بسبب الأثر الذي له على طيف واسع من المجتمع والعلاقات والمعارف العديدة التي لديه في اليسار التحرري. يشير تشومسكي إلى اورويل بشكل متكرر في كتاباته السياسية وحين تقرأ أعمال اورويل تصبح أسباب انجذابه إلى شخص اهتم في الحرب الأهلية الإسبانية من منظور فوضوي واضحة. متسلحاً أحياناً بوجهة نظر اورويل في إثارة «السفلس على كلا بيتيك الاثنين» انصرف تشومسكي غالباً إلى استحضار البطل المحاصر لرواية «١٩٤٨» الذي جابه عالماً

مقسماً بالتساوي إلى قوى شمولية شريرة. هذه العقلية ترسم خطابه عن الكلام المزدوج لجيل كامل من الإدارات الأمريكية. لسوء الحظ، هذا الموقف لا يستطيع إنصاف الديناميكية الضمنية للصدام بين القوى الكبرى، الذي هو دالة لمصالح طبقية متباعدة أكثر منه عبادة للدولة. في كل إنصاف لتشومسكي، كما سنرى مؤقتاً، هذا المنظور لم يؤد به إلى ضبابية تجاه الميزة العدائية والمهيمنة للإمبريالية الانغلواميركية، كما فعل اورويل الذي تعاون أخيراً مع البوليس السري البريطاني ضد «أعداء الحرية».

في الحقيقة، الكثير من الحنق الذي وجه ضد تشومسكي يرتبط برفضه الانحناء بوصة واحدة نحو النوع من انتصارية العالم الحر التي رفعها فرانسيس فوكوياما وتعمق عداء تشومسكي للإمبريالية الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة.

بالنسبة لتشومسكي، كانت الحرب الباردة في جوهرها مجابهة طويلة على طول خطوط شمال - جنوب أكثر منها شرق - غرب. في هذه السنوات الخمسمئة من حرب الغزو ضد الشعوب المستعمرة، الفوضوية أو الشيوعية اليسارية قلما لعبت دوراً بارزاً. لكن هذا لم يمنع تشومسكي من التعاطف مع هؤلاء الداخلين في الصراع أيا كانت إيديولوجياتهم.

بالعودة إلى النظامين العالميين القديم والجديد (حسب محاضرات ألقاها تشومسكي في الجامعة الأمريكية في القاهرة عام ١٩٩٣) نجد تحليلاً مميزاً لتشومسكي عن الحرب الباردة التي يوضح فيها الطبيعة الأحادية الطرف للصراع رغم عداء تشومسكي للكرملين. مقتبساً الصحفي الغواتيمالي جوليو غودوي، يتفق تشومسكي معه أن الأوروبيين الشرقيين كانوا «أحسن حظاً من أهل أمريكا الوسطى». بينما كانت براغ تذل وتحط من قدر الإصلاحيين، دعمت الولايات المتحدة حكومة في

غواتيمالا التي كانت تنظم إبادة جماعية فعلية بلغت تكلفتها الأخيرة حياة ١٥٠ ألفاً من السكان الأصليين. في الحقيقة، الثورة المخملية للطلاب التشيك الجسورة لا يمكن تفسيرها إلا رفض الجيش التشيكي إطلاق النار لقتلهم.

رغم حقده على الاتحاد السوفييتي، كان عادلاً في مكانته في التاريخ. على النقيض من الإمبريالية الأوروبية والأمريكية، بدا الاتحاد السوفييتي يعمل بمبادئ بدلاً من الربح. أثناء فترة «الاستغلال» السوفييتي لأوروبا الشرقية، كان لدى البلدان التابعة مستويات معيشية أعلى من البلد الأم. كان هذا نتيجة إعانات مالية ضخمة وصلت إلى ٨٠ بليون دولار أمريكي في سبعينيات القرن العشرين. ايفن - هانديد

بالنسبة لتشومسكي، انهيار الاتحاد السوفييتي لم يساعد في تحرير الإنسانية. بدلا من ذلك، بدون الاتحاد السوفييتي كموازن مضاد، تمكنت الإمبريالية أن تزيد وتسرع مستوى استغلال العالم الثالث ومن ضمنه نيكاراغوا حيث تمت الإطاحة بساندينيستا. كاونتربالانس.

لكن من الإنصاف أن نضيف أن عجائب السوق الحرة فتحت بدائل، ليس لملاكي الأراضي فقط والمضاربين وشركات وقطاعات أخرى ذات امتيازات بل حتى للأطفال الجياع الذين يضغطون وجوههم على نوافذ السيارات في زاويا الشوارع ليلاً وهم يتوسلون من أجل قروش قليلة للبقاء على قيد الحياة. واصفاً الكارثة البائسة لأطفال الشوارع في ماناغوا، ديفيد ويرنر، مؤلف «حيث لا يوجد هناك طبيب» وكتب أخرى عن الصحة والمجتمع، كتب أن «تسويق لصاق أحذية للأطفال أصبح تجارة رابحة» وواردات لموردين متعددي الجنسيات ترتفع بشكل لطيف بما أن «أصحاب الحوانيت في الجماعات البائسة يقومون بتجارة مزدهرة في إعادة ملء قوارير الأطفال الصغيرة» تنشق الغراء يقال إنه

«يبعد الجوع». معجزة السوق تعمل وتنجح مرة أخرى لكن يظل على النيكاراغويين تعلم الكثير.

رغم أن تشومسكي لم يكتب الكثير من الإعجاب النظري بثورة ساندينيستا القصيرة الأجل، إلا أن هذه البلاد تجاوبت مع تعاطفه بطريقة لم تفعلها البلدان الأخرى ذات القيادات الماركسية لقد احتج تشومسكي بلا كلل دفاعاً عن نيكاراغوا خلال ثمانينيات القرن العشرين وقال في مناظرة مع جون سيلبر، رئيس جامعة بوسطن الريغاني:

الآن لنعد إلى نيكاراغوا ولنعد إلى العالم الحقيقي، أنا لم اصف الساندينيستايين كديمقراطيين مثاليين أو أيا كانت عبارتك. ما فعلته هو اقتباس البنك الدولي واوكسفام والجماعة اليسوعية وغيرها التي اعترفت أن ما فعله ساندينيستا هو استخدام الموارد الشحيحة لتلك البلاد من أجل منفعة الأغلبية الفقيرة. لهذا السبب ارتفعت مستويات الصحة بشكل صاروخي. ذلك هو سبب ارتفاع محو الأمية. ولهذا السبب تقدم الإصلاح الزراعي، المكان الوحيد في المنطقة. لهذا السبب تحسن بقاء الزراعة واستهلاك الغذاء زاد ولهذا السبب هاجمناهم. ليس للديمقراطية علاقة بالموضوع.

لم يسمح تشومسكي لميوله الإيديولوجية للتدخل في إدراكه للحقيقة. كل من زار نيكاراغوا خلال هذه الفترة ومنهم تشومسكي، خرج بتقدير عميق لتفاني وإخلاص (اف اس ال ان). (ابنة تشومسكي «ايفي» كانت متطوعة مع (تيكنيكا)، منظمة شملت المئات من الآخرين، من بينهم مؤلف هذه المقالة).

بعد سقوط ثورة أمريكا الوسطى، باتت شيطنة أعداء إمبريالية الولايات المتحدة أسهل كثيراً. بينما شارك عشرات الآلاف من المواطنين الأمريكيين في مشاريع سيستر سيتيز من أجل نيكاراغوا أو يجمعون

الأموال للـ(اف ام ال ان) في السيلفادور، إلا أن تنظيم التضامن من أجل العراق أو يوغسلافية بات أصعب بكثير لأسباب واضحة.

كثير من المفكرين الذين وجدوا من السهل نسبياً المطالبة بوضع نهاية لحرب الكونترا أذعنوا أثناء الحرب ضد العراق ويوغسلافيا. رفض تشومسكي العنيد القبول بمزاج «التدخل الإنساني» في هذه الدوائر أدى إلى عزلته عن صفوفهم لكن شعبيته تزايدت بين الشباب الراديكاليين الذين لم يتساءلوا عن دوافع الولايات المتحدة وإنما عن تأثيرها في استبدال ديكتاتور بآخر.

بغض النظر عن مدى الكره الذي بدا به صدام حسين أو سلوبودان ميلوسوفيتش للتقدميين الأمريكيين فإن ١١ أيلول سبتمبر شكل تحدياً عميقاً لليسار المضاد للتدخل. كان هناك ولا يزال ضغطاً هائلاً للانصياع والقبول بإجماع الطبقة الحاكمة على الحرب، على أساس - لنستخدم لغة بيريوب بدلاً من اللغة المنتقاة - (من سينكر على أمة تُهاجم، حقها في الرد بالقوة العسكرية). بالتأكيد هي قضية مختلفة حين أيد ريغان قوات الكونترا في نيكاراغوا. ثوار ساندينيستا لم يهاجموا مواطناً أميركياً واحداً.

لكن حين أتت ثلاث طائرات واصطدمت في البنتاغون والبرجين التوءمين، أبدى كثير من الصحفيين والمثقفين استعدادهم للتجند في صفوف المارينز للانتقام.

مارك نيسون مؤرخ محبب لـ(سي ي يو اس ايه)، قال في نيويورك أوبزرفر: (إن قال أحد أي شيء عن النشاطات الإمبريالية الأمريكية وجعلها مكافئاً أخلاقياً لطالبان والقاعدة..... فسأضربه أنا. طولي ستة أقدام ووزني ٢٠٠ باوند).

ضد هذا المد المتصاعد من الشجار والخوف من الأجانب، كان صوت تشومسكي منارة للهدوء والعقل. الولايات المتحدة في اندفاعها لتنظيم

(حرب ضد الإرهاب) تتجاهل كعادتها الحقيقة أنها الدولة الإرهابية الأشد خطورة في العالم. ٩/١١ مختارة أدبية قصيرة من مقابلات مع تشومسكي حققت أكثر المبيعات، إنها واحد من الأماكن القليلة، خارج الانترنت والصحافة الاشتراكية الجيتو، التي يستطيع المرء أن يحصل فيه على تحليل مضاد. النهل من ثروة من بحث سابق، تشومسكي يذكر القراء باللائمة على الولايات المتحدة دون أن يبرر الهجوم على الـ(دبليو تي سي) والبنتاغون، الذي وصفه (بأعمال وحشية مرعبة). تحتوي الكراس على مقارنة بين هجوم كلينتون على معمل أدوية في الخرطوم مع هجمات ١١ أيلول سبتمبر مما أثار حفيظة كريستوفر هيتشينز إلى أقصى حدودها:

حسب التحليلات الموثوقة المتوفرة لدينا وتناسباً مع عدد السكان، إن تدمير معمل الشفاء للأدوية، كما لو كان شبكة بن لادن، في هجمة واحدة على الولايات المتحدة، جعل (مئات الآلاف - أكثرهم من الأطفال - يعانون ويموتون من أمراض يمكن علاجها بسهولة،) لكن التناظر، كما لوحظ، غير منصف. السودان (واحد من أقل المناطق تطوراً في العالم. مناخه القاسي وسكانه المبعثرون والمخاطر الصحية والبنية التحتية المنهارة تتحد لتجعل الحياة للكثير من السودانيين صراعاً للبقاء)، بلاد تستوطن فيها الملاريا والسل وأمراض كثيرة أخرى حيث (يتفشى التهاب السحايا دورياً أو الكوليرا) لهذا أدوية رخيصة ضرورة ملحة (جونثان بيلك وكمال الفاقي، تقارير فني من الميدان لمؤسسة الشرق الأوسط.) الأنكأ أنها بلاد أرضها الزراعية محدودة وفيها نقص مزمن في المياه الصالحة للشرب، ومعدل وفيات ضخم وصناعة قليلة وديون غير مفيدة؛ مخربة بالإيدز ومحطمة بحرب شريرة داخلية مدمرة، تشمل تقدير بيلك (المعقول جداً) أنه خلال سنة واحدة مات عشرات الآلاف

(تعذبوا وماتوا) نتيجة لتدمير الوسائل الرئيسية لإنتاج أدوية رخيصة وأدوية بيطرية.

إن الاستقصاءات الحقيقية للأعمال الإجرامية للولايات المتحدة كهذه هي نقطة قوة تشومسكي وليس الإيديولوجية الاشتراكية. خلال عقود من الزمن، وظف ساعات لا تحصى في إزالة الهالة الملوثة من رأس سياسة الولايات المتحدة الخارجية وكلما تزايد استقطاب سياسة الولايات المتحدة ستظل كتبه مصدراً قيماً لليسار مهما كانت آراؤه في الكيبوتزات أو الحرب الأهلية الإسبانية.

أختم هذه المقالة بتفحص بعض الجدالات المتصلة بسيرة تشومسكي السياسية التي استخدمت في طريقة ديماغوجية غوغائية ضده أثناء الصراع حول دعم «الحرب على الإرهاب». أتكلم عن قضيتي الفاوريسون والخمير الحمر اللتين زادتا من تصميم تشومسكي خلال السنين بغض النظر عن المرات الكثيرة ومدى الوضوح الذي حاول أن يدافع فيه عن سمعته ضد عصابات إجرامية إيديولوجية.

مثلاً، كيف استخدمت هذه القضايا ضد تشومسكي، نعود إلى مدونة الترمان (ام اس ان بي سي) المقتبسة آنفاً. كتب: بالنسبة لنعوم، حسناً، من غير الإنصاف أن نقارنه مع بيل بينيت، لأنه: (أ) يظهر بكونه شخصاً محتشماً مع آداب سلوك جيدة و(ب) لديه وظيفة نهارية كأهم فيلسوف لغوي منذ ويتغينشتين. لكن سياسياً أنا آسف. دافعت عن الرجل سنيناً، حتى خلال قضية فاوريسون وأعتقد أنه فعل الكثير من العمل الجيد بشأن تيمور الشرقية لكن انظروا إلى أحكام الرجل السياسية، دافع عن فاوريسون واعتبر الخمير الحمر أبطالاً.

لطرح دفاع تشومسكي عن حق فاوريسون في التعلم في منظور، من الضروري أنه مؤيد خطابي مجاني للحكم الاستبدادي من زمن مبكر.

في الفصل الرابع من دراسة بارسكي، نعرف أن تشومسكي يرى الجامعة كنوع من ملاذ عن السياسة والصراع الطبقي. كما صاغها تشومسكي في ١٩٩٦، «يجب ألا يفعل شيئاً يعيق الناس من التعلم وإجراء البحث العلمي حتى لو كان في تلك اللحظة يستخدم للذبح والتدمير».

مع الوقت تورط تشومسكي باحتجاجات ضد الحرب في فيتنام لكنه كان معادياً دائماً - مثل تيودور ادورنو - لاحتجاجات حرم الجماعة التي أعاقت تتبع الحقيقة. الأولى كانت للزحف ضد الحرب؛ أما الثانية فشيء آخر، لاحتلال بناء خصص لبحث ضد العصيان. حسبما جاء عن بارسكي أعجب تشومسكي بـ«تحدي الجامعات» لكن ظن أن تمرداتها كانت «مضللة بشكل واسع» وانتقدها وهي تحدث في بيركلي ١٩٦٦ وكولومبيا ١٩٦٨ بشكل خاص. هذا موثق من قبل نورمان ميلر الذي قضى زمناً مع تشومسكي في زنزانة السجن بعد اعتقاله في احتجاج البنتاغون في عام ١٩٦٦: «كان لديه في الحقيقة تحفظات كبيرة حول الشكل الذي أخذته ثورات الطلاب عام ١٩٦٨».

حين روبرت فاوريسون، الناكر للمحرقة، أُعْفِيَ من واجباته في جامعة ليون، وقع تشومسكي على عريضة تأييد له. بالتأكيد، إنْ استطاع عالم في (الام آي تي) إدارة بحث حتى لو استخدم «للذبح والتدمير»، لماذا ينكر على أستاذ حقه في كسب الرزق حتى لو لم يكن بشيء سوى الدفاع عن هكذا ممارسات في وقت فراغه. لكن لو فهم هذا الفعل في خد شروطه الخاصة به، رأي تشومسكي العابر بأنه «ليس لدي ما أقوله هنا عن عمل روبرت فاوريسون أو منتقديه الذي لا أعرف عنه سوى القليل جداً أو عن المواضيع التي عالجوها والتي ليس لي معرفة مميزة بها» لرفعوا عقيرتهم، كما فعل وصفه لفوريسون بـ«ليبرالي غير سياسي من نوع ما».

هـذا دفـع عـالم الأثريات الماركسي الفرنـسي بـيير فيـدال - نـاكيوت لكتابـة رد بـارز إلى تشومـسكي. حتـى علـى أرضـية حريـة التعـبير، وجـد عريـضة الالتمـاس مريبـة وملتبـسة. لقـد بينـت أن فاوريـسون منـع مـن إجـراء بحـث في المكتبـات العامـة والأرشـيفات، ادعـاء زائـف بالتأكيـد بالنسبة لفيدال - ناكويت. إضافة كتب فاوريسون عـن المحرقـة نـشرت بدون تدخل وأعطي مقابلات في مناسبتين مـع الليموند. كتب فيـدال - ناكويت مخاطباً تشومسكي بأسف وبغضب في سفاكي الذاكرة:

الحقيقـة البـسيطة، نعـوم تشومـسكي، أنـك كنـت عـاجزاً عـن تحمـل المبدأ الأساسي الذي أنـت فرضـته. لـديك الحـق أن تقـول: أسـوأ أعـدائي لديه الحق بأن يكون حراً، بشرط ألا يطالـب بمـوتي أو مـوت أخـي. لـيس لـديك الحـق لتقـول: أسـوأ أعـدائي رفيـق أو «نـوع مـن ليـبرالي سياسـي نـسبياً. لـيس لـديك الحـق أن تأخـذ محـرفاً للتـاريخ وتخلـع عليـه ألـوان الحقيقة».

حين اتهم تشومسكي وشريكه ادوارد هيرمـان بالـدفاع لـصالح الخمـير الحمر، الذين بلغ هجومهم على شعب كمبوديا أحجاماً تقترب من الإبادة الجماعية، نال الهجوم قيمة بقدر ما نالته قضية فاوريسون. لكن الحكم الرديء قد يفسر الخطأ في المثال الأول، دراسة تشومسكي وهيرمان عـن الأحداث في كمبوديا كانت ببساطة غير مقبولة للمعرفـة المثبتـة في دوائـر الليـبراليين اليـساريين. كانـت خطيئتـهما مقارنـة اللامبـالاة النـسبية في المذبحة في تيمور الشرقية مع كمبوديا، مثل حـين قـارن مـؤخراً ١١ أيلـول سبتمبر بهجمات قصف الخـرطوم. تـصريح كهـذا، موجـود في «الاقتـصاد السياسي لحقوق الإنسان» كان غير مقبول:

في حالة كمبوديا لم تتلقف وسائل الإعلام الغربية الأعمال الوحشية المنقولـة فقـط بـل زخرفتـها بتلفيقـات قويـة أيـضاً - الـتي اسـتمرت وقتـاً طـويلاً بعـد عرضـها. لم تبـد وسـائل الإعـلام أي اهتمـام في التـدقيق

بالأعمال الوحشية التي ارتكبها الغزاة الإندونيسيين التي حتى على صعيد الأعداد الصرفة كانت بنفس المقياس كتلك التي نقلتها مصادر ذات مصداقية مشابهة تتعلق بكمبوديا بل كانت أكبر بأضعاف المرات تناسباً مع عدد السكان.

إضافة، تشومسكي وهيرمان لديهما التهور للتشكيك بإحصائيات الوفيات في فرانسوا بونشوط «انيزيرو» كتاب كان له تأثير رئيسي على الطبقة المثقفة الغربية في أواسط سبعينيات القرن العشرين، خصوصاً عبر مراجعته من قبل (جان لاكوتشر) الذي ظهر في (ذا نيويورك ريفيو اف بوكس)، صحيفة كانت مسؤولة عن شيطنة أعداء الإمبريالية الأمريكية واحداً تلو الآخر لمدة ثلاثة عقود.

بعدم التشكيك في وحشية الخمر، لاحظ تشومسكي أن لاكوتشر قد بالغ في تقديرات بونشود لوفيات المدنيين إلى المليونين. في تصحيح نشر فيما بعد في نيويورك ريفيو، سحب لاكوتشر زعمه واعترف أنه «كان عليه أن يتوخى الدقة أكثر بأرقام الضحايا، أرقام مستمدة من مصادر مشكوك فيها أيضاً». في «سياسة تشومسكي» لاحظ ميلان راي أن رقم المليونين – رغم التصحيح – أصبح جزءاً من التاريخ الرسمي.

من وجهة النظر الماركسية، مكانة تشومسكي البارزة في السياسة الأمريكية تمثل شيئاً من التحدي. تبايناً مع فيالق الباحثين الماركسيين الذين يطيرون من مؤتمر إلى آخر ليوزعوا أوراقاً غامضة عن كيفية إعادة تفسير غرندرايز أو ماركس من منظور مابعد البنيوية الفرنسية، فضّل تشومسكي دوماً مخاطبة جماعات اجتماعية أو ناشطين:

ما يسمى «مؤتمرات» – تجميع مثقفين لم أحضره أبداً – ألقيت خطباً لا تحصى وشاركت في منتديات كثيرة، لكن ليست من نوع ما يسمى بالمؤتمرات. لهذا لم أذهب أبداً إلى مؤتمر الباحثين الإشتراكيين (رغم أن لدي عدداً من الأصدقاء الشخصيين هناك) أو المؤتمرات

الأكاديمية والاحترافية الخ. عملياً كل خطبي كانت لجماعات شعبية وجماعات ناشطة، لكن نموذجياً، ضممت إليها محاضراتي في الجامعات وحلقات البحث أحياناً لكن في أكثر الأوقات كانت لجمهور من الحضور مهتم في المجال العام.

إن كان تشومسكي سطحياً في حنقه على القضايا الرئيسية لعهدنا، بما فيها طبيعة الاتحاد السوفييتي، فإنه عوض وأفاض من خلال تفانيه الحماسي وإخلاصه لضحايا الاضطهاد. أعدت أعماله الناس الجدد للسياسة الراديكالية، الذين يحاولون فهم التناقض بين المثل الرفيعة المعلنة للديمقراطية البورجوازية وبين السجل الحقيقي للدم والسلب والاغتصاب. تستطيع الحركة الماركسية تعلم الكثير من تشومسكي، أهمها كيف تخاطب المواطن العادي. باستمرار تناقضات الرأسمالية الحديثة في التصاعد، ستكون هناك حاجة ملحة وهائلة للتكلم بوضوح ومسؤولية. لفعل ذلك بصورة ناجحة، يجب أن نبذل اهتماماً يقظاً بكتابات تشومسكي. في الحقيقة، تشومسكي في كل ذمه المتكرر للاشتراكية الماركسية، لا يذكرنا صوته التنبؤي الفريد إلا بتنبؤات ماركس نفسه.

هل يكره تشومسكي أمريكا؟

انتوني غانكارسكي - انتيور دوت كوم
٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣

قيل إنه يمكنك الحكم على الرجل من خلال من يكون أعداؤه وماذا أحبوا أن يقولوا عنه ليكبتوه. آخذين هذا في الاعتبار، ربما يكون من التنوير تفحص ما قاله أعداء أستاذ اللغويات في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا عنه.

(ديفيد هورويتز)، إصلاحي يميني انقلب إلى شريك لليكود، يصف تشومسكي كـ«آية الله مرضية للكره المعادي للأمريكيين - وقائد الطابور الخامس اليساري الخائن». (ويرنر كوهين) يشغل قلمه السام، مبتدعاً العنوان البارع شركاء في الكره: نعوم تشومسكي وناكرو المحرقة. ، كتاب صدر في عام ١٩٩٥ وروج في تلميح هستيري وتخمين خداع. (تود جيتلين)، الذي لم يدع أحداً يشكك بهويته اليسارية ونسيان أنه ظل رئيس الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي لبضعة عقود سابقة، ادعى أن تشومسكي كان «نزقاً» على إثر ٢٠٠١/٩/١١؛ بالنسبة لجيتلين، «أمضى تشومسكي وقتاً قليلاً على الهجمات نفسها قبل أن يطلق تلاوة متخشبة لأعمال وحشية نفذتها الحكومة الأمريكية وحلفاؤها».

من جانبه، كان تشومسكي يؤيد حق هؤلاء الجديرين وآلاف غيرهم ليكوّموا الافتراءات على عظامه المعمرة. تشومسكي مثل قلة لا تزال حية، يفهم وعد أميركا الوحيد جيداً بما يكفي ليكتب، المرة تلو الأخرى، أنه «إذا لم نؤمن بحرية الكلام لهؤلاء الذين نزدريهم، فنحن لا نؤمن بها بتاتاً». فكرة بسيطة، لكنها غائبة بشكل جلي من خطاب وسائل الإعلام الجماهيرية في السنين الأخيرة القليلة. علاوة على ذلك، حرية الكلام

بالنسبة لتشومسكي نقطة غير قابلة للتفاوض؛ هذا بالرغم من التأكيدات المتواصلة من السياسيين المحترفين وطفيليهم أن «٩/١١ بدّلت كل شيء» وذلك، بلسان المتحدث الرسمي للبيت الأبيض السابق آري فليشر، «يجب علينا كلنا أن ننتبه إلى ما نقوله».

طبعاً، كان تشومسكي الأول الذي وافق، بشروط التغير السياسي الحقيقي المؤثر، بأن ما نقوله ليس مهماً. في مؤتمر صحفي في ٢٢ تشرين أول/أكتوبر ليرقي قراءته لمقالة في ليموند «مآزق الهيمنة» أوجز تشومسكي ولاءه لـ«نظرية استثمار» السياسة، التي تتضمن أن كل فعل سياسي هادف يرتقي إلى معارك بين «تحالفات للمستثمرين تتنافس للسيطرة على الدولة واحتكارها للعنف».

تشومسكي الذي لم يتحفظ يوماً من وصف دور الولايات المتحدة في الشؤون الدولية بدور «رئيس عصابة المافيا» شكك وهو معذور في فوز مرشحي الرئاسة الديمقراطيين الخضر مثل نائب اوهاويو دينيس كوسينيتش بأي درجة قابلة للحياة في سباق ٢٠٠٤. «لو سمع أي شخص [رسالة كوسينتش]، لكان نال تأييداً واسع النطاق. لكن من سيسمع؟» مثل هذا الطرد الممزق لعطاء كوسينيتش الوهمي ربما يخيب آمال الناشطين الديمقراطيين في غينسفيل [الذين بالحكم من خلال القمصان التي بلا قبة والملصقات الضخمة جداً قرب حرم جامعة فلوريدا، أخذوا الكليفلاندي إلى صميمهم الجمعي] لكن التاريخ يقول إن رأي تشومسكي صحيح. الغرباء لا يفوزون في ألعاب المطلعين مثل مسابقات ترشح الرئاسة وخصوصاً في أزمنة كهذه.

تردد تشومسكي في التنبؤ بهلاك الولايات المتحدة الوشيك لكنه تكلم عن الدين القومي غير المفيد، نتاج النخب التي «اتفقت أن الهدف هو الدفع بالبلاد إلى كارثة مالية». في حساباته، «الرجعيون المنادون

بالدولانية» الذين يديرون الفرع الإداري حالياً، يدبرون لتحطم قطار مالي مخطط لـ«تجويع البهيمة» البهيمة طبعاً: هي نظام الانتعاش الاجتماعي الذي يعتمد عليه الأمريكيون وبشكل متزايد دائماً منذ الاتفاق الجديد في عهد فيودور دوايت روزفلت.

هل نعوم تشومسكي يكره أمريكا، كما قالتها شخصية فوكس نيوز البارزة شون هانيتي؟ هذا يعتمد على تعريفك لأمريكا. إن عرفت أمريكا بحضورها العسكري الكوني فإن تشومسكي يحتقرها للنخاع لكن لو عرفت أمريكا كمجموع شعبها، طموحاتهم وآمالهم في المستقبل، عندها لا يمكن القول أن تشومسكي يكره أمريكا. آلاف الذين سمعوه يتكلم في مساء ثلاثاء معتدل في غينيسفيل اوكونيل سنتر يشهد في الحقيقة على حب تشومسكي لأمريكا وشعبها، كما تجسد ببحثه السخي عن الحقيقة في لصقة الأكاذيب - سياسة واشنطن.

رد فظ على تشومسكي

سينيثا بيترز - زدنيت

٢٧ أبريل / نيسان ٢٠٠٤

لقد استفادت بشكل ضخم حركاتنا للتغيير الاجتماعي من أعمال نعوم تشومسكي. الطاقة التي لا تصدق التي يجلبها لخطاباته وكتاباته تعني أن الملايين اطلعوا على تحليله لسياسة الولايات المتحدة الخارجية والداخلية. لكن لديه أداة بلاغية مفضلة تثير أعصابي دائماً. هو يوحي بأن شيئاً ما واضحٌ. ربما هو لا يدرك إلى أي حد كبير هذا يضع الناس على موقع الشك. لا يستطيع المرء ألا يتساءل: لكن ماذا لو لم يكن هذا واضحاً لي؟

إن اعتبر تشومسكي شيئاً ما على أنه واضح، مع ذلك أنا ارتبك فيه، هل يعني ذلك أنني غبي؟ خذ السؤال الذي يطرحه في نهاية كل حديث له. هو يقول إنه يستلم رسائلَ حول ذلك يومياً. حين عملت في مطبعة ساوث إيند في ثمانينيات القرن العشرين كنا نسأله أن يضمن شيئاً ما حول ذلك في نهاية اتهاماته المطولة لسياسة الولايات المتحدة الإمبريالية في أميركا الوسطى والشرق الأوسط. لو رجعت إلى هذه الكتب ستجد، بعد ٦٠٠ صفحة من التحليل فقرة قصيرة عما أتحدث عنه.

إنه السؤال حول ما يستطيع أن يفعله الأفراد.

وتشومسكي يعتقد أنه واضح. في مقابلة مع ديفيد بارساميان في عدد أيار/ مايو للبروغرسيف قال «في الحقيقة، نحن نستطيع أن نفعل أي شيء تقريباً. ليس هناك صعوبة، أينما تكونون، في إيجاد مجموعات تعمل بجهد على أشياء تهمك».

من جانب هو محق طبعاً. ليس هناك بديل عن الانضمام إلى مجموعات أحب أن أقصد بها التنظيم. وفي أيامي الأكثر تفاؤلاً، أعتقد

بالفعل أن المشكلة هي أن هناك عدداً كبيراً من الناس لا يريدون أن يفهموا هذه الحقيقة الواضحة. هم يعتقدون أن تعليم الأولاد على التشارك وحرمان أبنائهم من البنادق والألعاب عملاً سياسياً ويعتقدون أن التطوع في ملجأ وممارسة «أعمال خيرية اعتباطية» سوف يحدث تغييراً اجتماعياً كما يعتقدون أن ارتداء الخيش وركوب دراجاتهم إلى جمعيات الغذاء التعاونية يساعد على بناء عالم أفضل. إن كان الكثير الكثير من الناس الذين يعتقدون بهذا، نستطيع أن نصل إليهم ونقنعهم أن التغيير الاجتماعي سوف لن يحدث عن طريق إيماءات فردية اعتباطية. مهمتنا صريحة وواضحة. ليس علينا إلا أن نكون مثل تشومسكي ونطوف لنخبر الناس أن يشتغلوا، المسار واضح، نظام المنظمات في الترابط أو الإحداث.

لكن ما يدهشني أن ذلك ليس هو ما يعيق الناس ويدهشني أن ما يجب أن نفعله ليس واضحاً كله وفي الدلالة بأنه كذلك، نحن نخاطر بجعل الناس أغبياء حين يكونون في الحقيقة محقين تماماً في طرح السؤال، «ماذا علي أن أفعل؟» مازلت واعظاً وناشطاً سياسياً لأكثر من ٢٥ سنة ولا أزال أتساءل حول ما يجب أن افعل بالضبط. هذه بعض المشاكل التي تجعل القيام بفعل التغيير الاجتماعي أقل من الواضح.

مشكلة التناسب

هذه هي المشكلة التي تأتي من ضرورة العمل في عالم المظالم التي تبدو وكأنها غير قابلة للقياس في أي مقياس يمكن تخيله. هذه هي المشكلة التي تقودك إلى التفكير، «رعب سياسات الولايات المتحدة الإمبريالية غامر جداً، ليس هناك أي شيء يمكنني فعله للتفريق بينها». لو فهمت عمل آلة المركب الحربي فستبدأ في التفكير فيه كوحش ضخم قادر على الإبادة الجماعية بمجرد الاستنشاق والزفير. مخالبه القوية

تنزل الخراب أثناء صيانته الذاتية الأساسية. عمل غير عاقل كحفيف ذيله مثلاً ينزل خسارة بشرية مريعة وتدميراً للبيئة.

الوحش رهيب وجبار وكمواطن لهذا الوحش تتساءل ماذا يجب عليك أن تفعل. أن تبحث لتكتشف ما يفعله المواطنون الآخرون بشأنه. لقد سمعت خطاب تشومسكي، أخيراً، لهذا أنت تعرف أنه عليك أن تنضم إلى منظمة لكنك صغيرٌ جداً بالنسبة لضخامة الوحش ولا يوجد مقياس يمكن قياسك أنت والوحش فيه حتى كما أن «الانضمام إلى منظمة» يبدو تفكيراً سحرياً، وتتخلى عن ذلك حين تكون في السادسة من العمر.

تقول لنفسك وليس ذلك غير عقلاني، «ليس هناك فعل أستطيع توليه» - ولا حتى سلسلة من الأفعال، أو حتى أفعال تدوم مدى الحياة - يمكنه أن يكون كفؤاً للمهمة التي في المتناول. «تلك هي مشكلة التناسب».

مشكلة الإستراتيجية

لكنك قد تقرر بأن تكون ناشطاً في جميع الأحوال. الوحش من صنع الإنسان أولاً وأخيراً. إن كنا خلقنا هذا الشيء، ينبغي أننا نقدر أن نفككه. ربما أنت مخطئ، ليس فيما يتعلق بصغرك الشديد مقارنة بالوحش (لأنه لا يغير شيئاً في ذلك) وإنما في تقييمك بحجم القوة التي تمتلكها أو يمكن أن تمتلكها، خصوصاً إن انضممت إلى آخرين. لهذا تبدأ في البحث. لقد درس المواطنون كيف يعمل الوحش ولاحظوا أنه حين يمد مخالبه يؤذي الناس ويقتلهم ويشردهم ويتركهم عاجزين حتى عن البقاء أحياء. أنت ترى أن مجموعات متنوعة تعمل بيأس لتقلم برثناً واحداً من مخالب وحشنا المتعددة. هذا سيريح ألم وعذاب الناس الذين سيصطدمون بالمخلب.

لا يبدو منطقياً الانهماك في هذا النشاط نظراً للضراوة المحتملة لطرف الحيوان الذي تتصل به البراثن لكنك بشري وترى الناس

سيستفيدون قليلا على الأقل بمخالب أقل حدة، لهذا تتقدم للانضمام إلى المحاولة. لكن، انتظر، الناس يتقاتلون حول أي برثن تقليمه أفضل ولأنهم لا يستطيعون التوافق، ينقسمون والآن يتنافسون على موارد تشذيب البرثن. أنت لم تكن متأكداً في المقام الأول إن كان تشذيب البرثن سيكون بكل تلك الفعالية، خصوصاً بما أن الذيل يحف والإبادة تستمر في كامل قوتها، لكن الآن ترى أنك ربما لن تنجز تشذيب البرثن لوجود خلاف كبير جداً حول الإصبع الذي يجب معالجته.

في الوقت الفاصل، يحاول آخرون ابتكار أدوات لاحتواء حفيف الذيل بينما يظل آخرون يحاولون تطوير ترياقات للزفير المميت وبعضهم الآخر يكتشفون أن دورة دم الوحش تسبب بشكل آلي للناس أن يتعرضوا للسرقة والحط من قدرهم أما بعضهم الآخر فيحض الناس على ترويض الوحش بطريقة يمكن فيها تفكيك أنظمته أخيراً واستبدالها لكنهم لا يقولون كيف أو بماذا.

لهذا حتى لو تغلبت على مشكلة التناسب، وأقنعت نفسك أنه يمكن إلحاق الهزيمة بالوحش، فإنك تدخل في عالم من نشطاء التغيير الاجتماعي الذي يعملون كلهم فيه بطريقة غير منظمة على أجزاء مختلفة من جسد الوحش. الناس لا يتكلمون إلى بعضهم البعض حتى، إلا إن تقابلوا صدفة وهم يقفون في طابور عند مكتب الممول ينتظرون ليحصلوا على مواردهم من تقليم البرثن. أنت تعرف أن هناك فأساً في مكان ما سوف يستفيد من البرثن - ربما حتى الإصبع كله! - لكن ذلك يستلزم تخطيطاً وتدريباً على استخدام الفأس. أوه حسناً، تلك هي مشكلة الإستراتيجية.

مشكلة الرؤية

لكنك ترى أنه من الممكن التغلب على مشكلة الإستراتيجية. لقد درست الحركات الاجتماعية ورأيت الناس قد طوروا خططاً طويلة

الأجل وحققوا مكاسب مع سنين من العمل المجهد. أنت مُطَّلِعٌ على الآخرين الذين يريدون أن يفكروا ويعملوا بأسلوب أكثر إستراتيجية. ويخطر لك فجأة، أنه لكي تكون استراتيجياً، عليك أن تعرف ما الذي تحاول أن تنجزه في النهاية. ما إن تبدأ في مناقشة هذا السؤال مع الناس، تكتشف أن أحد الأسباب هو أن الناس ليسوا استراتيجيين حول كيف سيستخدمون الفأس وأنهم خائفون إن استخدموها قد يسقط الوحش.

انظر ولاحظ، أليس ذلك هو المغزى؟ أنت تسأل. ظاهرياً لا. على الأقل بالنسبة لهؤلاء الناس الذين، إن أدركوا أم لا، يعيشون بترتيب خاص في حماية هذا الوحش. هم يفضلون مخالب أكثر بلادة - ربما حتى وحشاً أزيلت مخالبه تماماً - لأن قلع الأظافر بغيض وكل الصراخ الذي يحدثه ممزق. هؤلاء القوم يعتمدون على الوحش في امتيازات محددة.

هم يريدون أن يبقى تنفسه ودورته الدموية وقوة أعضائه سليمة لكنهم يريدون أن تخفف نتائج أفعاله الدموية الكثيرة. تدرك مرعوباً أن بعض من أهم حلفائك في عمل إزالة البراثن، الأشخاص الذين يمولون مشروعك ويعطونك أحياناً ٠,٣ ثانية في وقت الذروة ليسوا حلفاء إطلاقاً حين يتعلق الأمر برؤيتك في عالم أفضل.

بالإضافة إلى ذلك أنت ليس لديك رؤية لعالم أفضل في كل الأحوال. أنت تدرك جيداً أن «عالم آخر هو ممكن». أنت قد سمعت الشعارات كغيرك من الناشطين الآخرين المعادين للوحش. لكن ليس هناك أماكن لاستكشاف الشكل الذي يكون عليه هذا العالم الآخر ومن الصعب تخيل صرف الوقت عليه بأي حال. البراثن لا تزال تجرح والذيل يحف وقلب الوحش ينبض بلا كلل.

ربما أنت تعود إلى تقليم البرثن أيضاً، الذي له نتائج مرئية على الأقل، يقلل الألم الحقيقي ويجعلك تشعر أنك تقوم بشيء يستحق العناء. يجب عليك أن تتجاهل العمل الوظيفي الحقيقي للوحش وربما ستبدأ تشتري في تبريرات أن الوحش هو اللعبة الوحيدة في البلدة. أنت لا تريد القيام بهذه الصفقة لكن أليست أسهل من مواجهة حقيقة أن حلفاءك المفترضين هم المستفيدون من الوحش فعلياً؟ إن واجهت هؤلاء الحلفاء، هل تبعدهم عنك وتنفر منهم، فيهددون وصولك إلى الموارد ويهمشونك أكثر ويخاطرون بأي شكل من عملية تشذيب البراثن إن أبقيت فمك مغلقاً؟

دعنا نقول إنك عنيد جداً. أنت اتخذت قرارات إستراتيجية للتعامل مع مبرري الوحش كما تتطلب الحاجة لكنك سوف تستمر في رؤية عالم أفضل أيضاً مع ناشطين معادين للوحش تفكيرهم أقرب إليك. سنوات من التجربة علمتني أنه بدون رؤية، لن تكون لديك إستراتيجية وبدون إستراتيجية لن تصل إلى أي مكان.

مهما كان ما حققته قليلاً تظل هذه الرحلة الأكثر خطورة من بين الكل - التي يمكن أن تثير خلافات ملتهبة وتغريب بين الناشطين الذين لديهم أشياء مشتركة كثيرة جداً. أنت رأيت كيف أن الناس المنزعجين يصبحون حين لا يستطيعون الاتفاق على الإصبع الذي سيضعونه في شعيرة التسديد، وها أنت تسأل الناس يأتوا برؤية مشتركة لاستبدال الجهازين الوعائي والتنفسي للوحش.

يغريك إلى حد بعيد التراجع عن كل ذلك. ألا يكفي أنك تغلبت على مشكلة التناسب وفعلت شيئاً واضحاً - وجدت مجموعة كانت «تعمل بجهد على أشياء تهمك»؟

كلا، أنت تكتشف. هذا ليس كافياً. إن كنت جاداً في الهجوم على الوحش عليك أن تقوم بأكثر من ذلك بكثير. لهذا ستواجه ببعض

القـرارات الحاسمـة (لا أحـد منـها بأجوبـة واضـحة) حـول كيـف وأيـن ستستخدم طاقتك، أي معركة هـي الأهـم، بنـاء تحالفـات عبر انقسامات هائلـة، كيـف ستنـشغل في إسـتراتيجية ورؤيـة حتـى وأنـت تأخذ خطـوات طفل لترد على أسوأ الآثار للمخالب.

في بوسطن غلوب بوك ريفيو (٢٥ أبريل / نيسان ٢٠٠٤) نعـت جـورج سيكالابا تشومسكي بـ«مواطن أمريكا الأكثـر نفعـاً». أنـا لا أعـارض. لقـد عرّا أفعال الوحش وشـرح وظيفته - مكونـات نقديـة لأي صـندوق أدوات ناشط في التغيير الاجتماعي. لكن أتمنى أن يتوقف عن التدليل الـضمني أن الكيفيـة الـتي يـرد الفـرد فيهـا علـى هـذا الـوحش واضـحة جـداً. إن اعتقـدنا بأنهـا واضـحة جـداً، فلـن نحـضر أنفـسنا للمـشاكل، خـصوصاً لنبني نوع الحـركات التي سـتكون نـداً للـوحش إلا إذا أخـذنا هـذه المشاكل بجدية وتعاملنا معها.

حين رأيت نعوم تشومسكي بكيت

فريد برانفمان — الترنت
١٧ يونيو / حزيران

قبل اثنتين وأربعين سنة مررت بتجربة فريدة إذ أصبحت على علاقة ودية مع شاب اسمه نعوم تشومسكي الذي عرفته ككائن بشري قبل أن أصبح مدركاً بشكل تام لشهرته وأثر أعماله. فكرت كثيراً في هذه التجربة نظراً لقوة نفاذ بصيرته التي جعلتني استسلم له والأهم للمشكلة العويصة التي تجد أمتنا والعالم فيها اليوم. كانت هبته الأولى بالنسبة لي تركيزه المستمر على كيفية تعامل قادة الولايات المتحدة مع الكثيرين جداً من سكان العالم «بالإبادة»، إما باستغلالهم اقتصادياً أو في شن حروب قتلت وشردت أكثر من ٢٠ مليون شخص منذ الحرب العالمية الثانية (أكثر من ٥ ملايين في العراق و١٦ مليوناً في الهند الصينية حسب الإحصائيات الرسمية لحكومة الولايات المتحدة.)

تشكلت صداقتنا حول القلق عن هذه «الإبادة» حين زار لاووس في شباط / فبراير ١٩٧٠ . كنت أعيش في قرية لاووية خارج العاصمة الفيتنامية لمدة ثلاث سنوات في تلك النقطة وأتكلم اللغة اللاوية. قبل خمسة أشهر صعقت من صميم قلبي حين قابلت أول لاجئ لاوي جلب إلى فينتايان من سهل الجرار الفخارية في شمال لاووس الذي كان يسيطر عليه الشيوعي باثيت لاو منذ ١٩٤٦ . اكتشفت لرعبي أن قادة الفرع الإداري للولايات المتحدة كانوا يقصفون سراً القرويين المسالمين لمدة خمس سنوات ونصف، مجبرين عشرات الآلاف على الاختباء تحت سطح الأرض وفي داخل الكهوف، حيث أجبروا على العيش مثل الحيوانات.

عرفت بأعداد لا تحصى من الجدات اللواتي دفنّ أحياء بالنابالم ومثلهنّ من الأطفال الذين دفنوا بقنابل الـ٥٠٠ رطل وآباء وأمهات مزقتهم القنابل المضادة للأشخاص. تلمست خرادق من هذه القنابل أجساد اللاجئين الذين حالفهم الحظ بالنجاة، قابلت أشخاصاً فقدوا أبصارهم بسبب القصف ورأيت الجروح على أجساد الأطفال. عرفت أيضاً أن قصف الولايات المتحدة لسهول جرار الفخار حول حضارة عمرها ٧٠٠ سنة لـ٢٠٠٠٠٠ شخص إلى أرض خراب وأن ضحاياه الرئيسيين كانوا من كبار السن والآباء والأمهات والأطفال الذين أجبروا على البقاء قرب القرى - وليس الجنود الشيوعيون الذين استطاعوا التنقل عبر الغابات المكسوة بكثافة التي لا تكشف من الجو. واكتشفت عاجلاً أيضاً أن قادة الفرع الإداري للولايات المتحدة قاموا بهذا القصف من طرف واحد بدون الإخبار أو الحصول على موافقة من الكونغرس أو الشعب الأمريكي وتأكدت أن هذه السهول المخربة كانت محظوظة. لقد نجت. القصف الأمريكي لمئات الآلاف من الأبرياء اللاويين لم يكن مستمراً فقط بل متصاعداً أيضاً.

لقد تربيت على الإيمان بالقيم الأمريكية لكن قصف المدنيين الأبرياء هذا دنس كل واحدة منها. النظر إلى قادة الفرع الإداري الأمريكي من منظور لاجئ مخيم لاوي، لقد عرفت في أسابيع قليلة أنهم كانوا أعداء الاحتشام الإنساني والديمقراطية وحقوق الإنسان والقانون الدولي في الخارج، وأن القوة في هذا العالم الحقيقي تصنع الحق والجريمة مجزية. مهما صدق المرء بأن أمريكا «أمة القوانين وليس الرجال» فإنها كانت بوضوح أمة رجال قساة خارجين عن القانون في لاووس.

بدون أي قرار مقصود من جانبي، وجدت نفسي على الفور ملتزماً بأن أقوم بأي شيء بمقدوري لوقف هذا الرعب الذي لا يمكن تصوره. شعرت كيهودي يقع في المحرقة كما لو أنني اكتشفت حقيقة اسشويتز

وبوشينوالد أثناء استمرار القتل ووجدت نفسي أعمل بأقصى جهد في أخذ كل واحد استطعت إيجاده - منهم صحفيون مثل مراسل (سي بي اس) بيرنارد كالب، ومراسل الـ(ايه بي سي) تيد كوبل ومراسلة (نيويورك تايمز) فلورا لويس - إلى المخيمات بأمل أن يروا أخبار القصف ويكشفوها للعالم.

في يوم ما سمعت أن ثلاثة نشطاء معادين للحرب - دوغ دود وريتشارد فرنانديز ونعوم تشومسكي - كانوا في فندق لين زانغ في فيانتيان قبل أسر طائرة لجنة التحكم الدولية في زيارة إلى هانوي مدتها أسبوع. (الطريق الوحيد للذهاب إلى هانوي آنذاك عبر بنوم بن.) زرت إحدى غرفهم، عرفت بنفسي وتقابلنا وخرج نعوم تشومسكي إلى القرية التي عشت فيها من أجل العشاء في اليوم التالي وكان يخطط للذهاب إلى هانوي في اليوم التالي.

أمضيت معظم الستينيات في أواسط الشرق، تنزانيا ولاووس وعرفت القليل نسبياً عن دوغ وديك ونعومي، لكني كنت أعرف أن نعوم كان لغوياً مشهوراً وكتب الكثير عن الحرب الهندية الصينية.

على الصعيد الشخصي كان لدي ميل فوري لنعوم. كان طبعه جيداً لكنه حاد - كنا نشترك في الصفة الأخيرة - ومبال بشكل واضح. أحد الأسباب التي أفزعتني من القصف أنني كنت أعرف اللاويين كناس من خلال عيشهم في قريتي في السنوات الثلاث السابقة - خصوصاً رجل سبعيني اسمه باو ثاو دوانغ أحببته مثل أب بديل. كان لطيفاً وحكيماً ودمثاً واحترمته بقدر كبير ودهشت خصوصاً من الدفء الذي اقترب منه نعوم من باو أثناء عشائنا معه وعائلته. شعر على الفور بالقرب والتعاطف معهم الذي لم أره مع زوار كثيرين أخذتهم إلى القرية وأظهر أيضاً فضولاً مركزاً حول تفاصيل ما كان يحدث في لاووس التي كنت مسروراً للرد عليها.

في اليوم التالي اكتشف الزوار أخباراً مزعجة: رحلة لجنة الضبط الدولية (سي سي ن) أُلغيت والرحلة التالية ستكون بعد أسبوع. الثلاثة لديهم جداول مواعيد مكتظة وبدؤوا يخططون للعودة إلى الوطن. أوحيت لنعوم أن يبقى إن كان يرغب بذلك وقلت إنني أستطيع أن أجمعه مع لاجئين من القصف وبسفارة الولايات المتحدة ومسؤولين وزاريين لاويين، الوزير سوفانا فوما، ممثل باثيت لاو والجندي السابق المشارك في حرب العصابات - بما أنني كنت أعمل في وسائط الإعلام. من هذا المنظور كانت فرصة فريدة ليعرف عن الحرب السرية التي تخوضها الولايات المتحدة في لاووس، من جانبي جزء من جهدي لأعرّف العالم بالقصف على أمل إنهائه.

وافق نعوم وأظن أننا استمتعنا بأكثر التجارب فرادة في حياتنا نحن الاثنين - هو على متن دراجة نارية أقودها أنا في شوارع فيانتيان حيث سعى ليعرف - أكبر قدر يستطيعه - عن الحرب التي تشنها الولايات المتحدة في لاووس والتي كانت لا تزال مجهولة إلى حد كبير بالنسبة للعالم الخارجي حتى اعترف ريتشار نيكسون للمرة الأولى بأن الولايات المتحدة تقصف هانوي طيلة السنوات الست الماضية، لكنه ظل وهنري كيسنجر يكذبان بأن القصف كان يستهدف أهدافاً عسكرية فقط.

لدي ذكريات مشرقة بشكل مميز عن نعوم منذ أسبوعنا الذي أمضيناه معاً. إحداها كنت أراقبه وهو يقرأ صحيفة. كان يحملق في الصفحة، كأنه يحفظها عن ظهر قلب، ثم بعد ثانية يقلبها ويحملق بالصفحة التالية. في إحدى المناسبات أعطيته كتاباً من ٥٠٠ صفحة ليقرأه عن الحرب في لاووس في الساعة العاشرة ليلاً تقريباً وقابلني في اليوم التالي عند الفطور قبل زيارتنا إلى المسؤول السياسي جيم موري في السفارة الأمريكية. أثناء المقابلة أثيرت قضية عدد الجنود الفيتناميين الشماليين في لاووس. ادعت السفارة أن ٥٠٠٠٠ غزوا

لاووس حين أظهرت الأدلة أنهم لم يتجاوزوا بضع آلاف. كدت أقع من مقعدي حين اقتبس نعوم حاشية توضح تلك النقطة من الكتاب الذي أعطيته له في الليلة السابقة. سمعت بمصطلح «ذاكرة تصويرية» من قبل لكني لم أرها وهي تعمل بهذا القدر أو توظف بهذا الشكل الجيد. (المثير أكثر أن جيم أظهر لنعوم وثائق السفارة الداخلية التي تؤكد العدد القليل، التي اقتبسها نعوم لاحقاً أيضاً في فصله الطويل عن لاووس في كتابه «الحرب مع آسيا»).

أعجبت جداً أيضاً من انتقاصه لذاته. لديه ما يشبه المقت للتحدث عن نفسه - على النقيض من الصحفيين «الممقوتين» الذين قابلتهم. لديه اهتمام قليل في الأحاديث البسيطة أو القيل والقال أو التحدث عن الشخصيات المشهورة وكان مركزاً تماماً على القضايا القريبة. قلل من أهمية عمله غير المهم مقارنة بمعارضة القتل الجماعي المتواصل في الهند الصينية. لم يهتم بأي نوع في التعرف على الحياة الليلية السيئة السمعة في فيانتيان، أو المواقع السياحية أو الاسترخاء بجانب بركة سباحة كمهمة. أعجبني كمثقف حقيقي، رجل عاش لأفكاره. وأستطيع أن اروي بأنني عشت لأفكاري أيضاً ولدي مهمة.

لكن أعجبني أكثر ما حدث حين سافرنا معاً إلى مخيم يؤمه لاجئون من سهل الجرار. أخذت عشرات الصحفيين وغيرهم من الناس إلى المخيم ووجدت أنهم كانوا كلهم تقريباً بعيدين عاطفياً عن معاناة اللاجئين. إن كانوا بيرنارد كلاب من (السي بي ا) ساو ويلز من (الان بي سي) أو سيدني شانبيرغ من (نيويورك تايمز)، كان الصحفيون يصغون بأدب وطرحوا أسئلة ويكتبون ملاحظات ثم يعادون إلى فنادقهم ليحفظوا أخبارهم في ملفات. أبدوا القليل من العاطفة أو الاهتمام فيما قاساه القرويون بقدر ما احتاجوه لكتابة أخبارهم. أحاديثنا في السيارة عند عودتنا إلى الفنادق كانت مهتمة عادة بالعشاء في تلك الليلة أو بأحداث اليوم التالي.

لقد ذهلت حين كنت أترجم أسئلة نعوم وأجوبة اللاجئين وأراه ينهار فجأة ويبدأ في البكاء. لم أعجب فقط بأن أكثر الآخرين الذين أخذتهم إلى المخيمات كانوا محصنين ضد هذه الاستجابة الإنسانية الطبيعية. بدا لي أن مثقفاً كنعوم يعيش في عالم من الأفكار والكلمات والمفاهيم من النادر أن يعكس أية مشاعر حول أي شيء. لقد تأكدت في تلك اللحظة أنني كنت أرى روحه من الداخل والصورة المرئية له وهو يبكي في ذلك المخيم بقيت معي دائماً منذ ذلك الحين. حين أفكر بنعوم هذا ما أراه.

أحد أسباب ردة فعله الذي أدهشني جداً أنه لم يكن يعرف هؤلاء اللاويين. كان سهلاً علي نسبياً كوني عشت وسطهم وأحببت أشخاصاً مثل باو ثاو كثيراً، تعهد بمحاولة إيقاف القصف. لكنني وقفت في رهبة ليس من نعوم فقط بل من آلاف الأميركيين الكثيرين الذين أمضوا سنوات كثيرة من حياتهم وهم يحاولون إيقاف قتل هنود صينيين في حرب لم يروها قط.

حين قدنا السيارة عائدين من المخيم في ذلك اليوم، بقي هادئاً، لكنه ظل مرتعشاً بما عرفه. كتب بشكل واسع عن الحرب التي تشنها الولايات المتحدة في الهندالصينية قبل هذا لكن هذه كانت المرة الأولى التي قابل فيها ضحاياها وجهاً لوجه. وفي الصمت، تشكل رباط ضمني بيننا لم نناقشه أبداً.

حين أعود وأتذكر حياتي أشعر أنني كنت شخصاً أفضل أثناء هذه الفترة مما كنت عليه قبلها. وتأكدت أنه في ذلك الوقت كنا قادمين من نفس المكان مقارنة بالصلب المعدوم الضمير لهؤلاء الناس الأبرياء الدمثين واللطيفين - والكثيرين جداً غيرهم - كل شيء بدا تافهاً. بمجرد أن تعرف بأن هناك أناساً أبرياء يموتون كيف يمكنك التبرير لنفسك عمل أي شيء آخر غير محاولة إنقاذ حياتهم؟

وأدركت في الصمت الذي كان أثناء رحلتنا في السيارة أن تحت شخصية نعوم الشعبية مثقف المثقفين الذي استند على الحقائق والمنطق لبيان حجته، هناك يكمن عميقا كائن إنساني حنون وحساس. بالنسبة لنعوم هؤلاء الفلاحون اللاويون كانوا كائنات بشرية بأسماء ووجوه وأحلام وحق لهم بحياتهم بقدر هؤلاء الذين سببوا الخراب لهم بلا اكتراث. لكن بالنسبة للكثيرين من هؤلاء الصحفيين الزوار، لا حاجة لذكر الأميركيين الذين في الوطن، هؤلاء القرويون كانوا بلا وجوه «ليسوا ناسا» حياتهم ليس لها أي معنى.

حين عدت إلى الولايات المتحدة بقينا أنا ونعوم على اتصال دائم خلال فترة الحرب. أصبحت متأثرا أكثر بنعوم حين بدأت بقراءة أعماله وتأكدت أنه لا يوجد أحد كتب بهذا القدر من التفصيل وبهذا المنطق وبهذا النظام. لكن ما أثّر فيَّ أكثر من ذلك أيضاً به - وبصديقه في جامعة بوسطن هاوارد زين - كان، أنهما ذهبا إلى أبعد من الكتابة والكلام وفي الواقع لقد عرَّضا نفسيهما للخطر.

كان نعوم وهاوارد من «جماعتي المقربة» أثناء مظاهرات عيد العمال التي شهدت اعتقال الآلاف وكنا في زنازين متجاورة في السجن أثناء نشاط إصلاح العصيان المدني في دي سي. علمت أيضاً أن نعوم كان قائد (مجموعة قاوم) التي رفعت مسودة واتهام ضد الحرب ولو تمت المقاضاة لما حدث هجوم تيت. كان يتكلم ضد الحرب منذ ١٩٦٣ حتى قبل أن يسمع بها أكثرنا وتحمل الكثير من التهديدات بالقمل وتشكيلة واسعة من المصاعب الأخرى - إلى درجة أن زوجته كارول عادت إلى الجامعة لكي تطور مهنة في حالة حدوث شيء لنعوم يمنعه من إعالة أطفالهما.

حين انتهت الحرب اتخذت قراراً مصيرياً. بدلاً من مواصلة معارضة مجموعة الرعب التي ينتجها قادة الولايات المتحدة، قررت أن أعمل محلياً لمحاولة استبدالهم بجيل جديد من القادة يعارضون الحرب

ويعززون العدالة الاجتماعية. أمضيت السنوات الخمسة عشر التالية في السياسة المحلية - مع توم هيدين وحملة الطبقة العاملة من أجل ديمقراطية اقتصادية، كمسؤول بمستوى وزير مع الحاكم جيري براون في وعاء السيناتور غاري هارت للفكر وتوجيه إعادة بناء أميركا - ريبيلد أميركا، بمشورة الكثيرين من أكبر الاقتصاديين ورجال الأعمال في أميركا.

لم يكن لي سوى تواصل متقطع مع نعوم خلال تلك الفترة. قسم من السبب أن اهتماماتنا الآن تباعدت. استمر هو في سكب مقالاته وكتبه وخطاباته فاضحاً ومعارضاً لسياسة الولايات المتحدة الإجرامية نحو تيمور الشرقية وحروب ريغان الإرهابية في أمريكا الوسطى وسياسات كلينتون الاقتصادية المشؤومة في هاييتي وعدد من أمم العالم الثالث الأخرى وقصفه لكوسوفو والقضية التي يشعر بعاطفة أكبر نحوها: رعاية وكفالة أميركا لمعاملة إسرائيل السيئة للفلسطينيين. هذه الاهتمامات كانت أبعد من تركيزي على السياسة الانتخابية والقضايا المحلية الداخلية كالطاقة الشمسية وتطوير الإستراتيجية الاقتصادية القومية مثلاً.

لكني حين أعود إلى ذلك الآن أدرك عاملاً آخر غير مدرك إلى حد كبير كان يفعل فعله: حرصت على تحاشي نعوم لأنني افترضت أنه سيعتبرني فاسقاً لإقلاعي عن المحاولة على إنقاذ حيوات الناس والانضمام إلى نظام سياسي فاسد ومشبوه. وجدت نفسي فجأة منشغلاً كثيراً في حوارات دفاعية في رأسي معه، أحاول أن أبرر ما كنت أفعله - الذي بات أصعب حين فشلت الجهود الانتخابية التي كنت منضماً إليها ووجدت نفسي موجهاً ذاتياً أكثر من فترة الحرب.

بعد أكثر من عقد زمني، كنت في بوسطن وزرت نعوم. دعاني بحرارة إلى بيته وتحدثنا لفترة. سألته أخيراً عن شعوره حول انصرافي إلى السياسة الانتخابية. ذكرت أيضاً أنني كنت أقيم آنذاك مع صديق

تقدمي سابق لم يردني أن التقي بنعوم لأنه افترض أن نعوم سيبرحه بالنقد. دهش نعوم بالقصة حقيقة. «لماذا، نحن كلنا توصلنا إلى حلول وسط وتسويات»، قال: «أنظر إليَّ. أنا أعمل في (ام تي أي)، التي تلقت الملايين من وزارة الدفاع». بدا مرتبكاً ومتألماً حقيقة لأني وصديقي فكرنا بأنه سيشوه سمعتنا.

في السنوات الأخيرة كنت على اتصال دائم مع نعوم، أغلبه عن طريق البريد الالكتروني وأيضاً حين نزلت في بيته ضيفاً لمدة عشرة أيام قبل حضور جنازة هاوارد زين في ٣ نيسان / أبريل ٢٠١٠. كانت فترة مثيرة بعمق لكلينا وخصوصاً نعوم الذي كانت له روابط متجذرة مع هاوارد وكان للزيارة أثر عميق في نفسي.

وجدت في الجوهر نعوم نفسه الذي قابلته قبل أربعين سنة. ليس لديه اهتمام في الأحاديث القصيرة. انتقاص قدر الذات. الغضب من الرفض المستمر من قبل مثقفي أمريكا وصحفييها ليأخذوا موقفاً من جرائم الحرب التي يرتكبها قادة الولايات المتحدة. قضايا أخلاقية كبرى في زمننا. فتى قريب من النفس، عرض أن يقلني في العودة من اجتماع في كامبريدج، أو لانتقاء بعض البقالة من السوبرماركت في واحدة من وجباتنا.

سألت نعوم كيف كان شعوره حول تعرضه للنقد الرتيب بسبب تركيزه على جرائم قادة الولايات المتحدة وليس على الأمم الأخرى. قال إنه شعر بأن هذا كان ملائماً بما أنه مواطن أمريكي وقادة الولايات المتحدة ارتكبوا جرائم حرب خارج البلد أكثر بكثير من أي واحد آخر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وافقته، كما لاحظ أيضاً أن هناك مثقفين كثيرين جداً شعبيين بارزين وصحفيين انتقدوا قادة أجانب، وقلة قليلة تجرأت على إبراز جرائم الحرب التي ارتكبها قادتهم.

أولاً وقبل كل شيء كنت معجباً بعمله الذي لم يلنْ ويكلّ في السنوات الأربعين السابقة. أمضى كل وقته في القراءة والكتابة وفي إجراء

المقابلات الشخصية وعلى الهاتف والكلام في سخاء كبير اشتهر فيه بشكل خاص وكان يرد على الرسائل البريد الالكتروني باستمرار غالباً بمعدل أربع أو خمس ساعات يومياً.

واكتشفت بأنه واصل التكلم في كل أنحاء البلاد والعالم إلى درجة أن جدول أعماله كان مملوءاً لسنوات مقدماً. في عمر الـ٨٢ التزم بجدول مواعيد يثقل كاهل شخص أصغر منه بـ٤٠ سنة.

أدهشني زهده وتقشفه أيضاً. حين كلمته بالهاتف عرفت أنه لازال يستخدم نفس رقم الهاتف ويعيش في نفس البيت المتواضع في الضواحي كما كان قبل أربعين سنة. يرتدي بنطال الجينز، وليس لديه عملياً أي اهتمام في الطعام أو الممتلكات المادية. يزوره الأصدقاء والعائلات دورياً ولم يكن منشغلاً في نشاطات أوقات الفراغ الأخرى.

لقد تأثرت بشكل خاص في ليلة كنت أجلس فيها مقابله على العشاء، مندهشاً كالعادة بالمسافة الهائلة بين ما يعرفه نعوم عن ذبح قادة الولايات المتحدة للأبرياء في كل العالم وما يعرفه الشعب. فكرت فجأة بونستون سميث من رواية ١٩٨٤ لجورج اورويل، الذي رأى أملاً صغيراً في تغيير المجتمع وركز على محاولة أن يبقى سليم العقل ويسلم الحقيقة للورق بأمل أن تتذكرها أجيال المستقبل. أخبرت نعوم آنذاك بأنه يمثل ونستون سميث بالنسبة لي.

سأظل أتذكر ردة فعله. نظر إلي وابتسم بحزن.

استطاع نعوم أن يكون قاسياً مع هؤلاء الذين يؤيدون الحروب التي تشنها الولايات المتحدة لكنه كان أقسى على نفسه. في إحدى المناسبات ذكرت أنني سألت ناشطاً سياسياً مستمراً مدى الحياة كان صديقاً لكلينا إن كان يشعر بأي ندم حين ينظر للوراء إلى حياته. رد الصديق أنه يتمنى لو أنه أمضى وقتاً أكثر مع عائلته وسعى وراء بعض الاهتمامات غير السياسية. «هل لديك أي شعور بالندم؟» سألت نعوم.

جوابه صعقني. قال متمتماً لنفسه أكثر مما يكون لي: «أنا لم أفعل الحد الكافي تقريباً».

في مناسبة أخرى سألت نعوم كم هو الرضا الذي يأخذه من كتابة هذا العدد الكبير من الكتب، أسس حقلاً جديداً في علم اللغويات، وبات مؤثراً في كل أرجاء العالم. «لا شيء البتة» أجاب متجهماً، معللاً أنه يشعر بأنه لم يقدر على إقناع الناس جيدا كي يفهموا الحقيقة العميقة لمعاملة قادة الولايات المتحدة الهمجية والوحشية لشعوب العالم. شعر بالإحباط مثلاً أن أناساً أكثر لم يفهموا كيف نجح قادة الولايات المتحدة في قتل مئات الآلاف من الأشخاص الأبرياء وتدمير أساس المجتمع الفيتنامي نفسه وكيف انتصروا فعلياً في الهند الصينية بتدمير إمكانية البديل الاقتصادي والنموذج الاجتماعي الذي تريد الولايات المتحدة إنشاءه.

في إحدى الأمسيات كنت أصعد الدرج إلى غرفة نومي فنظرت إلى مكتب نعوم. كان يمضي وقته في البيت في هذه الأيام جالساً على كرسي واسع أمام حاسوبه لا يشبهه في جلسته كما بدا لي سوى راهب بوذي في حالة من التأمل.

ثم خطر ببالي عندئذ.

أدركت فجأة، أن نعوم يعيش منذ أربعين سنة كالحياة القصيرة نسبياً أثناء الحرب. كان يعمل على مدار الساعة، يقرأ ويكتب ويتكلم، دون أن يضيع دقيقة، في محاولة مركزة لإيقاف القتل الذي تقوم به الولايات المتحدة ليجبر العالم على إدراك الورطة التي وقع فيها الناس.

ولا يريبكني القول أنني حملت له حباً كبيراً في تلك اللحظة. ونفاذ بصيرة. أتذكر منذ أن قرأت المهاتما غاندي، تساءلت عن معنى مصطلح «نفس عظيمة». وفي تلك اللحظة فهمتها أخيراً. إن كان قسم من أن تكون «نفس عظيمة» أن تستجيب تماماً للمعاناة الإنسانية للناس الذي لا صوت لهم وسكب عقل المرء كله وجسده وروحه في محاولة لتقليلها، أخيراً

قابلت واحداً. التقاليد اليهودية عبرت عنها بطريقة مختلفة، في أسطورة الرجال العادلين الست والثلاثين الذين - بدون أن يعرفوا - في أي لحظة يبقون البشرية حية. إن لم يكن نعوم من هؤلاء الست والثلاثين، سألت نفسي، فمن يكون الشخص؟ تذكرت أيضاً الكثيرين الذين قارنوا نعوم برسل العهد القديم المبجلين مثل عاموس أو ارميا الذين انتقدا أيضاً في زمانهما الحكام الفاسدين الذين لا نتذكر حتى أسماءهم.

رغم أن الناس المحتشمين يستطيعون أن يخالفوا مواقف نعوم التي اتخذها في الأربعين سنة الماضية، شعرت في تلك اللحظة، على درج بيته، بدت لي تلك الجدالات والاختلافات غير لازمة لندرك من يكون وماذا يمثل. أدركت أنه بينما أنا مثل الكثيرين من الناس سمعت صرخات ضحايا الحروب التي افتعلتها الولايات المتحدة في العقود السابقة ورحلت، لم يكن نعوم قادراً أن يحجزها بساتر.

خلال إقامتي مع نعوم زارته الكاتبة الهندية المشهورة اروونداتي روي، وهي من الكثيرين كغيرها من غير الأمريكيين في كل أرجاء العالم، شعرت بوضوح باحترام هائل، وإعجاب وحب له. وفهمت فقط ماذا كان يعني لها، لكن، حين اقرأ هذه الكلمات من فصلها «عزلة نعوم تشومسكي»: «يكشف تشومسكي عن القلب الذي لا يعرف الرحمة لآلة الحرب الأمريكية الراغبة في إبادة ملايين الكائنات البشرية من مدنيين وجنود ونساء وأطفال وقرى والأنظمة الإحيائية برمتها - بطرق وحشية مشحوذة علمياً.... حين تغرب شمس الإمبراطورية الأمريكية، كما سيحدث، ويجب، ستظل أعمال نعوم تشومسكي حية..... قلّما يمر يوم لا أجد نفسي أفكر فيه - لسبب أو لآخر - أن تشومسكي سندباد، يعيش يعيش تشومسكي.

ووجدت نفسي أتساءل لماذا تشومسكي متأثرٌ إلى هذه الدرجة الكبيرة بمعاناة ضحايا القادة الأمريكيين.

غمرت نفسي في فرع من علم النفس في العقد الماضي يملك المفتاح للكثير من سلوكنا وهو كيف نظهر دون وعي رضوض طفولتنا، خصوصاً معرفتنا بأننا سنموت، في حياتنا كبالغين. ووجدت نفسي أحاول تصور نعوم من وجهة النظر تلك.

تعلمت أن حيواتنا تحركها دفاعات لاشعورية ننشئها ونطورها مبكراً ضد الألم العاطفي. وتوضح لي أن أحد المفاتيح لفهم تشومسكي أنه، مهما كان السبب، لديه دفاعات أقل منا ضد الألم العالمي. ليس لديه «جلد». هو يتعذب دائماً كما كنت في لاووس، بمعاناة الناس ويحاول على مدار الساعة تقليلها. وبالعكس حين يكون معهم يشعر بأقصى درجة من الحيوية ويتفجر شعوره الداخلي بوضوح كبير عبر شخصيته الثقافية.

أثناء إقامتي معه سألت نعوم عن الشخص الذي يعجبه أكثر في العالم. رد بوصف زيارات حديثة كثيرة لفلاحين في المناطق الريفية في كولومبيا يقاتلون لحماية غاباتهم المطرية من الاستغلال. أمضى نعوم أياماً كثيرة يصغي ويدوّن قصصهم عن المهم الكبير وشجاعتهم العظيمة. في آخر زيارة له تسلقوا هضبة قادهم فيها شاماناتهم احتفلوا فيها بطقوس موسعة مكرسين الغابة لكارول. لم أره أبداً بهذه الدرجة من التأثر والنشاط والهياج العاطفي منذ أربعين سنة في لاووس.

تذكرت حديثاً لنعوم وهي يبكي في مخيم للاجئين اللاويين ووجدت نفسي أتساءل لماذا هو كذلك. من يمكن أن يكون في طفولته أو حياته المسؤول عن ذلك؟ لكن ثبت من المستحيل إحداث تقدم كثير في هذا المجال. بالنسبة لنعوم ليس حماية خصوصيته بل إنه بالخصوص ليس مهتماً في التفسيرات النفسية والروحية للسلوك الإنساني. رغم أنه يعترف بأن العلاج مفيد للناس الذين يعرفهم فهو يعتبر محاولات تفسير السلوك الإنساني «قصصاً» في جوهرها. هو يعتقد بوجود متغيرات

كثيرة جداً متورطة في فهم الكائنات البشرية يجب على الدماغ البشري أن يفهمها بشكل حقيقي للأبد - دون ذكر استحالة تدبر نوع التجارب الموجهة التي قد تعطي إجابات علمية معقولة.

هو يعتبر تكريس وقت كثير لمثل تلك «الحكايات»، وضع شيء في غير مكانه حين يعاني الكثيرون جداً من البشر الفعليين وبناء حركات جماهيرية هو الأمل الوحيد في إنقاذهم.

لو فعل عدد كاف منا مثل نعوم وحاولوا إجبار القادة الأمريكيين على وقف قتل الأمريكيين للأبرياء واستغلالهم في الأربعين سنة الماضية، أخيراً، لتم إنقاذ عدد لا يحصى من الناس ولكانت أمريكا والعالم أكثر ثراء وأكثر سلما وأكثر عدلاً ولما كنا متوجهين الآن نحو انهيار الحضارة كما نعرف بسبب تغير المناخ. يعتقد نعوم أن المسؤولية الأساسية عن هذا تكمن في نظام اتحادي مهووس قصير الأجل يعتبر تبدل المناخ «شيئاً خارجياً» أي مشكلة على شخص آخر القلق بشأنها. لكن من الواضح أيضاً أن حقيقة عدم استجابة عدد غير كاف منا ومنهم أنا بالتأكيد بشكل مناسب إلى موت الحضارة الذي يلوح في الأفق هي جزء رئيسي من المشكلة أيضاً.

وأدركت بالتالي أيضاً أن السؤال الهام ليس لماذا يستجيب نعوم بالطريقة التي يفعل تجاه معاناة الأبرياء في كل أرجاء الكوكب وإنما لماذا لا يفعل ذلك الكثيرون منّا؟

هل تشومسكي «مغفل ثقافي»؟

مايكل كي سميث - بريس اكشن
٢٢ مارس / آذار ٢٠٠٥

ينصح الذين تقديرهم للفكاهة غير المقصودة أقوى من بطونهم بكتاب دانيل جي فلين «المغفلون الثقافيون - كيف تجعل الايدولوجيا الناس الأذكياء يسقطون من أجل أفكار غبية» وفلين هو مؤلف سابق لكتاب «لماذا يكره اليسار أمريكا» والمدير التنفيذي السابق لاكيوراسي ان اكاديميا، وقد صادق على أحدث كتبه وأيده كل من ويليام اف بوكلي الصغير الذي وجده «مصقولاً» وجي غوردون ليدي، الذي أعلن عن حنقه بكونه «دراسة عفنة». بوضع تقدير فلين المعلن للوقائع والتجربة والمنطق جنباً إلى جنب مع تقييمه لعمل يجد المرء فيه أكثر من مجرد بضع تناقضات فاضحة كما هو مفصل في التالي:

١ - ضجر تشومسكي من مجاله المختار (اللغويات).

كرر تشومسكي القول أنه فضل أن يمضي وقته الإنتاجي على اللغويات لكن الهموم السياسية تتطفل باستمرار وتتطلب منه استجابة أخلاقية.

٢ - ميراث تشومسكي لليسار معاداة انعكاسية للأمركة التي ترد اللوم على الولايات المتحدة بكل حدث مكروه تقريباً.

كما يشير تشومسكي كثيراً إلى أن عداء الأمركة شعار غبي. هل يعني انتقاد سياسة البرتغال الخارجية عداء للبرتغال؟ تشومسكي لا يلوم الشعب الأمريكي وإنما مسؤولي الحكومة الكبار والشركات المتخطية للحدود القومية على جرائم الأمن القومي التي ترتكبها الدولة وهو يقدم توثيقاً غامراً من الصحافة التجارية، مكملاً بنتائج بحوث منظمات حقوق الإنسان وجماعات الكنائس لإثبات ادعاءاته ولايرد «انعكاسياً»

على الأشياء لأنه يكرهها فحسب وإنما على العكس يركز انتباهه على جرائم كبرى مثل التعذيب والمذابح والغزو والاحتلال وما شابه ذلك.

٣ - إن تاجرنا مع أمم يعترض تشومسكي عليها أو قدمنا لها المعونة فإنه يلوم أمريكا.

تشومسكي ليس لديه مشكلة مع التجارة بحد ذاتها. هو ينتقد سعي واشنطن إلى «مناخ استثماري محبب» مترابط بإحكام مع التعذيب وسجن المنشقين ومَحْق المنظمات الشعبية ونسف الصحف المستقلة وجرائم أخرى غيرها. لو نظمت واشنطن وأيدت الأعمال الوحشية ضد حقوق الإنسان والانتهاكات الأخرى للقانون الدولي، كما تفعل بشكل روتيني، فإن تشومسكي سينتقدها. السؤال ليس لماذا يفعل هذا وإنما لماذا قلة قليلة من أفراد الطبقة المثقفة يختارون الانضمام إليه.

٤ - تؤكد منهجية تشومسكي أن الولايات المتحدة تعتبر مسؤولة عن سياسات أي أمة تقريباً.

اتهام تشومسكي للنخب الحاكمة ليس اعتباطيا أبداً فهو يعتبر قادة الولايات المتحدة مسؤولين عن جرائمهم وجرائمهم فقط. حين ينتقد جرائماً ارتكبت بالوكالة، كما في دعم الولايات المتحدة لحكومة فرق الموت في السلفادور في ثمانينيات القرن العشرين أو في كولومبيا في الوقت الحالي ويظهر دائماً الروابط المؤسساتية بين مؤسسة سياسة الولايات المتحدة الخارجية والأمم «المستقلة» التي ترتكب فيها الجرائم. «منهجيته» لكشف الحقائق ذات الصلة وتفسيرها بشكل عقلاني. هو لم يعتبر أبداً الولايات المتحدة مسؤولة عن أفعال أمم مستقلة وإنما ينتقد واشنطن لعدم السماح للشعوب الأخرى لتكون أمما مستقلة بالفعل (مقارنة بالدول العميلة للولايات المتحدة).

٥ - في مناسبات أخرى نادرة علقت فيها الولايات المتحدة المعونات وقيدت التجارة، كما حدث مع عراق ما قبل الحرب، تشومسكي يدخل

للمرة الأولى عبارة شاملة، لوم اميركا لعدم المتاجرة أو تقديم العون وبهذا التسبب بأي كارثة ناتجة عن ذلك.

انتقد تشومسكي العقوبات المفروضة على العراق كما فعل الناشطون والناس المهتمون في كل أنحاء العالم بسبب آثارها المميتة على سكان العراق وليس لأن قادة الولايات المتحدة الذين فرضوها كانوا كرماء بشكل ناقص. استقال منسق الأمم المتحدة للمعونات الخيرية السابق دينس هاليداي باشمئزاز وسمى السياسة «إبادة جماعية». وقبلت وزيرة خارجية كلينتون مادلين أولبرايت برقم ٥٠٠ ألف طفل قتلوا بالعقوبات في عام ١٩٩٦ وقالت إن المكاسب السياسية الناتجة من سياسة القتل الجماعي كانت «تستحقها» لهذا هناك إجماع واسع جداً على حقيقة قتل الولايات المتحدة الجماعي بواسطة العقوبات على العراق.

٦ - ورث تشومسكي ميراثاً ثانياً: تشجيع اليسار ليرى كل قضية صراع أخلاقي مانوياً ونبذ الطرف المعارض بالشيطاني ليكون خارج حدود النقاش.

إن أعمال تشومسكي الفكرية تخلو من التأويلات الأخلاقية فهو يفضل إيراد ضخم لتفاصيل واقعية متصلة بالموضوع يكملها تحليل قوي ويشجع بشكل ثابت الناس أن ينتبهوا كثيراً إلى التفكير واستنتاج الوقائع وبرؤية عالمية لهؤلاء الذين في السلطة وليس فقط هؤلاء الذين يحدث ويتفقوا مع رأيهم. من جانب آخر، هؤلاء الذين في السلطة يضعون الجمهور العام خارج حدود النقاش وهذا مالم يدركه فلين أو ينتقده.

٧ - تشومسكي مدان بعزوه تكافؤ أخلاقي بين جرائم ارتكبها الحلفاء الإيديولوجيون والأعداء الإيديولوجيون حين توجد تباينات واسعة في القياس بين الاثنين.. حين يقبل ويعترف بحقيقة أن الشيوعيين الصينيين صفوا زملاءهم من أبناء بلدهم، فهو أغفل النظر عن المجاعات المصطنعة بأنها لا تختلف عن حالات الموت في الهند.

بالرغم من أن فلين يفترض العكس، التباينات الواسعة في القياس بين جرائم واشنطن الدولية وجرائم أي دولة أخرى هي غير مرغوبة نهائياً من قبل قادة الولايات المتحدة. بخصوص الصين، لم «يقبل» تشومسكي بالأعمال الوحشية التي ارتكبها الشيوعيون هناك، بل إنه استشهد بمقارنة للاقتصادية الفائزة بجائزة نوبل امارتيا شين لهند ما بعد الاستقلال والصين الشيوعية، تغطي السنوات من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٩، ليس تشومسكي، من استنتج أن السياسة الاجتماعية الرأسمالية في الهند قتلت أكثر من ١٠٠ مليون شخص، إجمالي يفوق عدد الوفيات التي تسببت بها كل الدول الشيوعية بعد عام ١٩١٧، بما فيها المجاعة الجماعية الكبيرة في الصين في آخر خمسينات القرن العشرين. اسأل القريب الأقرب إن كان الموت بواسطة الرأسمالية بلا ألم أو حتى مقبول.

٨ - شيء مثل، «ولما لا؟ نحن فعلنا أسوا من ذلك» يبدو أنه رد تشومسكي الجاهز على الأعمال الوحشية التي ارتكبها الإسلاميون والشيوعيون وأعداء آخرون للغرب.

هذا لأن السجل يؤيده في هذا الجدال. هنا ينحدر فلين ليقدم تفنيداً، مفترضاً على أرضية إيديولوجية أن فضيلة واشنطن الأرفع المزعومة بينة بذاتها. فشل في أن يلاحظ عدم وجود أي حكومة في الوقت الحاضر تقتل أعداداً من الناس الأبرياء في كل أنحاء العالم أكثر من حكومة الولايات المتحدة، وبهامش واسع في ذلك.

٩ - هلل تشومسكي لمهووسين بالإبادة الجماعية مثل الخمير الحمر، تنبأ أن الولايات المتحدة ستحدث (هولوكوست) في أفغانستان وتخيل تحالفاً لما بعد الحرب [الحرب العالمية الثانية] بين العم سام وأصحاب القمصان البنية النازيين.

قدم تشومسكي معلومات تاريخية دقيقة وصحيحة عن تبرعات الولايات المتحدة لصعود الخمير الحمر وصحح الدعاية الهستيرية

المعادية للشيوعية المبنية على صور مزيفة وأعداد مبالغ بها جداً وأورد معلومات من نيويورك تايمز تظهر وتوضح أن مخططي الحرب في الولايات المتحدة كانوا يتوقعون أن حملة القصف في ٢٠٠١ في أفغانستان ستزيد عدد الأفغان المهددين بالمجاعة بالملايين في غضون أسابيع ووثق بشكل صحيح استئجار واشنطن للنازيين من أجل عصيانات مضادة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تعمل في الاتحاد السوفييتي، منتحلة عقيدة العصيانات المضادة من أجل استعمالاتها الخاصة في العملية.

١٠ - عاكساً الخطط الإمبريالية النازية، التهم الاتحاد السوفييتي بولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وألبانيا ورومانيا وألمانيا الشرقية واستونيا ولاتفيا وليتوانيا .... ماهي البلدان التي حولتها الولايات المتحدة إلى مخافر أمامية متقدمة؟

الأرجنتين وبوليفيا والبرازيل وتشيلي وكولومبيا وجمهورية الدومينكان وغواتيمالا وهاييتي والمكسيك ونيكاراغوا وبيرو وباراغواي وأوروغواي وفنزويلا وتونس والمغرب والعربية السعودية وفلسطين وإيران وفيتنام الجنوبية وكوريا الجنوبية والفيليبين وإندونيسيا وتركيا واسبانيا والبرتغال واليونان الخ الخ. كلها مارست التعذيب على أسس إدارية بما فيها إسرائيل في فلسطين.

١١ - تشومسكي يشن هجوماً عنيفاً على الولايات المتحدة لتأييدها للحركات الداخلية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتحرير أوروبا الشرقية من النظام الشمولي السوفييتي. شملت هذه العمليات «جيشاً سرياً» تحت رعاية أمريكية - نازية سعت إلى توفير عملاء ومؤونة عسكرية للجيوش التي أسست مسبقاً والتي لازالت تعمل داخل الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية منذ بداية خمسينيات القرن العشرين. هذا الجيش الأمريكي - النازي «سري» جداً لا يعلم به إلا تشومسكي ولهذا احتفظ بتوثيقه لنفسه، كيلا ينكشف سره.

وفّر تشومسكي مصدراً مهماً في «نحو حرب باردة جديدة» في الصفحة ٣٨٠ حيث اقتبس عن توماس باورز «الرجل الذي حفظ الأسرار: ريتشارد هيلمز والسي آي إيه» وأيضاً في «إبقاء الغوغاء الطابور» في الصفحتين ٢٢٧ و٢٢٨، حيث اقتبس مايكل ماككلينتوك «أدوات فن الحكم - قتال العصابات الأمريكية، العصيان المضاد، الإرهاب المضاد، ١٩٤٠ - ١٩٩٠».

١٢ - كتب تشومسكي دفاعاً تبريرياً للخمير الحمر [في البداية]..... وظل دائماً يقر بشكل مخادع [لاحقاً] بالطبيعة الشنيعة للخمير الحمر.

تشومسكي لم يحرف جرائم الخمير الحمر أبدا، لهذا لا يمكن أن يكون كاذباً في إنكار تبريرات لم يقدمها. هو جادل أن التحليل الحذر وليس الانفعال الهائج والمفيد السياسي، يجب أن يكون الأساس لتعداد الأعمال الشنيعة ووضع الأحداث في سياقها التاريخي الصحيح، كما يفترض بالأكاديميين أن يفعلوا. هو أكد على آثار قصف الولايات المتحدة المتخم لكمبوديا من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٥، الأضخم الذي لم يشهده العالم قط في العصر وقال إن «تدخل الولايات المتحدة أشعل صراعاً أهلياً هائجاً وجلب رعب حرب حديثة إلى كمبوديا المسالمة نسبياً، بنفس الوقت أثار كرهاً عنيفاً وتعطشاً للانتقام في القرى المدمرة التي كان يجند الخمير الحمر فيها بسبب قصف الولايات المتحدة وأتباعها المحليين لها». إلى ذلك الوقت. أضاف أن المسؤولين الأمريكيين كانوا مدركين جيداً أن هجومهم كان يمهد طريق الهنود الحمر إلى السلطة وأشار إلى أن الأعمال الوحشية التالية - حقيقية وخيالية - كانت تلام بسهولة على إيديولوجية شيوعية «إبادية جماعية» نظرياً يخلي واشنطن من أي مسؤولية عن همجيتها.

١٣ - تشومسكي سفسطائي يتغاضى عن جرائم ارتكبها مسؤولون كوبيون.....

تشومسكي ناقد لانتهاكات حقوق الإنسان أينما حدثت بما فيها كوبا لكن يرى على نحو صحيح أن مسؤوليته كمواطن أمريكي هي الجرائم المرتكبة من قبل الدولة التي يدفع ضرائبه لها. في تلك النقطة، الجرائم المرتكبة بواسطة الولايات المتحدة ضد كوبا تقزم الجرائم المرتكبة من قبل فيدل كاسترو، مع سجل من رعاية الدولة للإرهاب ضد الجزيرة الصغيرة جداً الذي يصعب تصديقه تقريباً. راجعوا «السمكة حمراء» لوورين هنكل ووليام تيرنر عن العقدين الأولين. إنه سجل مشين يشجبه تشومسكي كما يجب.

١٤ - هجمات ناين اليفن - كما يبرر تشومسكي - كانت لا تذكر مقارنة بقصف الرئيس كلينتون للسودان عام ١٩٩٨ الذي أسفر ربما عن «عشرات آلاف الضحايا الفوريين من السودانيين»... [في الحقيقة الفعلية] قصف معمل الدواء السوداني أسفر عن حفنة من الإصابات.

هذا كان صحيحاً لو أسقطنا من اعتبارنا أن المعمل المقصوف كان ينتج ٥٠٪ من الدواء المتوافر في المنطقة. الاحتمال الأكبر لحرمان الناس من مصدرهم الدوائي في منطقة فقيرة أنه أدى إلى عشرات الآلاف من الوفيات. تشومسكي استشهد بما قاله جوناثان بيلك في بوسطن غلوب في تاريخ ٢٢ أغسطس / آب ١٩٩٩ «عشرات الآلاف من الناس - أغلبهم من الأطفال - عانوا وماتوا من الملاريا والسل وأمراض أخرى يمكن علاجها» بسبب قصف معمل الشفاء. تشومسكي اقتبس أيضاً عن السفير الألماني في السودان فيرنر داوم في هذه القضية الذي كتب «من الصعب تخمين عدد الناس الذين ماتوا في هذه البلاد الإفريقية الفقيرة نتيجة لتدمير معمل الشفاء لكن عدة عشرات من الآلاف يبدو تخميناً معقولاً». فلن يهمل داوم ك «معاد لأمريكا سيئ السمعة»، ادعاء إيديولوجي مقنع بتحليل واقعيٍ وهذا في كتاب يزعم بفضح الإيديولوجية.

١٥ - بشكل لا يقبل التصديق، يصر تشومسكي على القول إن «كل الناس كانوا يؤيدون الإطاحة بطالبان ماعدا حكومة الولايات المتحدة». شيء لا يصدق لأن حكومة الولايات المتحدة أطاحت بطالبان، بينما «كل الناس» الآخرين فشلوا في ذلك أو لم يحاولوا.

حكومة الولايات المتحدة كانت داعمة لطالبان في تسعينيات القرن العشرين حين كانت أفغانستان تشجب بشكل واسع لدرجة أنها لم تحصل على اعتراف من الأمم المتحدة حتى. الإطاحة بطالبان في ٢٠٠١ كان تغييراً في الرأي أو إضافة متأخرة (أعطت إدارة بوش ٤٣ مليون دولار أمريكي لطالبان في ٢٠٠١ في حرب من النفعية السياسية. ليس لها علاقة بالتحرير، وإلا لما بات الأفغان اليوم أسوأ مما كانوا عليه في ثمانينيات القرن العشرين تحت الاحتلال السوفييتي.

١٦ - كلا، بعد توكيد ناين اليفن ثبت سخف نبوءة حكيم كامبريدج ومثيلاتها التي لا أساس لها بأن قصف الولايات المتحدة لأفغانستان سينتج عنه محرقة آسيوية. فقد صرح تشومسكي في الشهر الذي تلا ناين اليفن أن الولايات المتحدة وحلفاءها كانوا «في غمرة محاولة جلية لقتل ٣ أو ٤ ملايين شخص».

تشومسكي لم يتكهن بما سيحدث عن القصف وإنما نقل عما جاء في نيويورك تايمز عن التوقعات التي ستحدث حسب مخططي الحرب في الولايات المتحدة والذين توقعوا بأن ملايين إضافية من الأفغان الذين سيكونون تحت خطر الموت جوعاً بسبب القصف الأمريكي المخطط الذي سيسد الحدود ويمنع عمال الإغاثة من تسليم الغذاء.

١٧ - عدم استقامة تشومسكي مثيرة للقلق

عدم استقامة تشومسكي تبقى فرضية غير مثبتة.

تشومسكي - المثقف الراديكالي

ولفغانغ بي سبيرليتش - ريسيرجينس

كانون الثاني / يناير ٢٠٠٧

ولد نعوم تشومسكي في فيلادلفيا لوالدين روسيين مهاجرين ونشأ في بيئة مجاورة ألمانية ايرلندية قاسية وأرسل في عمر مبكر إلى مدرسة دوايت التجريبية حيث شجع الأطفال على التعلم من أجل التعلم واستجاب بشكل مذهل وفي عمر العاشرة فقط كتب مقالة عن الحرب الأهلية الإسبانية نشرت في جريدة المدرسة التي كان يتعلم فيها.

بعد سنتين من ذلك فقط وسع تشومسكي آفاقه السياسية من خلال زيارات منتظمة لأقرباء والدته في نيويورك حيث كان خاله يدير كشكاً صغيراً لبيع الجرائد وكان مكان جذب لكل أنواع المثقفين من المهاجرين السياسيين ومنهم النقابيون الفوضويون اليهود الذين نشروا جريدة راديكالية سميت (فري اربيتر ستيم) التي كان يكتب فيها الكاتب والناشط الفوضوي الأسطوري رودولف روكر مقالاته. قراءة ومناقشة هذه المادة وأمثالها - مكملة بزاد مماثل من المكتبات - تطور تشومسكي الصغير إلى خبير في الفكر السياسي والفلسفة. لقد صعق بصدمة العمر حين انتقل إلى مدرسة ثانوية محلية كانت تسير حسب خطوط التعليم التقليدي الضيق الأفق بطريقة التلقين لكنه خرج سالماً نسبياً حين تخرج في عمر السادسة عشر.

حين انتهت الحرب العالمية الثانية وبدل قصف هيروشيما وناغازاكي العالم إلى الأبد، تشومسكي كمراهق متورط بعمق، سجل في جامعة بنسلفانيا وأخذ منهجاً في الفلسفة العامة والمنطق واللغات. استمر في العيش في بيت والديه، وكسب إقامته بتعليم دروس عبرية في كلية يهودية ارتقى بها والده عالم اللغة العبرية الذائع الصيت وأصبح مديراً لها.

كانت الجامعة خيبة أمل بالنسبة للشاب لأنها كانت استمراراً لنموذج المدرسة الثانوية تقريباً. بسبب انغمار عائلته الممتدة في الثقافة اليهودية الأرثوذوكسية الراديكالية بدأ تشومسكي يفكر جدياً بأخذ مسار الكثيرين من الشبان اليهود في الذهاب إلى فلسطين والمساهمة - هو وحلقته السياسية - في بناء أمة يتعايش فيها اليهود والعرب معاً بسلام وإن أمكن حسب أفكار النقابيين الفوضويين. في الجامعة صادف تشومسكي أستاذ اللغويات زيليغ هاريس الذي كان مؤثراً جداً في المنظمة اليهودية الراديكالية (افوكاه) التي أيدت تطويراً لفلسطين معادياً للصهيونية. وشاء القدر أن يدرس تشومسكي اللغويات أيضاً. ما هي اللغة؟ كيف نكتسبها؟ كيف تعمل؟ اللغويات حرفت تشومسكي من الذهاب إلى فلسطين بالتضافر مع شيء آخر: بدأ بمواعدة صديقة طفولته كارول وتزوجا في عام ١٩٤٩.

ظل الزوجان يفكران في الذهاب إلى فلسطين لكن تشومسكي أصبح منغمراً في موضوع اللغويات التي أصبحت موضوعه الرئيسي في درجتي البكالوريوس والماجستير. كان تشومسكي اللغوي الاستثنائي يتشكل. عدد صغير من الأكاديميين عرفوا مواهبه وأعطي الزمالة في هارفارد حيث بدأ في تطوير صنفه الخاص به من اللغويات. شملت الزمالة منح رحلات وفي عام ١٩٥٣ زار هو وزوجته أوروبا وإسرائيل وخلف هذا انطباعاً عميقاً عليهما وخصوصاً رؤية الفجوة الهائلة بين الولايات المتحدة الغنية جداً وأوروبا التي لازالت تمزقها الحرب. أحبا وقتهما الذي أمضياه في كيبوتز في إسرائيل لكن حساسيات تشومسكي السياسية اختبرت بصورة قاسية من خلال مواجهاته مع الولاء الدوغماتي العقائدي لإيديولوجيات سياسية متعددة، إن كانت ستالينية أو صهيونية بالإضافة إلى العنصرية المنبثقة الموجهة ضد العرب المحليين.

منح تشومسكي العائد إلى الوطن وظيفة في معد ماساشوسيتس للتكنولوجيا (ام أي تي) الذي كان ولايزال من أهم الجامعات في العالم. بإطلاق يده وسط هيئة من العلماء التطبيقيين، أنشأ تشومسكي قسماً للغويات والفلسفة أصبح بمرور الزمن واحداً من أهم مراكز البحوث اللغوية المتقدمة والإبداعية في العالم.

تشومسكي وزملاؤه في العمل من زملاء وطلاب أحدثوا ثورة في علم اللغويات بالانتقال من وصف اللغات إلى تفسير اللغات بذاتها. سلسلة من الكتب التقنية عالية المستوى كتبها تشومسكي أصبح بفضلها الدمغة التشومسكية في اللغويات، تكللت اليوم بكيان واسع من العمل الذي يشرح القواعد الكونية، وكيف تكتسب اللغة وكيف تعزز المقدرة البيولوجية البراعة الإنسانية بواسطة اللغات. المؤسسة الأكاديمية في كل أرجاء العالم بذلت أقصى جهدها لتخمد هذه النظريات المتهرطقة لكن مثل خصوم غاليلو بخصوص «الأرض المنبسطة» أذعنوا أخيراً بأن تشومسكي ربما كان محقاً في نتائج بحوثه.

في ذلك الوقت لم يتوقف التعليم السياسي لتشومسكي الشاب. حين بدأ العمل في (ام أي تي)، تطورت الحرب الفيتنامية إلى أقبح أطوارها. اتخذ تشومسكي قراراً بأن يكون ناشطاً سياسياً في الانشقاق والتنظيم في معارضة مناهضة للحرب. في عام ١٩٦٧ هو ومجموعة تشبهه في التفكير أسسوا ريزيست، منظمة ناشدت «كل الجنس البشري من ذوي الإرادة الخيرة إلى الانضمام لنا في هذه المجابهة مع سلطة لا أخلاقية». ريزيست ومظاهرات متعددة غيرها مناهضة للحرب وفي نفس السنة اعتقل تشومسكي ورمي به في السجن وانتهى به المطاف أن يكون زميل زنزانة مع نورمان ميلر. دون أن يهاب من الفترة التي قضاها في السجن، استمر تشومسكي في تنظيم الحشود وإلقاء الخطب. نشرت خطبه هذه في عام ١٩٦٩ السلطة في كتاب بعنوان السلطة الأمريكية والموظفين

الكبـار الجـدد (المنـدرين) الـذي ظـل أثـراً تقليـدياً للمنـشق الـسياسـي. تشومـسكي انتـهى ليـصبح علـى قائمـة الـرئيس نيكـسون الـشائنة مـن خصومه السياسيين لكن هذا لم يعق ثانية مساره من النطق بالحقيقة. زار هـانوي في عـام ١٩٧٠ لكنـه لم ينـدم علـى تأييـده للفيتنـاميين الشماليين بعكس جين فوندا.

لهذا اليوم بالذات، وهو في آخر سبعينياته لم يتهرب تشومسكي مـن الذهاب إلى أماكن تعلنها السياسة الخارجية الأمريكية محظورة ككوبا أو لقائه الأخير مع زعيم حـزب الله في لبنـان. نقد تشومسكي الـلاذع للسياسة الخارجيـة الأمريكيـة بـات أسـطورة الآن. آخـر كتابـه الـدول الفاشـلة، يـبرهن أن الحكومـات الأمريكيـة المتتاليـة تورطـت في إرهـاب الدولة وهي منشغلة به الآن.

الناس المهتمون بالعالم وسكانه عرفوا طويلاً تشومسكي كبطل شعبي حالم. وجسد كعالم بارز وبضمير اجتماعي العامل الأكاديمي الذي لا يعرف الكلل - مع نتاج ضخم وهو عمل من النوعية الفخمة فقد ضحى على مضض بحياته الخاصة من أجل حياته العامة لكي يجعل من العالم مكانـا أفـضل. بـذلك المعنـى هـو منـاد بـضرورة الحفـاظ علـى المـوارد الطبيعيـة وخـصوصاً في عمله الحـديث. لـذلك لم يكـن مفاجئاً تـشويه سمعته كعدو الشعب الأول من قبل الرجعيين السياسيين والاقتصاديين، لكن الـثمن الـذي دفعـه كان باهظاً. قبولـه الرحـب بهـذا القـدر يجـب أن يلهمنا جميعاً.

تشومسكي محافظاً داخلياً

تشارلز غلاس - تاكي متغازين
٣ آب / أغسطس ٢٠١٠

يقودني كتاب نعوم تشومسكي الجديد، **آمال وتوقعات** إلى النتيجة التي تذهل معجبيه ونقاده بالمثل: تشومسكي محافظ. قد يفاجئه ذلك أيضاً. أخيراً، هو اشتراكي وتحرري. القاعدة الأساسية لفلسفته، التي تنجم من نظرة للبشر ككائنات حرة وخلاقة، هي أن الناس يجب أن يتركوا لحالهم. مديرو المجتمع قد يكرهون الناس ويستغلونهم، لكن الناس يستطيعون مقاومة الهيمنة ويجب عليهم ذلك. أغلب المحافظين، على الأقل في التقليد الأمريكي، يعتقدون أن الدولة يجب أن تبقى خارج حيوات مواطنيها. كثيراً جداً ممن وصفوا أنفسهم بالمحافظين يصرون أن الحكومة التي يستطيعون مقاومتها في الوطن يجب أن تورط نفسها بحيوات الناس في البلدان الأخرى. الإملاء على الآخرين كيف يعيشون عمل غير محافظ بعمق. إن كان يجب على الحكومة الأمريكية أن تبقى خارج شؤوننا نحن الذين لهم الحق في التصويت معها أو ضدها أليس من الأحرى بها بما لا يقاس أن تترك هؤلاء الذين لا رأي لهم في توجيهها؟ الحكومة الاتحادية الأمريكية ليس لها حق كما يفيد تشومسكي في هذه السلسة التنويرية من المقالات، بأن تقتحم بيوت الناس في أراض أجنبية أكبر من حقها في اقتحام بيتك في كنتكي أو ألاسكا. محافظية تشومسكي أكثر تماسكاً وتناسقاً من استقامة الكثيرين الذين يدعون لأنفسهم، وهذا ما لا يفعله تشومسكي بالتأكيد، اسم محافظ. هو لا يؤمن بحرية الأمريكيين فقط وإنما بالحرية من الأمريكيين أيضاً.

محافظية تشومسكي، بارتيابها الصريح من السياسيين ومديري الشركات، ربما تفسر سبب كون نقاده الأكثر حدة من الليبراليين. اثنتان

من الصحف الليبرالية في بريطانية الغارديان والاوبزيرفر، هاجمتاه بشكل متكرر أكثر مما فعلت صحافة الجناح اليميني. ربما كسب تشومسكي غيظهما بكشف أخطاء ارتكبت في صفحاتهما من حين لآخر خصوصاً في مناطق الحروب. مراجع الاوبزيرفر رافاييل بيهر لخص آمال وتوقعات واستنتج أن على تشومسكي أن يدرك «السخرية بأنه يدين بنجاحه الهام للنظام الذي يزدريه تشومسكي». دعونا نفترض لدقيقة أن بيهر على حق بأن نجاح تشومسكي الهام هو إنجاز للنظام الحاكم وليس لعبقرية تشومسكي وتبصره في طبيعة اللغة التي بدلت الفلسفة الحديثة وعلم النفس بقدر ما فيها من دراسات لغوية. أليس عليه أن يقول إن اندريه زاخاروف يدين بنجاحه إلى نظام الحكم الذي ازدراه؟ أصبح زاخاروف ضحية النظام السوفييتي بعد اكتشافاته في الفيزياء لكن أهمية زاخاروف كناقد سياسي (وليس كعالم فيزياء) كانت أنه انتقد نظاماً كان يعتقد أنه مضر للسلم العالمي ولكرامة الإنسان والمجتمع الذي كان مستفيداً منه. نفس الشيء يمكن ويجب أن يقال عن تشومسكي.

لا تستطيع الأنتلجنتسيا الليبرالية تحمل تشومسكي لأنه وصف خداعهم في كتابه وفي منشورات كثيرة سابقة وخطب. قارن «التدخل الإنساني العسكري» الليبرالي مع التبرير البلاغي الذي استخدمه أدولف هتلر حين أجبره واجبه في حماية الأقلية الألمانية على غزو تشيكوسلوفاكيا. يدعي الفاتحون السبب الأخلاقي السامي دائماً، مثل المتنمرون في باحات المدارس الذين يضربون الأطفال الأصغر سناً «من أجل مصلحتهم هم». ادعى كولومبوس الهدف الأخلاقي السامي في جلب الديانة المسيحية - أي، الخلاص - إلى أهل الكاريبي والاراواك وغيرهما من شعوب الكاريبي التي أبيدت حالاً وجلب الفرنسيون الحضارة للجزائر في عام ١٨٣٠، آخذين مصادفة - كما فعل البريطانيون في أجزاء من أفريقيا بعد ذلك بقليل - أخصب أرض

للمستعمرين البيض كذلك حرق الجيش الأمريكي قرى في فيتنام لإنقاذها. إن الكثير من الناس العوام، بفضل الدعاية الفعالة، يؤمنون في التبرير ويحولون عيونهم من الضرر الذي تم باسمهم.

لدى الفاتحين كلهم شيء مشترك (الوسيلة والإرادة لقهر الآخرين) وهذا يتناقض بشكل ما مع الإيمان بأمريكا كحالة استثنائية في تاريخ العالم. كتب تشومسكي أن «المبدأ يبدو شاملاً تاريخياً ويشمل أسوأ المسوخ: هتلر وستالين والفاتحين - من الصعب أن تجد استثناءاً. يصور العدوان والإرهاب دائماً على أنهما دفاعٌ عن النفس وتكريسٌ لرؤى ملهمة». حين تفعل الولايات المتحدة ما فعلته القوى الأخرى، فهي تفعله عادة بنفس الطريقة وبنفس الأعذار التي يجب أن يدقق فيها بإحكام أكثر. أخيراً، ديمقراطية الولايات المتحدة التي يستطيع فيها الشعب - من خلال الاحتجاج والمقاطعة وأحياناً الاقتراع - التأثير على سياسات الأمة. إن مطالب الشعب ليست أمراً من واشنطن ومن وول ستريت في إنهاء الفصل العنصري القانوني والسماح للمثليين بالعيش دون خوف من الحبس وجلب النساء إلى مكان العمل على أساس أكثر من المساواة وإعادة الجنود من فيتنام. لقد سمي مذهب الفعالية «تطرفاً ديمقراطياً» من قبل الليبراليين في إدارة جيمي كارتر وخنق في السنوات اللاحقة - الفضل غير القليل إلى تخريب الجمعيات الحرة للشغيلة في النقابات وخسارة الشغيلة الثابتة لدخلهم.

استهدف تشومسكي - بالإضافة إلى كشفه أن رونالد ريغان زاد من سلطة الدولة في مناطق كثيرة وتدخل دائماً في الاقتصاد لفائدة مصالح محددة - هيكل الليبرالية. تدميره لمثالية ودرو ويلسون سوف تثير قلوب وحقد المحافظين القدماء الذين فضلوا إعادة انتخابات عام ١٩١٦ ليعطوا الفوز لتشارلز ايفانس هيوز، رجل الدولة الجدير بالاحترام والقانوني الذي كان سيجنب البلاد الحرب العالمية الأولى على الأرجح. كما أن هجوم تشومسكي على باراك حسين أوباما أكثر تماسكاً ومرارة

من أي شيء أنتجه كلاب الفوكس حتى الآن. لقد قارن بين «جيش أوباما من الفقراء» الذين يستطيع توسلهم لبيع سياساته وليس للتأثير عليهم وبين جيوش الفقراء في بوليفيا والبرازيل الذين دفعوا الشعب إلى السلطة ليمثلونهم وليس البلوتوقراطية التي تدير بلدانهم منذ الاستقلال وفي الحقيقة، وجد تشومسكي دليلاً واضحاً لآماله وتوقعاته في حركات الفقراء في أمريكا اللاتينية فهي تحمل شبهاً بالثورات التي أطاحت بالملكية في أمريكا الشمالية وكتبت أول وثيقة لحقوق الإنسان أقوى وأكثر من المقيم في البيت الأبيض.

فرض روبرت روبين، كقيصر كلينتون الاقتصادي، بواسطة إلغاء مرسوم غلاس - ستيغال للمصارف «عزل البنوك التجارية عن المؤسسات المالية التي تتعرض لمخاطر كبيرة». حين ترك روبين وزارة مالية الولايات المتحدة، أبحر إلى بطولة سيتيغروب وباشر في المقامرة بالودائع المكفولة من قبل الجمهور بدون أن يقاضى تحت قانون آداب المهنة في الحكومة. كتب تشومسكي ساخراً، «ليس مفاجئاً، أن سيتيغروب كانت مستفيدة أساسية من إنقاذ بوش - بولسن للمؤسسات». هو وشريكه في الجريمة، لاري سومرز، يشيران على باراك أوباما بخصوص الأمراض التي ساعدا في ابتلاء الجسد السياسي بها. سخرية أم تجارة كالعادة؟ ليس من الصعب أن نفهم لماذا عباد مثالية ويلسون التي أدت إلى غزو هاييتي في ١٩١٥ وسوء إدارة أوباما للاقتصاد ومواصلة الحروب التي لم يكن خوضها مفروضاً عليه في العراق وأفغانستان، لا يحبون تشومسكي، إنه آفة الارستقراطية الليبرالية وهم يعاقبونه كلما استطاعوا.

لكن تشومسكي يستطيع أخذه. أنا متأكد أنه يستطيع أخذ هذا رغم ذلك: منذ موت السيناتور باري غولدووتر، لا أحد أكثر من تشومسكي يستحق لقب السيد محافظ. الموت للإمبراطورية، السلطة لشعب الجمهورية.

حظر الأعمال الأدبية لناشط ضد الحرب في مخيمات السجون

كارول روزينبيرغ - ميامي هارولد

١١ أكتوبر ٢٠٠٩

الأستاذ الجامعي نعوم تشومسكي ربما يكون من أشهر الناشطين الثابتين المعادين للحرب في أمريكا لكن المقتطفات الأدبية المختارة للمثقف اليساري باتت محرمة بعد تعقيبه ٩/١١ في مكتبة مخيم سجن غوانتانامو التي توفر الكتب وأشرطة الفيديو عن هاري بوتر وكأس العالم لكرة القدم والإسلام فقد رفض العاملون في رقابة المطبوعات في الجيش الأمريكي تبرع أحد محامي البنتاغون بنسخة عربية للمقتطفات المختارة التي كتبها الناشط السياسي وأستاذ اللغويات في العام ٢٠٠٧ إلى المكتبة التي فيها أكثر من ١٦٠٠٠ مادة.

كان رد فعل تشومسكي البالغ الثمانين من العمر والذي صار له يعبر باشمئزاز عن سياسية الولايات المتحدة الخارجية منذ الحرب الفيتنامية مليئاً بالانزعاج والسخرية. «هذا يحدث في الأنظمة الشمولية أحياناً» هكذا أخبر ميامي هيرالد بالبريد الالكتروني بعد علمه بالقرار.

«من التشويق العرضي ربما هو طبيعة الكتاب الذي تم منعه. إنه يتألف من افتتاحيات كتبت لنقابة نيويورك تايمز ووزعت بواسطتها. التعفن المدمر يعمل في العمق كما يجب».

ضباط السجن لم يقولوا بالتحديد لماذا نبذ الكتاب لكن الضابط الآمر المعاون بروك ديولت، الناطق في غوانتانامو قال إن الهيئة راجعت «كل مادة من المواد المقترحة أو الموصى بها للمكتبة لتقييم قضايا قوة

الحمايـة المرافقـة مـع نـواميس المخـيم كالتـأثير علـى النظـام الجيـد والانضباط». أظهر الكتاب المحظور الأستاذ الجامعي المتقاعد في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا وهو يحدق من وراء نظارة ويرتدي قميصاً ذا أزرار وكنـزة مـن غـلاف أسـود لنـسخة ٢٠٠٧ طبعـت في دار بـيروت للنشر.

التقييدات

قصاصة الرفض التي أرفقت بكتاب تشومسكي لم تعلل السبب لكنها جدولت أصـناف الأدب المحظـور لتـشمل تلـك الـتي تناصـر الايـدولوجيا «المعاديـة لأمريكـا وللـسامية وللغـرب» والأدب عـن «المواضـيع العـسكرية» والأعمـال الـتي تـصور «عنفـاً تـصويرياً مفرطـاً واخـتلالات وظيفيـة جنسية».

قائمـة المـادة المقبولـة تـشمل الـشعر والقـصة والفـن والرياضـيات والتاريخ والسياسة والأحداث الثقافية.

محامي دفاع البنتاغون أرسل الكتاب إلى حمزة بهلول، عضو القاعدة الذي اعترف بأنه عمل سكرتيراً إعلامياً لأسامة بن لادن في أفغانستان في فترة هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١.

كانت إدانـة المحكمـة العـسكرية لبـهلول البـالغ الأربعـين مـن عمـره في التحـريض على جريمـة القتل والتـآمر وحكمـت عليه بالـسجن المؤبد في تـشرين الثـاني / نـوفمبر لخلـق دعايـة للقاعـدة. الـدليل الرئيـسي كـان شـريط فيديو مدته سـاعتان صـنعه بـربط خطابات بـن لادن الناريـة مـع إراقـة دمـاء المـسلمين وتـسجيل صـوتي للنبـأ المخـزن عـن نتيجـة تفجـير المدمرة الأمريكية كول في شواطئ عدن في اليمن عام ٢٠٠٠.

بهلول حاليـاً هـو المحكوم الوحيد بجـرائم حـرب في غوانتانـامو حيـث أمـره آمـر الـسجن بالانفـصال عـن أسـرى الحـرب علـى الإرهـاب المـائتين

والخمس وأربعين في قاعدة الولايات المتحدة في كوبا تحت تفسير لاتفاقيات جنيف التي تحرم الاحتفاظ بالمحتجزين مع السجناء المحكومين. اثنان من المحكومين أعيدا إلى بلديهما استراليا واليمن وهما حرّان الآن بعد أن أمضيا فترة عقوبة قصيرة.

لم تذكر هيئة السجن عدد الكتب التي رفضت.

الكتب المقيمة

لكن ديوالت قال إن المحتجزين ممنوعون من تلقي الكتب المهداة كملكية شخصية. وقال بدلاً من ذلك، الكتب المرسلة تقيم من حيث تلاؤمها للمكتبة - قاطرة من الكتب صنفتها هيئة أركان وزارة الدفاع مجموعة تضخمت مؤخراً لتشمل أكثر من ١٦ ألف كتاب ومجلة وشريط فيديو بنفس الوقت الذي يقلل البنتاغون فيه عدد ساكني السجن.

أمر الرئيس أوباما بإغلاق مخيمات السجون في بداية السنة القادمة، موعد نهائي يقول البيت الأبيض إنه ربما يفقده.

في الوقت الحالي تقول الهيئة إن تحسينات حياتية نوعية ستستمر حتى خروج آخر محتجز.

المكتبة أيضاً محطة جذابة مقدمة للجمهور في جولات أسبوعية لمراسلي الصحف وأعضاء الكونغرس وغيرهم من الضيوف المدعوين الذين يجلبون إلى مجمع مخيم السجن بدعوة من البنتاغون «ليثبت أن مركز الاحتجاز الذي قدح كثيراً آمن وإنساني وشفاف».

هيئة المكتبة وصفت منذ العام ٢٠٠٥ سلسلة هاري بوتر إعارة أفضل بين السكان المسلمين الورعين - وأظهروا نسخاً مترجمة في الرفوف تفصل العربية من الاوردية والفرنسية من الفارسية وتغطي أكثر من عشر لغات.

مواد أخرى نقول بأنها شعبية تشمل أشرطة فيديو للمباريات النهائية لتصفيات كأس العالم لكرة القدم ولكتب الطبخ الفرنسي

المنشورة في بيروت وبحوث عن القرآن تغربل مسبقاً للتأكد بأنها تحتوي رسائل الاتجاه السائد.

لمرة واحدة، كتاب ريتشارد نيكسون **انتصار بدون حرب** فقد من الرفوف كما أفاد أحد أمناء المكتبة وهكذا أشار العقل المدبر المزعوم لـ٩/١١ خالد شيخ محمد أثناء جلسة استماع أمام محكمة حربية في وقت سابق من هذا العام.

المفضل لدى شافيز

لكن ليس تشومسكي من نال شعبية مهيبة من ألد أعداء أمريكا.

في أيلول/سبتمبر، الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز ثمّن كتاب تشومسكي **هيمنة أم بقاء: سعي أميركا للسيطرة العالمية** في خطابه في الأمم المتحدة وشبه الرئيس جورج دبليو بوش بإبليس، أيضاً أعطى الكتاب ضربة قوية في المبيعات لأسابيع كثيرة.

بعد سنة من ذلك، ظهر بن لادن فجأة في شريط فيديو وهو يخاطب أتباعه إثباتاً بأنه لا يزال حياً ويسخر من غزو الولايات المتحدة للعراق ومشيداً بكلمات الأستاذ الجامعي الناصحة التي سبقت الحرب.

قال ديوالت «دواعي قوة الحماية» منعته من تعليل السبب الذي يحظر أي عنوان أو مؤلف لكنه قال ليس هناك أي عمل لتشومسكي من أي نوع في مكتبة غوانتانامو في أي لغة حتى هذا الأسبوع.

ديرشويتز ضد تشومسكي

جون رايان — كاونتربنش
٧ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٥

لقد شاهدت المناظرة التي جرت بين تشومسكي وديرشويتز. أنا لست متأكداً تماماً كيف يحكم على المناظرات أو تصنف، لكن إذا لم يكن المرء معمياً بانحياز صهيوني / مؤيد لإسرائيل، فليس هناك أدنى شك بأن تشومسكي سجل نصراً حاسماً في عدد الاحصاءات.

كان الموضوع فلسطين وإسرائيل بعد فك الاشتباك: إلى أين سنذهب من هنا؟ ظل تشومسكي محافظاً على الموضوع بشكل ثابت ومتماسك بينما ديرشويتز نادراً ما رجع إليه، ماعدا في النهاية حين وجه إليه بواسطة سؤال. ما هي عقوبة المناظرة المترتبة عن تجاهل الموضوع؟

في خطابه الافتتاحي، تعامل ديرشويتز مع القضية بشكل تعوزه الاستقامة وكرس معظم وقته لتوبيخ الفلسطينيين، وتشومسكي وأساتذة جامعيين انتقدوا إسرائيل وتحدى تشومسكي في أن يشكل تحالفاً معه للعمل من أجل السلام في المنطقة - مقترح جديد في ظاهره لكنه خارج الموضوع تماماً. بدأ تشومسكي بالقول إن الشيء الوحيد الذي قاله ديرشويتز بأنه لو استطاع القبول بالقضية لكانا في معسكر صيفي معاً. بعدها تابع تشومسكي في تقديم أرضية للأزمة وكشف أن السياسة الإسرائيلية - الأمريكية الراهنة وأي مقترح منبعث منها سيؤدي إلى كارثة أكبر. الفلسطينيون ليسوا مستعدين ومحضرين للقبول ببانتوستان غير متصل «دولة» عرضت عليهم. وبدلاً من ذلك بين بوضوح أن اتفاقية جنيف هي من وفرت أساساً لمفاوضات مستقبلية هادفة. ديرشويتز من الجانب الآخر، فقط في النهاية، حين ضغط في هذه المسألة، قال إن حزب

شارون - بيريز الجديد سوف «يعرض» على الفلسطينيين «مقترحاً» - على الفلسطينيين ألا يرفضوه! هذا كان رده على «إلى أين سنذهب من هنا؟»

عند العودة إلى المناظرة، مقاربة ديرشويتز كانت تتميز بخطب تقريعية طويلة متناغمة من تعليقات وجهت إلى اغتيال شخصيات أكثر من كونها حججاً بارزة ذات صلة بالموضوع. في كل مثال تقريباً حين كان يتكلم، يمطر ديرشويتز خطابه بهجمات دعائية على تشومسكي - منذ البداية حتى النهاية. تصرف تشومسكي بكرامة ولياقة تتطلبهما مثل تلك المناسبة. التزم بالموضوع، لم يرفع صوته أبداً ولم يقاطع ديرشويتز ولم يتكلم سوى مرة واحدة فقط وعلا صوته على صوت رئيس الجلسة الذي حاول أن ينهي رداً ضرورياً كثيراً على ديرشويتز. ما هي عقوبة المناظرة لديرشويتز لأدائه الفظيع؟

من البداية كان من الواضح أن ديرشويتز لم ينو المشاركة في مناظرة صادقة. بدلاً من ذلك، كان هدفه تلويث السمعة بالافتراءات والذم وتشويه الحقائق وتكذيب تشومسكي ودعا في الفواصل بطريقة صبيانية المستمعين لزيارة «الكوكب تشومسكي». كان هناك أمثلة لا تعد من هذا. من الصعب التصديق أن ديرشويتز لم يقرأ بعضاً من أعمال تشومسكي الرئيسية حول القضية الفلسطينية - الإسرائيلية ولو أنه قرأها فهذا يعني أنه استمر عمداً في تحريف آراء تشومسكي - آراء أنكر تشومسكي بأنها له وتحدى ديرشويتز أن يذكر اسم المراجع. مثلاً، كيف استطاع ديرشويتز أن يزعم أن تشومسكي لم يؤيد أبداً حل الدولتين وهذا ما فعله تشومسكي على مدى ثلاثين سنة. مع ذلك ما أكده ديرشويتز في ملاحظاته الإفتتاحية فنّدها تشومسكي على الفور. ثم حين أشار تشومسكي إلى كتاباته، تبجح ديرشويتز بعدم توافر أيٍ من الأعمال المذكورة أو أنها كانت «صفحات مختارة» أو في طبعة اسبيرانتو أو طبعة تشيكية خام، سلوك افترائي وأكاذيب مطلقة. في الواقع هي

صفحات مختارة أو شواهد، مع مراجع تقدم التوثيق المطلوب غالباً. في مناسبات كثيرة، في إقحام موقف أو كتحدٍ لإحدى حجج تشومسكي كان ديرشويتز يقول في نغمة طنانة، «أخبرني الرئيس كلينتون مباشرة وشخصياً ...» في رد، مع فعالية مدمرة، رد تشومسكي، «تستطيعون أن تصدقوا البحوث التي أريها لكم أو تستطيعون تصديق ما يقول السيد ديرشويتز بأن فلاناً أخبره».

لا يستطيع ديرشويتز أن يدّعي بأنه لم يقرأ اتفاقية جنيف أو أنها كانت في اسبيرانتو، مع ذلك أكد أن عيب الاتفاقية الرئيسي كان إصرارها على حق العودة. هذا يبين إما جهلاً لا يمكن تبريره وإما مجرد أكذوبة متعمدة. حين اعترض تشومسكي على هذا، قاطعه رئيس الجلسة لهذا لم يستطع شرح ما تقوله الإتفاقية فعلاً. كما اشترط في القرار ٢٤٢، بديلاً للاجئين فعلياً العودة إلى بيوتهم الأصلية هو حق التعويض المناسب. تنص الاتفاقية أن بعض اللاجئين يمكن أن يعودوا (حتى خمسين ألف) لكن هذا يجب أن يكون بموافقة إسرائيل. بالنسبة للبقية، وضحت الاتفاقية بشكل دقيق شروط التعويض. بالنسبة لنكران ديرشويتز، محاولته لتسجيل «نقطة نقاش» كان مستعداً تماماً ليكذب، عارفاً أن معظم الناس لم يكونوا مطلعين على شروط الاتفاقية الدقيقة والمحددة.

حين صرح تشومسكي أن وسائل الإعلام الأمريكية لم تنقل تسليم كلينتون لعدد ضخم من الطائرات العمودية لإسرائيل لتتصدى للإنتفاضة، سخر ديرشويتز من فكرة انحياز وسائل الإعلام وقال إنها لا تحدث إلا في خيال تشومسكي. تجاهل ديرشويتز تحدي تشومسكي بأن يقدم مثل هذا التوثيق. استمر تشومسكي في القول إن بحث وسائل الإعلام بين أنه نقل بشكل واسع في أوروبا لكن ذلك البحث أظهر نتائج صفرية في الولايات المتحدة.

ظل ديرشويتز يعزف على الصفقة الرائعة «الكريمة» من قبل باراك في كامب ديفيد - ولم يخاطب ولو مرة واحدة حقيقة أن ما عرض كان

«دولـة» غـير قابلـة للحيـاة تتـألف مـن ثلاثـة بانتوسـتانات غـير متـصلة - وحـاول بمكـر أن يحـرف الإنتبـاه بـالتلويح بخريطـة تـبين الـشرط مـن أجـل ربط طرقي أو حديدي مع غزة. بمواجهة موقف تشومسكي بـأن إسـرائيل أنهت المفاوضات في طابا بعد أسبوع واحد، قـال ديرشـويتز أن ذلـك تم لأن عرفات رفض مقترح كامب ديفيد. هـراء مطلق. كانت طابا مجرد اسـتمرار لمفاوضات كامب ديفيد وحين أظهرت إحراز بعض التقدم، أنهت إسـرائيل النقاشـات. في سـنوات لاحقـة، مواصلة هـذه النقاشـات هـي الـتي أدت إلى اتفاقيـة جنيـف. رغـم زعمـه بكونـه أكاديميـاً في هـارفـارد، وكونـه مهووسـاً بإسرائيل، بدا ديرشويتز ساذجاً في قضايا كثيرة.

أحد أسباب كـره ديرشـويتز لتشومـسكي هـي الحقيقـة الـتي تعـود إلى عـام ١٩٧٣، كـشف تشومـسكي وأثبـت أن ديرشـويتز كـذب في محاولـة لتشويه سمعة إسرائيلي تحرري مدني. في السنوات التي تلت، ديرشـويتز أدار جهـاداً شخـصياً ضـد تشومـسكي. ومـؤخراً كـشفوا تشومـسكي وفينكلـشتاين والكـسندر كـوكبيرن دراسـته الزائفـة في كتابـه القـضية لمصلحة إسرائيل. لهذا العداوة بينهما سارية منذ زمن طويل.

في المرجع المقتبس آنفاً، أوضح تشومسكي أن ديرشـويتز «يعـرف أنـه لا يـستطيع الـرد علـى مـا أقـول. هـو لا يملك المعرفـة أو الكفـاءة للتعامـل مـع القضايا. لذلك، فكرة أن يحاول أن يغلقها برمي ما يستطيع من الوحل».

المشهد في نهاية المناظرة كان مثيراً للغثيـان. ديرشـويتز يخـب مـسرعاً ليـصافح تشومـسكي «أنظـر كـم أنـا شـهم لـنكن أصـدقاء!» بعـد هجماتـه المهينة على تشومسكي، هـو مـدان باعتذار لـه لكنـي متأكـد أنـه لـن يقـوم بذلك. يتساءل المرء مـاذا قـال لـه تشومـسكي. يمكـن أن ديرشـويتز أدرك أنه تجاوز خط الكياسة ثم أراد عندها أن يتزلف لتشومسكي على الأقـل للمظاهـر الاجتماعية.

تشومسكي والتجنيد الإلزامي

جاكوب ليفيتش — كاوونتربنش

٤ شباط / فبراير ٢٠٠٥

نادراً ما يخطئ نعوم تشومسكي بخصوص أي شيء يشعر أنه صفيق وبحاجة للتصحيح لكن ملاحظاته الأخيرة على سوق المواطنين إلى الجيش التي نشرت في كاونتربنش في الثاني من فبراير بحاجة إلى تدقيق وخصوصاً أنها قد تعطي راحة مضللة للناس الذين قلقوا عن حق بأن إحياء التجنيد الإلزامي يبدو محتملاً.

ويقول تشومسكي إنه من غير المحتمل أن تعيد الولايات المتحدة السوق الإجباري للجيش إلى سابق عهده بسبب «التجربة الفيتنامية» التي كانت «المرة الأولى في تاريخ الإمبريالية الأوروبية التي تحاول فيها قوة إمبريالية خوض حرب استعمارية بجيش من المواطنين المدنيين» ويستمر قائلاً: «أقصد أن البريطانيين لم يفعلوها والفرنسيين كان لديهم الفيلق الأجنبي في الحروب الاستعمارية، فالمدنيون غير فالحين فيها. الحروب الاستعمارية وحشية جداً وشريرة وإجرامية. لا يمكنك أخذ الأولاد من الشارع وزجهم بخوض ذلك النوع من الحرب. أنت تحتاج إلى قتلة مدربين مثل الفيلق الأجنبي الفرنسي».

كان تشومسكي يكرر هذا كثيراً مؤخراً، وبناء عليه فكرة أن المجندين الإلزاميين لا يستطيعون خوض حروب قذرة أخذت مكانها بين الخرافات العشرة الأولى ليسار الوسط حول السوق الإجباري للمجندين، جنباً إلى جنب مع «أن السوق إلى الجندية أنسب للفقراء والأقليات» (لا تضحكوا) «والمؤسسة لن تدعم الحروب العدوانية إن اعتقدت بأن أولادها يمكن أن يساقوا إلى الجيش». لأن تشومسكي

موثوق جداً عادة فإن كثيراً من الناس كما يبدو يقبلون حجته بلا انتقاد ولهذا السبب هي بحاجة إلى تصحيح.

لن أطيل التفكير في استخدام تشومسكي مصطلح (جيش من المواطنين المدنيين)، هو تلطيف متناسق في التعبير عن الخدمة العسكرية الإجبارية التي تنال شعبية بين المدافعين عن السوق إلى الخدمة لكن من الجدير بالملاحظة أن القوة الأمريكية الآن في العراق هي جيش من المواطنين يتألف أغلبه من الحراس وجنود الاحتياط الذين أبعدوا قسراً عن عائلاتهم ليقضوا أربعا وعشرين شهراً في الجحيم وصحيح ربما أن بعض المساقين سينكصون من الحقائق الموجعة والوحشية للحرب ضد شعب العراق لكن ليسوا أكثر من المدنيين المشوشين تماماً الذين هم هناك الآن. من وجهة نظر واشنطن، السحب الإجباري للجندية لا يمكن أن يجعل الأشياء أسوأ.

ما يحيرني حقيقة هو تأكيد تشومسكي الصريح أن الحرب الفيتنامية كانت المرة الأولى التي حاولت فيها قوة أوروبية خوض حرب استعمارية مستخدمة المجندين الإجباريين. ذلك ليس هكذا.

بداية، الغريب أن تشومسكي يقتصر على القوى الأوروبية. بالتأكيد حجته ستطبق على الإمبرياليين في كل القارات، إلا إذا كان يعتقد أن الأوروبيين حساسون على نحو خاص حول القتل الاستعماري - وربما لا يستطيع الاعتقاد بذلك. في كل الأحوال، هو اخطأ حتى في الحالة الأوروبية وسأعطي واحداً فقط من الأمثلة المضادة، الغزو الايطالي لأثيوبيا في ١٩٣٥ - ٣٦ حرباً استعمارية إجرامية بكل المعايير تم خوضها بقوات من المجندين الإلزاميين.

المهم والمغزى هنا أن ايطاليا الفاشية قدمت تجنيداً إلزامياً كونياً تماماً من أجل غرض تسهيل التوسع الاستعماري وكذلك فعلت اليابان

الإمبريالية وبمجرد أن تضيف آسيا إلى المعادلة، تنهار حجة تشومسكي في الواقع. شهدت ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين عدداً كبيراً من الحروب الاستعمارية الوحشية في التاريخ، بما فيها اغتصاب ناكينغ وأحداث مروعة بالمثل أثناء أعمال الغزو اليابانية لجنوب شرق آسيا وكوريا. في كل الحرب العالمية الثانية أدير الكثير من الصراعات الاستعراضية الجانبية في كل الكرة الأرضية حين تنافست القوى الكبرى لقطف الممتلكات الاستعمارية وهذا كله أنجز بجيوش من المجندين الإجباريين.

نموذجياً خلال العصر الحديث، التجنيد الإجباري لم يعرقل وإنما ساعد المخططات الإمبريالية. التجنيد الإلزامي الكوني نشأ في أوروبا مع الثورة الفرنسية وكان نابليون هو أول من رأى كيف يمكن استغلال «جيش المواطنين المدنيين» كرصيد عسكري ساحق - وقد استخدمه في غزو معظم القارة الأوروبية وكذلك حروبه الاستعمارية في اسبانيا - حرب العصابات الأصلية - التي جرى خوضها بوحشية لا تعرف الرحمة بواسطة قوات مجندة إلزامية.

على الرغم من أن نابليون خسر إمبراطوريته لمصلحة الشتاء الروسي، إلا أن منافع التجنيد الإلزامي لم تخسرها القوى الأوروبية الأخرى التي حذت حذوه في أواخر القرن التاسع عشر حين تصارعت على الغنائم الاستعمارية في آسيا وأفريقيا. الاستثناء الوحيد كان بريطانيا التي لم تكن بحاجة إلى السوق الإجباري لأنها نعمت باستخدام الجيش الهندي كقوة احتياطية غير محدودة.

بعد الحرب العالمية الثانية، استخدمت القوى العظمى الوكلاء والمرتزقة والمتطوعين، و«جنود حفظ السلام» التابعين للأمم المتحدة والمجندين الإلزاميين لخوض حروبها الاستعمارية. كانت النتائج

متفاوتة. بشكل عام، كل أصناف الجنود أثبتت أنها قادرة على إنتاج أنواع من الأعمال الوحشية المطلوبة من سادتهم - مذبحة ماي لاي مثلاً، ارتكبت من قبل مجندين إجباريين. من جانب آخر، النموذج التشومسكي «قتلة مدربين» - الفيلق الفرنسي الأجنبي - عمل بطريقة خرقاء في الحربين الجزائرية والفيتنامية ومعنوياتهم الاستثنائية المزعومة كانت مجرد أسطورة. (راجع بيرنارد فول عن الهاربين من الجندية والمنهزمين في ديان بيان فو).

في الختام، «متطوعون ضد مجندين إجباريين» طريقة خاطئة في النظر إلى المشكلة. ما يظهره التاريخ فعلياً أن القوى الإمبريالية ستستخدم أخيراً أي نموذج وأي حجم من القوة أياً كان نوعه تعتقد أنه ضروري من وجهة النظر العسكرية، بغض النظر عن القضايا المعنوية والتكلفة السياسية. (ال بي جي) كان مدركاً جيداً أن توسيع السوق الإجباري للخدمة العسكرية سيكون اقتراحاً خطراً؛ وقدمه رغم ذلك لأنه لم ير طريقاً آخر غيره لكسب الحرب وهناك فرصة كبيرة بأن يقلده بوش في ذلك.

في أي مثال مطلوب آخر، تذكروا أن الحرب الاستعمارية الأقسى والأكثر وحشية وإجراماً والمطولة التي يجري خوضها اليوم - في تكلفة هائلة للمعنويات العسكرية والمنزلية - بواسطة جنود إجباريين. أنا أتحدث طبعاً، عن حرب إسرائيل على الشعب الفلسطيني. بسبب رواية تشومسكي للحقيقة التي لاتكل عن فلسطين تبدو أنها سهو غير قابل للتفسير يجعل حتى هومر نفسه ينكس رأسه.

الرجل الجامح خلف الكواليس

كلنتون فيرنانديز - اوفرلاند - ربيع ٢٠٠٥

في يناير كانون الثاني ١٩٦٧ وأثناء احتدام حرب فيتنام، كان أحد مهندسي إستراتيجية الولايات المتحدة يحلل تقدمها، إنه المقنع ماكجورج بوندي، مستشار الأمن القومي للرئيسين كندي وجونسون الذي أشار إلى الحدود القصوى الضيقة للنقاش واعترف أن «هناك رجالاً جامحين وراء الكواليس وليسوا على الخشبة الرئيسية... لقد تحول الجدل حول فيتنام إلى تكتيك وليس مبادئ أساسية» إذ وافق بوندي على الأسئلة التكتيكية حول الطريقة التي تخاض بها الحرب لكن الرجال الذين وراء الكواليس كانوا وحدهم من يطرح السؤال الصحيح حول حق الولايات المتحدة في التدخل.

بعد ذلك بشهر، نشرت نيويورك ريفيو مقالاً بعنوان «مسؤولية المفكرين» لنعوم تشومسكي، أستاذ اللغويات في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا. فبدلاً من أن يجادل بأن الحرب كانت خطأ أو باهظة التكاليف أو تتطلب تكتيكاً مختلفاً، تحدى تشومسكي حق - وليس قدرة - الولايات المتحدة على الغزو. استهدف تحليله البيروقراطيين والأكاديميين والإعلاميين الذين يحنون ركبهم أمام السلطة. بعد ذلك بقليل، شارك الرجل المغيب وراء الكواليس في احتجاجات لافتة في البنتاغون واقتسم زنزانة في السجن مع المؤلف نورمان ميلر الذي وصف تشومسكي لاحقاً بـ«رجل نحيل ذو ملامح حادة مع نظرة زاهد على وجهه ونفحة وديعة من الاستقامة الأخلاقية المطلقة». كان متلهفاً لمناقشة اللغويات مع تشومسكي، الذي «اعتبر نابغة في معهد ماساشوسيتس». كانت المشكلة أن ميلر لم يكن لوحده في عدم إدراكه فقد أبدت كيث

ويندشوتل الأقرب إلى بيته في مقالة حديثة أنه لم يستطع أن يفرق بين اللغويات وبين لينغويني(نوع من المعكرونة). هذا المقال ألقى الضوء على المسألة وحدد ملامح عمل تشومسكي السياسي.

ولد افرام نعوم تشومسكي في فيلادلفيا عام ١٩٢٨ لوالدين مهاجرين كرسا نفسيهما للثقافة القومية العبرية المبنية على اللغة العبرية ويبدو أنه استفاد من هذه الأسرة اليقظة التي لم تكن أرثوذوكسية (تقليدية) جداً لكن مع ذلك لديها موقف غير تقليدي رفيع نحو تربية الطفل فقد كانت أمه معلمة محترمة جداً وكان والده باحثاً مشهوراً في العبرية الذي وصف مرة الهدف الرئيسي في الحياة «تعليم الأفراد الموحدين جيداً والأحرار والمستقلين في تفكيرهم على نطاق واسع والمهتمين بتحسين وتجميل العالم والمتلهفين إلى المشاركة في جعل الحياة ذات معنى أعمق وجديرة بالنسبة للجميع». هذا ما أصبح عليه إلى حد كبير نعوم أو افرام كما كان يعرف عموماً. ابنه يتذكر بولع:

«كانت تقرأ لي في وقت النوم - من كتب عن النظرية النسبية وترسم صوراً مضحكة لزرافات - تحتوي على معادلات خطية كانت تعلمني كيف أحلها ووجهتني إلى مصادر معلومات من أجل تقارير الدراسات الاجتماعية بدون أن أدرك كيف تختلف هذه المصادر عن تلك التي يستخدمها أغلب الطلاب وعلمتني كيف أبحر ثم أمضيت نزهة بحرية جادلتني فيها إن كان هناك أي تبرير فكري للمعتقدات الروحية أم لا»؟

تشومسكي ابن الثالثة عشر استقل القطار من فيلادلفيا إلى نيويورك لوحده وكان يتصفح في المكتبات في الجادة الرابعة. في نيويورك، بات تحت تأثير زوج عمته، ميلتون كراوس الذي كان يدير كشكاً لبيع الصحف وجعله مسرحاً لنقاشات ليلية متأخرة قوية. كما عبر عنها تشومسكي «اللحظات العظيمة من حياتي في تلك السنين حين كنت أعمل في كشك الصحف ليلاً واستمع إلى كل هذا». كان يفضل الاشتراكية غير البلشفية التي أكدت

وجود مؤسسات اشتراكية أولية تتطور في روسيا قبل الانقلاب البلشفي في أكتوبر / تشرين أول ١٩١٧ وقد فُككت هذه المؤسسات من قبل البلاشفة الذين منعوا التطور الحر للعمل وأغلقوا مجالس العمال وشلّوا النقابات. تحت الضغوطات الفارضة لـ«حرب الشيوعية»، حاولوا أن يعيدوا إنتاج طرق رأسمالية لكي يبقوا أحياء.

حتى قبل سنوات مراهقته، نقح تشومسكي كتاب أبيه عن قواعد اللغة العبرية في القرن الثالث عشر وغمر نفسه في الأدب العبري في القرنين التاسع عشر والعشرين وأثمر اجتماع دارسته للثقافة العبرية مع اهتماماته السياسية، عن اهتمام حاد في الصهيونية فأصبح قائداً شبابياً صهيونياً في الحركة الثقافية الصهيونية وقارئاً أكثر من غيره في هذا المجال «حتى حين كان في السادسة عشر». كُرست الفكرة الثقافية الصهيونية إلى وطن يهودي ثقافي في فلسطين وإلى تعاون عربي يهودي ضمن إطار اشتراكي. عارض «المفهوم الغير ديمقراطي للدولة اليهودية»، التي سوف تمارس التمييز ضد غير اليهود بشكل محتوم. في أواخر عشرينياته، ساعد نعوم أمه في كتابة وإخراج مسرحية، هيفيلي ماشياه، عن توق لاجئين يهود للذهاب إلى فلسطين وبينت رعب المحرقة التي تلاها تشكيل إسرائيل. استمر تشومسكي في الجدال ضد تقسيم فلسطين، رافضاً «إمكانية الازدهار والتطور في أرض مقسمة» وكان «متأكداً أن مؤسسات يشوف الاشتراكية - المستوطنات اليهودية قبل الدولة في فلسطين - لن تنجو من نظام الدولة».

في هذا الوقت «كانت لإسرائيل تأثيرات خفيفة بشكل لافت على الحياة الداخلية للشعب اليهودي الأمريكي» ولم يتعاطف معها سوى مفكرين بارزين اثنين من اليهود الأمريكيين: نعوم تشومسكي وهانا اريندت. حين أمرت إسرائيل بالخروج من سيناء في عام ١٩٥٦، قادة اليهود الأمريكيين أخيراً «فضلوا أن ينصحوا إسرائيل بأن تستمع إلى

[رغبات إيزنهاور] وأن لا تعارض». بالمقابل، دافع تشومسكي عن إسرائيل حتى أنه نوى أن يهاجر إليها. «ارتكس بتأييد ساذج عملياً لإسرائيل» أثناء حرب حزيران ١٩٦٧. أثناء الستينيات بدأت الولايات المتحدة ترى إسرائيل حاجزاً للضغط القومي وحارساً للديكتاتوريات العائلية الفاسدة التي تسيطر على نفط الشرق الأوسط. حرب ١٩٦٧ أكدت قيمة إسرائيل كرصيد استراتيجي: في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تواجه مقاومة قاسية في فيتنام، أظهرت إسرائيل أنها تستطيع سحق المقاومة في منطقتها لذلك تضاعفت المساعدات الأمريكية إلى أربعة أضعاف في عام ١٩٧٠ وظلت مرتفعة منذ ذلك.

من بعد هذه النقطة، بدأ بعض اليهود الأمريكيين يتعاطفون مع إسرائيل علانية لأن ذلك سمح لهم أن يكونوا في دوائر السلطة الإنتخابية في الولايات المتحدة، حيث يستطيعون تقديم مصالح النخب الأمريكية. اقترح تشومسكي أن هؤلاء «المؤيدين لإسرائيل» كان يجب أن يُسموا بدقة (مؤيدو الانحلال الأخلاقي والتدمير النهائي لإسرائيل) التي هي الآن «المجتمع الأكثر عسكرة في العالم والمتكلة جداً في بقائها على الولايات المتحدة ولذلك هي رصيد موثوق».

وُصف دائماً بـ«اليهودي الكاره لذاته»، فمخاوف تشومسكي في الواقع وضعته في لب التقليد اليهودي. أثبتت دارسة للحاخام ابراهام جوشا هيسشل عن الأنبياء اليهود أن الأنبياء لم يكونوا عرافين يتنبؤون بالمستقبل بل كانوا قلقين حول «الأرامل والأيتام وحول فساد القضاة وشؤون السوق» «الحقائق الروحية للآخرة» لم توقظ إحساسهم الأخلاقي «بل حياة الناس، ليس مجد الأبدية وإنما آفات المجتمع».

من غير المفاجئ، أنهم كُرهوا من قبل الذين استسلموا للوضع القائم الجائر. في الكتاب الأول عن الملوك، مثلاً، الملك المحارب ايهاب ومؤيدوه النخبة احتقروا النبي ايلجيا ووصفوه بـ«كاره إسرائيل». هوجم

تشومسكي بمصطلحات مماثلة تقريباً. ليس صدفة أنه كان العالم أو الفيلسوف الوحيد على قائمة البيت الأبيض في فترة نيكسون، وفرض الاتحاد السوفييتي أيضاً منع حظرٍ شاملٍ على أعماله «بما فيها اللغويات!» لكن الأجيال المستقبلية على الأرجح ستنظر إلى هذا «الرجل الذي وراء الكواليس»، بطريقة مختلفة - عن الذين حطوا من قدره.

اللغويات بالنسبة للعلم الإدراكي

في الأربعينيات قدمت عائلة تشومسكي ابنها المذكور إلى زيليغ هاريس وهو عالم لغوي يحمل آراء سياسية متطرفة في جامعة بنسلفانيا. استمتع تشومسكي جداً بآراء هاريس السياسية لذلك بدأ ينشغل بلغويته أيضاً. في ذلك الوقت، أصدرت اللغويات «توصيات حول أشكال مقبولة اجتماعياً من الكلام وخطوطاً هادية لتعلم لغات غير معروفة للآن وبيانات حول علم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا) وعلم الأشكال (المورفولوجيا) وعلم بناء الجملة (سينتاكس) وعلم دلالات الألفاظ (سيمانتكس)» درس تشومسكي اللغويات وساد أيضاً بواسطة أساس في الرياضيات والمنطق والفلسفة. أمضى وقتاً مثمراً مع فلاسفة مثل ويلارد كواين وجون اوستن ونيلسون غودمان. هذه التركيبة غير العادية كانت عاملاً مهماً في اختراقه الفكري التالي. كما لاحظ الفريد نورث وايتهيد مرة، «أفكاراً جديدة أكثر يحتمل أن تنبثق من تشكيلة غير عادية من المعرفة - ليست بالضرورة من معرفة واسعة، وإنما من إدراك لوسائل وخطوط مميزة من الفكر».

أمضى تشومسكي أربع سنوات في تنفيذ برنامج سلوكي. أراد أن يبني عدداً من المبادئ الاستقرائية تفسر كيفية اكتساب اللغة. كغيرها من اللغويات في ذلك الوقت، كان يبحث عن «إجراءات اكتشاف» تصف قواعد اللغة وعلم النظم الصوتية. في ١٩٥٣ نشر ورقة فنية عن هذه الإجراءات الكشفية واعتقد أن هذا هو القوام الحقيقي للغويات. بنفس

الوقت، استكشف أفكاراً بديلة من خلال محاولة كتابة نحو توليدي كهواية خاصة. كان الأمر عرضياً تماماً أن يأخذ هذا من عمل والده على النصوص النحوية العبرية القروسطية إذ عرف أن اللغويات التاريخية تبحث عن متتالية تغيير، الواحد فيها يؤدي للآخر، على مر القرون. هل كان هناك أي ارتباط بالعمليات النفسية؟

مستغلاً معرفته بالرياضيات وعلم المنطق، بدأ تشومسكي في بناء نماذج عن تلك المتتاليات تمثل حقيقة نفسية لاستخدام اللغة. افتتن بـ«الأنظمة التوليدية» - الإجراءات التي بواسطتها، المختص بالرياضيات يبدأ بفرضيات ومستفيداً من مبادئ ومراجع، يستطيع توليد عدد لانهائي من البراهين. فيلسوف القرن الثامن عشر فيلهلم همبولدت كان لديه فكرة مماثلة، تشير إلى اللغة كنظام تحكمه القواعد وليست مجموعة من الكلمات والعبارات مطابقة للمعاني. اعتبر همبولدت اللغة كنظام «يخلق استخداماً غير محدود لمعانٍ محدودة» يقصد أن عدداً غير محدود من الجمل يمكن أن تحدث من استخدام عدد محدود من الكلمات. لكن همبولدت لم يمتلك التقنيات الرياضية ليحول هذه التصورات إلى نظرية تفسيرية. هذه التقنيات، خصوصاً فكرة أنظمة القواعد المكررة، لم تتوفر إلا بعد قرنين من ذلك. تشومسكي، بالمقابل، تلقى أساساً شاملاً في الرياضيات الحديثة وهكذا كان قادراً على استخدام تقنياتها التي كانت لا تزال هوايته الخاصة آنذاك.

في رحلة بحرية عبر الأطلنطي في تلك السنة، أدرك تشومسكي المصاب بدوار البحر أن المحاولة لبناء إجراءات تحليلية كان هراء؛ وأن النحو التوليدي هو الشيء الحقيقي و«بدا يثمر بثبات عن نتائج مشوقة» لذلك هجر اللغويات البنيوية ليركز على هوايته، مخترعاً حقل اللغويات الرياضية في العملية وأثبت فوراً أن اللغة لديها كل الدقة التي للرياضيات الرسمية.

جملـة تشومـسكي الـشهيرة «أفكـار نـضرة لا لـون لهـا تنـام غاضـبة» توضــح حجتــه أن تركيـب الجملـة يمكـن أن يُـدرس بـشكل مـستقل عـن المعنـى. هـذه الجمـلـة بـلا معنـى لكنـها ليـست بربـرة إنهـا جملـة إنكليزيـة حسنة الشكل بشكل واضح. هذا العلـم اللغـوي الجديـد نبـذ المعنـى وركـز علـى قـوانين النحـو الـصرف. حتـى أبـسط الجمـل، افـترض أن لهـا شـكلاً نحويـاً داخليـاً «تجريديـاً». أعيـد تحديـد برنـامج البحـث اللغـوي بعدئـذ: كيف يرسم الشكل الداخلي «التجريدي» فوق الأشكال الخارجيـة المتاحـة لسمعنا وأعضاء إحساسنا الصوتي؟ الفكرة أن «مـستوى غير مـدرك من التمثيـل يمكـن أن يرسـم ـ في مـستوى مـدرك» كانـت مـثيرة بـشكل هائـل وقلبت اللغويات رأساً على عقب.

سـابقاً، كانـت اللغويـات تـشمل جدولـة وتوثيـق وتـصنيف أكـبر عـدد ممكن من اللغات. باختراق تشومسكي، أصبح العلم الجديد من اللغويات المعرفية (الإدراكية) دراسة القدرة اللغويـة للعقـل البـشري. لم تعتـد تهتم بالجدولــة، كــان الهــدف الجديــد «توطيــد أســاس نفــسي لمــسلمات تشومــسكي عــن تركيــب اللغــة الفطريــة والقواعــد النحويــة المتحولــة كاللغويات العصبية التي تبحث عن آليات عصبية تكمن بأساس المكونات المختلفــة للنظريــة اللغويــة كمــا مكــن التقــدم ـ في مجــال التكنولوجيــا وخصوصاً ـ في تقنيات تصوير الدماغ هذا المجال وقواه».

ـ في هـذا النقـاش للعلاقـة بـين الـصفات التجريديـة والآليـات النفـسية المعروفة، يستحق تذكر نموذج سابق من تاريخ العلم يساعد على توضـيح المهم. ـ في القرن التاسع عشر، طـورت الكيميـاء صـوراً للجزئيـات المعقـدة قبـل أن يقـدر الفيـزيـائيون علـى ذلـك بوقـت طويـل. ـ في الجـزء الأول مـن القـرن العـشرين، تواجـدت مثـل هـذه الأشـيـاء. مـر وقـت طويـل حتـى بـدأ الفيزيــائيون ـ في اكتــشاف كيانــات لهــا مواصــفات متطابقــة مــع أفكــار الكيمـائيين المجـردة المحـسوبة. الأفكـار الحـسابية تكـشف للفيزيـائيين

وتدلهم عما يبحثون عنه. لو لم تقدم الكيمياء النظريات التجريدية لما تمكنوا من تطوير بنية الذرة والجزيء. نظريات الكيميائي هذه مماثلة لنظرية اللغوي في حسابات الدماغ. اللغويات المعرفية (الإدراكية) بالنسبة لعلم الدماغ المستقبلي هي مثل كيمياء القرن التاسع عشر بالنسبة للفيزياء الكمية فلولا المعلومات حول الصور اللغوية والحسابات لما عرف علماء الدماغ المستقبليون عن أي شيء يبحثون. عليهم أن يتكلوا على اللغوي ليشير إلى البنى التجريدية ليبنوا على أساسها اكتشافاتهم الفيزيائية. اللغويات لذلك، علم نفس نظري أعمق بكثير مما يمرر اليوم على أنه علم نفس، منشغل في تجميع وتسجيل البيانات. يشير تشومسكي بشكل مسلٍ إلى أن علم النفس ربما المرشح الوحيد لعلم ليس فيه توصيف لوظيفة «العالم النفسي النظري». شرط التثبيت في هذا المجال يُحقق بتسجيل البيانات ونشر أوراق تجريبية.

ابن التنوير

منذ هجمات ١١ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١، أصبح إرث التنوير - أكثر من أي وقت مضى - منطقة نزاع. استخدمت حقوق الإنسان كثيراً كعذر إيديولوجي للممارسة القوة الاعتباطية. طالب الرجعيون بالدفاع عن «القيم المثلى الغربية» في محاولة لشرعنة إخضاع واستعباد أفغانستان والعراق وإيران وكوريا الشمالية. بسبب اتكالهم على التنوير، الجدير بالملاحظة أن تشومسكي، خصمهم الأبرز ربما، أعلن بدوره «أنا ابن التنوير» أيضاً.

أدى التنوير إلى ظهور التقاليد التحررية التقليدية التي نشأ تأكيدها على الحرية من اللحظة التاريخية الخاصة التي ظهرت فيها وكانت نتاج عصر ظهرت سلطة الدولة فيه التهديد الأساسي للحرية إذ لم تكن التباينات القاسية في القوة الاقتصادية - أو الخاصة صفة ظاهرة للمجتمع لكن بوجود هذه التباينات الآن، وسع تشومسكي دفاعه عن

التقاليد التحررية للفرد ونقلها إلى الوضع الحالي فهو يؤيد نسخة من الاشتراكية التحررية ملهمة بالتنوير مع التزامها بالمساواة والحرية.

في غياب المساواة، تبقى الحرية وعداً لم ينفذ بسبب القسر الذي يحدث بين فاعلين غير متساوين. ينتج القسر تحت ظروف من التفاوت الاقتصادي القاسي لأن الناس الأحرار سياسياً سوف يجبرون على «أن يختاروا، أن يؤجروا أنفسهم لرب عمل بدلاً من أن يأخذوا، الاختيار البديل في معاناة الجوع والفقر». يقتبس تشومسكي عن سيمون لينغويه الذي أشار إلى شرور نظام الأجور في القرن الثامن عشر:

«استحالة العيش بأي وسيلة أخرى هي من تجبر عمال مزارعنا على حرث التربة التي لن يأكلوا ثمارها وعمال البناء أن يبنوا عمارات لن يسكنوا فيها. العوز هو من يجرهم إلى تلك الأسواق حيث ينتظرون الأسياد الذين يتكرمون عليهم بشرائهم. العوز هو من يجبرهم أن يركعوا على ركبهم للرجل الغني لكي يحصلوا منه على إذن ليزيدوه غنى».

عدم وجود الحرية، على كل حال، يتضمن بالضرورة إكراهاً في تحديد شروط المساواة المادية. المساواة ذات المعنى يجب أن تشمل مساواة في عمليات صنع القرار كجزء من تحقيق الحرية. الشرطان مستقلان عن بعضهما منطقياً. يشير تشومسكي أن التنوير أثمر عن أفكار ترى أن «للناس حقوقاً طبيعية، وهم متساوون أساساً وأنه انتهاك وخرق للحقوق الإنسانية الجوهرية إذا أخضع نظام السلطة بعضهم للبعض الآخر، وإصرار بوجود روابط حقيقية من الوحدة والتضامن بين الناس عبر الحضارات» على الرغم من تكسر هذه الأفكار على صخور الرأسمالية الصناعية، إلا أن وعدها ظلّ قائماً. هذا الفهم المعرفي التاريخي للتنوير الراديكالي كان لعنة للرجعيين عبدة السلطة، الذين اغتاظوا أيضاً منه - بسبب هدوئه وموقفه المتصلب بعد ١١ سبتمبر - كتابات تشومسكي وخطاباته التي أُتيحت وتوفرت في أعداد قياسية

للناس الجديدين على السياسة ومن الطبيعي أن يكون اهتمام الشعب المتزايد في تحليل تشومسكي سبباً رئيسياً للقلق وسط الرجعيين.

الخنوع الفكري

ترافق دفاع تشومسكي الصريح عن التنوير الراديكالي بالتزام شخصي عميق. الصحفي وعامل الإغاثة فريد برانفمان صدف أن كان في لاووس عام ١٩٧٠ حين أخضعت الولايات المتحدة فلاحي لاووس إلى واحدة من أشد عمليات القصف في التاريخ. حاول برانفمان أن يرفع الوعي الدولي بأعمال القصف، وأخذ عشرات الناس إلى المخيمات حيث يمكن إجراء مقابلات مع اللاجئين. تشومسكي، كما قال «كان الشخص الوحيد بالإضافة لي الذي بكى»، يجب أن يلاحظ أن مقاربة تشومسكي ليست مسدس رش سكاترغن. هو لم ير نفسه كـ«مفكر عام» أو «معلق على الشؤون الدولية» وإنما اعتبر نفسه كأميركي، يتحمل مسؤولية أخلاقية خاصة عن أفعال الولايات المتحدة. لذلك تركزت طاقاته بشكل خاص على المناطق التي كانت فيها السياسة الأمريكية أكثر استبداداً. حين غزت إندونيسيا تيمور الشرقية بدعم من الولايات المتحدة في عام ١٩٧٥ انضم تشومسكي إلى ناشطين في حملة من التضامن الدولي لم تعرف الكلل. خطاباته ومنشوراته عن هذا الموضوع كانت ضخمة وقرأت على نطاق واسع لكن دعمه المالي كان أقل شهرة. حين وسائل أعلام الولايات المتحدة كانت ترفض مقابلة اللاجئين التيموريين مدعية عدم وجود منفذ لها إليهم، دفع تشومسكي أجور السفر بالطيران لكثير من اللاجئين وجلبهم من لشبونة إلى الولايات المتحدة، حيث حاول أن يوصلهم إلى مكاتب تحرير نيويورك تايمز ومنافذ أخرى. أغلب التزامه المالي بمثل هذه القضايا، مرَّ - بسبب تكتمه - دون أن يلحظه أحد. يقول ناشط تيموري «نحن تعلمنا أن عامل تشومسكي وتيمور الشرقية كانا تركيبة مميتة» و«اثبتا أنهما فعالان جداً بالنسبة لهؤلاء الذين حاولوا أن يهزمونا».

بالمقابل، بعض المفكرين أصبحوا مغفلين طوعيين لجهاز الدعاية الإندونيسي: في ١٩٨٣ بي بي ماكغينيس، رئيس تحرير استراليان فايننشال ريفيو سابقاً ورئيس تحرير كوادرانت ماغازين اليوم، زار تيمور الشرقية تحت حراسة عسكرية إندونيسية. عند عودته إلى استراليا زعم أنه لم يلحظ أي نقص غذائي ولم ير أي قمع عسكري. لكن هذه الزيارة لها صفة بوتمكينية - ماكغينيس، باعترافه هو، لم يكن يتكلم أياً من اللغات المحلية وقد ترجم كل شيء له من قبل مرشدي رحلته العسكريين.

قضية تيمور الشرقية وفرت لتشومسكي رؤية هامة إلى داخل التفاضل الأخلاقي: الأعمال الوحشية ممقوتة بغض النظر عمن ارتكبها، لكن لدينا التزام خاص أن نقضي على تلك الأعمال التي نتحمل مسؤوليتها. من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩، كان هناك قتل جماعي بنسب مشابهة في تيمور الشرقية وكمبوديا. الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ساعدتا في الإبادة الجماعية في تيمور الشرقية، حيث وصل عدد الأموات إلى ثلث السكان. كانت هذه أسوأ مذبحة بالنسبة لعدد السكان منذ الهولوكوست (المحرقة). كان القضاء عليها ممكناً وذلك بسحب الدعم الغربي للقوات العسكرية الإندونيسية. بدلاً من ذلك، الكثيرون ممن يصفون أنفسهم بـ«مفكرين عامين» في استراليا والولايات المتحدة قالوا القليل حولها، مفضلين على ذلك شجب بول بوت في كمبوديا، حيث لم يكن لديهم أي أمل في إنهاء الأعمال الوحشية للخمير الحمر.

قضية في كتاب روبرت مان الحديث، يسار يمين يسار حيث تفحص كمبوديا بالتفصيل وليس الإبادة الجماعية في تيمور الشرقية-. السيد مان محرر سابق للكوادرانت وإدارته لتلك الصحيفة بين ١٩٨٩ و١٩٩٧ توفر نظرة كاشفة إلى هذا الوعظ المجاني. بعد أن ذبح الجنود

الإندونيسيون أكثر من ٢٧١ مدنياً أعزل من تيمور الشرقية في ديلي في ١٢ نوفمبر / تشرين ثاني ١٩٩١، ناقشت افتتاحية مان مبدأ سيغموند فرويد في النفي:

المريض الذي يبدأ التحليل بحب صريح لأنه ينبه طبيبه إلى مصدر بلائه النفسي. بنفس العزم والشجاعة يجب أن يقرأ واحداً من أهم الولاءات الغالية للنقاش الاسترالي المعاصر - «استراليا جزء من آسيا».

لاحظ مان أنه «ليس من الممكن شجب المذابح في بكين والصفح عنها في ديلي»، لكن قلقه الغامر كان علاقة استراليا بإندونيسيا وماليزيا، وبالخصوص «التوترات بين المجتمعات البعدكولنيالية الواثقة حديثاً والقوة الغربية المكتئبة حديثاً التي تخلت تقريباً عن طريقتها في التفوق الأخلاقي». تجد في قراءة كل إصدار من كوادرانت خلال السنوات الثماني من فترته كرئيس تحرير، ندرة أصوات التيموريين لافت؛ بدلاً من ذلك، امتد الفراغ إلى «محامي بيرث وشاعرها»، هال كولباتش، الذي أمضى بضع سنوات في تيمور الشرقية قبل ذلك بعشرين عاماً. كان قراء كوادرانت متأكدين أن «تلك المحاولات لتخريب العلاقات الاسترالية - الإندونيسية حول تيمور لا تقوم بأي خدمة للشعب التيموري». أخيراً أثناء إقامته في ١٩٧٣ سمع، بطريقة غير مباشرة من استراليين في بوكاو تنقلوا في كل أنحاء الجزيرة، أن الأشياء كانت أفضل في تيمور الغربية الإندونيسية، «التفكير بتيمور شرقية مستقلة يرفع قوتها الدفاعية وخدماتها الصحية والأمن الاجتماعي والتمثيل الدبلوماسي بدون سنوات من الإعداد كان وهماً». كاتب آخر، (بيتر رايان) تذمر حول «هؤلاء اليساريين المجانين» في (جماعة المصفقين التيموريين) الذين يشبهون بريغز (متزمتي) اليسار الإنكليزي في ثلاثينات القرن العشرين.

صحيفة السيد مان حملت أيضاً مقالة طويلة تدافع عن الأعمال الإندونيسية:

إندونيسيا لم تكن قوة قمعية فحسب فقد التفتت إلى نصيحة نقادها وصرفت بسخاء على تحسين الخدمات العامة والتعليم في تيمور الشرقية. أنفقت في هذا الإقليم على الرأس الواحد أكثر من أي إقليم آخر، وبالتأكيد أكثر مما فعل البرتغاليون.

بالنسبة للدولة ذات العلاقة الثنائية، لام الكاتب وسائل الإعلام الاسترالية، قائلاً «ربما الصحافة يجب أن تكون أكثر حذراً حول ما تنشر» أيضاً «يجب علينا أن نفرض بعض الحدود القصوى على المهاجرين الآسيويين في حملتهم ضد الحكومات التي فروا منها» أخيراً، «نحن نعرف مسبقاً أسلوباً مناسباً لسياسة خارجية استرالية – عش ودع غيرك يعيش؛ لا تسبب مشاكل غير ضرورية للجيران، خصوصاً الكبار منهم؛ انحنِ مع الفصول: كُنْ قاسياً في الدفاع عن مزرعتنا وفي المكر في الاستيلاء على الفرص التي تأتي في طريقنا».

شجب السيد مان الجرائم التي ليس لديه القدرة على إيقافها، بينما تجاهل بشكل كبير فرصة ممتازة للصراع ضد الجرائم التي كانت حكومته شريكة فيها. هذا أخلاقياً مشابه لمفوض روسي يشجب العنصرية في الولايات المتحدة بينما لا يقول سوى القليل عن دعم الاتحاد السوفييتي للحكم الاستبدادي في أوروبا الشرقية. ربما المقارنة ليست عادلة... بالنسبة للمفوض، الذي لديه سبب للخوف على أمنه البدني بطريقة غير واردة بالنسبة للمفكر الغربي. لهذا يقول تشومسكي إن «التقليد الفكري واحد من الخنوع للسلطة وإذا لم أخنه فسأخجل من نفسي».

أن يعيش تشومسكي سياسته، هذا مثبت بكل المقاييس بدفاعه عن حرية التعبير في منطقة تتطلب أكبر درجة من الشجاعة الشخصية والالتزام. أنا أشير طبعاً إلى قضية فاوريسون: الأستاذ الجامعي روبرت فاوريسون منع من تعليم الأدب الفرنسي في جامعة ليون في أواخر

السبعينيات لأنه لم يُحمَ من هجمات ضده نتيجة آرائه حول المحرقة. أُحضر أمام المحاكم الفرنسية لإنكاره وجود غرف الغاز. تقريباً خمسمائة شخص، من بينهم نعوم تشومسكي، وقعوا عريضة تدافع عن حريات فاوريسون المدنية. بشعورهم بفرصة حسم نقاط قديمة، سمتها الصحف فوراً بـ«عريضة تشومسكي» واتهمته بتأييد آراء فاوريسون. المفقود من هذه الهستريا المبدأ الواضح الذي يؤيد حق الشخص في التعبير عن آراء محددة مستقل عن الآراء المعبر عنها فعلياً. وبالتالي يمكن للمرء أن يدافع عن حرية سلمان رشدي في كتابة الآيات الشيطانية دون الاتفاق مع محتويات ذلك الكتاب - أو حتى الحاجة إلى قراءته. كتب تشومسكي مقالة موجزة يوضح فيها هذا الفرق. بدون معرفة تشومسكي، هذه المقالة استخدمت مقدمة لكتاب حول قضية فاوريسون. تشومسكي، الذي لم يعرف بوجود الكتاب، كان مهتماً دائماً في القضية المحددة من الظلم في منع فاوريسون من تعليم الأدب الفرنسي والسماح للدولة بأن تعرف الحقيقة التاريخية وتعاقب التحريف. على كل حال، لا حاجة للقول، أن تشومسكي صنف بـ«ناكر للمحرقة» من قبل أعدائه ولقناعاته الراسخة بحرية التعبير، فمن غير المحتمل أن يرفع دعوى قذف وتشويه سمعة.

اقتراحات من أجل مذهب الفعالية

رأي تشومسكي «أن عبء الإثبات يجب أن يوضع على السلطة، وأنها يجب أن تُفكك إذا لم يلب ذلك العبء» بالنسبة للنصيحة العملية على ما يجب فعله: اقتباس كلمات تشومسكي نفسه إغراء لا يقاوم:

أعتقد أن الشيء المنطقي الوحيد هو البحث عن وتعيين بنى السلطة والهرمية والهيمنة في كل مظاهر الحياة وتحديها: إلا إذا أمكن إعطاء تبرير لها، هي غير شرعية ويجب أن تُفكك، لزيادة مدى الحرية الإنسانية. ذلك يشمل السلطة السياسية والملكية والإدارة والعلاقات بين

الرجال والنساء والآباء والبنين وسيطرتنا على مصير الأجيال القادمة (الواجب الأخلاقي الأساسي الملح خلف الحركة البيئية برأيي)، والكثير غيره. بشكل طبيعي هذا يعني تحدياً للمؤسسات الضخمة من القسر والسيطرة: الدولة والمؤسسات الاستبدادية غير المسؤولة التي تتحكم بأغلب الاقتصاد المحلي والدولي.

هناك تنوع ومدى هائلان من المصالح والمخاوف وعدد ضخم من الناس المتورطين. وذلك يعطينا نوعاً من القوة: حركة منظمة مركزية يمكن سحقها بسهولة؛ حركة متنوعة جداً تتجذر في المجتمع كله - حسناً، تستطيع التخلص من هذه القطعة وتلك القطعة والقطعة الأخرى، لكنها ستعود في مكان آخر حقيقة وجود تنوع هائل يمكن أن يكون ميزة حقيقية - يمكنها أن تكون وسيلة حقيقية للتعلم..... لكن طبعاً، إن كانت ستحدث تغييراً حقيقياً، ذلك العدد الكبير من المخاوف يتطلب شكلاً ما من التكامل والتواصل الداخلي والتعاون بين أجزائها الفرعية المتنوعة.

الآن، نحن لن نطور ذلك النوع من التكامل من خلال المؤسسات السائدة، لأن لديها تعهداتها الخاصة بها، التي هي للقوة الخاصة بشكل أساسي. في حالة وسائل الإعلام، لديها التزام في التلقين لمصالح السلطة وذلك يفرض حدوداً صارمة على ما تستطيع فعله. لهذا يكون الرد، يجب علينا أن نخلق بدائل، والبدائل يجب أن تدمج تلك الأعداد الكبيرة من المصالح المختلفة والمخاوف في سلسلة من [الحركات المترابطة]: أعداد كبيرة من جمعيات من الناس الذين لهم نفس المخاوف وفي بالهم الأشخاص الآخرين من جيرانهم الذين لديهم مخاوف متصلة والذين يستطيعون الالتقاء معهم والاجتماع للعمل من أجل التغيير.

بالنسبة لآمال النجاح:

إن كان الناس يتفاعلون أم لا، من يعرف؟ هل أنتم تعرفون؟ كل واحد يجب أن يقرر.

لماذا يتجاهل المؤرخون نعوم تشومسكي؟

جون اتش سومرز - هيستوري نيوز نيتورك،

١٧ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٥

كتب نعوم تشومسكي ما يربو على الثلاثين كتاباً في العقود الثلاثة الأخيرة رغم ذلك لم تقم (جورنال أف أميركان هيستوري) أو (أميركان هيستوري ريفيو) أو (أميركان هيستوريكال ريفيو) أو (ريفيوز إن أميركان هيستوري) بأي مراجعة نقدية لها. لو أن هذه الصحف أغفلت كتاباً أو كتابين لتشومسكي لما وصل الإغفال إلى مرتبة المشكلة ولأمكن عزوه إلى مجموعة أسباب كل منها حادث عرضي بالنسبة لتشومسكي ولو أن هذه الصحف كرست اهتمامها به في الحقيقة وكان الاهتمام عدائياً، لاتهمت عندها بإضمار التحامل. هذه هي الطريقة الأكثر احتراما للاختلاف حول مثل هذه المسائل. لكن الصحف لم تفعل ما يكفي لتستحق التهمة فهي لم تراجع واحداً من كتبه وتشومسكي واحد من أكثر المفكرين السياسيين الذين تقرأ أعمالهم في العالم لكن التاريخ الأكاديمي يتظاهر بأنه غير موجود.

لماذا هذا الأمر؟

التفكير للحظة يقصي أسهل التعليلات. لم يتم تبني أي سياسة رسمية ضد تغييرات كثيرة في هيئات تحرير الصحف ولم تخطر بالبال حتى المؤامرة الضمنية بسبب الثورانات في العقود الثلاثة الأخيرة فقد امتصت الصحف وقدمت ووجهت انفجاراً في الكتابة التاريخية، وظل تعهدها الرسمي بالتعددية الفكرية سليماً وبصفتي رئيس تحرير (جورنال أف أميركان هيستوري) في ٢٠٠٤، كتبت «من خلال مراجعاتنا للكتب، نحن نهدف إلى خدمة الصحيفة كصحيفة لسجل التاريخ الأمريكي».

هل حُذفَ تشومسكي لأنه يكتب عن مواضيع ذات أهمية قليلة بالنسبة للمؤرخين؟

تحتوي كتبه على حجج لافتة حول تاريخ الحرب الباردة والإبادة الجماعية والإرهاب والديمقراطية والشؤون الدولية والقومية والسياسة الاجتماعية والرأي العام والرعاية الصحية والنزعة العسكرية وهذا كله مجرد بداية القائمة ونوّع مداه في أمريكا وأوروبا وآسيا، مكرساً اهتماماً خاصاً بنشوء الولايات المتحدة. اثنان من مواضيعه الرئيسية «ظهور الغرب» في سياق مقارن مع «التاريخ العالمي» هما مجالان لاهتمام المؤرخ المهني وخصوصاً اليوم.

هل حُذفَ تشومسكي لأنه ليس مؤرخاً مهنياً؟

لقد راجعت الصحف لغير المؤرخين من أمثال روبرت بيلاه، وراندال كولينز وميتشل فوكولت وكليفورد غريتز وناثان غليزر وايرفينغ هيو وسيمور مارتن ليبست وريتشارد رورتي وإدوارد سعيد وغاري ويلس وجون ابدايك لأن الكتب المعنية تظهر مكوناً تاريخياً قوياً وتشومسكي في كافة الأحوال يقدم دليله مع تدوين شامل من الاستشهاد (التنويه)، ويبقي المضمون البلاغي المتكلف لكتاباته منخفضاً جداً.

هل حُذفَ تشومسكي لأنه لم يفصل بين سياسته وتاريخه؟

يستخدم المؤرخون مهاراتهم عادة كأدوات في التعسف السياسي والتهويل كما فعل شون ويلينتز في شهادته أمام الكونغرس قبل بضع سنوات أو كما فعل ديفيد لانديز في رسالة إلى نيويورك تايمز عام ٢٠٠٠ التي كتب فيها «إن كان السيد نادر يعتقد أن الناس سينسون أنه كان راغباً بجلب أذى مميت لبلاده، فهو على وشك مفاجأة كبيرة» لو أن هذا النوع من الأشياء يصنع أسباباً مقبولة للإقصاء من مجتمع الباحثين، لتعلمت قلة من المؤرخين تبجيل آرثر شليزنغر الصغير المؤرخ الليبرالي على نحو جليّ. المهنة التي تجعل من الطلاق بين السياسة

والتاريخ شرط دخول، كان عليها أن تحذف شليزنغر ولانديز وويلينتز معاً بشكل مهين منذ زمن طويل. نفس النقطة تصح لكن بقوة أقل في حالة هنري كيسنجر. (ريفيوز إن أميركان هيستوري) التي تجنبت كل الفرص لتراجع كتب تشومسكي وصفت دبلوماسية كيسنجر (١٩٩٤) بـ«سرد بارع ومتألق ومثير للسياسة العالمية والسياسة الأمريكية الخارجية من الكاردينال ريتشيليو إلى نهاية الحرب الباردة».

تعكس ليبرالية شليزنغر الإيماءات الإيديولوجية المهيمنة في كتابة التاريخ لكن التوقف هنا سيكون إفراغ كل المسألة في دنيا التحييزات وسيكون ذلك استخدام معرفة رخوة في علم الاجتماع للإثبات بأن الصحف تخدم بعض الإيديولوجيات على حساب إقصاء إيديولوجيات أخرى. المشكلة في هذا التعليل أن الصحف في الحقيقة أصبحت مفتوحة على الأفكار التي تدّعي بأنها تجاوزت الليبرالية: بعدكولنيالية وبعدبنيوية وهلم جرا. بتعبير أدق وأقرب إلى الهدف، لم تكن خجلة من فتح صفحاتها للماركسية. لماذا ايريك هوبزبوم وليس نعوم تشومسكي؟

أشك أن الجواب يكمن في حجج تشومسكي، وبشكل أقل في منزلته المهنية، وليس في أغراضه ونواياه. إن تاريخ الليبرالية والماركسية في الأكاديمية كان تاريخ علم المفاهيم والمسؤولية الرئيسية للمفكر الليبرالي أو الماركسي وفقاً لذلك أن يكتشف مادة جديدة تشمل تصحيح وإعادة تصحيح الانحيازات في البحوث الدراسية السابقة، نوع من الطب الشرعي الفكري فعلم المفاهيم لا يجاري تطور المؤسسات فقط؛ بل يشترط توسيعها المستمر وتكبيرها. كل هذا يجب أن يكون واضحاً من حقيقة أن المؤرخين الليبراليين والماركسيين الذين قهروا السلطة المؤسساتية والنفوذ في كل أرجاء البلاد، أحدثوا احتكاراً فعلياً على النقاش الفكري الجاد.

إن تفسير تشومسكي الفوضوي للمسؤولية يشير إلى مكان آخر. «مسؤولية المثقفين أن يقولوا الحقيقة ويكشفوا الأكاذيب». مع ذلك

يستطيع المرء أن يقرأ كتب تشومسكي ويستنتج بسهولة أن الحقيقة شيء يجب أن تُحاط بمجموعة من المفاهيم، أو أنها تُدفع بالقوة في صياغات كلامية مبتذلة متخصصة أو «حاويات فكر» (عبارة ترفض تصديق نفسها في حضرة ذهن يقظ). لم يقل، مع المؤرخين بعدليبراليين أن المفكرين الأكاديميين يحتاجون إلى معجم كامل من المفردات الجديدة لفهم الواقع - الحقيقة. هو لم يفكر في الكتابة التاريخية كسبيل إلى السلطة والمنصب ومآدب الهيئة التدريسية الجامعية وجمع الأموال أو أي شيء من هذا النوع. هو لم يترك فكرة واضحة عن السلطة، لأن فوضويته علمته أن ينظر إلى المنزلة الاجتماعية كشكل من السيطرة.

ربما كان التفسير فجاً وبسيطاً، لكنه يوحي كيف تلاءم الجيل الحالي من المؤرخين المهنيين الذين بدؤوا في مزاج ستينيات وسبعينيات القرن العشرين القلق بشكل عفوي في الترتيب التراتبي للحياة الأكاديمية لقد (لبرلوها) لتشمل مجموعات اجتماعية مهمشة سابقاً لكنهم لم يفعلوا سوى القليل جداً ليعكسوا قمع قوة العمل. أما اليوم فقد انمحى الفرق بين المهني الحر وموظف الجامعة وباتت جمعيات التاريخ المهنية تترأس فوق بنيان من السيطرة أكبر من أي وقت آخر في الماضي في مداه وسلطته.

أياً كان السبب فإن العواقب أفقرتنا كلنا. العزل أجبر تشومسكي أن يواجه اختبارات حول الشخصية لم تطلب إلا من قلة من الشخصيات المعاصرة. كل شيء من نبرة كتاباته إلى أعماق سيرته الذاتية تعرض لمراجعة نقدية قاسية. ناقده يجد خطأً واقعياً فيقابله بهتاف «أها» وإن لم تكن هناك أخطاء واقعية متوفرة يصيح الناقد «بسيطة جداً» وبدلاً من الإنشغال في البحث والنقاش اللذين قد يعطيان المناقشة ظلاً أكبر وتنوعاً، يتوقف الناقد عن القراءة تماماً. التصديق والتفويض وليس الحجة، يهيمن بالمثل على رد فعل الأتباع الذين أصبحوا منجذبين إلى تشومسكي بسبب عزله وباتوا يلصقون فيه صفات شبه سحرية. (نظرة

إلى مقابلاته المنشورة سوف تشير إلى محاولاته المتكررة على تثبيط همة تعقبه شبه الديني.)

الصحف باستثنائها لواحد من أكثر الأصوات تأثيراً في النقاش السياسي المعاصر، تخون التزامها الانتقائي بالحرية الفكرية. أحد الدروس التي تعلمناها من الأفكار بعدليبرالية تلك أن الرقابة (المطبوعات) تتضمن علاقات بارعة بين الثقافة والعمليات الاجتماعية. يمكن أن يحدث الإسكات ويبقى بالسهولة التي يحدث فيها الجدال.

مهنة استرداد المبدأ ليست السبب الوحيد لوضع نهاية لاستثنائها لتشومسكي. الكثير من المقالات والمراجعات النقدية تنقصها روابط حيوية بالمسؤوليات الإنسانية وهي تلبي طلب «وثيق الصلة بالموضوع» دون أن تطرح السؤال، وثيق الصلة بماذا؟ إنه سوء حظ المؤرخين الليبراليين والماركسيين أن يكتبوا في عصر سطوة محافظة. لعقود أداروا المصالح الإيديولوجية للأحزاب القريبة من السلطة. ليكتشفوا فقط، متأخرين أن ميتافيزيقيا التقدم خانتهم. يطحنون مفاهيمهم إلى نقاط أنعم وأنعم، يضيقون بحثهم إلى تخصصات وتخصصات أكثر. في هجرهم لحقول الذكاء من أجل تكنولوجيات المنطق، لكنهم أنتجوا غشاوات كريهة من الاستسلام الدائم.

ربما عدد كبير جداً من الناس يجدون تشومسكي منشطاً ومقوياً لأن الكثير غيره في ثقافتنا الفكرية بلا شغف ولا غرض.

المغزى ليس أن تشومسكي خالٍ من الأخطاء، أو أنه صحيح في تفسيراته أو أن تفسيراتي ملائمة للمشكلة المطروحة. العبء هنا إيجاد ضمانة لإقصائه في صفحات الصحف التاريخية الرائدة. ربما منتدى كبير واحد عن «تشومسكي وتاريخ السياسة الخارجية الأمريكية» قد يؤسس إيماناً جيداً ويحفز تنويراً متبادلاً. من الذي لم يستطع أن يتعلم شيئاً من المناظرة بين تشومسكي وجون لويس غاديس؟

من يخاف نعوم تشومسكي؟

ريتشارد وول - ليوروكويل. كوم
١٧ أغسطس / آب ٢٠٠٤

١ - مهاجم المؤسسات التقليدية الخصب

إن البروفيسور نعوم تشومسكي ناقد شرس لحروب الولايات المتحدة وسياستها الخارجية ومحلل لامع للبروباغندا والآليات النفسية التي تنجز المؤسسة الليبرالية - البيروقراطية بواسطتها الإجماع العام والمصادقة على الأفعال العدوانية للدولة. من أجل هذا نال إعجاباً شديداً في بعض الأماكن واحتقر وشتم في أماكن أخرى. بين أقصى الطرفين من تزلف الحرم الجامعي غير النقدي والتعسف الشرير اللذين يخضع لهما، تجد هناك بعض المقالات النقدية الصادقة وجرعات منعشة للحقيقة غير المزخرفة أحياناً في نتاجه الضخم على مر السنين.

نشر تشومسكي عدداً كبيراً من الكتب التي تعالج أحداث العالم وسياسة أميركا الخارجية منذ أول مجموعة له من المقالات السياسية. القوة الأمريكية و(المندرين) الموظفين الكبار الجدد الذي صدر في ١٩٦٩ . في هذا الكتاب ينتقد بشكل صحيح وكاشف المقاربة المحايدة المزعومة لمديري حرب الولايات المتحدة على فيتنام والمدافعين عنهم بالقول كاشفاً أن كل البيانات عن المعارك تحت قصد موضوعي وحيادي معلن هي في الواقع لخدمة القوة ودفاع كلبي عن الوضع القائم وعن إيديولوجية مهيمنة خاصة.

«بعد أكثر من ثلاثين سنة لا يزال هذا الكتاب بالنسبة لي ثمرة التدمير المثالية لادعاءات علماء الاجتماع ومديري الدولة البيروقراطية حول الحياد الأخلاقي في تحليل السياسة الخارجية والأثر المكلف في

تنفيذها. استخدموا كلاماً طناناً نبيلاً لتبرير حربٍ عدوانية افتعلوها ضد شعوب ضعيفة وعزلاء نسبياً وتورطوا في اختبارات تكلفتها غير معروفة ذات تقنيات مميتة وتدمير طويل الأمد لمصادر الحياة على الكرة الأرضية». عبر التاريخ، يكتب تشومسكي في «ذاكرة انتقائية وعقيدة كاذبة» «حتى أقسى وأخزى الإجراءات تترافق عادة باعترافات نبيلة القصد - وكلام طنان حول منح الحرية والاستقلال».

أحدث أعمال تشومسكي عن الشؤون الدولية، السيطرة أم البقاء - سعي أميركا إلى هيمنة عالمية (٢٠٠٣) بالضرورة وبشكل غير مفاجئ يتعامل مع منح مماثل للموت والدمار باسم الأمن القومي للدولة. قبل الآن، وبعد ٣٥ سنة، أنه على قياس أكبر وأوسع مرعب للوجود عينه، لأن الأسلحة أصبحت مميتة ومتطورة أكثر ويحلم إستراتيجيو الولايات المتحدة الذين يخوضون الحروب ضد أعداء من الفضاء الخارجي.

الكتاب مقروء بشكل كبير جداً وأنصح به لأنه حديث وهو مراجعة نقدية جدلية عارفة لسياسة الولايات المتحدة العالمية على ضوء إستراتيجية الأمن القومي لعام ٢٠٠٢. التحفظ البسيط الوحيد الذي أراه حول السيطرة أم البقاء أنه أفسد بنبرة من السخرية اللاذعة في أماكن. هذا يصطدم بالتزام تشومسكي الطويل والدائم بالمفهوم المثالي والإنساني لحرية الإنسان وكرامته المؤسس على قناعة ايجابية بإمكانية الإنسان الفطرية ومقدرته الإبداعية.

المفضل لدي على المدى الطويل كتابان لتشومسكي يوجزان جوهر كتابات تشومسكي السياسية فهما يساعدان على فهم ما يربط كتاباته عن السياسة ووسائل الإعلام والمجتمع مع عمله الأكاديمي عن اللغويات رغم ميله إلى تهوين الروابط بين سياسته وأعماله عن اللغة. هناك مجلد ممتع رقيق مشاكل المعرفة والحرية (١٩٧٢) ومجموعة الـ١٩٧٣، من أجل مبررات الدولة.

٢ - المعرفة والحرية

يحتوي كتاب المعرفة والحرية على محاضرتين تذكاريتين عن بيرتراند راسل ألقاهما تشومسكي في جامعة كامبريدج في عام ١٩٧١، الأولى بعنوان «حول تفسير العالم» التي تتعامل مع اللغة والمعنى والثانية «عن تغيير العالم» تتعامل مع نظرية اجتماعية سياسية والسياسة الخارجية.

أولى هاتين المحاضرتين تستكشف الأفكار الرئيسية لـ«كيف نعرف ما نعرفه، على وجه الدقة في سياق اللغة وكيف نعرف أي قواعد أو نحو يحكم استخدامنا لتلك اللغة» يكتب تشومسكي مقتبساً بيرتراند راسل:

«إذا ..... كانت حياة الإنسان تكمن في الفن والفكر والحب وفي الإبداع وتأمل الجمال وفي الفهم العلمي للعالم» إن كان هذا هو «المجد الحقيقي للإنسان» يجب أن تكون مبادئ العقل الحقيقية إذاً موضوع خشيتنا وبحثنا إن أمكن. في التحقيق في بعض إنجازات الذكاء الإنساني المألوفة جداً - الاستخدام العادي للغة، مثلاً - نندهش على الفور بطبيعته الإبداعية، بطبيعة الإبداع الحر ضمن منظومة من القواعد. (مشاكل المعرفة والحرية ص٤٦)

هذا مبدأ تشومسكاوي مرشد. اليوم، في الخامسة والسبعين من عمره، يحافظ بتماسك لافت على المقاربة الرحيمة فكرياً وأخلاقياً التي يتضمنها هذا المبدأ، المقترن (برأيي) مع تواضع بارز في وجه الطبيعة اللامتناهية للمهمة الشاقة المبذولة في البحث عن المعرفة وفهم العالم. هو نفسه قال إن الولع الفلسفي في الفطرة المتأصلة ليست شيئاً جديداً في الحقيقة وتعود أصولها إلى مئات كثيرة من السنين في الماضي مع فلاسفة كديكارت مثلاً.

كان قلقه المهيمن الصادق - العنصر المتأصل في تشومسكي، إن أحببتم - فضوله حول أعمال العقل البشري الجوهرية العضوية دائماً ويكمن السعي المثمر إلى عملية نقدية وتركيب الفهم في لب نشاطاته

الدنيوية في اللغويات وفي التعليق السياسي. دخل المظهر السياسي اللعبة باهتمام قوي لكنه ثانوي أساساً في الحرية وما يجعلها ممكنة وهذا مستمد من تأثيرات ثقافية وأثنية وتعليمية أثناء نشأته وشبابه في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

أضاف إلى هذا مسؤولية أخلاقية ملحوظة بأن استغل الفطنة القلقة التي وهب بها بشكل مثمر في انحياز عميق ضد التمييز في المعاملة والاعتداء القسري بأي شكل واستعداد للإعتراف بالخطأ وهذا ما جعلني أميل أساساً إلى إعطائه مكاناً في صف طويل من الفلاسفة الوطنيين المنشقين المزعجين الجسورين الباحثين. كان بيرتراند راسل سلفه الأقرب والأبرز في دنيا البحث والاستعلام الفلسفي وفي مراتب مذهب الفعالية المعادي للحروب (ربما ليسا متزامنين) وهناك صورة فوتوغرافية كبيرة للفيلسوف الكبير في مكتب تشومسكي في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا.

هذا التفسير يساعدنا أيضاً في تبرير التضارب والشكوك (البعض يقول الخواء) في نتاج تشومسكي حين تصل الأمور إلى مسائل ذات جوهر سياسي واقتصادي وهو كفرد ليس لديه أجوبة حول كيفية تغيير العالم مثلاً (من لديه؟) حتى لو فكر بذلك كثيراً وحتى لو كان قادراً بشكل لامع أن يكشف الخداع والرياء الكامن وراء الدفاعات الكلامية البيروقراطية والأكاديمية عن المغامرات الأميركية والإمبريالية الأخرى. ما قاله عن بيرتراند راسل في محاضرته الثانية في ١٩٧١ ينطبق إلى حد كبير عليه (تشومسكي) نفسه في ٢٠٠٤:

«مقاربة راسل لهذا المدى من المواضيع (الإشتراكية التحررية، قوة الدولة المركزة وكيف نحقق حرية حقيقة أو ديمقراطية) تبدو لي معقولة بشكل بارز، لكن و- بعد نصف قرن من المأساة - لازالت بعيدة عن التحقق كما كانت دائماً». (تشومسكي مشاكل المعرفة والحرية ص ٥٣).

٣ - اللغويات والغريزة اللغوية

صنع تشومسكي شهرته في مجال اللغويات رغم حقيقة، باعترافه، أنه دخل المجال صدفة تقريباً بسبب معلمه الذي كان يشاركه اهتماماته السياسية. لقد أهمل الكثير من المعلقين هذه المنطقة بدافع الاحترام المغفل لتخصصه أو اعتبروها معقدة جداً وغامضة لكنها برأيي تحتاج إلى فهم عموماً ومن الضروري أن يتبع ذلك برؤية مبسطة عادية لهذا الموضوع تبين أن هذا المجال وإسهام تشومسكي به، ليس غامضاً كما أُظهر أحياناً وأنه وثيق الصلة برؤيته عن العالم وكتاباته السياسية.

في عمله الأكاديمي في اللغويات، طور تشومسكي قناعته في إمكانية الإنسان الفطرية ومقدرته الإبداعية إلى نظرية شاملة. بدلاً من النظريات التجريبية المتحيزة، طور وقوى فكرة - فلسفية أكثر منها لغوية - بوجود صفات متأصلة (حتى بيولوجية) للعقل تمكننا من توليد قواعد نحوية واستخدام للغة دون ضرورة تعلمها كلها أولاً.

في عمله هذا ناقض تشومسكي المفهوم الميكانيكي بأننا نبدأ مثل صفحة ورق بيضاء تماماً تعمل عليها مؤثرات العوامل البيئية والمعلمون والمهندسون الاجتماعيون والثقافة لتشكل الكائن الإنساني الناتج. ضمن هذا بقوة في مقاله المعنون بـ« علم النفس والايديولوجيا » تدمير شهير على نحو صحيح لحجج عالم السلوك ذي النفوذ الكبير بي اف سكينر، الذي أشهر أعماله بعنوان «أبعد من الحرية والكرامة» ١٩٧٢ .

النحو التوليدي وتأصل الغريزة اللغوية وطدا حضوراً مؤسساتياً قوياً وخصوصاً في التعليم العالي الأمريكي، وهناك اتفاق عالمي دون شك بفضائل ومزايا النظرية التشومسكية في هذا الميدان. استمر النقاش حول ما أخذه أو لم يأخذه من أسلافه ال زيليغ هاريس وقضايا مماثلة أثيرت فيما يتعلق بتأثير أو عدم تأثير تشومسكي على الذين أتوا من بعده. اتهم البعض من أمثال جيفري سامبسون من جامعة ساسيكس،

تشومسكي في بناء نظرياته على الرمل وتحدى كثير من اللغويين الآخرين مضامين عمل تشومسكي وناقشوها.

بالطبع والإيمان، أنا شخصياً أتعاطف مع الخيار التشومسكي في الفطرية لكني أرى أن العوامل التجريبية مثل الثقافة والبيئة تلعب دوراً بشكل واضح حتى في اكتساب اللغة: هذا لا ينفي في الواقع الإمكانية والحقيقة الفعلية لنظرية المقدرة التوليدية الفطرية الشاملة في العقل البشري. الحقيقة أنه بعد خمسين سنة تقريباً من «الثورة التشومسكية اللغوية» وكثير من التنقيات للنظريات الأصيلة، القضايا الأساسية في النقاش القديم الذي عمره مئات السنين (الطبيعة ضد التنشئة والقدرات الفطرية ضد التأثيرات البيئية، معرفة مسبقة ضد نتائج بحثية تجريبية) لا تزال نشطة وبلا حل كما كانت دائماً.

الأكثر من ذلك أن القضايا اكتسبت إلحاحاً جديداً أكبر في عصر تلوح في أفقه مشاهد الاستنساخ والهندسة البيولوجية أو التحكم في الكائنات البشرية التي حولت الكرامة الإنسانية والحرية إلى سخرية تامة. أعتقد أن تشومسكي سيقول (وأنا أتفق معه) أن هذا المشهد المزعج والمشوش يجعل الأهم من كل شيء القتال من أجل الإنسانية الفطرية وتوضيحها ضد هؤلاء الذين سوف يستعبدوننا بتحويلنا إلى آلات مع درجات مختلفة متنوعة من الإستجابة للمحرض الخارجي أو لأوامر نتلقاها بواسطة رقاقات بالغة الصغر مزروعة تحت الجلد.

«الإهتمام بكيف تتحقق الكرامة الإنسانية والحرية والمحافظة عليهما، ينقلنا إلى مملكة فلسفة العقل وفهم نظامه وعمله. سوف يكون إرث تشومسكي جوهرياً وطويل الأمد في هذه المناطق باعتقادي».

اللغوي البارز سير جون ليونز قام بهذا التقييم في دراسته في عام ١٩٧٠:

«ما يقوله تشومسكي أن السبب الأهم للاهتمام في الدراسة العلمية للغة وبشكل أخص في النحو التوليدي، لما له من إسهام في صنع فهمنا للعملية العقلية». جون لينز، تشومسكي، ١٩٧٠.

٤ - تحليل العمليات العقلية وفوائدها.

يعتبر تشومسكي عموماً رجلاً من اليسار السياسي وتعاطفه المبكر والمستمر مع الأفكار التحررية اليسارية والأفكار الفوضوية لا يزال بدون شك ينفر هؤلاء الذين يضعون أنفسهم بشكل انعكاسي في اليمين السياسي ومؤخراً حتى اليسار الليبرالي الخير الفضولي انقلب ضده أيضاً، بسبب آرائه المعادية للحرب بالدرجة الأولى. مثل الكثير من المعادين للحرب، نجح في إزعاج الناس من اليمين واليسار على السواء ولم يكن مفاجئاً أن ينعت أيضاً بالمعادي لأميركا والمعادي لإسرائيل في فترة ما بعد ١١ سبتمبر.

آراء تشومسكي حول إسرائيل لم تتبدل منذ أربعينيات القرن العشرين لكنها رغم ذلك تجذب له الكثير من الخصومة. قبل عام ١٩٤٨ أيد فكرة تشكيل دولة ديمقراطية لليهود والعرب كليهما في فلسطين بدلا من دولة يهودية. لم يكن هذا موقفاً سائداً وسط اليهود الصهاينة لكنه كان يعتبر مقبولاً للنقاش لكن اليوم في الولايات المتحدة، أي حديث كهذا عن دولة ديمقراطية علمانية يعتبر عدائياً للصهيونية رغم أن للحديث أنصاراً في إسرائيل نفسها حيث نقاش هذه القضايا الآن بات مفتوحاً وصريحاً أكثر من الولايات المتحدة.

أصل العداء نحو تشومسكي لا يكمن في طابع يصفه كـ«يسار» و«يمين» فالمدافعون عن الحكومة في كل مكان يتهمون بشكل ثابت المناوئين لممارسة الدولة الاحتكار الإقليمي للعنف باللاوطنيين وإنما يكمن في قدرته البارزة وإرادته غير المشكوك فيها لقول الحقيقة للسلطة في مجال التدخل في البلدان الأخرى والسيطرة على الشعوب الخاضعة ولتشريح العملية النفسية التي تكمن تحت الدعاية ومكائد المدافعين عن سلطة الدولة - أياً كان الجهاز السياسي أو الاثني الذي يهللون منه.

في مقالته المعنونة «هل تشومسكي يكره أمريكا؟» (عكساً لما تقرؤه في مكان آخر)، تشومسكي لا يكره أمريكا كما كتب غانكارسكي:

«سيكون تشومسكي الأول الذي يوافق أن ما نقوله ليس مهماً في شروط التغيير السياسي الحقيقي المؤثر... [هو يلتزم] بـ«نظرية توظيف» السياسة التي ترى أن كل فعل سياسي هادف يصل دائماً إلى معارك بين تحالفات متبدلة من المستثمرين المتنافسين على السيطرة على الدولة واحتكارها للعنف».

ما تكرهه تلك التحالفات من «المستثمرين» (عصابات الساعين إلى السلطة) وأذيالهم المتملقين أكثر من أي شيء آخر أن تُكشف نواياهم ودعايتهم وتُعرض حقيقتهم: وبرأيي تكمن براعة تشومسكي الأساسية في فعل ذلك، في العمل النفسي من التحليل وكشف الأقنعة التي تحت البنى والعمليات. إنه تهكمي إلى حد ما في ضوء عدائه العام لكل أشياء مابعد الحداثة، جعلته مقدرته المتأصلة على فهم العملية سيداً في تفكيك اللغة والنصوص ومكنته من كشف الافتراضات غير المفندة والتضارب الذي تحتويه وبسبب مشاركاته الوجدانية الفوضوية المبكرة، مارس هذه المهارة بشكل خاص في تفكيك لغة الدولة الإدارية العدوانية والمدافعين عنها في الأكاديميات ووسائل الإعلام الجماهيرية.

لذلك ليس من المفاجئ أن تعتبر وسائل الإعلام السائدة اليوم تشومسكي رجلاً خطيراً في استضافته في مقابلات ومناظرات فقد جذب الكثير جداً من الخصومة في رأيي بسبب فعاليته المؤثرة بالضبط في هذه الميادين النفسية ولأنه طبق مقاربة متماسكة أخلاقياً في فحص قضايا السياسة الخارجية المزعجة والأحداث التي يفضل الكثيرون أن لا يعرفوا عنها شيئاً أو ببساطة لا يستطيعون التعامل معها لكن هناك آخرون يرفضون تلك المقاربة لأنها ضد أجندتهم السياسية أو الاجتماعية الخاصة. حول الموضوع الأخير هذا أنا انصح بقوة الكتاب الذي لا غنى عنه الذي صدر عام ١٩٨٨ الذي ألفه بالاشتراك مع ادوارد هيرمان، تصنيع الإجماع - الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام الجماهيرية (طبعة منقحة ٢٠٠٢).

٥ - المقالات النقدية لتشومسكي

هناك مقالات ناقدة كثيرة لتشومسكي، بعضها نفيس. ناقشت تلك التي تطبق في مجال اللغويات. مجالات أخرى اعتبرها أدنى تتعلق بعلم الاقتصاد والسياسة (الفرق بين اليمين واليسار في مذهب التحررية على الخصوص) ونظرية المؤامرة. أخيراً، ألقيت نظرة على ما سمي المناوئون لتشومسكي، الذين طوروا أشكالاً بغيضة جداً من هرس تشومسكي وتحويله إلى تسلية صحفية كاملة اونلاين.

٦ - اقتصاد تشومسكي

قام جيمس اوستروفسكي بأفضل انتقاد شامل للطبيعة الطوباوية لأفكار تشومسكي في مقالته في ٢٠٠٣ المعنونة «اقتصادات تشومسكي» فكتب:

«يتطلب الاقتصاد دراسة وتفكيراً منظماً لمضامين الفعل والخيار والملكية في عالم من الندرة. إنه علم يرسم الحدود القصوى التي يستطيع العقل البشري التجول فيها حين يفكر بالمجتمع الذي يمكن أن يكون والذي يجب أن يكون. هذا أحد الأسباب التي تجعل المفكرين حتى العظماء منهم يبذلون جهدهم لتجنب دراسة الاقتصاد وبدلاً من ذلك يتعلقون بخيالات مثل الاشتراكية والنقابية».

ويقتبس تشومسكي حين قال مرة، «يفترض أن يكون لعلم الاقتصاد قوانين أنا لا أستطيع فهمها». هذا يحدد بدقة جهلاً متعمداً بالمسائل الاقتصادية على ما يبدو. أنا لا أجد هذا مفاجئاً في سياق اهتمامات تشومسكي الفكرية لكن كما توضح بمرور الوقت، إنه (الاقتصاد) قيد تطبيق أفكاره (تشومسكي) على العالم الحقيقي وإحداث أي تبدلات جوهرية في ذلك العالم.

٧- تشومسكي ومذهب التحررية

أولاً، تفسير وجيز. التوصيف «تحرري» ادعى به «التحرريون اليساريون» و«التحرريون اليمنيون». التحرريون اليساريون والفوضويون اليساريون، ومن ضمنهم تشومسكي، يرون الاشتراكية التحررية (أو الفوضوية غير العدوانية، غير العنفية) ميراثاً حقيقياً لليبرالية التقليدية بينما يميل الرأسماليون الفوضويون والتحرريون من اليمين بسبب تركيزهم على الاقتصادات لرؤية «الاشتراكية التحررية» بأنها تناقض في المصطلحات: بالنسبة لهم، التحرري مناقض عارض تماماً للتعاوني والاشتراكية بالتعريف تعاونية.

جزء من المشكلة يكمن في تعريف اليسار واليمين للاشتراكية. لكن، يكفي أن نفهم أن تلك المشادات بين اليسار واليمين حول الاستخدام الصحيح لكلمات «تحرري» و«اشتراكي» تنزع إلى توليد سوء فهم القضايا والتشويش. في الحقيقة، هناك أرضية مشتركة كبيرة بين التحررية اليسارية واليمينية، وبالدرجة الأولى معارضة سلطة الدولة والحرب. عرف تشومسكي هذا في السابق وأقره.

«أنا نفسي في اتفاق أساسي مع الناس الذين يعتبرون أنفسهم رأسماليين فوضويين في صنف كامل من القضايا ولعدد من السنوات، كنت قادراً أن اكتب في صحفهم فقط وأنا معجب أيضاً بالتزامهم في العقلانية - وهذا نادر». نعوم تشومسكي في مقابلة بعنوان «نعوم تشومسكي عن الفوضوية» ديسمبر / كانون أول ١٩٩٦ .

لكن بنفس السياق يتابع تشومسكي قائلاً، « ... لا أظن أنهم يرون عواقب المذاهب التي يناصرونها أو نواقصهم الأخلاقية العميقة». هنا هو يشير إلى عجز الرأسماليين الفوضويين المزعوم على الاعتراف بأن تركز القوى الخاصة (كما وجد، مثلاً، في الشركات الأمريكية الكبيرة المتعددة القومية) يمكن أن يكون سيئاً بل أسوأ من السلطة القسرية

للدولة. بالقدر الذي اهتم به تشومسكي، هذا هو العنصر الإضافي في الإنسانوي الحاسم في تفضيله، لأشكال يسارية من الفوضوية بدلاً من الفوضوية اليمينية أو الرأسمالية الفوضوية.

المشكلة مع هذه المقاربة، كما أشار النقاد، أنها تنتج تأييداً اعتباطياً واضحاً لفعل الدولة العدواني القسري، في أوضاع يحتسب فيها فعل الدولة أقل الشرين. يعتقد تشومسكي انه في مثل هذه المؤسسات تستطيع الدولة ويجب أن تتصرف كنفوذ كابح لكي تضبط «اتلافات النظام الشركاتي الرأسمالي المنفلت،» تعبير نموذجي استخدمه في مقابلة حديثة. لهذا السبب كني بـ«الفوضوي القسري»، كتب جوي بيكوت في تركز السلطة الاقتصادية بيد الدولة عند تشومسكي:

يبني تشومسكي تأييده للحكومة الفيدرالية على جداله أن القوة الخاصة المستخدمة بواسطة الشركات اخطر بكثير على الناس من فعل الدولة. وأن الحكومة تستطيع ويجب أن تحمي مواطنيها العزل ضد نهب وسلب الرأسماليين. إن قوة الشركات الخاصة في الولايات المتحدة مخيفة ومستبدة في الحقيقة، وتتواجد هذه القوة لأن هذه الشركات تدعمها الدولة، نقطة يسلم بها تشومسكي.

يستطيع المرء رؤية جوليان سانشيز وهو يبدأ مقالته «هتافان للتشومسكية»: «التحرريون لا يفترض بهم أن يحبوا نعوم تشومسكي». تشومسكي يرفض غافلاً الرؤية التحررية «اليمينية» المفسرة، لموراي روثبارد مثلاً، «من أجل حرية جديدة» كـ«عالم مليء بالكره لدرجة لا يريد أي كائن بشري العيش فيه.... عالم بني على الكره، سيئ، لا يستحق حتى الحديث عنه..... انحراف أمريكي خاص، إنه ليس خطيراً في الحقيقة». ومع ذلك، كما يشير، هو «توبيخ لاذع أقرب إلى التحرريين [اليمينيين] مما يجرؤ هو أو أتباعه على الاعتراف به». أليس هذا لأن الرفض النهائي لم يكن لرأس المال نفسه وإنما للشركاتية التي يتقرب

بعض الرأسماليون تحتها من الدولة، مستنبطين الاحتكارات والإعانات المالية وتشويهات أخرى من السوق الحر الحقيقي بينما يستحوذ آخرون على الجهاز والمقدرة الهجومية للدولة ليتلاعبوا بالأسواق لخدمتهم؟

النتيجة النهائية لكل هذا أن كل واحد يستطيع القول عن شكل سياسة تشومسكي بيقين أنه مناوئ للدولة أم لا في غالب الأوقات. هذا ليس مرضياً لأي واحد يبحث عن موقف واضح وإيجابي أو رجل قشة ليستسلم، لكنه مفهوم حين يدرك أن تشومسكي لن يتبنى أي موقف سياسي خاص وأشك أنه يكترث كثيراً إن حكم عليه كفوضوي أم لا أم إن فهم قوانين علم الاقتصاد: اهتمامه الأساسي والنهائي في العملية والبنية. الحقائق التجريبية مهمة له طبعاً، لكن مثل أي مجادل حقيقي، هو انتقائي في اختياره لتلك الحقائق. أن يظل يُنتقد بسبب هذا دلالة على المدى الذي لا يزال يسود فيه الإيمان بالمرغوبية في الحيادية الإيجابية والتوازن في التحليل الاجتماعي السياسي. تشومسكي يشجب ضمناً هذه الفكرة في كل أعماله: بالنسبة له، يفترض الموضوعية والتوازن قناعاً يكمن بأساس إيديولوجيات الهيمنة والانحياز.

٨ - تشومسكي ونظرية المؤامرة

تذمر مشترك آخر ضد تشومسكي أنه يقر أي شيء سوى الروايات الرسمية لقصص اغتيال (جي اف كي) و١١ سبتمبر (ويبدو بيرل هاربور). يستطيع المرء أن يجادل أن هذا خيار سياسي لكني أعتقد أنه جزء مع تفضيله العام للفطرية على الاستقرائية، اقترن مع الحاجة إلى ضمان مستوى أدنى من الأمن الشخصي في حياته المهنية، بعبارة أخرى بقاء بسيط لشخص يتحدى بشكل مستمر الافتراضات التقليدية.

في الوقت الذي كان فيه تشومسكي مهتماً في التحقيق في اغتيال جي اف كي، رفض هذا الاحتمال وتبنى الموقف الرسمي أن «بندقة واحدة فعلتها»، في الدرجة الأولى على أساس أن التحقيق في كل البدائل

لـن يـؤدي إلى أي مكـان مفيـد . هـذا الموقـف يتفـادى تقليـدياً الـصراع مـع القوى التي ستأتي - صراع رآه تشومسكي غير ضروري وعقيم. من أجل هذا، انتقد بقوة. مايكل بارينتي كتب فيما يتعلق باغتيال جي اف كي:

«ظل تشومسكي متجاهلاً جبلاً من الأدلة عن تصميم «التي تكشفت عمداً»، وقدر أن يُبقي نقده كما لو أنه لم ينكشف أي دليل موثوق....... الشيء اللافت حول [هؤلاء] اليساريين الذين يهاجمون نتائج تحقيق المؤامرة الكندية أنهم ظلوا جاهلين بالتحقيقات الحاسمة التي نفذت. أشرت بشكل متكرر في سجالات معهم ولم ينكروها . لم يقرؤوا أياً من الدراسات الكثيرة لباحثين مستقلين قرنوا السي آي ايه في مؤامرة قتل الرئيس وحتى في مؤامرة مطولة وشاملة لتغطية الجريمة لكن هذا لم يمنعهم من رفض تهمة المؤامرة في الشروط العامة وغير المثبتة». مايكل بارينتي، حقائق قذرة، الفصل الثالث.

آخرون يرون رفض تشومسكي للحفر في البحث عن الحقيقة العميقة كجزء من ظاهرة «البواب اليساري»، إحدى تجلياتها الإنكار النفسي (وراء تلك الحالات التي تشمل الخوف من الإساءة الكامنة للكفلاء الماليين). اوغست ويست، كتب في مقالة بعنوان «إنكار اليسار لـ ١١ سبتمبر» عام ٢٠٠٢ عن السبب الذي يجعل اليسار يبدو قابلاً بالحقيقة الرسمية:

«يكمن الإنكار في قلب رد فعل اليسار غير العادي فقد نظر كثير من الناشطين إلى الأسئلة لكنهم لم يكترثوا إلا قليلاً بالأجوبة وتقهقروا مرعوبين في وجه المضامين. لو كان للحكومة معرفة مسبقة وتركت الهجمات تحدث، أو أسوأ، شاركت في تسهيلها في الواقع، إذا الدولة الأميركية أشد شراً مما يمكن أن يتخيلوه. وإن كان كذلك، ما الذي سيحدث لهم إن تلفظوا بهذا؟ هذا سيرفع مخاطر العمل السياسي بشكل كبير جداً إلى أبعد من المستوى السطحي الذي يعمل فيه الكثير من اليساريين حتى».

كتابات المناوئين لتشومسكي

أغلب موادهم غير جديرة بالتعليق الجاد لولا الأثر السام الذي تسببه على الرأي العام الراهن في أمريكا والطبيعة الحاقدة لهجومهم الشخصي على تشومسكي. من بين تلك المادة التي طرحها اليساري السابق والمحافظ الجديد الآن الكاتب ديفيد ديرشويتز الذي اتهم تشومسكي بأنه يمتلك «عقلاً مريضاً» والمدافع عن التشويه المشهور آلان ديرشويتز والأستاذ في هارفارد فيرنر كوهن وصفا تشومسكي بنعوت مبتذلة «معادي للأمريكيين» و«معادي للساميين» والكثير غيرهما. فيرنر كوهن في كتابه الصادر عام ١٩٩٥، شركاء في الكره، يلطخ تشومسكي أيضاً بتهمة كونه ناكراً للمحرقة. هذا التشويه يجب أن يكون تهكمياً بنحو خاص ومزعجاً لتشومسكي الذي كمراهق جرب وعانى مباشرة من التحامل الحقيقي والصحيح المؤسف المعادي لليهود الذي ابتلت به أميركا في ثلاثينيات القرن العشرين.

شارك ديفيد هوروفيتز في تحرير مجموعة من المقالات التي تهاجم تشومسكي سميت «ذا انتي شومسكي ريدر» (القارئ المعادي لتشومسكي - المترجم) عنوان صمم ليردد صدى ويرد على «تشومسكي ريدر - قارئ تشومسكي» الذي صدر عام ١٩٨٣. ظهر أيضاً موقع الكتروني سمي «دياري اف انتي تشومسكيات - سجل الكتابات المناوئة لتشومسكي - المترجم» الذي أعلن عن نفسه بكونه «مكرساً للتشكيك الدائم والتام بأعمال نعوم تشومسكي ورفاقه المرتحلين».

بعض من هذا النقد والتعليق بذيء، وقيمته أتفه من تكذيب هؤلاء الذين ينقلونه أو لإرضاء تحامل رفاقهم من مثيري الحرب. أغلبه صيغ في عبارات الوسط الإيديولوجي السائد للنظام العالمي الجديد: الحرب على الإرهاب. الأمر لا يحتاج إلى عبقري ليرى أصول ودوافع مثل تلك العقائد. الشوفونيون غير المتحفظين، من أمثال «بلادي صح أو خطأ»،

الذين بالنسبة لهم حرية التعبير الوحيدة المسموح بها هي حرية نوع الكلام الذي يحبونه، ومن بين هؤلاء من ينظر بانزعاج واستياء إلى تحليل عملياتهم العقلية وكشف ادعاءاتهم، إن كانت تلك الافتراضات زائفة كما هي غالباً، أو صادقة وحسنة النية. لسوء الحظ، في الحالة الأخيرة، قد تكون أسوأ في تأثيراتها من الأكاذيب السافرة والرياء وهما المطلوبان اليوم في سياسة الحرب على الإرهاب.

استنتاجات

إن التحرريين متعاطفون مع مأزق المفكرين والأكاديميين الذين رفضوا المنصب أو نفيوا ونبذوا بسبب آرائهم. كان نعوم تشومسكي محظوظاً بأنه ليس في ذلك الوضع، ووصفه جوليان سانشيز بشكل شبه ساخر بـ«الفوضوي المثبت في منصبه» لكنه أحياناً يقترب كثيراً من وضع أسوأ: كما لاحظ كاتب السير روبرت بارسكي، لقد هُدد مرة بإمكانية مدد طويلة من الحبس وأمر ريتشارد نيكسون بوضعه في قائمة الأعداء وأخمد أحد كتبه بقوة من قبل ناشر أمريكي (عنف الثورة المضادة) رغم الجمهور العالمي الهائل لأحاديثه وكتبه لقد تعرض تاريخياً للارتياب وتجنبته وسائل الإعلام الجماهيرية.

بالنسبة لكل مخاوفه وثوراناته من سلب النظام الرأسمالي له تشومسكي كمكون أفكار ومؤلف ناجح تحقق كتبه أعلى المبيعات وفي كلام نيويورك تايمز الدعائي المضخم «ربما أهم مفكر على قيد الحياة» أتجرؤ أن أقول، التجسيد الحي لقصة نجاح السوق الحر في نشر الكتب. الناس يريدون أن يسمعوا ما يجب عليه أن يقوله.

رغم ذلك تبقى الحقيقة أن تشومسكي مفكر منعزل بسبب تماسك آراءه المناوئة للحرب والتزامه الذي لا يتزعزع بالعقلانية ورفضه العنيد للتسويات والحلول الوسط وقد أدرك هذا منذ زمن طويل:

نظراً لأن الصوت المهيمن في أي مجتمع هو صوت المستفيدين من الوضع القائم، «المفكر المبعد» الذي يحاول أن يسلك المسار العادي من البحث الصادق - قد يسقط في خطأ على الطريق - وبهذا يجد نفسه غالباً يتحدى الحكمة التقليدية، ويميل إلى أن يكون شخصية منعزلة. نعوم تشومسكي، «وظيفة الجامعة في زمن الأزمة» ص ٩١.

أخيراً، بسبب مناخ الخوف الذي أصبح سائداً إثر أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ليس صدفة أن يصبح جدل تشومسكي العنيف برهاناً أكبر وأهم في السنوات الثلاثة الأخيرة وربما أكثر من وقت آخر منذ أواخر ستينيات القرن العشرين ونهاية حرب فيتنام. بارتفاع طوفان حطام الوطنية الزائفة الذي ولده تجار الحروب الحكوميون من أجل الحرب على الإرهاب، لهذا انبثق تشومسكي ثانية في النشر رغم عمره، على الانترنت ومن خلال الكلمة المحكية - ليحدد ويدك أساطير وزارة الأمن القومي ويحاول مرة أخرى قلب مد الدعاية والبهتان. ❖روبرت اف براسكي، حياة منشق، ام أي تي بريس، ١٩٧٧.

غرين كالاهان، فوضويو الملكية الخاصة والاشتراكيون الفوضويون: هل نستطيع المجاراة؟ انتي ستيت دوت كوم — ٢٢ يناير ٢٠٠٣.

كيفين كارسون، الباغية مرة باغية دائماً: هوروفيتز، تشومسكي والايديويولوجيا المحافظة الجديدة. انتي ستيت دوت كوم - ٢٣يناير ٢٠٠٣.

غوريلا نيوز نيتورك، السيطرة أم البقاء - قابلة تشومسي في جي ان ان ٢٠٠٣.

كريس نايت، نعوم تشومسكي: سياسة أم علم، ما التالي؟ مجلة النقاش الماركسي العدد ٢٦ (٢٠٠٣).

بيتر مارشال، طلب المستحيل: تاريخ الفوضوية، خصوصاً الفصل ٣٦ «اليمين الجديد والراسمالية الفوضوية» لندن فونتانا بريس ١٩٩٣.

ويندي ماكايلوري، الفوضوية: نوعان، ميسيز دوت اورغ. ١٣ ديسمبر ١٩٩٩.

كيث بريستون، المحافظية لا تكفي. ذا ايدليك – ٢٤ تموز ٢٠٠٣.

كيث بريستون، تعليب اليسارية الرجعية، ذا ايدليك – ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣.

مارك ار، اين المكان الذي لم يطف فيه نعوم: تشومسكي منشق محصور اونلاين بلا تاريخ.

جولين سانشيز، هل الرأسمالية قسرية موقع المؤلف اونلاين بلا تاريخ؟

جوزيف سترومبيرغ، علم اجتماعي، كاملوت وشرور أخرى من نصف القرن الأمريكي، ليوروكويل دوت كوم - ١١ يوليو ٢٠٠٢.

لا يزال نعوم تشومسكي حانقاً وهو في الـ٧٦

الان تايلور - صندي هيرالد

٢٠ مارس / آذار ٢٠٠٥

في طريقي للقاء تشومسكي في بوسطن، التقطت نسخة من ذا اميركان بروسبيكت، كان غلافها يصور رسمين كاريكاتيريين متشابكين لنائب الرئيس دك تشيني وتشومسكي: الرجل لقب من قبل بونو «ايلفيس الأكاديميات». عرض تشيني كثور مشهور في محل خزف عالمي، وصور تشومسكي بواسطة «مجلة الفكر الحر» هذه كصورة مصغرة عن المثالية المضللة الحمائمية. تشومسكي طبعاً معتاد جداً على مثل هذه الهجمات. ففي كل مقالة متخمة لأحد التابعين، تقصف عيوبه المدركة بصاروخ من معسكر العدو وتقوض سمعته، وتشوه بحوثه كلغوي وتكرر بيانات منزوعة من سياقاتها مشبعة بالتعصب.

لسمعته الحسنة، يضعها تشومسكي كلها على موقعه الالكتروني، إن كان وصف ذا نيويركر له بـ«محاسب الشيطان» و«واحد من أعظم العقول في القرن العشرين» أو ذا نيشن التي هجته بـ«نوع مألوف جداً من كتاب المقالات الذين يتقاضون أجوراً زهيدة عليها» وسيرته «نتاج مركب من ترقية الذات وتعسف العيابين وغش اكتشافاته». واتهم بتأكيده أن كل رؤساء الولايات المتحدة من فرانكلين دي روزفلت يجب أن يتهموا كمجرمي حرب؛ وبتأييده لجرائم نظام بول بوت في كمبوديا؛ وتشبيهه لإسرائيل بالرايخ الثالث (الإمبراطورية الألمانية الثالثة - المترجم).

تترك هارفارد بقرميدها الأحمر خلفك، حيث بدأ الثلج في الذوبان أخيراً، لتدخل إلى ملكية عقارية صناعية واسعة «معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا»، حيث يعمل تشومسكي أستاذاً للغات الحديثة واللغويات

منذ عام ١٩٧٦ وموطناً لأكثر من ١٠ آلاف طالب، يدفع كل واحد منهم حوالي ٥٠ ألف دولار في السنة لمنحه الدراسة في مصنع أمريكا للأفكار كما نعت.

تشومسكي البالغ الـ٧٦ من عمره المتقاعد فنياً، يقيم في جناح من المكاتب التي تفيض بالترجمات الأجنبية لكتبه وبصحف أكاديمية مغبرة. صورة للفيلسوف البريطاني بيرتراند راسل علقت فوق الباب، كصورة للبابا تزين مكتب القس. الأستاذ، يقول بوابه، ذهب ليتمشى، لكنه سيعود قريباً، إن استطاع أن يجد طريق العودة إلى البيت. من الظاهر أنه يستكشف حتى اليوم مساراً تحت الأرض لم يرسم على الخريطة في الحرم الجامعي.

سمح لي بالدخول إلى مكتبه الذي بدا وكأنه تعرض للسطو فقد تكومت الأوراق عالياً وتبعثرت في كل مكان على كل سطح متاح. على إحدى الطاولات صور لأحفاده. تشومسكي، الذي تزوج من نفس المرأة لأكثر من نصف قرن، لديه ثلاثة أطفال ابنتان واحدة منهما تعمل لدى اوكسفام، والأخرى معلمة - وابن، مهندس برمجيات. حين ظهر أخيراً، أخبرت أن ساعتي المخصصة تقلصت بشكل سحري إلى ٤٥ دقيقة فقد اصطف المقابلون مثل طائرات على مدرج بانتظار الإقلاع وأخبرت «لا تعتبر الأمر شخصياً».

تذكرت تشومسكي في زيارته عام ١٩٩٠ إلى اسكتلندا حين تكلم عن «حق تقرير المصير والقوة» في معهد بيرس في غوفان، غلاسكو. «يجب أن تذكروني بموضوع المحاضرة» قال تشومسكي. هذه لا تبدو بداية واعدة. ذكرته أنه قادم إلى ادنبره ليلقي محاضرة غيفورد. «أعرف ذلك» قال بنزق نوعاً ما. «لكن من أنت».

تشومسكي ضيق الصدر تماماً، صوته مخفف وهش. احتفظ بشعره المموج الذي ارتمى فوق أذنيه ويلبس زي الأكاديميين غير الدارين

بالموضة، حفاية سوداء وجوارب بيضاء وبنطال قطني أزرق وسترة تشبه ستر المتاجر الخيرية يبدو لبعض المقابلين كساخر ويائس لكن بعضهم الآخر، منهم أنا، يجدونه درزة - طبقة من الفكاهة المقتضبة تحت سلوك جدي مكبوت ومقيد. حين يبدأ بالمشي ينسى غالباً أن يتوقف، في أثناء ساعتنا التي قصرت كانت مقاطعته بصعوبة رسالة الملكة في عيد الميلاد.

لكن من الصعب أن تعرف من أين ستبدأ مع تشومسكي الذي أمضى أكثر من خمسين سنة في معهد ماساشوسيتس وألف عشرات الكتب وعدداً لا يحصى من المقالات فقد أشارت إليه نيتشر بكونه في نفس منزلة داروين وديكارت ووسط أنداده المعاصرين كاينشتاين وبيكاسو وفرويد ومن الواضح أن شكسبير والكتاب المقدس فقط الوحيدان اللذان استشهد بأقوالهما في المنشورات الأكاديمية أكثر من تشومسكي كما أن تأثيره مرعب بالمثل فقد شمل أجيالاً من طلبة الإعلام وأمثالهم كجون بليجر وهارولد بينتر ونعومي كلاين وجيمس كيلمان.

«لو كان لدى تشومسكي موضوع تخصص»، كتب كليمان، «لجادل البعض أنه ليس اللغويات ولا فلسفة اللغة وإنما سياسة الولايات المتحدة العالمية، مع إشارة خاصة إلى نشر كل المعرفة ذات الصلة».

لا يتفق كل نصراء تشومسكي المتحمسون مع كليمان فقد تمنى البعض، مثل المؤلف وكاتب العمود بول جونسون، لو أنه اكتفى باللغويات ولم يحشر أنفه في السياسية. خلال دراسته للغات وبالخصوص النحو يعود الفضل لتشومسكي بتحويل الطريقة التي تعلم بها اللغات الأجنبية بواسطة نظرية «القواعد الكونية» و«أحدث ثورة في رؤيتنا للعقل» ويشار إلى العديد من كتبه، بما فيها البنى النحوية ونظرية النحو التي نشرت في ١٩٥٧ و١٩٦٥ بالتتالي كوثائق جوهرية لكن منالها صعبٌ على الرجل العامي العادي.

في ذلك الوقت كان كتابه تصنيع الإجماع، الذي كتب بالاشتراك مع ادوارد هيرمان في ١٩٨٨ على قائمة قراءة كل صحفي مبتدئ. تشومسكي شكاك الشكاكين، يعتقد أن الطبيعة الحقيقية لدور الولايات المتحدة في العالم شُوهت وأخفيت عن الشعب الأمريكي بواسطة نخبة وسائل الإعلام المملوكة من قبل الشركات ونواب الحكومة الفدرالية الذين يحمون مصالح التجار لكي ينتخبوا مرة أخرى أو يحتفظوا بوظائفهم في الحكومة.

رغم أنه أيد على مضض حملة الديمقراطي جون كيري الرئاسية الفاشلة في نوفمبر الماضي، فإن تشومسكي ليس جمهورياً ولا ديمقراطياً. من منظوره، ليس هناك الكثير لتختاره بينهما؛ كلاهما «حزبان للتجار».

نبدأ بالحديث عن القطعة المنشورة في «ذا اميركان بروسبيكت». إنها الصحيفة التي يسمونها بشكل متواضع «اليسار المحتشم» يقول وهو ينز بالاحتقار «إنها ديمقراطية اجتماعية معتدلة وترى نفسها محصنة. أنت تعرف، العالق بين قوتين جبارتين تسحقانه. الأولى ديك تشيني، ممثلاً للبيت الأبيض والبنتاغون، واحدة من أشد القوى نفوذاً في التاريخ، والأخرى – قوة مساوية ومعاكسة – هي أنا. هل تعتقد أن أي مفكر أو أكاديمي قط نال مثل هذا المديح؟ أقصد، أنها طريقة أبعد من جائزة نوبل. جعلت شخصاً يضعها على الموقع الالكتروني. إنها تخبرك شيئاً عن مواقفهم. هم أناس صغار مثيرون للشفقة ومرعوبون وجبناء».

المتع أنني لم ألحظ ظهور اسمه في أي مكان في القطعة رغم وجود وجهه على غلاف المجلة. «أوه، لا، لا لا»، قال تشومسكي، مكشراً بسبب سذاجتي، «أنت لا تستطيع ذكره» لا تستطيع ذكر أي شيء. لا تستطيع قراءة أي شيء. كل ما تستطيع فعله أن تنقل أخبار الإشاعات لهذا تسمع إشاعة تقول أنني كنت أفضل بول بوت أو أؤيد أسامة بن لادن. أنا

مع [سلوبدان] ميلوسيفتش ثم تقرأ الخبر في حفلة عشاء لذلك يجب أن يكون حقيقة. مقابلتي السابقة تعمل فيلماً وثائقياً عن فلسطين أساساً؛ لقد حصلت لتوها على درجة الدكتوراه من جامعة نيويورك؛ أخبرتني أنه لو حدث وذكرت اسمي أمام أعضاء الهيئة التدريسية فإنهم سينهارون من الفزع عملياً. الفكرة أن تعتبر أي شيء لي مخيفاً جداً ولا يمكن أن يحدث وهذه قاعدة ولا تستطيع التفكير به لأنه خطير جداً أو لا تستطيع النظر إلى الرأي العام وتأمله. يجب عليك أن ترى الرأي العام.

قبل الانتخابات الرئاسية في نوفمبر الماضي، قال، أهم مؤسستين لرصد الموقف الشعبي العام في أميركا - البرنامج عن مواقف السياسة الدولية ومجلس شيكاغو حول العلاقات الأجنبية نشرتا دراسات بينت أن كلا الحزبين السياسيين والميديا (وسائل الإعلام) وما أسماه «اليسار المحتشم» أبعد كثيراً إلى اليمين من الشعب الأمريكي في أغلب القضايا. «أنا صحيح في التيار السائد»، يقول تشومسكي. «وطبعاً، لم تنقل الحقائق الرئيسية فقد أخمدت. وفي الواقع لم ينقل هذان التقريران إلا في صحيفتين في البلاد وافتتاحيتين. هكذا الأمر. في كل البلاد. أهم المعلومات الممكنة قبل الانتخابات مباشرة».

بينت التقارير أن الجمهور الأمريكي يعارض بقوة استخدام القوة إلا في شروط وثيقة الأمم المتحدة، وفي وجه الهجوم الوشيك. «الشعب يريد الأمم المتحدة وليس الولايات المتحدة أن تتسلم القيادة في الأزمات العالمية»، يقول تشومسكي. «ذلك يشمل إعادة البناء والأمن وهلم جرا في العراق. غالبية من الشعب في الواقع تفضل تخلي الولايات المتحدة عن الفيتو في الأمم المتحدة وبهذا تستطيع الولايات المتحدة السير مع الأغلبية. أغلبية ساحقة تؤيد بروتوكول كيوتو. في الحقيقة، لذلك منتخبو بوش زعموا بحماس أنه كان مع البروتوكول لأنه الشيء الصحيح الذي يجب فعله».

نفس الأغلبية تؤيد الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية. غالبية واسعة من السكان تعتبرها قضية أخلاقية بالنسبة للحكومة أن تقدم رعاية صحيحة لكل شخص. الشعب أبعد إلى اليسار من أي شيء في المؤسسة.

جاءت الانتخابات وعانى الشعب من وهم هائل. لم يفهموا ماذا يمثل المرشحان وكانوا يقترعون على مجرد تخيلات. «الانتخابات تديرها صناعة العلاقات العامة؛ نفس الفتيان الذين يبيعون معاجين الأسنان» القضايا لم تسجل على الرادار. «أنت لم تتحدث عما يمثله المرشحان، ما لديك هو جون كيري يصيد البط ويركب دراجته النارية وجورج بوش يتظاهر بأنه فتى من النوع البسيط، يقطع الأخشاب... ويعتني بقطيعه.... ويلعب الغولف؟»

وهل يلعب الغولف؟

لا، كلا. لا تدفع ذلك كثيراً جداً. يفترض به أن يكون فتى عادياً. ألق نظرة عليه! أكمامه مشمرة ويستعد للعودة إلى المزرعة. أنت لا تقدمه وتعرضه كما هو: «غلام أخوية ملوث من ييل لولا والديه لم يصل إلى أي منصب».

يشك المرء أن يستطيع تشومسكي الاستمرار في هذا المزاج والدوار. لا يزال حتى الآن في عمر يفضل فيه أغلب الناس أن يكونوا في مجمع فلوريدا بدلاً من التشابك بالقرون مع المؤسسة، لكنه يصر على خبط الأبواب المغلقة برأسه. في الولايات المتحدة، هو أشبه بمنبوذ أو نبي، «نوع من العراف المعاصر» حسب ما يراه كاتب سيرته روبرت براسكي.

«على عكس الكثير من اليساريين في جيله»، يقول براسكي، «لم يغازل أبداً حركات أو منظمات تبين لاحقاً أنها استبدادية وقمعية وضد الثورات ونخبوية... لديه القليل جداً الذي يأسف عليه. عمله في الحقيقة، يحتوي على أدق التحليلات في عصره».

لا أحد يستطيع إنكار التزام تشومسكي بالحقيقة. كان والده باحثاً باللغة العبرية هاجر من أوكرانيا إلى الولايات المتحدة في عام ١٩١٣ ليتجنب سوقه إلى الجيش. والدته كانت أيضاً باحثة في اللغة العبرية تكتب كتب الأطفال. ولد تشومسكي في فيلادلفيا في ١٩٢٨ ونضجه المبكر تغذى في مدرسة ابتدائية تجريبية. قبل العاشرة، كان يصحح الأخطاء المطبعية لنسخة والده في النحو العبري في القرن الثالث عشر، ويكتب عن ظهور الفاشية في اسبانيا في مجلة مدرسته. كفتى في سن المراهقة كان يأخذ القطار من فيلادلفيا إلى نيويورك ليزور عمه، الذي لديه محل لبيع الصحف ووجهة نظر سياسية متقلبة. «أولاً كان من أتباع تروتسكي» يقول تشومسكي «بعد ذلك كان من المعادين لتروتسكي. تعلم بنفسه أيضاً الكثير جداً عن فرويد وانتهى كمحلل نفسي غير اكليريكي في شقة فوق السطح».

في جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا، قابل تشومسكي معلمه الخاص الأستاذ الجامعي لمادة اللغويات والناشط السياسي، زيليغ هاريس الذي أقنعه بعدم ترك دراسته وبالعدول عن الذهاب إلى إسرائيل حيث كانت تتشكل الدولة الجديدة. في عام ١٩٦٥ في ندوة في معهد ماساشوسيتس التكنولوجي حول نظرية المعلومات، قدم تشومسكي ورقة أسقطت حكمة اللغويات التقليدية. «قال لغويون آخرون إن اللغة لديها كل الدقة الشكلية للرياضيات»، قال جورج ميلر، عالم نفسي كان وسط الحضور، «لكن تشومسكي كان اللغوي الأول الذي حقق هذا الادعاء».

خلال حياته، حافظ تشومسكي على اهتماماته المزدوجة في السياسة واللغويات لكن الأولى هي من استهلكت طاقاته في السنين الأخيرة وأعطته هذه الصورة الشعبية العامة. حين يتكلم، تصطف الحشود بالألوف ففي السويد، تحول مكان الدعوة من قاعة صغيرة إلى ملعب لكرة القدم. الطلبات التي رفضها أكثر من التي قبلها. نادراً ما

وافق على الظهور في تلفزيون أمريكي، لأنه - كما أشهد - لم يقبل التكلم بوجبات صوتيه مختصرة. النقاش الصحيح والمناسب يتطلب وقتاً يسمح للحجج والآراء بالتطور.

«يمكنك الظهور على التلفزيون فقط إن كان لديك إيجاز» هو يقول. «ذلك يعني أنك تستطيع قول شيء ما بين إعلانين تجاريين. هذه تقنية رهيبة من الدعاية. في المناسبات النادرة حين يطلب مني الظهور على التلفزيون، أرفض عادة لهذا السبب. لو كنت ستسأل سؤالاً عن الإرهاب مثلاً، فإنك تعطى ثلاث جمل بين الإعلانيين التجاريين، لديك خياران. يمكنك تكرار الإيديولوجية التقليدية - تقول، نعم إيران تدعم الإرهاب. أو انك تبدو مثل شخص قادم من نبتون. تستطيع القول، نعم الولايات المتحدة واحدة من الدول الإرهابية الرئيسية. للناس الحق أن يتساءلوا عما تقصد. وإن كانت قناة تلفزيونية عاقلة - كالجزيرة مثلاً - تستطيع التحدث عنه وشرح ما تقصده. لا يسمح لك فعل ذلك في الولايات المتحدة».

من حين لآخر يشكك المرء بأن تشومسكي يحتج كثيراً. كغيره من «المنشقين، مثل الزميلين الأمريكيين مايكل مور وغور يمكنه أن يتشكى من سلطة الإعلام المهيمنة ومن الحكومة لكنه لا يستطيع التشكي بأنه حُوّل إلى أبكم. في الواقع، هذه الأيام الانترنت سلاح فعال في عدته. لا يمكن أن يكون الشخص الحي المستشهد بأقواله الأكثر في العالم ويُهمش بنفس الوقت».

لكن هناك شك قليل، رصده الذي لا يفتر للميديا الأميركية وربيبته الأصلية في متجنسي واشنطن دي سي جعله خصماً فصيحاً وهائلاً وبالنتيجة، شخصاً غير مقبول في بعض الأماكن. عموماً، هو يعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن تبقى خارج شؤون الدول الأخرى. حكومة بوش، يقول، لا تؤمن بالديمقراطية إلا حين تخدم المصالح الأمريكية.

نفس الفتيان الذين دعموا قمع صدام حسين الوحشي للشيعة أمروا بغزو العراق.

هو في ذروة فيضانه، سحق بول ولفويتز، مهندس الحرب على العراق والمرشح الأمريكي لرئاسة البنك الدولي، واسقط توني بلير كنفاية - «أعتقد أن هتلر كان يؤمن بما كان يقوله أيضاً» - واسترجع كيف، في عام ١٩٨٥ أعلن رونالد ريغان حالة طوارئ وطنية لأنه ظن أن نيكاراغوا على وشك الزحف العسكري على تكساس، حين دست مساعدته (تشومسكي) رأسها قرب بابه وقالت ساعتي المكونة من خمس وأربعين دقيقة انتهت. في طريق الخروج لفت تشومسكي انتباهي إلى صورة زيتية غولية مخبأة خلف خزانة أضابير.

«إنها اختبار رهيب للشخصية والذكاء» قال متوعداً. «حين اسأل أناس من أميركا الشمالية ماذا تكون (الصورة)، لا أحد يعرف. حين أسأل أناس من أميركا الجنوبية، الكل يعرفون. إن سألت أناس من أوروبا، ربما ١٠٪ يعرفون. ماذا تكون، هي لرئيس الأساقفة روميرو في الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لاغتياله [في السلفادور]، ستة من المفكرين الأمريكيين اللاتينيين - اليسوعيين - قتلوا، كلهم بيد قوات النخبة المسلحة والمدربة من قبل الولايات المتحدة الذين قتلوا أيضاً ٧٠ ألف شخص آخر. لا أحد يعرف شيئاً عنهم.

«افترض أن ذلك حدث في تشيكوسلوفاكيا. لو أن الروس قتلوا رئيس أساقفة وقتلوا [فاكلاف] هافل ونصف دزينة من مساعديه هل كنا سنعرف عن ذلك؟ ربما كنا قصفناهم بالسلاح النووي. لكن حين نفعلها نحن، فهي لا وجود لها. إنها تذكرني بالعالم».

الحقيقة يجب أن تروى

دومينيكو باشيتي – الغارديان

١٨ أبريل / نيسان ٢٠٠٠

اعتاد اللغوي والفيلسوف الأمريكي نعوم تشومسكي على سكون تلال توسكان ومعتزله الاختياري كيرتوزا دي بونتيغنانمو المنعزل الذي يطل على سينا وهو دير كارثوسي من القرن الثالث عشر مرمّم، الآن تستخدمه الجامعة كمركز حصري للمؤتمرات العالمية. حين أرشدنا عبر الأروقة إلى غرفة استقبال تزين جدرانها لوحات زيتية فائقة الجمال، باح أن الصمت المهيب ملائم لطبيعته الزاهدة ومساعدة للتفكير الجاد.

سألت تشومسكي كيف يرى حال الحرية الأكاديمية والسعي وراء الحقيقة في الجامعات فرد قائلاً: لم يعط الطلاب التشجيع الكافي لتحدي افتراضات أساتذتهم الأساسية والإطار المثبت مسبقاً لموضوعهم. كما وافق أن الوضع في إيطاليا على وجه الخصوص محزن لكنه أشار إلى أن هذا صحيح بالمنظور الأمريكي، في كل الجامعات الأوروبية عموماً بما فيها بريطانيا لكنه أكد أن بريطانيا أقرب إلى الولايات المتحدة منها إلى القارة في هذا المجال.

لا تزال أوروبا القارية بنية استبدادية في نظام الجامعات، مع علاقات احترام / سلطة متجذرة في النماذج الثقافية. لاحظت ذلك باندهاش حين كنت اعلم في جامعة أكسفورد. في الكلية التي كنت أعيش فيها كان هناك حادث حول رجل كان يخدم سيداً صغيراً والطريقة التي توقع أن يعامل بها لا يمكن تخيلها.

في الولايات المتحدة الفروق الطبقية لا تلاحظ عادة، لذلك أنت والفتى الذي يصلح لك سيارتك على قدم المساواة.

يروي قصة عن زميل في المعهد حين سئل من قبل طلابه ما الذي سيغطونه في مناهجهم رد أن ما يغطونه ليس مهماً وإنما ما يكتشفونه.

«تلك هي الطريقة التي يجب أن يعمل بها التعليم» يقول: «في مستوى الخريج في العلوم تلك هي الطريقة التي يجب أن تعمل. تفاعل بين الطلاب والهيئة التدريسية غير المستبدة كثيراً لأن أغلب الأفكار الجيدة تأتي من الطلاب».

أكاديميات التيار السائد، يتذمر تشومسكي تميل إلى مقاومة التغيير. أعتقد أنك رأيت الطريقة التي تطورت فيها اللغويات. لم تتطور في مراكز الأكاديميات الرئيسية لأنها كانت محافظة جداً. لا تريد أن تضايق - تريد ألا يتحدى أحد وجودها الآمن ولهذا ازدهرت اللغويات الأوروبية في فيينا وليس في السوروبون في فرنسا.

في هذا المكان الصغير خارج باريس كانوا يرسلون الطلاب الراديكاليين ليتخلصوا منهم، ولعدم اكتراث أحد بما يحدث هناك، كان العمل الإبداعي الخلاق ممكناً لكنه لم يخترق نظام الجامعات الفرنسية إلى هذا اليوم. ونفس الشيء تكرر في كل أنحاء العالم.

لكن التهديد الأكبر على الجامعات الأمريكية والأوروبية يفرضه الخضوع إلى سلطة خارجية. «الجامعات دائماً في حالة من التوتر. في أفضل حالاتها، هي تحاول أن تحافظ على الاستقامة الفكرية لكنها لا تستطيع النجاة من واقع أنها تتطفل على قوى خارجية بشكل أساسي في شكل حكومة أو شركات خاصة. الضغوط الخارجية ستقوض بشكل واضح الاستقامة الفكرية وهكذا هي معركة مستمرة».

التمويل السخي جداً للمشاريع الطموحة جداً ثبت انه حقل اختصاص مميز للأكاديميات الأمريكية. بعد انتحار أوروبا في الحرب العالمية الثانية يشرح تشومسكي: «وجدت الولايات المتحدة نفسها بقوة وبمكانة غير مسبوقة مما أدى إلى الثقة، التي عبر عنها أولاً في

الخمسينيات ولا تزال إلى اليوم، أن الولايات المتحدة التي قهرت العالم، يستطيع علمائها الآن قهر الرائد الأخير - العقل البشري».

لقد أتممنا عقداً من برنامج «عقد الدماغ» المدعوم من مؤسسات رئيسية، وأصدر المؤتمر الختامي في الأكاديمية المتحدة للفنون والعلوم التصريح الواثق جداً أن مشكلة الجسد / العقل سوف تقهر قريباً وأن العقل سيصبح مفهوماً أخيراً.

حسناً، أخيراً، لا توجد مثل هذه المشكلة، لأنه لا يوجد مفهوم متماسك للجسد منذ اسحق نيوتن، لهذا لا يوجد شيء لقهره. وثانياً، الثقة وضعت في غير محلها تماماً لأننا لا نستطيع أن نفسر كيف يستطيع النظام البصري البشري تمييز الخط المستقيم حتى. الحقيقة لا تزال هناك فجوة هائلة بين الفهم الراهن والمظاهر العقلية للعالم الذي نحاول تفسيره.

رغم الثورة التي أحدثها تشومسكي في طريقة تفكيرنا باللغة والعقل وبالرغم من الرؤى الهامة والمقاربات التي أنتجت في نصف قرن من البحث المستمر، لازال يجد عمله يُنتقد بـ«العقلاني» ولذلك غير العلمي على أساس أنه لا يمكن أن يخفض إلى الفيزياء ويجادل أن الكيمياء لم يكن ممكناً تخفيضها إلى فيزياء لكن ذلك لم يجعلها غير علمية. بدلاً من ذلك، أعيد تشكيل الفيزياء لتقدر على الاندماج عملياً مع الكيمياء غير المتغيرة واقعياً.

يقول إن كثيراً من المفكرين الحديثين لم يفهموا المعنى الكامل لاكتشاف نيوتن للجاذبية. «إمكانية تأثير الأشياء دون لمسها فجر (سفاهة) الفيزيائية المادية». بات من الشائع في السنوات الأخيرة السخرية من «شبح ديكارت في الآلة» بافتراض العقل كشيء متميز عن الجسد. حسناً، جاء نيوتن ولم يطرد الشبح في الآلة: طرد الآلة وترك

الشبح سليماً. لهذا ترك الشبح الآن والآلة لم تعد هناك. والعقل له خصائص غامضة.

«شعوري أن دراسة للتاريخ الفعلي للعلوم الحديثة ستكون مكوناً مفيداً جداً لأي منهاج جامعي».

يعترف تشومسكي بتكشيرة عريضة أن هذه الآراء أكسبت مقاربته الاسم التجاري «عقلية ام أي تي» وسط زملائه. لكن لماذا تملك فكرة أن العالم مؤلف من أجساد وعقول سيطرة قوية على الناس ولماذا يُخدع الكثير جداً من الأكاديميين بالإيمان بأوهام حول الفيزيائي الذي فهم في حد ذاته منذ ٢٠٠سنة؟

حتى الآن نحن نتكلم عن واقع، لكن الآن سيكون عن التخمين والتأمل. تخميني أن عقليتنا الحدسية هي بشكل أو آخر مزدوجة أساساً. افترض أنك تنظر إلى الشمس التي تغيب فوق المحيط. أنت تعرف نظرية النسبية في العالم، لكنك لا تزال ترى الشمس تغيب في الماء. ولو كان القمر قريباً من الأفق، لا يمكنك تفادي رؤيته على انه أكبر مما لو كان عالياً في السماء.

لهذا أين كل ذلك يترك الحقيقة، حجر الزاوية في البحث الأكاديمي؟ هل هناك جواب حاسم للسؤال: ما هي الحقيقة؟ هناك جواب، يقول تشومسكي، «لكن إن استطعنا أن نجده أم لا مسألة أخرى. الحالة الإنسانية هي كذلك أننا نستطيع أن نخرج بأفضل تخمين لنا لما هو حقيقي. نحن مخلوقات عضوية ولدينا قصورنا وقيودنا. يجب أن نرى العالم من وجهة نظر خاصة بسبب الطريقة التي بنينا عليها.

ولكننا أيضاً مخلوقات تأملية، لهذا نستطيع أن نفكر ملياً بنواقصنا ونحاول قهرها. ذلك ما حدث في الثورة النيوتنية. كان عليهم أن يفكروا في عجز الحس العام، في الذكاء العادي لفهم طبيعة العالم والنظر إليه من وجهة نظر مختلفة. والشيء نفسه مع كل وجودنا. نستطيع أن

نستخدم مواردنا بشكل خلاق وناقد بأقصى ما نستطيع لنحاول قهر مناظرينا الخاصة التي تأتي من طبيعتنا. لكن إن كنا سنفوز بالحقيقة أم لا هذه مسألة أخرى».

في الوقت الحالي، برنامج تشومسكي المعتدل الجديد في اللغويات يسأل بأي جودة صممت المقدرة اللغوية الإنسانية على تنفيذ وظائفها الجوهرية. مع حذف قواعد النحو المعقدة لصالح المبادئ الأساسية، يشعر أنه جرى التعلم حول اللغة في العشرين سنة الأخيرة أكثر من الألفي سنة السابقة. المشكلة، يقول، إن ما نعرفه بشكل حدسي يبدو أبعد من الذي نستطيع فهمه بشكل عقلي.

تشومسكي الآخر

تاكيس ميكاس - وول ستريت جورنال
٤ نوفمبر ٢٠٠٥

قدمت الصحيفة البريطانية الشهرية بروسبيكت لقرائها مؤخراً قائمة بالمفكرين المشهورين وطلبت منهم أن يختاروا رقم ١ وكان على تلك القائمة كريستوفر هيتشينز ونيال فيرغسون ودانييل دينيت واومبيرتو ايكو وبيرنارد لويس وهلم جرا لكن المقترعين اختاروا اللغوي والناقد الاجتماعي نعوم تشومسكي.

المفاجأة الصغيرة هنا في أوروبا في هذه الأيام، أن القسم المسيس الأكبر من حياة العامة هو اليسار «الصلب» والسيد تشومسكي هو بطله. من الجانب الآخر من الأطلنطي وعلى الجانب الآخر من الطيف الإيديولوجي، سيقابل بالتأكيد «نصره» في السباق ليكون المفكر الأهم في عصرنا بضحكات السخرية.

إن اليسار الأوروبي يحبه لنفس السبب الذي يكرهه من أجله اليمين: آراؤه حول السياسة الخارجية، الناقدة بشكل قاس للولايات المتحدة وإسرائيل. في عيون اليسار السيد تشومسكي بطل المضطهدين الذين يعانون في «النظام العالمي النيوليبرالي» الذي تؤيده حكومة الولايات المتحدة والشركات المتعددة الجنسية وفي عيون اليمين، لغوي معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا مدافع وقح عن كاسترو وبول بوت وأي طاغية من العالم الثالث عموماً أو أي إرهابي من الشرق الأوسط يعشق كره الولايات المتحدة.

من المخزي ألا يلفت الانتباه من تشومسكي سوى محاضراته المملة الطنانة ضد الولايات المتحدة فلم يلق عمله الأساسي المعالجة الجدية

وأهملت المظاهر المتعة لفلسفته السياسية التي لا يمكن حصرها ببساطة في ثنائية اليسار واليمين.

ما يجعل :شومسكي فريداً في ذلك نقده للنظام الاقتصادي الرأسمالي هو انطلاقه من المفكرين الليبراليين الكلاسيكيين في عصر التنوير فأبطاله ليسوا لينين وماركس وإنما آدم سميث وفيلهيلم فون همبدولت فقد حاول أن يثبت أن السوق الحر التي تخيلها هؤلاء المفكرون لم يتحقق أبداً في العالم وبدلاً منه حصلنا على تواطؤ الدولة مع المصالح الخاصة وكرر إضافة إلى ذلك التأكيد بأن الهجمات على الديمقراطية وعلى السوق من قبل الشركات المتعددة الجنسية الكبيرة تحدث معاً وتسير يداً بيد. يزعم أن الأغنياء مقلداً – آدم سميث – متحمسون جداً لوعظ الفقراء بمنافع ضبط السوق بينما يدخرون لأنفسهم الحق بأن تنقذهم الدولة كلما ساءت الحال. كما قالها: «السوق الحر هو اشتراكية للغني. الأسواق للفقير وحماية الدولة للغني». لقد تكلم بإيجابية حول عمل الاقتصادي الليبرالي البيروفي هيرناندو دي سوتو الذي يرى أن مشكلة الفقر في العالم الثالث تتعلق بحقيقة أن الفقير عادة ينقصه حقوق ملكية محددة بشكل واضح.

كما أُهمل مظهر آخر لعمله السياسي من قبل الخصوم والنقاد على السواء وهو قتال السيد تشومسكي ضد القوى غير العقلانية التي تميل إلى السيطرة على الإنسانيات في الجامعات. رفضه للماركسية كـ«علم زائف» ديني مجرد من كل الحجج العلمية قضية أولى هائلة والقضية الأخرى إصراره أن «العلوم» الاجتماعية وعلم الاقتصاد لا يلبيان المعايير المنهجية التي تؤهلهما كعلوم ولهذا يجب التخلي عن زعم من هذا النوع.

لكن وطأة هجومه ادخرت لـ«ما بعد الحداثوية» الباريسية، التي اعتبرها تأليهاً للهراء غير العاقل ولم يتردد في اتهام بعض من الشخصيات الفرنسية الهامة جداً من «مابعد الحداثوية» «لاكان وفوكو» بـ«المشعوذين» و«الأميين» بينما وسم نصوصهم بـ«الطنانة» و«البربرة».

كان السيد تشومسكي قاسياً بشكل خاص على هؤلاء الذين حاولوا أن يشوهوا المسعى العلمي بنسبه وإلحاقه بأشياء أخرى أو بمحاولة إظهار أن العلم يخدم مصالح إيديولوجية «الجنس» أو «العرق». الفكرة الشاملة من «علم الذكر الأبيض» يذكرني بـ«الفيزياء اليهودية»؛ حين أقر ورقة علمية لا أستطيع أن أحكم إن كان مؤلفها ذكراً أبيضَ أم لا. كما استنكر السيد تشومسكي بشكل متكرر موقف اليسار الأكاديمي بإعلانه «أن مشروع عصر التنوير مات ويجب أن نتخلى عن أوهام العلم والعقلانية».

أحد المظاهر غير المقبولة في أعمال تشومسكي: ميله لتبني معايير مزدوجة، فضحها حول قضية الحرية الأكاديمية. تأمل موقفه من الدراسات الأكاديمية حول «حقيقة» المحرقة والروابط بين العرق والذكاء. في الموقف الأول يجادل أن للمؤرخ الحق في استكشاف وحتى تغيير حقيقة المحرقة بالإضافة إلى ذلك فإنه يقصي نفسه بلا شرط تماماً من أساليب ومكتشفات المؤرخين المعدلين لكنه بنفس الوقت يجادل أن الشك في حقيقة حدوث غرف الغاز والإبادة الجماعية لليهود في ألمانيا الهتلرية لا يشكل بحد ذاته عملاً معادياً للسامية.

لكنه من جانب آخر، فشل في تبني مقاربة ليبرالية مماثلة للعمل على العرق والذكاء وشكك بصراحة بمبرر وجود تلك المواقف، زاعماً أن التكاليف الاجتماعية لاكتشاف الروابط بين الصفات العرقية والذكاء تفوق كثيراً الفضائل العلمية لأي تقصي من هذا النوع.

يستحق السيد تشومسكي قراءة أكثر جدية ودقة مما فعل نقاده ومؤيدوه. لسوء الحظ كتاباته استخدمت لتسجيل نقاط سهلة في مناظرات لاذعة وحاقدة هدفها ليس التنوير أو الفهم. من أجل هذا يقع اللوم أيضاً على السيد تشومسكي الذي يعزز مكانته الأيقونية لعالم اليسار.

القارئ المعادي لتشومسكي
يواصل هجوماً على النمط السوفييتي

ميشال ليون – كورويكلي

١٣ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٥

وصف نعوم تشومسكي بنحو مميز كواحد من العقول العظيمة في زمننا. الأستاذ الجامعي في (ام أي تي) البالغ السادسة والسبعين أمضى حياته يدافع عن حقوق الإنسان واشتهر أيضاً لعمله في اللغويات. لكن تشومسكي شتم من الجناح اليميني ولم يكن ترحيب ليبراليي التيار السائد أفضل. خطيئته المميتة: التأكيد أن سياسات الدولة ينبغي أن تدعم حقوق الإنسان والسلام دائماً. إحدى الحقائق البديهية التي يجب ألا تحرض الخلاف هو مبدأ الشمولية - الكونية: يجب أن نطبق على أنفسنا نفس المعايير التي نطبقها على الآخرين - في الحقيقة، معايير أكثر صرامة، يكتب تشومسكي (خليج تايمز، ٦ أغسطس/ آب ٢٠٠٤).

والآن يأتي انتي تشومسكي ريدر (انكاونتر بوكس، ٢٠٠٤) فقد طوع رئيسا التحرير هورويتز وبيتر كولير مقتطفات مفادها «توفير... رد وترياق لملايين الكلمات التي قذف بها نعوم تشومسكي».

يهاجم الكاتبان تشومسكي شخصياً وبحماس شديد لدرجة «طموح المحررين في مشروع اغتيال شخصية يصل إلى درجة بسبب حماقة ازدرائهما للرجل تشعرك بالأسف ليس على تشومسكي لكن على هذه الإيديولوجيات المنغصة. انتي تشومسكي ريدر ملوث في ضباب كثيف من الإيديولوجية اليمينية القاسية المثيرة للاشمئزاز، قصير في حقائقه المثبتة وطويل في تأكيداته الإيديولوجية التي لا تصدق».

تأمل «تبرئة الديكتاتورية في فيتنام الشيوعية وكمبوديا» لستيفان جي موريس الذي كتب فيه أن كتابة تشومسكي محاولة «لإعادة بناء

إيديولوجيا مضادة لليسار الجديد وهي أيضاً إعادة الكتابة الأشمل لفترة من التاريخ المعاصر التي نشرت في مجتمع غير شمولي». (ص٨ - ٩)

ينبغي على القارئ أن يفعل ما ينصحه به أي شخص عاقل ويقرأ المادة الأصلية. اقرأ الاقتصاد السياسي لحقوق الإنسان، المجلد الأول والثاني واقرأ فصل موريس من جديد، وسيكون لديك يومٌ مسلٍ.

أما بالنسبة لكل الافتراءات الشخصية الغريبة؛ فإنها لا تستحق الرد.

لم يكتفيا بصب هجمات دعائية زائفة على تحليلات تشومسكي السياسية، فبدأ المحرران بلغويات تشومسكي، وجندا خصوماً كتبوا أن لغوياته توضح «استخفافاً عميقاً وازدراء للحقيقة...».

هورويتز وكولير على السواء مثل مفوضين سوفييتيين عجوزين يأمران بنفي أحد الجاحدين بسبب عمله المضاد للثورة ومرضه الإيديولوجي.

حكم على تشومسكي بتهمة «عداءه الشديد للأمركة» لم يقصد هورويتز وكولير أن تشومسكي يعارض وثيقة الحقوق والأفكار الليبرالية الأصيلة للاستقلال. جريمة تشومسكي ليست التزامه بسياسة معينة وإيحائه للمواطنين أن يعلقوا على العيوب الملحوظة في سياسة الدولة.

لدى هورويتز وكولير الكثير من الرفقة. خذ الصحفي اندرو سوليفان. بعد ظهور تشومسكي على اتش بي أو «وقت مستقطع مع بيل ماهر» في ٥ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٤، الضيف سوليفان انفلت قائلاً: «إن الناس الذين يؤيدون الاتحاد السوفييتي، كما فعل تشومسكي منذ وقت طويل، لا يستحقون الاحترام الأساسي...».

كل من يقرأ تشومسكي يعرف ازدراءه للاتحاد السوفييتي. أرسلت لسوليفان رسالتين الكترونيتين ناسخا تشومسكي أتحداه فيهما في تلك النقطة.

بعد قراءة رسالة رد تشومسكي أتخيله ضاحكاً وهو يكتب عن الاتهامات من مستبدين معاصرين مشهورين:

أنا لا اعرف إن كنت مدركاً كم هو مضحك السطر الذي كتبته عن تأييدي لروسيا. دقيقتان من البحث ستبينان له أنني أكن عداءً قوياً للينينية خلال حياتي كلها، في الحقيقة منذ طفولتي. هو قد لا يعرف ذلك، لكن الكرملين يعرف بالتأكيد. كنت محرماً بالمطلق هناك، وكذلك منع مجالي المهني بأكمله [اللغويات]. لم استطع أن أرسل أوراقاً تقنية حتى إلى زملائي وأصدقائي في أوروبا الشرقية لأنها ستضعهم في ورطة. لم تكن هناك أي فرصة إلا بعد منتصف الثمانينيات. أحد الأسابيع المفضلة في حياتي كان في عام ١٩٨٠ حين تلقيت صحيفتين يوميتين تشجبانني بشدة بسبب عملي على النحو التوليدي: الأولى كانت ازفيزتيا تشجبه بأنه مضاد للثورة والأخرى كانت ارجنتينا لا برينسا (في ذروة الديكتاتورية النازية الجديدة العسكرية) تشجبه كعمل ثوري خطير جداً. كلهم متشابهون أساساً وسوليفان ينسجم مع ذلك الحشد مثلما انسجم هورويتز وكولير.

الحياة المزدوجة لنعوم تشومسكي

اليزابيث كونين. المجلة الشهرية هاندلزبالد
٦ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠٦

هو الشخص الأكثر الذي يستشهد بأقواله على ظهر الكوكب. نعوم تشومسكي يحيا حياتين مؤثرتين منفصلتين: واحدة كلغوي والأخرى كناشط في مجال حقوق الإنسان. في كلا الحياتين الردود التي يثيرها متقدة بشكل استثنائي – فهو يبدو أما رباً أو شيطاناً. مع ذلك لا يبحث تشومسكي عن المريدين. يريد من كل شخص أن يرى الأشياء بنفسه، أن يفكر ويحكم لوحده. في السابع من ديسمبر / كانون أول سيبلغ الخامسة والسبعين من عمره.

صوته لم يعلو أبداً في أفضل الأوقات لكنه اليوم ضئيل بشكل خاص. باتت فكرة أن تشومسكي لا يكل ولا يلين جزءاً من الأسطورة. هذه الرجل الذي وُسم بأشياء كثيرة – اينشتاين اللغويات، داروين عصرنا، أهم مفكر في العالم، المتطرف المعادي لأمريكا، زعيم طائفة فاتن – كلها فيه. لقد عاد لتوه من حقول الذرة في ايلينيوس، حيث تجمع حشد من آلاف الأشخاص ليستمعوا له هو يتكلم عن مواضيع تشمل الحرب في العراق. مع ذلك حتى هذا الوقت لديه مواعيد مكدسة الواحد تلو الآخر فحينما وصلت كان فريق تصوير سويسري لا يزال يحزم أمتعته وعندما دق مساعده باب مكتبه إشارة إلى انتهاء وقتي، كان الطالب الذي خلفي ينتظر دوره مسبقاً أن مساعده المرح بيف ستوهل حارس صارم في جدول مواعيده ولا يسمح لأي شخص أكثر من ساعة واحدة.

هذه هي الحال في هذه الأيام. «كانت السنتان الماضيتان، منذ ١١ سبتمبر، فظيعتين» قال تشومسكي بتنهد عميق. «كل ليلة أمضي ساعة

لأرفض الدعوات من أجل محاضرات ومقابلات». كل يوم يمضي ست أو سبع ساعات في الرد على بريده الالكتروني. لديه أيضاً على ما يبدو نهر متصل من الأوراق التي يكتبها وكتب جديدة أو منقحة له تنشر باستمرار التي ربت على أكثر من مئة كتاب الآن - لقد نسي العد - وهي تعكس الحياة المزدوجة التي يحياها منذ أكثر من أربعين سنة.

في الحياة الأولى هو الأستاذ الجامعي المشهور عالمياً من (ام أي تي) في كامبريدج، ماساشوسيتس، الذي بدل تماماً وجه اللغويات بتحويلها إلى بحث حول المقدرة الإنسانية اللغوية. آلاف كثيرة من الباحثين بعشرات البلدان هم الآن جزء من البحث، لكن تشومسكي لا يزال محورياً وقوة مرشدة.

حياته الثانية، حياة الناشط، إيجازها أصعب. ربما يمكن للمرء أن يعبر عنها بالقول أن تشومسكي يحلل ويعلق وقبل كل شيء ينتقد ظاهرة السلطة - سلطة الحكومة (خصوصاً في بلده، الولايات المتحدة) والتجارة ووسائل الإعلام. يجري مقارنات مع الماضي ويحافظ على مجاراته لأحدث التطورات، أمضى عقوداً يشرح كيف تعمل هذه القوى مؤكداً على تأثيرها الكارثي الدائم تقريباً على كافة السكان إن كانوا في فيتنام أو تركيا أو فلسطين أو تيمور الشرقية أو العراق أو أمريكا الوسطى أو أمريكا الشمالية أو أي مكان. المهم عنده الناس. حين سئل ماذا يسمي تشومسكي الآخر غير اللغوي، رد بشكل مراوغ إلى حد ما: «إنسان. الأشياء المهمة للناس هي التي تهمه. حقيقة أن البعض مهتمون بهذه الأشياء ليس مفاجئاً - ما يجب أن يُسأل هو لماذا لا يهتم كل واحد بذلك».

يؤكد تشومسكي دائماً على عدم وجود أي شيء مميز حول أغلب الأشياء التي يعرفها أو يفعلها وهو لا يعترف إلا بموهبة واحدة لا يمتلكها كل واحد: «أستطيع بسهولة الانتقال من موضوع لآخر، آياً كان، وأواصل

من حيث توقفت. مع الأصدقاء الذين لديهم نفس القدرة، أستطيع التقاط خيط النقاش بشكل دقيق وصحيح في نفس النقطة حتى لو كان بعد عشر سنوات». لكن على الرغم من هذه التركيبة من الذاكرة الحديدية الصلبة والقدرة التي يحسد عليها في التركيز فهي بالتأكيد لا تكفي لتفسير تأثير تشومسكي الهائل على تفكير وأفعال هذا العدد الكبير والمختلف من الناس في كل أنحاء العالم ولا تبرر حماس استجاباتهم له. في كلا حياتيه يثير عادة إما إعجاباً لا حدود له أو كرهاً حاداً. تشومسكي يكون إما رباً أو شيطاناً - لا تستطيع سوى قلة من الناس رؤيته بغير ذلك.

ليس هناك شيء لافت بشكل خاص حول زيّه أو مظهره. ما تراه رجلاً نحيلاً خجولاً نوعاً ما في كنزة صوفية. عمره في الخامسة والسبعين تقريباً. هو يرى ذلك ويحس به لكنه لا يعني الكثير له. حين يُسأل إن كان يحب أن تجري معه مقابلة لتعليم يوم ميلاده، يرد بالبريد الالكتروني: «٧٥؟ أخمن هكذا - لم أفكر بالأمر». رسمياً هو تقاعد منذ خمس سنوات لكنه لم يعرفه إلا نادراً. لا يزال يريح قدميه على الدرج السفلي من طاولة مكتبه المكتظ والمعطوب وحين يتحدث يداه تلعبان بشكل دائم بقصاصة ورق أو شيء صغير آخر. خيلاؤه الوحيد أن يقص شعره عند زوجته كارول قبل أن يُصور (يعرفها في كل حياته تقريباً، وتزوجا حين كانا في الـ٢١). مع ذلك حالما يفتح فمه تدرك لماذا هو مشهور جداً ورديء السمعة. تشومسكي يبدو عقلانياً يخاطب العقل وليس الوجدان ومنفصل لكن بنفس الوقت يسبر بعمق بموضوعه مهما كان وهو ملتزم. هو جدي بكل ما تعنيه الكلمة لكنه يفاجئك بابتسامة في لحظات غير متوقعة جداً. صوته ليس هادئاً فقط لكنه سريع بشكل لافت، صوت خطيب متمرس وبمستوى رفيع.

خلال محادثاتنا الثلاث سؤال واحد فقط بدا يوقفه في تسلسل أفكاره وجعله يفكر لأكثر من نصف ثانية. سألته إن كان يستطيع تذكر كيف أصبح مهتماً في العلم لأول مرة. ما تلاه اعتراف. «فعلت أشياء في حياتي أنا لست فخوراً بها»، قال «هناك شيء واحد لم أخبر به أحداً أبداً، ماعدا زوجتي على الأرجح. في الصف الثالث كان علينا أن نختار موضوعاً من أجل مشروع. لا أتذكر ماذا اخترت، الفلك أو شيئاً ما، لكن أياً كان، كان علينا أن نكتب مقالاً وأنا نسخت أغلبه من الموسوعة البريطانية. أول عمل لي في الانتحال. حسبته خطأ لكنني لم أخبر المعلمة التي أعتقد أنها اكتشفت ذلك».

لم يحرز درجة سيئة عليها أو حتى درجة جيدة. «لم نكن نعطى درجات» قال تشومسكي، الذي لازال فخوراً بـ«المدرسة الحرة» التي درس فيها في فيلادلفيا (حيث ترعرع). «لم أدرك أنني كنت تلميذاً جيداً إلى أن أصبحت في المدرسة الثانوية. القضية لم تظهر ببساطة. أعرف أنني تجاوزت صفاً مدرسياً، لكن ذلك لم يعنى لي إلا أنني كنت أصغر ولد في الصف الدراسي وكان علي أن أشتري التذاكر حين كنا نفر ونذهب إلى مركز البلدة إلى دور السينما، بما أنني كنت الوحيد الذي لازال يعتبر خطأ أنه في عمر العاشرة أو أي عمر كان».

لم يستيقظ اهتمام تشومسكي بالعلم فقط «حالما كبرت بما يكفي للذهاب بقطار الأنفاق، أنا وصديقي المفضل كنا نمضي مساءات كاملة في متحف العلوم، نضغط الأزرار وننظر إلى أشياء رائعة وغريبة» وإنما تعلم أيضاً أن اكتشاف أشياء بنفسك كان ممتعاً أكثر من تعلمها بكثير. اقتنع تماماً أن النظام المدرسي الذي يشجع التلاميذ على تتبع فضولهم بدلاً من ضغطهم وإجهادهم على الإنجاز سينتج عالماً مقبولاً أكثر ومختلفاً تماماً وناساً بمعرفة أفضل مما هم عليه الآن.

إلى هذا اليوم رسالته الوحيدة هي: شاهدوا واحكموا وقرروا بأنفسكم. هذه هي موهبة تشومسكي الخاصة: هو جيد جداً في التراجع إلى الخلف والتفكير حول ما يراه فعليا. لهذا السبب هو يسأل أسئلة لا يسألها الناس الآخرون. ليس صدفة أن يظهر المريخيون في كل شيء يكتبه، إن كان الموضوع اللغة أم السلطة. ما الذي سيراه المريخيون لو استطاعوا أن يراقبوننا من بعيد؟

سيرون شيئاً واحداً: أن كل الأطفال في كل أنحاء العالم يبدؤون بالتكلم حين يكونون في السادسة أو السابعة ويسيطرون على لغتهم أيا كانت حتى إنهم ليسوا مضطرين للذهاب إلى المدرسة مهما كانت الثقافة التي يعيشون فيها وسيستنتج المريخي أن البشر يملكون مقدرة فطرية للغات والمريخي الأكثر فضولاً يريد أن يعرف ماذا تكون تلك، ما هو المشترك بين هؤلاء البشر - بعبارة أخرى، كيف تبدو «قواعدهم الكونية».

من الصعب الآن تخيل أن هذه الفكرة أثارت غضب الناس. لعقود من الزمن كانت فكرة خلافية جداً. اللغة شيء بيولوجي؟ الطيور تنمي أجنحتها، الناس ينمون لغتهم، كما لازال تشومسكي يحب صياغتها؟ مستحيل - الأمر كله مسألة تنشئة وبيئة. لم تعد من المحرمات كما كانت في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، الاعتقاد أن أشياء كثيرة محددة ومقررة وراثياً، وبات مقبولاً الآن بشكل عام أن الدماغ البشري يملك كل أنواع الوظائف التخصصية.

هناك نزوع لنسيان أن تشومسكي فعل الكثير لتمهيد الطريق لـ«العلوم العصبية المعرفية» المزدهرة الآن، التي تكشف الكثير والكثير من وظائف دماغنا، أحدثها بمساعدة المعدات المبدعة التي تمكننا من النظر داخل الأدمغة الحية وهي تعمل. ذلك لم يكن وارداً في الأيام التي سيطر فيها العالم النفسي السلوكي الأميركي (بي اف سكينر) على المكان. من

بين أشياء أخرى، أصبح سكينر شهير العالم لتجاريه على الحمام الذي علمه أن يفعل كل أنواع الخدع المعقدة بمكافأتها بشكل ثابت حين تقوم بالعمل بنجاح. بهذه الطريقة يمكنك أن «تتحكم» بالسلوك ليكون الطريقة التي تريد تماماً. المبدأ الرئيسي للسلوكية - التي بدأت بكلاب بافلوف - كان هذا كافياً لتفسير كل السلوك. كان التعلم ببساطة مسألة فعل ورد فعل من حافز واستجابة. في عام ١٩٥٧ نشر سكينر كتابه السلوك الكلامي يفسر فيه، كما يشير العنوان، اللغة كمجرد شكل آخر من السلوك. قال، الأطفال كانوا يدربون بشكل فعال بنفس الطريقة تماماً كالحمام. تعلموا اللغة بتقليد آبائهم الذين كانوا يكافئونهم حين ينجحون - بالتشجيع والمديح. أخطاؤهم كانت تصحح بشكل ممنهج حتى يتوقفوا أخيراً عن ارتكابها. بمجرد أن يتعلموا اللغة، يعيشون بقية حياتهم في عالم مليء بـ«الحافز» الذي «يثير» استجابة كلامية.

مراجعة تشومسكي النقدية المدمرة لكتاب سكينر في عام ١٩٥٩ أعلنت نهاية السلوكية وانبثاق تشومسكي على المسرح العلمي العالمي ولا تزال الحجج التي قدمها آنذاك أساسية لعمله. إحدى أهم الخصائص المميزة للغة، قال، إن إمكانياتها لانهائية تماماً. حرفياً لا يمكنك أن تدرج في قائمة كل الجمل في لغة حتى لو حاولت - لأنك تستطيع دائما بدء جملة جديدة في وسط جملة أخرى وحتى بعد ذلك يمكنك إدخال كلمة إضافية. لا يوجد سؤال ذو حافز خاص ينتج استجابة ثابتة متنبئ بها. مثلاً، أحد يرى صورة يستطيع أن يقول أشياء مختلفة لا تحصى حولها - أو لاشيء إطلاقاً. إضافة لأن أي واحد يستطيع البدء بالحديث عن أي شيء يحبه ووقتما يحب، حتى عن شيء لا وجود له. فكرة أن كل الآباء يصححون دائماً، وثناؤهم على أولادهم غير صحيحة بشكل واضح، مع ذلك كل الأطفال - إلا إن كانوا يعانون من إعاقات قاسية - يتعلمون التكلم. ولا يمكن للتقليد أن يفسر لماذا كل الأطفال يرتكبون

نفس النوع من الأخطاء فيقولون مثلاً، sleeped وdrinked وsheeps وtooths - أشياء لا يمكن أنهم سمعوها من آبائهم لكنها توحي بأنهم فهموا القواعد الأساسية دون أن يدركوا الاستثناءات.

يبدأ التقدم العلمي غالباً بأحد ما يسأل ما يتبين أخيراً بعد التفكير فيه بأنه سؤال واضح تماماً. «ليس منذ زمن بعيد جداً، لم يتساءل أحد لماذا تسقط الكرة للأسفل بدلاً من الأعلى حين تتركها تسقط»، يقول تشومسكي. بدأ بطرح أسئلة حين كان يتابع دراسته للعبرية التي التقطها من والديه - مهاجران يهوديان من أوكرانيا وروسيا وصلا إلى أمريكا وهما صغيران وكانا عالمين بالعبرية. «أنا في الحقيقة ليست لدي أرضية إطلاقاً في اللغويات» يتذكر تشومسكي قائلاً. «عرفت شيئاً ما فقط عن قواعد السامية التاريخية لأنني قرأت عمل والدي عن عبرية القرون الوسطى. عثرت على تحليل بنيوي في الجامعة وبدأت بتطبيقه على العبرية الحديثة». البنيوية التي كانت التيار اللغوي الرئيسي في أميركا في ذلك الوقت، أنتجت أوصافاً مفصلة فونولوجية ومورفولوجية لأغلب اللغات.

لكن هذا ليس ما كان يسعى إليه تشومسكي. «ما أدهشني كان، لو دققت النظر بالمادة المفصلة التي كانت تقدم في التحليل البنيوي، تجدها عبارة عن جداول بالأساس». يقول في صوت ظل يظهر شيئاً من تلك الدهشة الأولية. «لكن لو أردت أن تنظر إلى تشكيل الأسئلة في لغة خاصة مثلاً، فليس هناك ما تجده تقريباً وهي من تلك الناحية كانت مثل النحو التقليدي تقريباً - تحتوي على وفرة من المعلومات لكنها تفترض مقدرة القارئ اللغوية. هو يعرف مسبقاً المبادئ، لمجرد كونه بشرياً، لهذا هو يملك فكرة جيدة تماماً لما تعنيه. هذه القواعد النحوية تخدم غرضاً، مثل المعاجم. تظن أنها تخبرك ما تعنيه الكلمات - حتى تريد أن تعرف معنى كلمة ما حقاً، لتكتشف بعد ذلك أن المعاجم لا

تعطي سوى تلميحات. هذه التلميحات كافية للأغراض العادية، لكن حتى شيء بسيط مثل كلمة «بقرة» في الحقيقة يبدو مفهوماً معقداً بشكل زائد والأسئلة المشوقة بشكل حقيقي لا تظهر إلا حينما تحاول أن تكتشف كيف ننجح في استخدام قواعد النحو التقليدي والمعاجم».

مثلاً، لماذا نقول أشياء بهذه الطريقة بدلاً من تلك الطريقة، أي جمل مقبولة وأي جمل غير مقبولة، ولماذا غير مقبولة؟ لماذا لا يمكن أن يكون «john» و«him» نفس الشخص في جملة مثل «John can see him». بينما يمكن ذلك في جملة «John asked who Peter could see him» لكن الأسئلة البسيطة لا تؤدي آلياً إلى إجابات بسيطة. في الحقيقة، إذا علمتنا اللغويات التشومسكية (المعروفة أفضل بالنحو التوليدي) أي شيء فهو أن مقدرتنا اللغوية أعقد وأبرع بكثير مما ظننا.

حتى تشومسكي استغرق بعض الوقت كي يستوعب هذا فقد ظل يحاول اكتشاف القوانين والمبادئ في اللغة العبرية، لكن لوقت طويل كان يعتقد أن هذا نوع من الهواية - حتى في أحد الأيام، بينما كان مريضاً بدوار البحر على متن سفينة في وسط الأطلنطي، أدرك في ومضة شهيرة من الإلهام أن هذا الخط الجانبي الخاص (العمل الإضافي) له كان الشيء الحقيقي في الواقع. أنتج فيما يسمى اليوم «النحو التوليدي الأولي» في العبرية وأخيراً جعل الناس الآخرين يهتموا به. بابتسامة عارفة يقول: «عكساً لعدد كبير من النظريات، الكثير من العمل المبكر الذي تم في القواعد التحويلية كان على لغات غير مألوفة، ليس على الإنكليزية. في الحقيقة، الفرضية الأولى كانت على اللغة التركية ثم الروسية والفرنسية تلتها اللغات الألمانية واليابانية وبعد ذلك كان من المستحيل تعقب الأثر. الأمر برمته انفجر، وكل جواب أنتج على الأقل خمسة أسئلة جديدة. لكن طرحت الأسئلة على الأقل أخيراً!»

تشومسكي نفسه لم يفقد الحماسة والإثارة اللتين أحدثتهما انطلاقة الثورة التشومسكية. لقد انتقلنا الآن إلى مراحل كثيرة لأن الإجابات على الأسئلة أدت إلى أسئلة جديدة وهلم جرا بشكل لا نهاية له وفي كل مرة كان منظر اللغة يتبدل وكذلك الإطار لرؤى جديدة. هؤلاء الذين يعرفون القصة بأي شكل لابد أنهم سمعوا أن «التحولات» مهدت الطريق «للمبادئ والحدود» التي كانت بدورها تستبدل بـ«بالحدود الدنيا». إن الوسائل والتقنيات المصاحبة معقدة وصعبة على الفهم. ربما هذا هو السبب الذي جعل الكثير من الناس يشعرون أن تشومسكي يظل يرمي بنظرياته من النافذة، ولاموه في الحقيقة على هذا. هذا جعله يضحك: «كم غريبة فكرة أنك لا تستطيع أبداً أن تبدل رأيك. لكنها عملية مستمرة - هذا ما يدور حوله العلم».

رغم ذلك ظل الكثير دون تغيير وتشومسكي هو الأول الذي أكد هذا. «حالما بدأنا في الخمسينيات عرفنا أنه إن وجدنا مبدأ فإنه سيصح لكل اللغات»، شرح. «يجب أن تكون هناك خطة إنشائية عامة للغة ولا يمكن أن تكون بكل ذلك التعقيد وإلا ليس هناك طريقة ممكنة للأولاد ليتعلموها. لكن لو أمعنت النظر في اللغة لرأيت ألغازاً كثيرة لانهاية لها، هذه الثروة من التفاصيل، وهذا التنوع والتعقيد يجعل من الصعب التوفيق بين الاثنين. لا يمكن أن يكون الأمر أن اللغة أعقد بكثير مما نظن فقط - يجب أن يكون هناك شيء بسيط جداً دائر بنفس الوقت. هذه مشكلة لازالت اللغويات لم تحلها».

لكن هناك أمل - يفكر تشومسكي كثيراً حول الأسئلة الأعمق والأبعد. «زملائي يعتقدون أنها فكرة غريبة»، يضحك، «لكنك تجد نفسك تتساءل إن كان النظام المعقد مبني على مبادئ تنظيمية قابلة للتطبيق، عموماً فإنها تولد بشكل آلي الكثير من الملامح التي نراها حين تُطبق على لغة. ربما تكون اللغة صدفة محضة طبعاً - لكنها يمكن أن

تكون نموذجاً واحداً عن ظاهرة عامة أخرى أيضاً». ما يريد قوله تشومسكي على ما يبدو، إن كانت الأنظمة المعقدة كلها معقدة بنفس الطريقة، إذاً السبب هو الخصائص المتنوعة لمقدرتنا اللغوية وليس شيئاً موروثاً في اللغة.

إن كان ذلك صحيحاً، فإن وصفنا «للقواعد الكونية» ليس أقل سطحية من الوصف التقليدي للغة، يضيف، لكن واضح من لهجته أن هذا لن يضايقه إطلاقاً. بعد ذلك وثب بشكل عفوي من هذه الفكرة إلى محاولة حذرة أولى للتفكير بتطور اللغة. رغم النظريات التي خرج بها الكثيرون عن الموضوع، إلا أن تشومسكي ظل بعيداً عنها وقد تعرض للوم دائم على هذا. لكن جوابه ظل نفسه دائماً: «مهما تقول عنها لا يمكن أن يكون أكثر من تخمين، خرافة. نحن لم نكن هناك حين ظهرت اللغة لأول مرة، ولم ينجُ أي تدوين كما أن أحدث الرؤى في مقدرتنا اللغوية لازالت لا توفر أي علامة أو دليل».

لكن يعتقد أخيراً أنه ربما وجد البدايات لمدخل. إن كانت المبادئ التنظيمية معلماً رئيسياً لقدرتنا اللغوية، فهذا يحد كثيراً الطرق الممكنة التي يمكن للغة أن تظهر بها ويفتح الباب لأسئلة نوعية ومحددة أكثر. «الآن أستطيع أن أروي خرافة من تأليفي»، يقول تشومسكي بتكشيرة تهكمية. لا يزال حذراً نوعاً ما حولها. «يبدو من الواضح أن شيئاً ما حدث لدماغ فصيلة الإنسان وأشباهه قبل خمسين أو ستين ألف سنة. كل نتائج البحث الأثرية تشير إلى ذلك التوجه. ويفترض أنه كان تبدلاً ثانوياً، لأن التطور يعمل بهذا الشكل». يعتقد أن الأفكار حول ما يمكن أن ينبثق من معرفتنا المتنامية للدماغ البشري ومن المقارنات مع أجناس أخرى كالقرود مثلاً: «ما ينقص القرود كما يبدو هو فكرتنا عن «اللاتناهي»، ليس في اللغة فقط وإنما في العد والحساب أيضاً. هي تستطيع أن تعد للثلاثة أو الأربعة أو الخمسة ثم تتوقف بعدها لكن نحن

نستطيع أن نواصل العد، بقولنا «زائد واحد» المرة تلو الأخرى. هذا يعرف بالعملية التكرارية. تبدأ بواحد زائد واحد ثم تضيف واحداً آخر للنتيجة وهلم جرا. تعمل اللغات بنفس الطريقة تقريباً، ماعدا أنك لا تستخدم الزائدات. القدرة التكرارية ربما كانت تبدلاً تطورياً ثانوياً، وربما أيضاً تكون أحد المبادئ العامة التي بنيت عليها الأنظمة المعقدة».

لم يحب تشومسكي شيئاً أكثر من أن يظل قادراً على الاستمرار في دراسة مثل هذه الأسئلة والعيش حياة لغوي. «تمنيت أن يرحل العالم» قال بحسرة عميقة. لكنه يشعر بأنه لا يملك الخيار. في رأيه إنها مسألة بسيطة من الاحتشام، من الأخلاق الأساسية، أن تستمر في جذب الاهتمام إلى المعاناة الإنسانية بكل أشكالها. «لاشك أن عدم القيام بذلك شيء مرضي» يقول. لهذا نحن نعيش في عالم مريض؟ نعم، ومرسوم أن يبقى بتلك الطريقة. هناك رسالة واحدة تظل تقتحم عقول الناس دائماً: الشيء الوحيد هناك إلى الحياة أن تُتلف بشكل سلبي. مهما تفعل، لا تفكر لوحدك، لا تشكك بحياتك والعالم بشكل عام، ولا تقلق نفسك بمصير الآخرين. رأيتها تحدث لأحفادي قبل أن يبلغوا السنتين من العمر. الشعار «كل واشرب واشتر وإلا فكرس وقتك للرياضة والعلاقات الشخصية والجنس. شعار ناجح وفعال جداً. المراهقون في الحقيقة يمضون وقت فراغهم في مراكز التسوق التجارية الضخمة والبدانة مرض خطير في الحقيقة. طبعاً، كل ذلك يهدف إلى استغلال السلوك الغريزي. والنظام المدرسي صُمم لخلق الطاعة والتطابق. أي واحد يفشل في التكييف لأي سبب تتم تصفيته فوراً».

ليس صدفة، يقول تشومسكي دائماً: أن تظهر صناعة العلاقات العامة لأول مرة في أميركا وبريطانية. في الغرب الحر، الدعاية (البروبغاندا) هي الطريقة الوحيدة التي تفرض بها التجارة والسياسة قوتيهما - وهما تفعلان ذلك الآن بنجاح غير مسبوق. «كانت هناك

بعض الأمثلة التي لا تصدق أبداً أثناء حرب العراق» - يقول تشومسكي - التي لازال مذهولاً بها تماماً. كرر بوش مؤخراً أن صدام لديه روابط مع القاعدة. حقيقة أنه يفعلها وينجو بها حتى حين قالت (السي آي إيه) إن ذلك ليس صحيحاً هذا يبين المدى البعيد الذي وصلت إليه الأشياء. ثم بعد ذلك هناك كل هذا الذعر المثار! كل واحد آخر يكره صدام فقط، لكن الأمريكيون يخشونه في الواقع.

كان تشومسكي ناقداً عنيفاً للسياسة الخارجية الأمريكية منذ بداية حرب فيتنام، لأنه يعتقد أن التأثير الهائل للتدخل الصريح والخفي في شؤون السكان المحليين لم يجد الاهتمام الذي يستحقه. تعليقاته تبنى دائماً على مصادر متاحة للعوام، وعلى حقائق موثقة. المرة تلو الأخرى كان يرجع إلى تقارير (السي آي إيه) والأوراق الحكومية الرسمية. أي واحد معد للنظر يستطيع أن يرى بنفسه كيف حدث الأمر كله بالضبط. مثلاً، يقول، «نظام السوق الحالي فُرض علينا» هو يحب أن يشير إلى «مقدار المعاناة الكبير الذي بُذل أثناء التصنيع في القرن التاسع عشر لجعل الناس يتخلون عن حريتهم ويصبحون عبيد الأجور». بعد إنجاز ذلك، بدأ الناس يتحدثون على وجه التحديد في عشرينيات القرن العشرين عن كيفية التحكم بالأشياء التي خارج مكان العمل، يقول. عبارة «تصنيع الوفاق» يعود تاريخها إلى تلك الفترة: كان يجب تصنيع الإجماع والوفاق وهو عنوان أحد أشهر كتب تشومسكي التي توضح تماماً من بين أشياء أخرى انتقائية وسائل الإعلام فيما تنقله وما لا تنقله، وما تعطيه تغطية واسعة أو ضيقة - انتقائية تتعلق مباشرة بمصالح الصناعات الأمريكية وقادتها السياسيين.

وهي عادة متعمدة أو خبيثة. هؤلاء الذين «يصنعون الوفاق» قلما يدركون هذه الحقيقة. تلك هي الطريقة التي تعمل بها. «كل واحد يعتقد أن لديه مبررات وجيهة لفعل ما يفعله»، يقول تشومسكي، و«لا أحد يفكر

أنه الفتى السيئ. من الصعب جداً أن ترفع مرآة لنفسك. لقد بات سلوك القطيع ذاتياً. هناك الكثير جداً الذي يمنعك من النظر إلى البنى التي بت جزءاً منها وكل من يبتعد عن الخط يرتكب مجازفة خطيرة. ليس أن تعدم بالرصاص فعلياً في هذه البلاد كما يحدث لك في مجتمعات إجرامية كثيرة أخرى، لكن هناك عقوبات واضحة - بخصوص مهنتك وحالتك ووضعك ودخلك. ولا يمكنك تقديم اعتراض سريع وتعود إلى تلفزيونك. من الصعب مجابهة ما يحدث فعلياً، وكم من الناس الكثيرين الذين يعانون. ذلك يتطلب جهداً».

لكن إذا كانت العلاقات العامة تعمل بهذا الشكل الجيد وتشومسكي يريد أن يغير العالم، لماذا لا يحجب رسالته بصورة أكثر فعالية؟ مثلاً، لماذا لا يستخدم النكات والدعابات القصيرة كما فعل صانع الأفلام مايكل مور بنجاح؟ «لدي رسالة واحدة فقط»، يقول تشومسكي، «ولا يمكن أن تحجب - يجب أن تكتشفوها بأنفسكم. استخدموا حسكم العام. أنا لا أريد أن أحسن العالم، أريد من الناس أن يحسنوه. أنا لا اعرف الكثير عن مايكل مور لكنّ أحداً ما عليه أن يلقي نظرة على من هم حضوره ومستمعوه. صدف أن رأيته مرة في أوبرا، ورأيت الفيلم بولينغ من أجل كولومباين. في كلا المرتين كان الحضور يصفقون ويسخرون ويصرخون. هم يسخرون من أنفسهم! لهذا أنا أتساءل فعلاً لو أن القائمة التي عرضت كانت عن الوفيات التي تعتبر أمريكا مسؤولة عنها في بلدان كثيرة جداً هل كانت تحدث أي انطباع حقيقي»؟

لكن تشومسكي يبقى متفائلاً عنيداً. رغم الرعب الذي يواجهه دائما لن يقنعه أي شيء بأن الناس أشرار في جوهرهم - ولا حتى التجارب الشخصية مثل مشاهدة فيلم وثائقي عن القنبلة الذرية في هيروشيما (في كل الأماكن) سينما إباحية حيث يبتهج المشاهدون بمنظر الضحايا المبتورين أو العيش في كيبوتز، نعم به منذ خمسين سنة رغم الضغط

الندي الذي يدفعه إلى الجنون تقريباً. مهما كانت التلميحات التي أشرت بها في ذلك الاتجاه، يرد تشومسكي بهزة كتف غير مدركة أو بتكشيرة أو بلهجة الباحث الرسمية: أعرف القليل عن الطبيعة البشرية. آي واحد يستطيع أن يكون إما قديساً أو معذباً. الأكثر أنه يستطيع أن يرى بعض التحسن. «قبل خمسين سنة كنت لا ترين سوى رجال بيض هنا في (أم أي تي) – الآن تغير كل شيء». يقول: «لا يوجد إلا شيء واحد ينجح دائماً. لقد بدل العالم. أبقوا عليه. إن كان عبودية، حقوق المرأة أو البيئة. ببطء لكن بالتأكيد ستصلون إلى هناك. أصعب شيء دائماً أنه يجب على الناس أن يدركوا الأشياء التي أُدخلت فيهم وباتت ذاتية، الأشياء التي يعتبرونها عادية».

هل لا يزال يسمي نفسه بالفوضوي؟ نعم، بنفس الإحساس الذي وجدته دائماً. أعتقد أن الناس يجب أن يكونوا قادرين أن يأخذوا حيواتهم بأيديهم. اعتبر من النزوع الإنساني أن يكون شكوكي أساساً حول التراتبيات والسيطرة. هذه ليست وقائع حياتية، وإنما يجب أن تبرر – لكن أنا لا اعرف إلى أي مدى يمكن إنجاز عالم بدون تراتبيات يدير الناس أمورهم فيه.

الفوضوي فيه يجب أن يجد صعباً عليه أن الكثير جداً من الناس يعتبرونه مرشداً روحياً، يؤلهونه ويريدونه أن يخبرهم ما عليهم أن يفعلوه. يكره تشومسكي فكرة عبادة الشخصية بحد ذاتها فعلا لكنه يقلل العداء الذي تثيره أيضاً. هو يرفض أن يقلق أكثر مما يجب حول بريد الكره وتهديدات القتل التي يتلقاها، وحقيقة أنه هناك مرافقة بشكل منتظم (ضد إرادتي) من قبل عملاء سريين حين يظهر للعلن أو حين يعترض بريده الالكتروني ويحجب بينما رجال الشرطة لديهم أدلة أن أحداً ما سيهجم عليه. تشومسكي معتاد على أن يكون له أعداء. نقده المتواصل للتدخل الأمريكي في شؤون بلدان أخرى صنفه من

المعادين للأمريكان منذ زمن بعيد، ومع موجة الوطنية التي اكتسحت البلاد بعد ١١ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١ أنتج احتجاجه ضد الحرب في أفغانستان والعراق رداً عدائياً غير مسبوق.

لكنه يعبر عنه من منظور واحد: «ما يفعله الناس في البلدان الأخرى خطير فعلاً. أنا معجب بهم جداً»، يقول. «أنا محظوظ لأعيش في أكثر البلدان حرية في العالم، حيث حرية التعبير محمية تماماً إلى الحد الذي نقرر فيه أن نسرق متجراً معاً وتسدد بندقيتك إلى شخص ما وأقول «أطلق». عدا عن ذلك، تستطيع أن تقول أي شيء تحب. في مكان آخر هناك دائماً قوانين ضد «التدمير» أو «التشهير» أو «ازدراء الدولة» أو شيء ما. إن عشت في بلاد مثل تلك وفعلت شيئاً لا تحبه الحكومة عندها تكون قد علقت».

قالت نيويورك تايمز مرة - وكرر قولها الكثيرون - إن تشومسكي «ربما كان أهم مفكر حي». لكن بقية الاقتباس «بما أن الحالة هكذا، كيف يستطيع كتابة مثل هذه الأشياء الفظيعة عن السياسة الأمريكية الخارجية؟» يُكرر عادة من قبل تشومسكي نفسه. مقاطع من أعمال تشومسكي نادراً ما تظهر على صفحات الرأي في التايمز أو الصحف الأمريكية الرئيسية. لكن مع فيضه المثير للإعجاب من الكتب، ومقالات الصحف والآن منشورات الانترنت، أصبح قادراً أن يصل إلى أناس أكثر فأكثر. في بلدان كثيرة خارج الولايات المتحدة هو بطل أيضاً، وعشرات الآلاف يأتون لسماع خطاباته. بالنسبة لشخص كان يسعده إن جاء أي واحد من خارج المنظمة ليسمعه، هذا دليل آخر أن الإصرار والمثابرة ينجحان حقيقة.

صوت انشقاق

كريستيان تايلر - فاينانشال بوست

١٨ يوليو/ تموز ١٩٩٥

في أرض الأحرار ووطن الشجعان، نعوم تشومسكي منشق.

لثلاثين سنة، ظل هذا الأكاديمي اللطيف المنظر من الشاطئ الشرقي يشجب حكومة الولايات المتحدة وسيدها الدمية والشركات الكبيرة، لرعايتها اضطهاد وتعذيب وقتل الفقراء لجعل العالم آمناً للرأسمالية الأمريكية.

هذا الراهب الشهيد لقرننا يستطيع أن يملأ صالة على الفور (بتوزيع كراسة). لكن حيث ر كتم صوت راهب فلورانسا المثير للعصيان بالشنق والشواء على الخازوق، كان عقاب تشومسكي أن يُسلم إلى نسيان وسائل الإعلام في أرضه.

في ستينيات القرن العشرين كان اسمه ترتيلة في كل حرم جامعي في الغرب. حتى لو قلة من هؤلاء الطلبة الهائجين فهموا مغزى عمله في اللغويات، فلم يكن جاهلاً أن تشومسكي عمل سحراً في السجن بسبب احتجاجه ضد حرب فيتنام سوى أصحاب الأدمغة الميتة.

الشهر الماضي طار الأستاذ الجامعي الانفعالي إلى إنكلترا ليكافأ بدرجة فخرية من جامعة كامبريدج. هذا تقدير لنظريته التي ترى أن الكائنات البشرية تملك مقدرة فطرية (وفريدة) على اكتساب اللغة، فرضية نشرت لأول مرة في عام ١٩٥٧ حين كان في الثلاثين من عمره، مؤثر بشكل عال خارج حقله ولا يزال مهيمناً داخله.

بعد ذلك ٢٠٠٠ من أنصاره اكتظت بهم الصالة المركزية في ويستمنستر ليصغوا إلى محاضرة لتشومسكي الآخر وهو يشرح بأسلوب

ساخر لكنه روتيني الجرائم الأمريكية ضد الديمقراطية في أمريكا وخارجها. («حب قاسي»؟ يتساءل. «انه يعني حب الأغنياء والقسوة على غيرهم»).

جائزة تشومسكي بدرجة من كامبريدج كانت مناسبة فأحد أبطاله برتراند راسل وهناك صورة لفيلسوف كامبريدج تهيمن على مكتبه في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا أتلفت النسخة الأولى منها من قبل شخص أو أشخاص سماهم تشومسكي «قاذفي الملفوف» حين حطموا مكتبه في سبعينيات القرن العشرين.

رغم أن تشومسكي لا يدعي الشبه الكبير ببطله، لكن اللافت على الأقل أن كلا الرجلين قاما بعملهما في تغيير الوضع والتفكير القائمين في انضباط غامض وهما في عمر صغير وأصبحا ناشطين سياسيين وتعرضا للذم والتشويه من قبل المؤسسة ودخلا السجن بسبب معتقداتهما.

لماذا يتجاهلونك في الولايات المتحدة؟ سألت تشومسكي في صباح اليوم الذي تلا لقاءه العام في ويستمنستر. هل أضعت إبرتك اللاسعة؟

«ليس الأمر أنني فقدت صوتي»، رد «فأنا لم املك واحداً أبداً»

لكن في أيام فيتنام؟

«كنت أُقصى دائماً. هذه خرافة كاملة»، حين يقولون «في سالف العصر والأوان كنا منفتحين عليه لكنهم الآن يكررون نفس الكلام القديم. إنها خرافة لفقت لتبرر سبب سماحهم بظهور أصوات منشقة».

صوت نشومسكي ناعم عادة له حد صلب ورأيت عنقاً متصلباً خلف الأسلوب المهذب الكريم.

هل هذا لأنه ليس لديك حزب أو نادٍ؟

«كلا، وإنما لأنني أقول الأشياء الخطأ».

يعتقد تشومسكي - كلا، يؤكد - أن نخبة السلطة في الولايات المتحدة (أو أي مكان آخر) يحيون ويبقون بواسطة تهميش غير المثقفين وبغسل أدمغة المثقفين ليطوعوا الاثنين لأغراضهم.

أقول، ربما الناس الذين يديرون أميركا يعتقدون حقيقة أنهم يعيشون في ديمقراطية حميدة. هم صادقون.

«نعم» قال تشومسكي، كان صوته لطيفا مرة أخرى. «والناس الذين أداروا روسيا كان لديهم نفس الاعتقاد. وهلم جرا - ألم تقرأ يوميات هيملر؟ إنها تعج في الحديث عن النبل والعظمة. لهذا هم صادقون بالمعنى الذي كان فيه هيلمر صادقاً».

مع ذلك أنت تقول إن الناس العاديين يرون الحقيقة. هم يفضلون كرة القدم على السياسة لأنهم يستطيعون المشاركة فيها؟

«يستطيعون أن يروا الحقيقة. ذلك لا يعني أنهم يرون. ليس هناك ضوء داخلي خاص. إنه الحس العام. الهدف من الشؤون الإنسانية والأشياء التي يهتم بها الناس، ألاّ يفهم أحد أي شيء. لذلك، بقدر ما يكون الشيء معروفاً، يمكنك شرحه لطفل في العاشرة».

احتقار تشومسكي للنقاد السياسيين لا يعرف حدوداً. هو يحتقر بشكل خاص هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكية السابق. «بياناته سخيفة جداً وتثير الضحك لطلاب معهده» (ام أي تي).

إذا كان الناس يستطيعون أن يروا الحقيقة فلماذا لا يثورون غاضبين؟ يجاوب تشومسكي باقتباس الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم: «بالرأي وحده تمنح الطاعة» بعبارة أخرى، «يصبح الناس ليّني الجانب بواسطة الدعاية (البروباغندا)».

إذا أنت من منظري نظرية المؤامرة؟ قلت...

«لا أبداً. نظرية المؤامرة كلمة من أربعة أحرف استخدمها المفكرون الذين يعرفون بأنهم لا يملكون القدرة على الرد على المناظرات، لهذا

حاولوا أن يرموا الوحل (يشوهوا ويفتروا). أنا منظر للمؤامرة بالقدر الذي فيه آدم سميث».

لكن تزعم بأنك فوضوي. ذلك يخيف الناس، أليس كذلك؟

«ربما. لكن يجب ألا يخيفهم. أقصد أن راسل كان في أفضل فترة له، قريباً جداً من الفوضوي. الفوضوية في رأيي انبثقت مباشرة من حركة التنوير والليبرالية التقليدية».

يصف تشومسكي نفسه كاشتراكي تحرري ويزعم أن الناس العاديين حتى الجمهور من ذوي الرقبة الحمراء (الريفيين المحافظين - المترجم) الذي يخاطبه أثناء حرب الخليج، يتفقون معه حين يشرح الأشياء لهم.

«تتحدث لخمس دقائق وتثقب عدداً قليلاً من الخرافات الصريحة والناس يرونها، يبدؤون بالضحك وينتهي بترحيب واحتفاء واقف. غطاء الشيفونية الوطنية المتطرفة والتعصب رقيق جداً لكن ليس في نادي الهيئة التدريسية في هارفارد فلو تحدثت هناك لهم لمدة عشر سنوات فلن يسمعوا كلمة واحدة».

هل أنت متشائم؟

يرد تشومسكي بشكل غير مباشر، لكنه قاتم. «سيبدو التنوير مثل نحس بليب وتشويهاً غريباً في العصور المظلمة من اللاعقلانية والتعصب والكره، كانت هناك لحظة صغيرة فقط كان فيها أناس مثل روسل وديوي، آخر الممثلين».

هل ضعفت معنوياتك؟

«ولماذا علي ذلك؟»

«فزت بجمهور واسع لكن لم يتبدل شيء».

«ذلك ليس صحيحاً. البلاد مختلفة تماماً عما كانت عليه قبل ثلاثين سنة» اقتبس تشومسكي مواقف من المساواة العرقية والجنسية والبيئة وحتى مصير الهنود الأمريكيين.

غامرت بإظهار دهشتي بأن سياسة الولايات المتحدة انتقلت إلى اليمين بالرغم من انتهاء الحرب الباردة والأدلجة.

قفز تشومسكي. «نهاية الأدلجة. هذا اختراع آخر من المفكرين. من الأسلم القول إن كل ما كتبته نخبة المفكرين هو دعاية».

«انظر. يجب أن يملك المفكرون طريقة لتبرير وجودهم في خدمة السلطة وأن يبدوا عميقين وهلم جرا، لهذا تحصل على كل هذا اللغو الذي لا معنى له. هناك صراع إيديولوجي في كل المكان».

تربى تشومسكي على ثقافة الطبقة العاملة اليهودية الفقيرة في نيويورك التي كانت رفيعة جداً بنظره. أمضى ساعات يصغي فيها إلى النقاشات الليلية في محل عمه لبيع الصحف في شارع ٧٢ وبرودوي.

«أنت نفسك مفكر». قلت.

«أنا شخص. أنا لست مفكرا أكثر من الفتى الذي يجز العشب لي في بيتي».

أنت فيلسوف وخبير لغوي. بالتصنيف أنت مفكر.

«ما اعرفه عن اللغة والفلسفة لا يحمل أي شيء عن تلك المواضيع. هذه كلها في الميدان العام والشعبي. هي مباشرة ودقيقة تماماً».

«صدف أن أتربى في بيئة من أقرباء كانوا الجيل الأول من المهاجرين من أوروبا الشرقية، الذين لم يذهبوا إلى المدرسة قط وكانوا من الطبقة العاملة العاطلة والذين كلهم يقرؤون ويتحدثون ويذهبون إلى الحفلات الموسيقية وهلم جرا».

كان تشومسكي صبوراً حين أوحيت بعلاقة بين نظريته اللغوية ونظرته السياسية. أشار إلى كتاب عصر التنوير الذي رأوا اللغة مثالاً عن الإبداع الفطري للبشرية لكنهم قالوا بعدم وجود رابط استدلالي.

لكن ألست فريداً في امتلاك هذه الصورة المتماسكة تماماً للعالم؟ أغلب الناس يجدونها فوضوية أكثر قليلاً.

ربما الناس لا يقولونها بفصاحة هيوم لكن الكل يفهمها. إن كنت تملك أي درجة من السلطة أو القوة، حتى لو كانت على أطفالك، ستدرك بسرعة كبيرة أنك سوف تتحكم بهم وسوف تتحكم بعقولهم.

هذا يعني أن النظام التعليمي.... وكل واحد آخر يجب أن يكون مشاركاً في شكل ما في مهمة التلقين والتهميش.

هل خطر لك قط أن تحليلاتك يمكن أن تكون خطأ بالكامل؟ قاطعني تشومسكي.، طبعاً. ربما تكون كذلك. وسأكون سعيداً إن أبلغني أحد ما هي الأخطاء.

تركت تشومسكي في المطار وتساءلت: هل يمكن لرجل بهذا الذكاء أن يخدع؟ أو هل سنجبر يوماً بأن نعترف أنه كان على صواب دائماً؟

مقدمة لجيمس مكغيلفري

رفيق مرافق تشومسكي في كمبريدج

كمبريدج ٢٠٠٥

في وقت الكتابة، أنتج نعوم تشومسكي أكثر من ثمانين كتاباً، ومئات المقالات وآلاف الخطب وأجرى آلاف المقابلات وكتب عدداً لا يحصى من الرسائل وأشرف على عشرات الأطروحات. قام بمساهمات هامة وريادية أحياناً في ثلاثة مجالات - اللغويات وفلسفة العقل والطبيعة الإنسانية والسياسة. وضع اللغويات على مسار علمي طبيعي ناجح، وموجه بيولوجياً؛ مساهماته النظرية مستمرة في قيادة المجال. مثل ديكارت وغاليلو وهيوم بخلاف فيلسوف القرن الثامن عشر كانط والغالبية الكبرى من الفلاسفة بعده، تشومسكي عالم وفيلسوف معاً، وعمله الفلسفي مستمر مع علمه. علمه في اللغة وعلمه الأولي في العقل قدّما رؤية أصيلة في البلوغ إلى فهم للطبيعة البشرية مؤسس على علم الإحياء وللطريقة التي تخصصها للتفاهم الإنساني والفعل. عمله السياسي، مثل عمل هوبز وروسو، يسعى إلى أساس في علم الطبيعة الإنسانية، لكن مع رؤى لتطوير هذه النظرية - ولاستغلال مضامينها لمثل سياسية وأهداف - أفضل من محاولة هوبز المضللة لبناء نظرية سببية للفعل الإنساني أو تجارب روسو الخيالية في «الحالة الطبيعية». وعلى خلاف الاثنين - وأبعد من الكثير جداً من «المنظرين» السياسيين المعاصرين - ليس هناك أي علامة في عمل تشومسكي السياسي وآرائه وتحاليله النقدية تدل على الانسياق وراء رغبة في السلطة.

الهدف الأول من هذا المجلد تقديم مشاهد من إسهامات تشومسكي في اللغويات وفلسفة العقل والطبيعة الإنسانية والسياسة للجمهور العام. الفصل الأول في كل قسم يقدم فكرة عامة عن آراء تشومسكي في

هذه المجالات. الفصول التالية توضح مواضيعَ رئيسية. وضعت مخططاً لبعض من تلك المواضيع وكيف طورها المساهمون قرب نهاية هذه المقدمة. مخطط يكفي: الفصول والتنظيم تفسر نفسها بنفسها.

تشومسكي العالم اللغوي

يعتبر اللغويون التشومسكيون أنفسهم علماء طبيعيين - وليسوا علماء اجتماعيين أو مهندسين. من المهم أن نرى ماذا يتضمن هذا. الاستخدام العادي عون قليل. إن مصطلح «علم» مثل «لغة»، ليس له استخدامٌ فريدٌ في الخطاب اليومي: يطبقه الناس على كل شيء من الفيزياء إلى علم التنجيم. ولكون العالم يترافق بالخبرة والمعرفة المتخصصة والذكاء الخ - الرغبة من أجل مكانة اجتماعية وسلطة سياسية تؤديان إلى تطبيق وصف «عالم» على بعض المرشحين المشكوك بهم. بسبب هذا، لا نستطيع أن نتوقع أكثر من بضع تلميحات حول ما هو العلم بالنسبة للتشومسكيين من النظر إلى الممارسات التي سميت بالعلمية أو إلى الناس المتنوعين الذين سميوا أو سموا أنفسهم علماء.

مصدر موثوق أكثر هو تاريخ العلم وأشكال العلوم التي اتفق عليها عالمياً سيكون ناجحاً - الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء، مواضيعها الأساسية ودرجات تقدمها تختلف، وكذلك مبادئها وتقنياتها التجريبية ومشاكلها البارزة. لكن هناك أوجه تماثل كافية لرسم مخطط مركب، خصوصاً حيث تتوافق الخصائص المختارة مع تلك التي من مصادر موثوقة أخرى.

ومصدر آخر هو ما قال هؤلاء الذين بدؤوا تطوير العلوم الناجحة. يذكر تشومسكي دائماً غاليلو وديكارت في هذا الصدد؛ يعتبر نفسه أنه يعمل بالتقليد الذي بدأ به الفلاسفة - العلماء. هؤلاء الرواد طوروا وطبقوا توصيات عن كيفية التقدم في تنفيذ التحقيق في ظاهرة طبيعية الذي يؤدي إلى ما كان نجاحات بارزة في زمنهم. مركزاً على ديكارت في

حديثه حواره - عمل يفسر كيف وصل ديكارت إلى مبادئه العلمية، وحدد ما أنجزه باستخدامهما - المدهش أنه اكتشف علماً من نوع آخر من فهم العالم. لم يستخدم أحد مفاهيم علمية في حل المشاكل الكثيرة جداً التي تصادفك في الحياة اليومية. كل واحد، بما فيهم الطفل الصغير والعالم، يملك واستخدم ما سماه ديكارت «الإحساس الجيد»، شكل عملي من القدرة على حل المشاكل اعتبرها ديكارت فطرية - هبة من الرب. إنها قدرة تتعامل مع مشاكل السياسة والتجارة وغسل الثياب ومواساة صديق حزين وإزعاج كلب.

بينما يعتمد الجميع على الحس العام، لكنه لم يتخذ شكلاً وحيداً في كل الأوقات وكل الظروف. هذه منفعة. حل المشاكل العملية يجب أن يكيف الاختلافات في الطريقة والأسلوب الفردي والبيئات المختلفة والثقافات والمنظمات الاجتماعية وهلم جرا. للقيام بهذا يجب على الحس العام أن يعتمد على مصادر فطرية مثمرة غنية وعلى شكل مرن من التنظيم العقلي. بهذا الشكل يستطيع أن يظهر مبكراً جداً في الأطفال ويكون متكيفاً على نحو لافت. حيث قال ديكارت إنها هبة ربانية نحن سنقول إن مصادرها الغنية ذات أساس بيولوجي. فقط بهذا نستطيع - حتى الصغار جداً - أن نتصور بسرعة ونتوقع ونتكيف مع البيئات المختلفة، ونتبنى قواعد اجتماعية مختلفة ونتغير بسرعة لمجاراة المصادفات غير المتوقعة.

التباين مثقف بالنسبة للعلم. العلم مشروع عقلي يستخدم تقنيات بناء نظرية صورية (رياضية) للتركيز على ميادين محددة؛ توجهه رغبة في التبسيط و- كما يظهر عمل غاليلو وديكارت - ويضع البساطة قبل «البيانات»؛ يحقق تقدماً (عادة في قفزات) على مدى القرون من خلال مساهمات من أناس كثيرين نحو حلول للمشاكل النظرية التي تواجه باستمرار، ينقح وينقي ويبتدع معاييره في الوضوح البعيدة عن المخاوف

العملية للحس العام. الفيزياء مثلاً، استغرقت قروناً لتتطور، تطورت على شكل دفقات، استخدمت التقنيات الرياضية لوصف عالم مأهول بالكينونات وتقدمت إلى أبعد من إدراك الحس العام والفهم؛ ورغم كونها بعيدة عن الكمال بلا شك، فإنها تقدمت بوضوح بشكل جيد أبعد من فلسفة غاليلو وديكارت الميكانيكية. ، هذا قوطع وسرعة السير المدروسة ضرورية لأن العلم لا يعتمد على الأنظمة الفطرية المثمرة الغنية فقط، المنظمة بشكل مرن التي يستخدمها الحس العام. بينما يستطيع أن يعتمد وبشكل جلي على أحاسيس فطرية واضحة من البساطة وما يعتبر تفسيراً جيداً ووصف، يتطلب بناء النظريات التي تحل المشاكل التي تتحدى العلم الابتكار وظروفاً مثلى ونشاطاً تعاونياً. هذا هو السبب - باستثناء أقسام من الرياضيات - عدم تطور إلا أشكال أولية من العلم الطبيعي قبل نهاية القرن السادس عشر. من غير المفاجئ، مر قدر كبير من الزمن والتدريب للأفراد ليكتسبوا التعقيد (التكلف - سوفيستيكيشن) حتى في علم محدد؛ المدى التام للعلوم المتطورة خارج مقدرة أي شخص. لحسن الحظ، مكتشفات العلم ليست ضرورية للبقاء أو حتى للازدهار. لاشك أن غسل الثياب يستفيد من تطبيقات هندسية للمبادئ العلمية الأساسية - تلك التي أدت إلى محركات كهربائية ذات سرعات متنوعة ومن الغسالات التي تعبأ من الأمام. لكن من أجل الألفيات تعامل الناس بنجاح مع تكنولوجيا لا تتطلب سوى الحلول الهندسية التي وفرها الحس العام لوحده. هم بنوا جسوراً من مواد متنوعة، قووا المعادن وحولوها إلى سيوف ساموراويّة وبنوا الكاتدرائيات. باختصار، العلم يجلب الأدوات الشكلية المطورة ذات البحث المركز بشكل عال لتحمل على مشاكل نظرية؛ التقدم - معتمداً على الابتكار - بطيء عادة. استغل الناس مصادر فطرية مستخدمين حسهم العام بأشكال المران التي أدت إلى نجاح عملي من قبل للتعامل مع المطالب الملحة

للمشاكل اليومية. نحن نخترع أدوات علمية للتعامل مع البوزون والجينوم؛ نعتمد على مصادر فطرية لتقييم أداء ممثل منتخب أو نوايا فنان.

إحدى خصائص الممارسة العلمية التي يكشفها تاريخ العلم هي السعي إلى نوع خاص من الموضوعية - خاصية عالمية، لكي لا يكون مرتبطاً بشخص أو بظرف أو ثقافة أو تاريخ. تلك الفكرة من الموضوعية لا تستطيع أن تخدم المهمات التي يتعامل معها الحس العام؛ مفاهيم الحس العام «مصممة» لتخدم مسائل ذات اهتمام إنساني - تشمل اهتمامات الإدراك والفعل. لذا من غير المفاجئ أن يؤدي العلم إلى إنكار ورفض المزاعم الواضحة للفهم المترابط منطقياً. علم العقل يخبرنا أن الألوان التي نعرفها نتاج نظامنا البصري، وليست الأشياء في الخارج وأن اللغات - بما فيها أصواتها ومعانيها - فطرية في الرأس وليست خارج الرأس، ربما نتاج خواص مميزة للجماعات والدول. يجب على العلماء التغاضي عن المظاهر دائما تقريباً (كما في الألوان والكلمات خارج الرأس) ويبتكروا باستخدام أدوات توفرها الرياضيات التي ابتدعت اغلبها. ويجب أن لا يقيسوا التقدم بالدرجة التي يرضي فيها التغيير المطلوب رأياً ساذجاً أو تجربة فجة وإنما بتحسينات في الوصف والتعليل للظواهر المتعلقة والمناسبة وبتبسيط شكلي أكبر - لو عاش ديكارت طويلاً لرأى ميكانيك الاحتكاك خاصته مفنداً بمبدأ نيوتن للجاذبية. الفكرة الواضحة بأن الفعل والأثر يتطلبان تماساً مباشراً لها أصلها في الحس العام كما يبدو؛ لكنها تفشل في العلم. تعلم الفيزيائيون منذ زمن بعيد أن الواضح بجلاء في أفضل حالاته نقطة انطلاق. ذلك الدرس كان تعلمه شاقاً في اللغات كما سنرى.

علم تشومسكي في اللغة هو علم في التقليد الديكارتي - الغاليلولي. إنه فرع من دراسة علم الإحياء. إنه علم طبيعي يوفر وصفاً «تجريدياً» وتعليلاً للنظام البيولوجي الموجود في البشر فقط، النظام الذي يسميه

تشومسكي «عضو اللغة». عضو اللغة الذي كشف عنه علم تشومسكي في اللغويات بعيداً كل البعد عن الفكرة الشائعة والمنطقية بأن اللغة ظاهرة اجتماعية. لكشف هذا العضو، كان على علم اللغويات أن يطور معايير للوضوح منسجمة ومتماثلة مع معايير العلوم الطبيعية. النتيجة، بعد عقود كثيرة من العمل، أن يظهر عضو اللغة بسيطاً بشكل لافت في «تصميمه». هذا غير عادي في علم الأحياء، ميدان يكشف عادة ما سماه جاك مونو «سمكرة» التطور. مد العلم الطبيعي إلى دراسة النظام البيولوجي للعقل يقدم نتيجة فاتنة كما هو جلي: اللغة تؤكد رؤية غاليلو وديكارت عن الطبيعة الأنيقة المصممة جيداً.

الميكانيك الديكارتي - حتى في الشكل البدائي - يتضارب مع المبادئ الواضحة التي علمتها الكنيسة والجامعات. انه يتضارب مع عالم أرسطو الغائي، الذي عدل في القرن السابع عشر ليلائم المبدأ الديكارتي. لهذا السبب نظرياته ونظريات غاليلو الرياضية الميكانيكية الجديدة عن الظواهر الطبيعية واجهت مغارضة من النظامين الفلسفي والديني اللذين كالكثير غيرهما اليوم، اعتبرا واجبهما الدفاع عن الأفكار التي لها أصلها في الحس العام مع توجه عملي وليس نظرياً. العلوم الناجحة منذ غاليلو وديكارت استمرت في استخدام أدوات رياضية شكلية بسيطة أنيقة وابتكرت نظريات ومفاهيم لتقدم نظريات وصفية وتعليلية ملائمة لميادينها. بالمثل كالديكارتية والغاليلوية ظلت هذه العلوم تواجه معارضة، رغم أن بعض المعارضة أسكتها النجاح الواضح لنظرياتها.

بحث تشومسكي الطبيعي في اللغة مثل ديكارت في علم الكونيات والفيزياء والبصريات والفيزياء العصبية، واجه معارضة من الخبراء أيضاً. جاءت المعارضة من جبهات كثيرة، لكن أغلبها نشأت على الافتراض أن اللغة ليست ظاهرة طبيعية. هم يرون اللغة بشروط استخدامها - ربما طقماً من الممارسات الاجتماعية، حزمة من «أدوات»

صنعناها للتواصل... الخ. في كل حالة، يجد المرء نسخة لما يسميه تشومسكي مقاربة خارجية لوضع نظريات عن اللغة. وسط الغالبية من الفلاسفة، تظهر كإصرار أن شكلاً ما أو آخر من الفكرة الواضحة أن اللغة عرف اخترعه البشر ليتواصلوا - «مراس»، ناتج تاريخ، طقم من العادات، «وسيط تفسيري»، شكل من نقل نوايا المتكلم. من علماء النفس والفلاسفة وعلماء إدراكيين آخرين مالوا بقوة إلى نسخة رواية أو أخرى لما سماه ستيفن بينكر(٢٠٠٢) صورة «اللوح الأبيض» للعقل، أصبحت مثل فكر أنه شكل من السلوك يحل مشاكل إدراكية كالتصنيف والوصف مثلاً... الخ. أي كائن حي أو أداة تظهر «نفس» السلوك يملك لغة، يعتقدون، وهم «أخذوها» بأي وسيلة (التدرب، البرمجة) يستخدمها المدافعون عن اللوح الأبيض. لهذا جعل قرد أو آلة تقلد السلوك «يثبت» أن اللغة ليست عضواً بيولوجياً يولد عند البشر فقط.

ربما ينجح هؤلاء الخبراء أحياناً ببعض المقاييس - ليس واضحاً أيها - لكن ليس بمقاييس البحث الطبيعاني. الفلاسفة الذين يعتقدون أن اللغة ظاهرة اجتماعية يتعلمها الأطفال من مجتمعاتهم يتجاهلون حقيقة أن اللغات تكتسب بسرعة من قبل الأطفال الصغار بدون تدريب. المثل صحيح عن مفاهيم الدور الاجتماعي. إذا لم يتم تعلم اللغة ولا المفاهيم ذات الدور الاجتماعي فإنها يجب أن تكون مبنية في عقل الطفل بشكل ما منذ ولادته؛ هنا يجب أن يتركز البحث الطبيعاني. ويجب على مؤيدي اللوح الأبيض أن يتعلموا الدرس الأول أنه من غير الحكمة تركيز الانتباه على تماثل السلوك أو «الخرج - الناتج» والوسائل التي تحرضه. حتى لو نجح المرء في جعل آلة أو قرد بأن «يتكلم» آلة - لم يحدث ذلك، ربما لأسباب أشار إليها ديكارت و(آلان تورينغ) - فذلك ليس إثباتاً بأن الأنظمة التي جعلت هذا السلوك ممكناً (الذي ركز عمل تشومسكي عليه) هي نفس أنظمة القرد أو الآلة. صنع حفارة لحفر خنادق لا يثبت أن

حفاري القبور البشر الذين يحركون المجارف بأذرعهم المفصلة يملكون أنظمة هيدروليكية في أذرعهم مجهزة بضواغط تعمل على طاقة الديزل.

تشومسكي عن علم الأحياء والتطور

لتحاشي التشويش الذي قد ينشأ من الكلام عن وجهة نظر تشومسكي بأن اللغة عضو بيولوجي علي أن أنوّه بأن مسألة التطور (راجع جينكينز ٢٠٠ للتفصيل). تشومسكي مثل ليوونتين (١٩٩٠)، لديه تعاطف قليل للجهود الراهنة (مثل، بينكر وبلوم ١٩٩٠) لمحاولة إظهار اللغة - خصوصاً في شكل النظام الحاسوبي الأساسي الذي يربط الأصوات بالمعنى لينتج لانهائية متفردة من العبارات الجملية - نتاج نوع من الانتقاء الطبيعي الذي يتعقب فرص تكاثرية متزايدة تقدم لهؤلاء الذين (حسب رواية بينكر وبلوم) يشكّلون نواقل أفضل. تشومسكي لا يشك بأن اللغة تطورت في شكل ما : أصلها وأساسها بيولوجي وتظهر في الجنس البشري. لكن الانتقاء للتواصل، الانتقاء الوظيفي أو غيره وحتى الانتقاء، فترة، لا تنهك الميدان. مجارة بينكر وبلوم، هناك بدائل.

المشكلة الأولى مع محاولة إظهار أن اللغة تنتقى بفرصة توالدية هي أن البشر كجنس كانوا ثابتين نسبياً لزمن طويل - ربما ١٠٠ ألف أو ٢٠٠ ألف سنة. لهذا اللغة في شكل نظام حاسوبي أساسي يبدو فريداً لنا، انه ظهر في مكان ما بين ١٠٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف سنة مضت. (التخمين الحالي الأفضل ٦٠ ألف سنة تقريباً حين بدأت الهجرة من أفريقيا). لكن من المستحيل إيجاد دليل في الظواهر الملحوظة للانبثاق الانتقائي لمثل هذا النظام. ربما سنحدد في يوم ما مورث(ات) النظام الحاسوبي الذي أمدنا بنحو لغاتنا؛ ربما بفحص الآثار نستطيع القول متى أدخل هذا المورث لأول مرة. لكن لا شيء سيخبرنا لماذا وكيف تتطور. التخمين حول النظام الحاسوبي للانتقاء الوظيفي اللغوي (النحو) يبدو فارغاً.

لكن ذلك لا يحتاج إلى أن يقال. لشيء واحد، في الوقت الذي يبدو فيه البحث عن سجل تاريخي بلا أي أمل، نستطيع المقارنة. هاوسر، تشومسكي وفيتش فعلوا ذلك في مقالتهم في العام (٢٠٠٢). لا توفر المقارنة مساعدة فورية لقضية بينكر - بلوم في الانتقاء من أجل التواصل، ومع ذلك: نظام اللغة الحاسوبي الأساسي يمكن أن ينتج لانهائية المتفردة من العناصر من أي نوع. مثلاً، ليس هناك جنس آخر يصنف بشكل اعتباطي عدداً كبيراً من العناصر في مجموعة في إقصائها. لكن إننا لم ننظر بعيداً بما يكفي. أغلب الدراسات المقارنة تركز على أنظمة التواصل لدى الإنسان والحيوان؛ ربما النظام الحاسوبي وجد في مكان آخر. في ختام مناقشتهم، تشومسكي وزميليه المؤلفين اقترحوا النظر إلى أنواع أخرى من الأنظمة: ابحث عن أنظمة غير تواصلية تعتمد على إجراء حاسوبي متكرر راجع يوفر لانهائية متفردة. ربما قد تكون موجودة في الأنظمة الملاحية أو في تلك التي «تعرب» العلاقات الاجتماعية. إن كان هناك مثل ذلك النظام، مماثله أو نظيره في الجنس البشري المتطور - يجب أن يكون نظاماً اختيارياً مكيفاً ليخدم وظيفة أخرى - من أجل اللغة. الانتقاء من أجل التواصل سيفشل لكن ربما ستُنقذ مظاهر من العلة الانتقائية. إنه مشروع جدير بالمحاولة.

في عمله الخاص به، تشومسكي اقترح أن نستمر في النظر إلى الأبعد. أشار داروين إلى أن الانتقاء جزء فقط من التطور. وهناك أعراف غير انتقائية من التطور البيولوجي (وسبيشيشن). إحدى تلك البيئات التي وجدت في اقتراح ستيفن جاي غولد وريتشار ليونتين (١٩٧٩) فيما يتعلق (بسبندل) - نتائج تركيبية لأنظمة أخرى ربما تكون منتقاة. بيئة أخرى متعلقة بالموضوع ربما، تعود إلى غوته واكتشافه لل - اورفورم من أجل إنشاء مورفولوجي. غوته ظنّ أنه اكتشف صيغة تتنبأ بكل الأشكال البيولوجية التي تأخذها البلانتس. إن كان هناك صيغة

كهـذه، فهـي تـشير إلى وجـود عامـل فيزيولـوجي يكمـن في إنـشاء مورفوجينـسيس يمنح أشكال منشأة مختلفة جداً بالمظهر و«أجناس»، معطـاة في شـروط «مـدخلات» مختلفـة قلـيلاً. الـصيغة والـشروط الفيزيائية المختلفة، وليس الانتقاء، تعتبر مسؤولة عن الاختلافات. تلك البيئة قدمت في القرن التاسع عشر من قبل أفراد كثيرين في أوروبا، في القـرن العـشرين، ظهـرت نـسخ بأشـكال رياضـية في عمـل (دي اركـي ثومبـسون) (١٩١٧) والآن تيرنينـغ (١٩٥٢). كـثيرون تـابعوا اقتراحـاتهم، هناك علم متنامي رياضي في المورفوجينسيس.

يشير تشومسكي أحياناً إلى أن تطور عضو اللغة ربما يفسر كنتيجة رياضية لنوع معقد من البيولوجيا العقلية التي يمتلكها البشر. حتى الانتقـاء عليـه أن يعمـل ضـمن «القنـوات» الـتي توفرهـا العمليـات الفيزيولوجية، أخيراً؛ ومقدرتنا اللغوية تتظاهر بأنها كاملة كحل في ربط الأصـوات بالمعـاني نتيجـة الـسمكرة الانتقائيـة. ربمـا يظهـر النظـام التعدادي المبني في لغتنا «المتوقع حدوثه» في تلك العمليات الفيزيولوجية والتراكيـب بنفـسه حـين تحـل محلـه أنظمـة أخـرى. هـذا يـسمح للنظـام التعـدادي في الحـدوث كرزمـة كاملـة ربمـا قبـل ٦٠ ألـف سـنة. أو ربمـا (اللغـة سـباندل). في كـلا الحـالتين، نحـن هجرنـا الـشكل «التـاريخي» التـدريجي للتطـور والتفريـق البيولـوجي «والـسمكرة» الـتي تعتمـد عليهـا الصورة الانتقائية. نحن قادرون أن نجد الدليل حتى.

الخلاصة، حيث لا يوجد شك بأن اللغة أثبتت كونها مقدرة بيولوجية نافعة منحت الجنس البشري مزايا إدراكية استثنائية، يظل مبرر صغير للشك الآن - وقد لا يكون أبداً - بأن الجوهر التعدادي لعضو اللغة تطور ببطء خلال فترة تاريخية طويلة بفضل تقديم فوائد توالدية لأجيال متتالية من المتواصلين.

عمل الشخص كعالم يجب ألا يربط به أو بآرائه السياسية - ليس هناك أي معنى، مثلاً، عمل عالم الكيمياء الحيوية أن يكون له أي علاقة بآرائها النيوليبرالية. لكن لغويات تشومسكي وآراؤه السياسية تبدو حالات خاصة، خصوصاً حين ينظر إلى عمله الفلسفي والعلمي عن العقل البشري والطبيعة البشرية.

أحد الأسباب للبحث عن روابط وربما حتى درجة من الالتقاء في الميادين الثلاثة لعمل تشومسكي أن كل واحد منها لديه بطريقته الخاصة شيئاً يقوله عن الكائنات البشرية. بشكل أضيق، كل واحد يركز على مزايا مميزة من الكائنات البشرية - عن اللغة، قدرة فريدة بيولوجية؛ على طبيعتنا وعقولنا بقدراتها البيولوجية الفكرية المحدودة التي لا نظير لها للتعامل مع المشاكل العملية والعلمية معاً؛ وعلى تلك الأشكال الفريدة من التنظيم الاجتماعي وأننا نفكر بشكل متنوع كدول أو جماعات أو مجتمعات أو حضارات. ليس هناك أي كائن حي يبتكر لنفسه جماعات منظمة من أفراد ليسوا أقرباء بأشكال تسمح لطرق تعاونية وغير متماسة ومنسقة تلبي الحاجات وتحل المشاكل.

يعتقد البعض - غير التشومسكيين - بوجود رابط بين اللغة والثقافة. فلاسفة متعددون مثل فوكو وبوتنام وعلماء نفس مختلفون مثل بياجيه وترابطيون يتشاركون في الافتراض بأن اللغة تعتمد على المجتمع والثقافة والجماعة... الخ، التي يتربى فيها المرء. لا أقصد بـ«تعتمد» أن الأطفال اليابانيين الذين يولدون في جماعة من اليابانيين يصبحون يتكلمون اليابانية؛ كل واحد يسلم بصحة هذا ويحاول أن يفسر لماذا يحدث. من غير ريب، يعتبرون اللغة تشكلت بواسطة المجتمع أو الجماعة التي ولد فيها المرء. هذه الفكرة تبدو مثل الرأي أن الأطفال يتعلمون لغة جماعتهم بواسطة أسلافهم وكبارهم: الكبار يعرفون

«قواعد الاستخدام الصحيح، الممارسة الصحيحة» (لظروف متعلقة) ويرشدون بتشجيع الاستجابات اللفظية الصحيحة ويثبطون غير الصحيحة. الناس (كجماعة) على فترة تاريخية طويلة، يعتقد أنهم ابتكروا الممارسات التي تحدد مجتمعاً معيناً أو ثقافة... الخ، وبينما كانوا يفعلون هذا (أو بفعل هذا)، اخترعوا اللغة أيضا - شكل آخر من الممارسة حدث ليسمح للأفراد بالتواصل والتنسيق الخ. الإبداع الفردي في استعمال مقدرة المرء العقلية لا يظهر في هذه القصة؛ التركيز على خبرات - ممارسات التجمع، عادات، قواعد لاستخدام الكلمات بشكل صحيح... الخ. إذا حدث وتكلم المدافعون عن هذه الفكرة عن الطبيعة الإنسانية، فهم يجعلونها فكرة تاريخية مشروطة: بما أن ممارسات خبرات الناس تتغير بشكل أساسي، طبائع الناس الاجتماعية والثقافية تتغير. من جانب آخر، كان عليهم أن يقولوا أن الكائنات البشرية بلاستيك (الناس ألواح بيضاء فكرياً وثقافياً) لذلك الطبائع الإنسانية والثقافية، ليست مثل أي جنس بيولوجي آخر - تشكل بواسطة مجتمعاتهم وثقافاتهم... الخ والتي يولدون فيها.

رأي تشومسكي في اللغة والعقل يعكس الأوليات. بالنسبة له، اللغات الإنسانية ليست تعابير عن الثقافة والمجتمع - وإنما نتاج من صنع الإنسان. إنها، بمعنى، تعابير عن جيناتنا: كل اللغات الموجودة الطبيعية والممكنة (وليس الأنظمة الرمزية مثل تلك الموجودة في العلوم) بيولوجيا تُشمل كلها ضمن ما يسميه «القواعد الكونية». إن كان هناك أي تبعية بين لغة ومجتمع أو ثقافة... الخ، فهي لا تستطيع أن تجعل الثقافة شرطا للغة. إذاً أي شيء، الثقافة... الخ يعتمد على اللغة. الإشارة إلى أن الثقافة تعتمد على اللغة في هذا المعنى لا يشكل مطلباً استدلالياً أو عرضياً. عضو اللغة لا يفرز ثقافات أو أنظمة اجتماعية. إنما اللغة توفر مجموعة غنية من التراكيب اللامحدودة تشومسكي يسميها

(منظوريات) والفرصة لتوصيلها وتناقلها لذلك يحتاج البشر إلى تخيل طرق بديلة لحل مشكلة كيف سيعيشون معاً لمصلحة الجميع أو للتناقش والوصول إلى اتفاق على الخيارات وما شابه. بالتالي، اللغة ومصادرنا المعرفية الإدراكية لكن اللغة بشكل خاص، يجب أن تكون جاهزة وحاضرة قبل تشكيل المفاهيم الملفوظة والفهم، نقاش أقل بكثير، يمكن أن يحدث - مسألة أخرى. فضول على مقاربة - الثقافة الأولى - يمكن أن ينظر للإبداع الفردي الآن كمستفيد من المدى غير المحدود للنتاج اللغوي القادرة عليه أنظمتنا نظرياً.

لنرى لماذا يجب أن تكون للغة وظيفة مركزية في فهم كيف نخلق تجمعاتنا وثقافاتنا - وأساليبنا الفردية المعرفية والتعبيرية - من المهم أن نتذكر أن البشر هم الجنس الوحيد الذي يملك لغة. أجناس كثيرة أخرى تملك أنظمة تواصل. والبعض الآخر لديه أنظمة «الأداء» المستخدمة باللغة البشرية: إدراك سماعي وإنتاج (من أجل الكلام)، إدراك بصري ومظاهر من الصياغة الملفوظة لتطوير مجموعة كامنة متفردة غير محدودة، زائد مظاهر من تلك الموارد التي يسميها تشومسكي «مفاهيمية ومتعمدة» - هذه الموارد غير اللغوية التي يمكن أن تجلب لتؤثر على الظروف لتمنح أشكالاً متنوعة من السلوك الذكي. لكن ليس هناك جنس آخر يملك القدرة على تطوير مجموعة متفردة (منفصلة) كامنة لامحدودة من (المردودات) النتاجات العقلية في شكل عبارات أو جمل تربط الأشكال المرتبة المدركة إن كان صوتاً أو إشارة مع المواد المفاهيمية (هاوسر وتشومسكي وفيتش ٢٠٠٢). أي لا جنس آخر يستطيع أن ينتج - وقتما يشاء كما هو واضح - مجوعات لا تحصى من الجمل والعبارات. بسبب الوظيفة المركزية الواضحة للغة في الفكر والفعل الإنساني، قدراتنا العقلية المميزة - وجدت في حل المشاكل العملية والنظرية - ربما يعود سببها بأبعاد كبيرة إلى اللغة. وبهذه

القدرات، نستطيع تطوير تنظيمات اجتماعية: نستطيع أن نخطط وننظم ونقرر وأن نتعاون وننشئ مؤسسات. أصبح من المقبول تماماً أن الثقافة وأشكالاً أخرى متنوعة من التنظيم الاجتماعي تعتمد على اللغة وليس العكس. لهذا نحن نملك رابطاً واحداً بين الميادين التي يعمل عليها تشومسكي: علم اللغة قد يوفر بسهولة المفتاح لفهم (ميك سينس) ما هو مميز لعقولنا وطبائعنا، لماذا نحن نملك قدرات عقلية مميزة وبدوره نفهم كيف نستطيع إنشاء أشكال متنوعة من التنظيم الاجتماعي.

نوع آخر من الروابط يعتمد على حقيقة أن رؤى ذات طبيعة إنسانية دائماً خلف محاولات الناس لتبرير مبادئهم السياسية والأخلاقية. في خلفية كل سياسي وأخلاقي (ازم) (يشمل تلك الأشكال غير المبوبة من مؤسسة بلوتوقراطية - اوليغاركية تسمى «الليبرالية الجديدة» و«المحافظية الجديدة») يجد المرء افتراضات حول الطبيعة الإنسانية - حول ماذا تكون الكائنات البشرية وما هي قادرة عليه وغير قادرة. هذه الرؤى للطبيعة البشرية تلعب دوراً تبريرياً بشكل نموذجي. «تلك نظرة سخيفة للديمقراطية»، قد يقول أحدهم عن الشكل التشاركي التام الذي يفضله تشومسكي، «الناس (من طبيعتهم) لا يملكون الاهتمام الكافي أو الذكاء أو المعرفة أو الوقت للتشارك بشكل كامل. يجب أن نعطي طبقة إدارية نخبوية السلطة لصنع القرارات وتسيير الاقتصاد والحكومة والمحاكم...» قد يقول آخر: «الناس عدوانيون بطبيعتهم وطماعون. شكل جيد من الحكومة يجب أن يملك سلطة كاملة لتقييد مرانهم غير الملجوم (الحالة الهوبزية من الطبيعة)؛ نحن نحتاج إلى حكومة استبدادية لتوفر شكلاً من الإنقاذ».

بينما تبرير هذا النوع شائع، قلة من هؤلاء الذين يوظفونه يهتمون ليوسعوا نظرتهم للطبيعة الإنسانية. ويجد المرء أن الروابط بين درجة من النطق مهما كانت وبين المزاعم الأخلاقية والسياسية والدينية التي

يُفترض بها أن تبرر عبارة عن روابط ضبابية. بالإضافة، هناك جهد قليل إن وجد لإظهار رؤية المرء للطبيعة الإنسانية نفسها مبررة بمعايير التحقيق التجريبي. علم عن الطبيعة الإنسانية على أساس بيولوجي سيتفادى هذه المشاكل. الاستغاثات بالأرباب والوحي، أو لما يبدو واضحاً لجماعة أو أخرى، هي دائماً تقريباً جهود نفعية تكشف رغبة إلى مكان أو تحافظ على نفس المرء أو جماعته في مركز قوة أو سلطة. نحتاج إلى رؤية موضوعية مفصلة للطبيعة الإنسانية، وتحقيق علمي يستطيع أن يوفر ذلك. وحده يستطيع أن يقول ما هو مميز عن طبائعنا - مقارنة بتلك من أجناس أخرى متنوعة من القردة.

طريقة معقولة للتركيز على هكذا تحقيق سيكون بالبحث عن مظاهر واضحة للعقل البشري - عن قدرات أو أشكال من التنظيم العقلي تملكها الكائنات البشرية ولا تملكها الأجناس الأخرى. المقدرة اللغوية، يوضح هي هكذا، . علم لغة وما توفره اللغة يجب أن يكون له دور مهم في هكذا علم. ليس أن اللغة تبدو فريدة لدى البشر وإنما تبدو أنها تساهم في شكل فريد من التنظيم العقلي. عضو المقدرة اللغوية البيولوجي الفريد أشبه بنظام إدراكي مركزي، يسمح لنا بترتيب وتنسيق المواد التي تقدمها الأنظمة الإدراكية الأخرى بطرق تعجز عن تدبره المخلوقات الأخرى. وطبعاً، هو يوفر أدوات مفاهيمية تسمح لنا في التكلم بأي شيء وفي أي وقت. بهذه الطرق أو غيرها، يمكننا «حل المشاكل» بطريق منوعة واسعة. هو تقريباً كما لو أن اللغة تسمح لعقولنا أن تكون «أدوات كونية»، حتى في حالتها غير المكتملة، تمثل بداية جيدة لعلم العقل البشري وبالتالي الطبيعة البشرية.

بينما علم الطبيعة البشرية لا يزال في مراحله الأولى، نستطيع استخدام ما لدينا الآن للبدء في التفكير كيف سنبتدع مجتمعاً جيداً. لا نستطيع الانتقال مباشرة من علم الأحياء - بالتحديد، علم أحياء العقل

البشري وما يقدمه لنا (تلك التي تجعلنا مميزين بطرق نعتبرها ونحترمها بشكل واضح) - إلى صورة للمثالي. يجب البدأ بتقرير ماذا يجب على المجتمع المثالي أن ينجز - ماذا يجب أن يكون دوره. لأن المنظمات الاجتماعية هي مؤسسات من صنع البشر والجيد منها يجب أن تنجز دورها جيداً. اقتراح معقول هو أن وظيفة المجتمع البشري ليس تلبية حاجات البقاء فقط وإنما تلك التي هي خصائص مميزة لأنواع المخلوقات التي نحن نكونها. سم هذه الخصائص حاجات إنسانية «حاجات إنسانية أساسية مميزة». الآن ماذا يخبرنا علم العقل عن اللغة وبقية العقل، وعن كيف يستخدم الناس هذه الأدوات الإدراكية، تستطيع الدخول في اللعبة. لنوجز، لأننا نمتلك اللغة واللغة تبدو المفتاح لقدراتنا العقلية الاستثنائية، نحن نبدو الوحيدين المصممين عملياً لنكون مخلوقات خلاقة ومبدعة. لغاتنا توفر لنا مدىً لامحدود من «المناظير» (تشومسكي ٢٠٠) وهذه يمكن أن تستخدم لتخدم كل أنواع الأغراض، بما فيها تلك التي تخصّ الفن والعمل. يلعب المدى اللامحدود للغة دوراً في كل شؤوننا عملياً - ليس في أفكارنا وجهودنا لفهم الآخرين فقط بل في وظائفنا وواجباتنا اليومية، حتى خنق الكلب (بوت اوت). شكل مثالي من التنظيم الاجتماعي يجب إذاً أن يعطي الأفراد فرصة فسيحة لممارسة قدرتهم الإبداعية. هذا لا يعني أننا يجب أن نصبح كلنا فنانين ورسامين أو مؤلفين موسيقيين. قد يعني أننا إن كدحنا مع الآخرين في مصنع، نملك حرية كافية وفرصة للمساهمة الكاملة بالقرارات التي تهمنا، وأن نحدث التغيير وأن نسيطر على الظروف التي نعمل في ظلها وإلا فيعني القيام بدور حضارة ميكانيكية، نحن لا نقوم بالمهمة بشكل جيد فقط وباهتمام من أجل هؤلاء الذين سيستغلون ما نفعله وإنما مع شكل من البراعة الفنية.

مَن يمتلك العالم

يكشف هذا الكتاب بشكل جلي كيف تشكلت الامبراطورية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية وكيف تحارب وتسد الديمقراطية وتدعم الدكتاتوريات بشكل ممنهج والخوف الكبير لدى أمريكا والغرب هو فيروس الوطنية ليس في الشرق الأوسط فقط بل في كل مكان في العالم لأن الأنظمة الوطنية قد تسلك ممارسات غير شرعية للسيادة الدولية وتنتهك مبادئ المنطقة العظمى.

كان تشومسكي ناقداً عنيفاً للسياسة الخارجية الأمريكية منذ بداية حرب فيتنام، لأنه يعتقد أن التأثير الهائل للتدخل الصريح والخفي في شؤون السكان المحليين لم يجد الاهتمام الذي يستحقه..

ما يجعل تشومسكي فريداً في ذلك نقده للنظام الاقتصادي الرأسمالي وانطلاقه من المفكرين الليبراليين الكلاسيكيين في عصر التنوير فأبطاله ليسوا لينين وماركس وإنما آدم سميث وفيلهيلم فون همبدولت فقد حاول أن يثبت أن السوق الحر التي تخيلها هؤلاء المفكرون لم يتحقق أبداً في العالم وبدلاً منه حصلنا على تواطؤ الدولة مع المصالح الخاصة وكرر إضافة إلى ذلك التأكيد بأن الهجمات على الديمقراطية وعلى السوق من قبل الشركات المتعددة الجنسية الكبيرة تحدث معاً وتسفي الحقيقة، كل أدبيات التدخل الإنساني وحق الحماية، المكتوبة والشفوية عملياً تختفي تحت هذا الاختبار البسيط والمناسب. وهي على العكس لا تناقش الدوافع الحقيقية في الواقع وعلى المرء أن يطّلع على الوثائق والسجلات التاريخية للكشف عنها. ما هي إذن دوافع الولايات المتحدة؟ في المستوى العام، يظهر الدليل بأنها لم تتبدل منذ أن تولت الأمر دراسات التخطيط المتقدم أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد سلم مخططو زمن الحرب بديهياً بأن الولايات المتحدة ستظهر من الحرب في موقع من الهيمنة الساحقة وطالبوا بتأسيس أجندة كبرى تحافظ فيها الولايات المتحدة على «قدرة لا خلاف فيها» مع«تفوق عسكري واقتصادي» وبنفس الوقت ضمان «تقييد أي ممارسة للسيادة» من قبل الدول التي قد تتدخل في خططها الكونية. شملت الأجندة الكبرى نصف الكرة الأرضية الغربي والشرق الأقصى والإمبراطورية البريطانية (التي تشمل احتياطات الطاقة في الشرق الأوسط) وأكبر قسم ممكن من اوراسيا، على الأقل مركزها الصناعي والتجاري في أوروبا الغربية. من الواضح تماماً من السجل التاريخي أن «الرئيس روزفلت كان يهدف إلى سيطرة الولايات المتحدة على عالم ما بعد الحرب» كما قال المؤرخ الدبلوماسي البريطاني المحترم (جيفري ورنر) في تقييمه الدقيق. الأهم أن خطط زمن الحرب الحذرة نفذت حالاً كما قرأنا في الوثائق السرية للسنوات اللاحقة ورأيناها على الأرض وفي الواقع. طبعاً تبدلت الظروف وكذلك التكتيك لكن المبادئ الأساسية ثابتة تماماً حتى الوقت الحاضر الذي يشمل الربيع العربي.


9 789933 509385



للدراسات والنشر والتوزيع